











# إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي  
وفلسفته في الإحياء  
بمقدم

الدكتور بدوي طنبانة  
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم  
بجامعة القاهرة

المجلد الرابع

دار الإحياء للكتاب العربي  
ميسى البابي الحلبي وشركاه

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »  
(قرآن كريم)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### (كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربيع النجيات من كتب إحياء غاوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدر كل خطاب . وبمحمده يتنعم أهل النعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب . وضرب بينهم وبين السمداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه ربّ الأرباب ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونعزج الخوف برجائنا من جمل لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تقذفنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . ونمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام العيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام للريدين ، ومفتاح استقامة السائرين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرين ، ولأئينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجترم ، فهى شفتة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن الترفع إليه في كلا طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ الندم ، وتقدم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذ قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لحض الخير دأب الملائكة للقربين ، والتجرد للشر دون التلاقي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج في طينة الانسان شائبتان ، واصطبج فيه سجتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الانسان ، وللصبر على الطينان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لحض الخير فخراج عن حيز الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم محبنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين

(كتاب التوبة)

[الباب التاسع]

والأربعون في استقبال

النهار والأدب فيه

والعمل

قال الله تعالى - وأتم

الصلاة طرفي النهار -

أجمع للفسرون على

أن أحد الطرفين

أراد به الفجر وأمر

بصلاة الفجر واختلفوا

في الطرف الآخر قال

قوم أراد به المغرب وقال

آخرون صلاة العشاء

وقال قوم صلاة الفجر

والظهر طرف وصلاة

المغرب طرف

وزلفا من الليل صلاة

العشاء ثم إن الله تعالى

أخبر عن عظيم بركة

الصلاة وشرف فائدتها

ونعمرها وقال - إن

الحسنات يذهب

نار الندم أو نار جهنم ، فلاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خباثات الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، واللبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطراب . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا للموقع وجب تقديمها في صدر ربيع النجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمراتها والآفات المانعة منها والأدوية للبسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من اللظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة . الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم للقصور بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

#### ( بيان حقيقة التوبة وحدها )

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاء اطراد سنة الله في الملك والمملكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة ييقن غالب على قلبه نار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوه تألم فان كان قوائمه بفعله تأسف على الفعل المفقوت فيسمى تألمه بسبب فعله للمفقوت لمحبوبه ندماً فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعله له تعلق بالحال وبالماضى والاستقبال أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفقوت للمحسوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قليلاً للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخبرات وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب محموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يصير باسراق نور الايمان أنه صار محجوباً عن محبوه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه باقتشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد للتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضى ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والقدمية والترك كالثمرة والتابع للتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يخلو الندم عن علم أو جبه وأمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفاً بطرفه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فان هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات أى الصلوات  
الحسن يندسبن  
الخطيئات ، وروى  
أن أبا اليسر كتب  
ابن عمرو الأنصاري  
كان يبيع التمر فأنت  
امرأة تبتاع تمرًا فقال  
لها إن هذا التمر ليس  
يجيد وفي البيت أجود  
منه فهل لك فيه رغبة  
قالت نعم فذهب بها  
إلى بيته فضمها إلى  
نفسه وقبلها فقالت له  
اتق الله فتركها وندم  
ثم أتى النبي عليه  
السلام وقال يا رسول  
الله ما تقول في رجل  
راود امرأة عن نفسها  
ولم يبق شيء مما يفعل  
الرجال بالنساء إلا  
ركبه غير أنه لم يجامعها  
قال عمر بن الخطاب

في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات للذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه للعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بمخالفات الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

( بيان وجوب التوبة وفضلها )

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار <sup>(١)</sup> والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهتدي إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون بهذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلك طريق معوضة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يجترئ بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهتدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو صفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجه علينا غيرنا أو لم يوجهه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لاحالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار القراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والا كباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القاب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع للحباب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن للعاني الثلاثة ضرورة في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر المزني يأبىها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر يأبىها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال أنتظر أمر ربي وحضرت صلاة العصر وصلى النبي عليه الصلاة والسلام العصر فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أين أبو اليسر فقال هاأنذا يا رسول الله قال شهدت معنا هذه الصلاة قال نعم قال اذهب فانها كفارة لما عملت فقال عمر يا رسول الله هذا له خاصة أولنا عامة ، فقال بل للناس عامة فيستعد العبد لصلاة القسجر باستكمال الطهارة قبل طلوع

بحال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول الساف الصالحين  
 قد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم  
 وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً - الآية ومعنى النصوح الخالص لله  
 تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب  
 التوابين ويحب المتطهرين - وقال عليه السلام «التائب جيب الله والتائب من الذنب كمن  
 لا ذنب له» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل  
 في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت  
 راحلته فطلبها حتى إذا اشتدت عليه الحر والعطش أوامشاه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه  
 فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لم يموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله  
 تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» (٢) وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه  
 إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم  
 عليه السلام هنأته لللائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرأت عينك  
 بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي فأوحى  
 الله إليه يا آدم ورثت ذنوبك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيتك كما لبيتك ومن  
 سألني للغفرة لم أجعل عليه لأنني قريب مجيب يا آدم وأحضر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين  
 ودعائهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه  
 العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن  
 قد تدهش الغفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي  
 في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك  
 في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي  
 فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لاحالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع  
 في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب .  
 فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله هيل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم  
 تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلق العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل  
 والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وقضاه - والله خلقكم وما تعملون - وهذا هو الحق  
 عند ذوى الأبصار وماسوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم  
 وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضا من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب جيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود  
 بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب  
 الثواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد في زوائد  
 للسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي إن الله يحب العبد المؤمن للفتن التواب (٢) حديث  
 الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من  
 حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيد  
 وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث  
 أبي هريرة مختصراً .

الفجر ويستقبل الفجر  
 بتجديد الشهادة كما  
 ذكرنا في أول الدليل ثم  
 يؤذن إن لم يكن أجاب  
 للؤذن ثم يصلي ركعتي  
 الفجر يقرأ في الأولى  
 بعد الفاتحة قل يا أيها  
 الكافرون وفي الثانية  
 قل هو الله أحد وإن  
 أراد قرأ في الأولى  
 - قولوا آمنا بالله  
 وما أنزل - الآية في  
 سورة البقرة وفي  
 الأخرى - ربنا آتنا  
 بما أنزلت واتبعنا  
 الرسول - ثم يستغفر  
 الله ويسبح الله تعالى  
 بما يتيسر له من العدد  
 وإن اقتصر على كلمة  
 أستغفر الله لذنبي  
 سبحانه الله بحمد ربي  
 آتى بالمقصود من

في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الحواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تتجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزم الارادة بعد تردد الحواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الليل ابتعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا تخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا لجسم حي عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث للترتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كليج البصر ترتيبا كليلا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعدها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء السكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كليج بالبصر - وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والعرفة فاذا ظهرت من باطن للكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب ولللكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت وزميت وكتبت ونودي من وراء حجاب الغيب وسراقات لللكوت وما زميت إذ زميت ولكن الله رمى وما قتلت إذ قتلت ولكن قاتلهم يعذبهم الله بأيديكم وعند هذا تحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب ولللكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجهه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدركوا واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحيط علمه بجوانبه وتعام علمه ينال باشراف النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

التسبيح والاستغفار.  
ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعبي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائي وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتصمني بها من كل سوء اللهم أعطني إيمانا صادقا وقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسبات سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفة باللمس الذي تندر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل إن الفيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلط الاسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجهلهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما يختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم الكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقفاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخللة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشملها .

#### ( بيان أن وجوب التوبة على الفور )

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور وللنقص عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم الكاشفات التي لا تتعلق بعمل بل هي من علوم العمالة وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع النقص عن عهده ما لم يصير باعثاً عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (١) وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم الكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجبا للموت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلان تناولوه فاذا تناولوه يقال تناولوه وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناولوه أصلاً فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمادة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إمادة الأذى عن البشرية بأن يكون مقصوص الشارب مقالوم الأظفار نقي البشرة عن الحبس حتى يتميز عن البهائم للرسالة للوثة بأروائها المستكرهة الصور بطول خالها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالإيمان كالإنسان

(١) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والنصر على الأعداء  
ومرافقة الأنبياء اللهم  
إني آتزل بك حاجتي  
وان قصر رأيي وضعف  
عملي وافقرت إلى  
رحمتك وأسألك  
يا قاضي الأمور ويا شافي  
الصدور كما تجبر بين  
البحور أن تجبرني من  
عذاب السعير ومن  
دعوة الثبور ومن فتنة  
القبور اللهم ما قصر  
عنه رأيي وضعف فيه  
عملي ولم تبله نيتي  
وأمنيتي من خير  
وعده أحد من  
عبادك أو خير أنت  
معه أحد من خلقك  
فأنا راغب إليك فيه  
وأسألك إياه يا رب  
العالمين . اللهم اجعلنا  
هادين مهدين غير

وقد شهادة التوحيد بوجد البطلان بالكلية كلفد الروح والذي ليس له الإشهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فزاياله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي بعدها وتقويها فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك اللوت ووروده فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك اللوت وخيف عليه سوء الخاتمة لاما يسبق بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة صنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الحريف فتند ذلك تنقطع أصولك وتنتثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلي التيار أفرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي اللوت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقول فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح النهمك في الشهوات الضرة إذا كان لا يخاف اللوت بسبب محنته وأن اللوت غالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف للرض ثم إذا مرض خاف اللوت وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد الزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك للعاصي فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من للأ كولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتتناول موموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي قواها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تنصرم أضعاف أعمار الدنيادون عشر عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبتة فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل موموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصيح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يغرنك لفظ الإيمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالجواب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيوجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

صالحين ولا مضلين حربا  
لأعدائك وسلا  
لأوليائك نخب بجبك  
الناس ونعادي  
بعداوتك من خالك  
من خلقك اللهم هذا  
الدعاء مني ومنك  
الاجابة وهذا الجهد  
وعليك التكلان إن الله  
وإننا إليه راجعون ولا  
حول ولا قوة إلا بالله  
العلي العظيم ذي  
الجلل الشديد والأمر  
الرشيد أسألك الأمن  
يوم الوعيد والجنة  
يوم الخلود مع المقربين  
الشهود والركع السجود  
والموفين بالعهود إنك  
رحيم ودود وأنت تفعل  
ما تريد سبحانه من  
تعتطف بالعر وقال به  
سبحان من لبس المجد



التابع وعلوم العامة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فان هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت . وثيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

( بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبته )

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق للبعد عن الله القرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تسكن غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغلب وسائر الصفات للذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود اللائكة فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما إلا آخر لأنهما ضدان فالظناردين بينهما كالظناردين بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزمع الآخر بالضرورة وإذا كانت الشهوات تسكن في الصبا والشباب قبل كمال العقل قد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه التزويج عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سملت مملكة القلب للشيطان وأجز العين موعده حيث قال - لأحتسكن ذريته لإقتيلا - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيه الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة اللائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها القدر وحدها سجية نفس كل فانية هند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم يتبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبدلها فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فإذا بلغ مسلماته لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام فانه لا يخفى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والتفكك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكرهون إذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كالم يستغنى آدم عن خلقه الولد لا يتسع لما لم يتسع له خلقه الوالد أصلا ، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالنوب بالقلب فان خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الحواطر للفرقة للذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون

وتكرم بسبحان الذي  
لا ينبغي التسبيح إلا له  
سبحان ذي الفضل  
والتم سبحان ذي الجود  
والكرم سبحان الذي  
أحصى كل شيء بعلمه  
اللهم اجعل لي نورا في  
قلبي ونورا في قبري  
ونورا في سمعي ونورا  
في بصري ونورا في  
شعري ونورا في بشري  
ونورا في لحي ونورا  
في دمي ونورا في عظامي  
ونورا من بين يدي  
ونورا من خلفي ونورا  
عن يميني ونورا عن  
شمالي ونورا من فوق  
ونورا من تحتي اللهم  
زدني نورا وأعطني  
نورا واجعل لي نورا  
ولهذا الدعاء أثر  
كثير وما رأيت

في المقادير فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (١) الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من المغموم والحواطر قص وأن الكمال في الخلوة عنه وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أصباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال . فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ماضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى - كلابل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يمكن في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من نحو تلك الأريان التي انطبع في القلب كما لا يمكن في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان وكما يرفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتمحي ظلمة للخصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (٢) فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاءه وجلأؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصفيل الأول ففيه بطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصلابة عن المرأة كشغله في عمل أصل المرأة فهذه أشغال طويلة لا تقطع أصلاً وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته اتركوا للمعاش ورفضوا الدنيا بالسكينة ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالسكينة فانه مهمل ما فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحزنة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين وللقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد أن لا يتوصل إليها إلا بها ، فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً

أحدا حافظ عليه  
إلا وعنده خير ظاهر  
وبركة وهومن وصية  
الصادقين بعضهم بعضا  
يحفظه والمحافظة عليه  
منقول عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أنه  
كان يقرؤه بين الفريضة  
والسنة من صلاة  
الفجر ثم يقصد السجدة  
للجماعة في الجماعة  
ويقول عند خروجه  
من منزله : - وقل رب  
أدخلني مدخل صدق  
وأخرجني مخرج صدق  
واجعل لي من لدنك  
سلطاناً نصيراً - ويقول  
في الطريق : اللهم إني  
أسألك بحق السائلين  
عليك وبحق ممشاي  
هذا إليك لم أخرج  
أشراً ولا بطراً ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغرلزي  
إلا أنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله  
في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار  
والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره  
وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

ينفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون  
كلحم على وضم وكفرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات  
الداخلية في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة  
من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنهي الحياة وفيه سعي الأنبياء  
والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم للملاذ  
الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال  
أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم  
لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رمية للحجر  
توبة عن ذلك التمتع ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى  
واجبا في فتاوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم  
في صلاته حتى نزع (١) وشغله شرك نعله الذي جده حتى أعاد الشرك الخلق (٢) لم يعلم أن ذلك  
ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم يتركه وهل كان ذلك إلا لأنه  
راه مؤثرا في قلبه أرا يمنعه عن بلوغ اللقائم المحمود الذي قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضي الله  
عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه  
ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراج  
فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره  
عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون فتأمل  
أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياكم مرة  
واحدة أن تغرك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يغرك بالله الغرور ، فهذه أسرار من  
استشقى مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل  
نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان  
الداراني حيث قال لو لم ييك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت مامضى منه في غير الطاعة لكان  
خليقا أن يحزنه ذلك إلى اللغات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل مامضى من جهله وإعسا  
قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لاحتالة وإن ضاعت  
منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة  
لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأي جوهرة  
أفقس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرقتها إلى معصية فقد هلك  
هلاكا قاحشا ، فان كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيتك بجهلك أعظم من كل  
مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف للصاب بها أنه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين  
معرفة الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته  
وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك للوت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه  
أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرة  
مالو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعقب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث  
نزع الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا سمعة خرجت انشاء  
سخطك وإبتغاء  
مرضاتك أسألك أن  
تقذفني من النار  
وأن تغفر لي ذنوبي  
إنه لا يغفر الذنوب إلا  
أنت. وروى أبو سعيد  
الخدري أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال  
« من قال ذلك إذا  
خرج إلى الصلاة وكل  
الله به سبعين ألف  
ملك يستغفرون له  
وأقبل الله تعالى عليه  
بوجهه الكريم حتى  
يقضى صلاته » وإذا  
دخل المسجد أودخل  
سجاده للصلاة يقول:  
بسم الله والحمد لله  
والصلاة والسلام على  
رسول الله اللهم اغفر  
لي ذنوبي واقتح لي

ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأزود صالحا لنفسى فيقول فبيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول فبيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيترعرع بروحه وتردد ألقاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعباد بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولعل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل الحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن للموت يأتي بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين : أحدهما أن تراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعاً فلا يقبل الحو . الثاني أن يحاجله للرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالحو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية (١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك حياته فأمره خطير . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام : أحدها إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - أو فواجبهدى أو فبعهكم - وبقوله تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

( بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة )

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإمنا فثوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كلاً لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنة يوسخ الثوب وغسله

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجد له أصلاً .

أبواب رحمتك ويقدم  
رجله اليمنى في الدخول  
واليسرى في الخروج  
من المسجد أو السجدة  
فسجدة الصوفي بمنزلة  
البيت والمسجد ثم يصلى  
صلاة الصبح في جماعة  
فاذا سلم يقول : لا إله  
إلا الله وحده لا شريك  
له ، له الملك وله الحمد  
يعبده ويحيى ويميت وهو حي  
لا يموت بيده الخير  
وهو على كل شيء قدير  
لا إله إلا الله وحده  
صدق وعده ونصر  
عبده وأعز جنده  
وهزم الأحزاب وحده  
لا إله إلا الله أهل النعمة  
والفضل والثناء الحسن  
لا إله إلا الله ولا نعبد  
إلا إياه مخلصين له الدين  
ولو كره الكافرون  
وبقرأ هو الله الذي

بالصابون وللئاء الحار ينظفه لاحتالة قاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويذكره ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله - قد أفلح من زكاه - ومن لم يعرف طي سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من للشاهدة بالبر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفاته ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن ينوص الوسخ لطول تراكمه في تجاوزيف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبعا وربنا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يصاد الوصف للتمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق للقليل على الدنيا للعرضين عن الله بالكيفية فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نمضد جناحه بنقل الآيات والأخبار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات - وقال تعالى - غافر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة ليل إلى النهار ولمسئ النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (١) » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم (٢) » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينه تائباً منه فإرا حتى يدخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة (٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة ليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى بلانظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقل ثم تبتتم (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن ومرسلا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه مغفره الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك الشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن  
الرحيم التسعة  
والثمانين اسما إلى  
آخرها فإذا فرغ منها  
يقول : اللهم صل  
على محمد عبدك  
ونبيك ورسولك النبي  
الأحى وعلى آل محمد  
صلاة تكون لهم رضا  
ولحقة أداء وأعطه  
الوسيلة والمقام المحمود  
الذي وعدته واجزه  
عنا ما هو أهله واجزه  
عنا أفضل ما جازيت  
نبياً عن أمته وصل  
على جميع إخوانه من  
النبيين والصديقين  
والشهداء والصالحين .  
اللهم صل على محمد  
في الأولين وصل على  
محمد في الآخرين وصل  
على محمد إلى يوم الدين  
اللهم صل على روح

ويروى « أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يارسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه (١) » ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة مادام الروح فيه (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ (٣) » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أتى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه عحت عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لأن عدت لأعذبتك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصني لأعودن فصصمه الله تعالى وقال بعضهم إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتنى لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيعمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقاً منه قال فيغفر له . ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان فقال له إن الجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يلق فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى - إن ينهوا يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لأحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرق أفئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم النفرة أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في الرآة فرى الشيب في لحيته فساء ذلك فقال إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً أحببتنا فأحببتك وتركنا فتركناك وعصيتنا فأمهلتناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً فجنوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده أصلاً (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد كثرته احتياطاً (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح للحن وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريباً .

محمد في الأرواح وصل  
على جسد محمد  
في الأجساد واجمل  
شرائط صلواتك  
ونواي برركاتك  
ورأفتك ورحمتك  
وتحيتك ورضوانك  
على محمد عبدك  
ونبيك ورسولك اللهم  
أنت السلام ومنك  
السلام وإليك يعود  
السلام فحيناً ربنا  
بالسلام وأدخلنا دار  
السلام تباركت يا ذا  
الجلال والإكرام  
اللهم إني أصبحت  
لا أستطيع دفع ما أكره  
ولا أملك دفع ما أرجو  
وأصبح الأمر بيد  
غيري وأصبحت مرتهناً  
بعملي فلا قسير أقهر  
منى اللهم لا تشمت بي

جنون وتبدوا من غير عي ولا بكم وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولعت قلوبهم في اللسكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعدبوا مرارة الترك للدنيا واستلناوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لاحالة . فان قلت أفتقول ما قلته للعترة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب للماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع للماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب اللوت وليس في شيء من ذلك ما يريد العترة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للعصية والحسنة ماحية للسنة كما خلق للماء مزيلًا للعطش والقدرة متبعة بخلافه لو سبقت به الشئ فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لاحالة . فان قلت فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شك في القبول كشك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل سهل وذلك لشك في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخته وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لاحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

(الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها)

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله للوفيق للصواب رحمته

(بيان أقسام الذنوب بالاضافة إلى صفات العبد)

اعلم أن للانسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوايئه ولكن تنحصر مميزات الذنوب في أربع صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعة وذلك لأن طينة الانسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران في السكنجين آثارا مختلفة . فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب اللذات والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يدركها ذنوبا وهي للهلكات العظيمة التي هي كالأهيات لأكثر العاصي كما استقصيناه في ربيع للهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والنكر وفيه يدخل النفي والتناق والدعوة إلى

عدوى ولائى  
صديق ولا تجعل  
مصديق في ديني ولا  
تجعل الدنيا أكبر همي  
ولا تسلط على من  
لا يرحمي الله هذا  
خلق جديد فافحه  
على بطاعتك واختمه  
لي بخفرك ورضوانك  
وارزقني فيه حسنة  
تقبلها مني وزكها  
وضفعها وما عملت فيه  
من سيئة فاغفر لي إنك  
غفور رحيم ودود  
رضيت بالله ربا  
وبالاسلام ديناً وبمحمد  
صلى الله عليه وسلم نبيا  
اللهم إني أسألك خير  
هذا اليوم وخير  
ما فيه وأعوذ بك من  
شره وشر ما فيه  
وأعوذ بك من شر

البدع والضلال . الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكذب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الخطايا لأجل الشهوات . الرابعة الصفة السبعة ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهميم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويترفع عنها حمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً ثم تلاوها الصفة السبعة ثانياً ثم إذا اجتمعا استعمال العقل في الخداع والسكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنها بهائم تنفجر الذنوب من هذه النابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإظهار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراس وكل متناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهميم أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالغفوة فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد (١)» أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعنى عنها : قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً - وقال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغو - وقال ﷺ «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهما إن اجتنبت الكبائر (٢)» وفي لفظ آخر «كفارات لما بينهن إلا الكبائر» وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص «الكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس (٣)» واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كلية القدر وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها أقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه - فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب السكي

طوارق الليل والنهار  
ومن بفتات الأمور  
وبقاء الأقدار ومن  
شر كل طارق يطرق  
إلا طارقا يطرق منك  
خير يارحم الدنيا  
والآخرة ورحيمهما  
وأعوذ بك أن أزل  
أو أزل أو أضل أو أضل  
أو أظلم أو أظلم أو أجهل  
أو يجهل على عز جارك  
وجل ثناؤك وتقديس  
أسمائك وعظمت  
نعمائك أعوذ بك من  
شر ما يلج في الأرض  
وما يخرج منها وما ينزل  
من السماء وما يهرج فيها  
أعوذ بك من حدة  
الحرص وشدة الطمع  
وسورة الغضب ومنه  
الغفلة وتعاطى الكلفة  
اللهم إني أعوذ من

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيق ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني (٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفرون ما بينهما إن اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس رواه البخاري.



الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهي الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره (١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى للصف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر وللسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا والزنا والوطء والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ماورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع اللبقات قالوا يا رسول الله وما هي؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكر الكبار الإشراف بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس مثل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني حيلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنما هي أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوف على عبد الله بن عمر وأعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضيف وللبراز من حديث ابن عباس باسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الله ومنع الفحل وفيه صالح بن جبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراف بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن طهمة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللاحكام من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث واثلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم يقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن يفتني الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكر ما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تنها رجل ثم نسيها سكنت عليه أبو داود واستغفره البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصفيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الحراساني

مباهاة للكثيرين  
والإصرار على اللين وأن  
أضمر ظالمًا أو أخذ  
مظلوماً وأن أقول في  
العلم بغير علم أو أعمل في  
الدين بغير يقين أعوذ  
بك أن أشرك بك وأنا  
أعلم وأستغفر لك  
لأعلم أعوذ بعفوك  
من عقابك وأعوذ  
برضائك من سخطك  
وأعوذ بك منك  
لأحصى ثناء عليك  
أنت كما أثبتت على  
نفسك اللهم أنت ربي  
لا إله إلا أنت خلقتني  
وأنا عبدك وابن  
عبدك وعلى عهدك  
ووعده ما استطعت  
أعوذ بك من شر  
ما صنعت أبوء بنعمتك  
علي وأبوء بذنبي فاغفر لي

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهي التي يحق بها بطلا أو يطل بها حقا ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم بطلا ولو سوا كامن أراك . ومخيت غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات الحلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما الزنا واللواط . واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وجلة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما وإن يسياه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقه العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استظالة الرجل في عرض أخيه للسلم <sup>(١)</sup> وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر <sup>(٢)</sup> . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة أم لا يصح ما لم يفهم معنى

إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تنكرمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الخنان

والحديث منكسر يعرف به . وأما للموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراف بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشراف بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس والفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله وتقض العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الريح بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من الرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في الرفوع وما ورد في الموقوفات والبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى السبعين أقرب وروى البيهقي أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم <sup>(١)</sup> حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استظالة الرجل في عرض أخيه للسلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عنده من حديثه من أربى الربا استظالة في عرض السلم بغير حق كما تقدم <sup>(٢)</sup> حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبرار بسند صحيح وقال من الموقوفات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الإسناد .

للنار بديع السموات  
والأرض ذوا الجلال  
والأكرام أنت الأحد  
الصمد الذي لم يلد ولم  
يولد ولم يكن له كفوا  
أحد يا حي يا قيوم يا حي  
حين لا حي في ديمومة  
ملكه وقائه يا حي  
حيي للوحي يا حي ميت  
الأحياء ووارث  
الأرض والسماء اللهم  
إني أسألك باسمك  
بسم الله الرحمن الرحيم  
وباسمك الله لا إله إلا  
هو الحي القيوم  
لا تأخذه سنة ولا نوم  
اللهم إني أسألك باسمك  
الأعظم الأجل الأعز  
الأكرم الذي إذا  
دعيت به أجبت وإذا  
سئلت به أعطيت يا نور  
النور يا مبدئ الأمور

الكبيرة والراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام  
أو لا ثم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة  
ولافي الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من اللغات ومامن ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه  
وصغير بالإضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا  
وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله ، نعم للانسان أن يطلق على ما تواعد  
بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق  
على ما أوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ما جعل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على  
ما ورد في نص الكتاب التهي عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيما  
وكبيرة لاحالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضا متفاوت درجاتها فهذه الإطلاقات لا حرج فيها  
وما نقل من ألقاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ،  
نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم -  
وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فان هذا إثبات  
حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استغظامه إياها وإلى ما يعلم  
أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع  
مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن إلا بالسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني  
أردت بالكبائر عشرة أو خمسا ويفصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألقاظ « ثلاث من  
الكبائر (١) » وفي بعضها « سبع من الكبائر (٢) » . ثم ورد « أن السبطين بالسبة الواحدة من  
الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد  
مالم يعدد الشرع وربما قصد الشرع إيهامه ليكون العباد منه على وجل كما أنهم ليلة القدر ليعظم  
جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق .  
وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل  
إلى معرفته . ويؤيدنا أن نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياق  
الحق إلى جواب الله تعالى وسعادة لقائه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته  
وكتبه ورسله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - أي ليكونوا  
عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه  
وربه فهذا هو المقصود الأقصى يبعثه الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله  
عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة (٣) » فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا الحديث  
وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طب في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد  
تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم  
عدهن سعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع اللواتي (٣) حديث الدنيا  
مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ ، رفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لان في مكارم الأخلاق  
من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

والملحق من الدنيا بالآخرة شيان النفوس والأموال فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر  
وبليه ما يسد باب حياة النفوس وبليه ما يسد باب المعاش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ،  
حفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع  
كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها اللئلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد بعثه  
إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بهلاك  
النفوس وإهلاك الأموال فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة  
الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل  
والوسيلة للقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعدة بقدر جهله ويتلو الجهل الذى  
يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيسر من الجهل فمن عرف الله لم يتصور  
أن يكون آمنا ولا أن يكون آسوا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها التماقة بذات الله وصفاته وأفعاله  
وبعضها أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله  
وشرائعه وأوامره ونواهيها ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر  
الكبائر المذكورة فى القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم  
للتوسط طمع فى غير مطمع . الرتبة الثانية : النفوس إذ يبقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة  
بالله فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصد عن المقصود وهذا  
يصد وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه  
الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ويقع فى  
هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالله كور فى قضاء الشهوات  
انقطع النسل ودفع للوجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن  
يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينظم العيش إلا بها بل كيف  
يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإنثى يختص بها عن سائر  
الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح وينبغى أن يكون الزنا  
فى الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب  
ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل وينبغى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة  
داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرة . الرتبة الثالثة : الأموال فانها معاش  
الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاسيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغى أن تحفظ  
لتبقى يبقائها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تعريضها  
فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من  
الكبائر وذلك بأربع طرق : أحسنها الخفية ، وهى السرقة فانه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف  
يتدارك . الثانى أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولي والقيم فانه مؤتمن  
فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف الغصب فانه ظاهر  
يعرف وبخلاف الحيانة فى الوديعة فان للودع خصم فيه ينتصف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة  
الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز  
أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس

يا عالم ما فى الصدور  
يا جميع يا قريب يا محبب  
الدعاء بالظيافا لى شاء  
يارى ووفى يا رحيم يا كبير  
يا عظيم يا الله يا رحمن  
يا ذا الجلال والاكرام  
الم لا اله الا هو الحى  
القيوم وعت الوجوه  
يا لحي القيوم يا لحي  
واله كل شىء الهما  
واحدا لا اله الا انت  
اللهم انى أسألك باسمك  
يا الله الله الله الذى  
لا اله الا هو رب العرش  
العظيم فتعالى الله الملك  
الحق لا اله الا هو رب  
العرش الكريم انت  
الأول والآخر والظاهر  
والباطن وسعت كل  
شىء رحمة وعلما  
كهمص حم عسق  
المرحم يا واحد يا قهار

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما كل الرافليس فيه إلا كل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل العصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل رضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الخيانة والصبر إلى أن أكل دائق بالخيانة أو العصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى كما ذكره أبو طالب الكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لا خير في النفس دون العقل فازالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه محال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرية وتناولها مراتب وأعظمها تناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يبعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويجحد للشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه لا يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فيلحق بالكبائر . فاذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما اتسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بعضه منظون للنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فان قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإيهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإيهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر

ياعزيز يا جبار يا أحد  
يا صمد يا ودود يا غفور  
وهو الله الذي لا إله إلا  
هو عالم الغيب والشهادة  
هو الرحمن الرحيم لا إله  
إلا أنت سبحانك إني  
كنت من الظالمين  
اللهم إني أعوذ باسمك  
اللكون الخزون  
للزل السلام الطهر  
الطاهر القدوس للقدس  
يادهر يادهور ياديهار  
يا أبد يا أزل يا من لم يزل  
ولا يزال ولا يزول  
يا هو لا إله إلا هو يا من  
لا هو إلا هو يا من  
لا يعلم ما هو إلا هو  
يا كان يا كين  
يا روح يا كائن قبل  
كل كون يا كائن بعد  
كل كون يا مكونا

فلا يتجزءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى - إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها يكفر نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للجزء أو كان قادرا ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أصبح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع اللهاى والأوتار، نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فيجاهدها بنفسه بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفة : فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة (١) » قيل ما ترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا أو أمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لاحالة مبهما . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا بمن يجنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرط في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فاعلم أنا لا نخص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع للهاى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أوانى الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعى رضى الله عنه إذا شرب الخنق النبيذ حددته ولم أزد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تهدح في العدالة إلا ما لا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والتفلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على الصلحة وإكرام السلاطين الظلمة وبمصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويمجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المحالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع اللهاى واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والحلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا النهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردة هالا إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها ولو اطلب عليها الأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

( بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا )

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعني بالدنيا حائلتك قبل

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

لكل كون أهيا  
شرا هيا أدوناي  
أصبوت يا مجلى عظامي  
الأمور - فان تولوا  
قل حسبي الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت  
وهو رب العرش  
العظيم - ليس كمثل شيء  
وهو السميع البصير -  
اللهم صل على محمد وعلى  
آل محمد كما صليت  
على إبراهيم وآل  
إبراهيم وبارك على  
محمد وعلى آل محمد كما  
باركت على إبراهيم  
وآل إبراهيم إنك  
حميد مجيد اللهم إني  
أعوذ بك من علم  
لا ينفع وقلب لا يخشع  
ودعاء لا يسمع اللهم إني  
أعوذ بك من فتنة  
الديال وعذاب القبر

ومن فتنة الحيا والمات  
اللهم إني أعوذ بك من  
شر ماعست وشر مالم  
أعلم وأعوذ بك من  
شر سمعي وبصري  
ولساني وقلبي اللهم إني  
أعوذ بك من القسوة  
والغفلة والذل والمسكنة  
وأعوذ بك من الفقر  
والكفر والفسوق  
والشقاق والنفاق وسوء  
الأخلاق وضيق  
الأرزاق والسمة  
والرياء وأعوذ بك من  
الصمم والبكم والجنون  
والجذام والبرص وسائر  
الأسقام ، اللهم إني أعوذ  
بك من زوال نعمتك  
ومن تحويل عافيتك  
ومن جفأة همتك ومن  
جميع سخطك ، اللهم  
إني أسألك الصلاة على

الموت وبالأخرة حالتك بعد الموت فديناك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فانا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» (١) وماسيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير فكذلك ماسيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة قد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصعب الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإعسا نفي بالمثل أداء للنفي في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فال مؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو النع الذي يراد الختم له وليس للأنياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلّفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن للثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من اللثال الذي لا يعقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر اللثال لجعله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعها ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . ومن ههنا زلة من زلة في صفات إلهية حق في الكلام وجعلوه صوتا وحرقا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر اللثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الأحق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا عبيجان الله للموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جئ بكبش هذا هو الوباء الذي في البلد وذيح فقال المبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لأن

- (١) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإعسا يعزى إلى علي بن أبي طالب
- (٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبي سعيد .

للذبح وقع اليأس منه فإن للعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن اللوكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفة بما في اللوح المحفوظ بمثل ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالاضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرًا لأدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل بقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب للؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربح العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزيع الدرجات والدرجات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لاصورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة فتفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألبتة فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسقته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أن إن محض ناعن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم المهلكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم للمعذبين ويغلب بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فإن كان للملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق للملك معاندا له في أصل الدولة ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلع إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك المهلكين إما تحقيقا بحز الرقة أو تسكيلا بالمثل بحسب درجاتهم في المعاندة وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن وأجنات المأوى وأجنات الفردوس والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك المهلكون الآيسون من رحمة الله تفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزيعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة المهلكين ونعني بالمهلكين الآيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تنفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والعرضين التجردين للدنيا المكذبين بالله ورسوله وكتبه فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

محمد وعلى آله وأسألك  
من الحسير كله عاجله  
وآجله ما علمت منه  
ومالم أعلم وأعوذ بك  
من الشر كله عاجله  
وآجله ما علمت منه  
ومالم أعلم وأسألك الجنة  
وما قرب إليها من قول  
وعمل وأعوذ بك من  
النار وما قرب إليها من  
قول وعمل وأسألك  
ما سألك عبدك ونبيك  
محمد صلى الله عليه  
وسلم وأستعينك بما  
استعاذك منه عبدك  
ونبيك محمد صلى الله  
عليه وسلم وأسألك  
ما قضيت لي من أمر أن  
تجعل عاقبته رشدا  
ترحمته يا أرحم  
الراحمين يا حي يا قيوم  
ترحمته أستغث



بالإيمان والتصديق والجاحدون هم للسكران وللكاذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبدأ الآباد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه للرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحدود العين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لثم كأن يعبد لطلب جنته أو لحوف ناره بل العارف يعبد لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والقواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فان نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأئدة ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحق مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفي فؤاد الحب نار جوى أحر نار الحب أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد روي من غلب عليه الوجد ففدا على النار وعلى أصول القصب الجارية للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصفيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار <sup>(١)</sup> » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقه بالإضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خيرا بين ألم الحرمان على السكر والوصولان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلي من ألق سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذينا وذلك لمن استرقت صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألوان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لصاحبه قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسىه وسائر الأعضاء عاله ومملكته والله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير ولذلك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلت صلت لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظريين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تكني إلى قسى  
طرفة عين وأصلح لي  
شأن كله يا نور  
السموات والأرض  
يا جمال السموات  
والأرض يا عماد  
السموات والأرض  
يا بدیع السموات  
والأرض يا ذا الجلال  
والاكرام يا صريح  
للتصريحين يا غوث  
للتغثين يا منتهى  
رغبة الراغبين  
والفرج عن الكرويين  
والروح عن النعمومين  
وعجيب دعوة  
الضطرين وكاشف  
السوء وأرحم الراحمين  
وإله العالمين منزل  
بك كل حاجة يا أرحم  
الراحمين اللهم استر  
عوراتي وآمن روعاتي

الرحمة إلى الحاميين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتهر في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولنعبد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلى من علوم العاملين التي قصدتها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورد لها الرتبة الثانية : رتبة للعذابين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ومن اتبع هواه قد اتخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون - وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط للوصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضى لامحالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا نيقنا أننا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان<sup>(١)</sup> قال الحسن يا ليتني كنت ذلك الرجل - واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر الددد وأن الاختلاف بالشدة لانهائية لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كأن الملك قد يعذب بعض البصريين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقتلها وكثرة السيئات وقتلها . أما شدة العذاب فبشدة قبض السيئات وكثرتها وأما كثرة قبضها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وألقى عثراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي ، اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفي وخذ لي الخير بناصيتك واجعل الإسلام منتهى رضائي ، اللهم إني ضعيف فقسوني اللهم إني ذليل فأعزني ، اللهم إني فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنك تعلم سرى وعلايتي فأقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنوبي ، اللهم إني أسألك إيمانا يثبت قلبي وقيتنا صادقا حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسمل عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك يعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي »<sup>(١)</sup> وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستندة ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار. فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع القرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفات متفرقة لم يصير عليها فيشبه أن يكون عذابه للنار في الحساب فقط فإنه إذا حوسب رجعته حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في اللباز وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرئين ونزوله في جنات عدن أوفى الفردوس الأعلى فكذلك يقبض أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي إيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمعرون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بانسراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم للمقرئين النازلون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللأ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وقدر ماسبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهائية لما ناله فالسالكون سبيل الله لانهائية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيماننا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقرئين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرئين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى القرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لترزله إيمانه فيختم له بسوء الحاقعة لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الحاقعة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يغفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتسكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ومن حيث الشدة بحسب قبض الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل إليه المقلدون في درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ،

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي مسلم من حديث أبي هريرة .

أنه لن يصيبي إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي إذا بالجلال والاكرام اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ومقيل عثره العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أفت الوكيل

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف (١) » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاها عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنائير فأعطاه مائة دينار فإن لم يفهم من الثلث إلا الثلث في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة للوزن والجمل في الكفة الأخرى عشر عشره بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد ثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لما لفته فروحه للسالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسدية وهذا صادق عند من يعرف روح السالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فإن روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لاسبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم القائل القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات (٢) » كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يجزى البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالمين الجهال وغنى قوم افتقر وعزير قوم ذل (٣) » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو للعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل (٤) » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا قرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر (٥) » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلنا ينفك الأولياء عن ضروب

وإليك الصبر يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله مع مع ولا تشبه عليه الأصوات ويا من لا تملطه السائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يتبرم بالخاح الملحين أذقنى برد عقولك وحلاوة رحمتك اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك ما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب - اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيا لا ينفذ وقرعة عين الأبد ومراقبة نبيك محمد وأسألك حبك

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالمين الجهال الحديث ابن عباس في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحتري، واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخارى من حديث ابن مسعود .

من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجبل من الكافرين كما يجب أن يكون للعتاض عن الجبل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من اللبذين للضعيفين. فاذعرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرّ إلهي عرض على السموات والأرض والجيال فأين أن يحملنه وأشفقن منه فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السرّ الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدرّكاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لاهماله نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنعمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فضده أمانة مترجع لاهماله إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إمامظمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير لكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم - فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم وانكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ، فعوذ بالله من الضلال والزول إلى منازل الجهال فهذا حكم اقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغافلين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة فحيث لا يتبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال . ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان»<sup>(١)</sup> وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود وأكثر ما يدخل للموحد في النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها في الأثر إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فحضى من حسناته حتى لا يتبقى له حسنة ، فتقول

(١) حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم .

وحبّ من أحبك  
وحبّ عمل يقرب إلى  
حبك . اللهم بعلبك  
الغيب وقدرتك على  
خلقك أحسن ما كانت  
الحياة خيراً لي وتوفني  
ما كانت الوفاة خيراً لي  
أسألك خشيتك في  
الغيب والشهادة وكلمة  
العدل في الرضا والغضب  
والقصد في النفي والفقر  
ولذة النظر إلى  
وجهك والشوق إلى  
لقاءك وأعوذ بك من  
ضراء مضرة وقتنة  
مضلة . اللهم اقم لي  
من خشيتك مأخول  
به بيني وبين معصيتك  
ومن طاعتك ما يدخني  
جنتك ومن اليقين  
ماتهمون به علينا  
مصائب الدنيا . اللهم  
ارزقنا حزن خوف

للائسكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القضاء فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لأفضل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في العباد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهاى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى الشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء ونموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والقوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعمو والرضا وعمما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر الشبهة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على الطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - وكل ذلك صحيح فليس للانسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من الشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الخلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الخلط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والقوز وهم قوم لم يخدموا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبي سعيد الخدرى مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتالوا في سبيل الله وهم غصاة لأبائهم فنتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن اللدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر يجهل السندى ضعيف ويحيى ابن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

الوعيد وسرور  
رجاء للوعود حتى  
تجد لذة ما نطلب  
وخوف ما منه نهرب  
اللهم ألبس وجوهنا  
منك الحياء وأملأ  
قلوبنا بك فرحا وأسكن  
في قلوبنا من عظمتك  
مهابة وذلك جوارحنا  
لخدمتك واجعلك  
أحب إلينا مما سواك  
واجعلنا أخشى لك ممن  
سواك نسألك تمام  
النعمة بتمام التوبة  
ودوام العافية بدوام  
العصمة وأداء الشكر  
بحسن العبادة اللهم  
إني أسألك بركة الحياة  
وخير الحياة وأعوذ بك  
من شر الحياة وشر  
الوفاة وأسألك خير  
ما بينهما أحيى حياة

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم فهذا مظهر وليس يستيقن والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ويعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عنها لمعات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك (١) فاذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم القربون السابقون فإن القلب وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم القربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر للممكن ذكره مافصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لمبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فأنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا الله للنظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيناتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحزمة وعلى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لمعات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخاري من حديث عمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فأبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسل الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبراني من حديثه نبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريج كنا في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية ، وفيه إلا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبي داود في آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرايت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذراري المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذراري المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالك منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالك قبلك قال في النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جشامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

السعداء حياة من  
تحب بقاءه وتوفى وفاة  
الشهداء وفاة من يحب  
لقاءه ياخير الرازيين  
وأحسن التوابين  
وأحكم الحاكمين  
وأرحم الراحمين ورب  
العالمين ، اللهم صل على  
محمد وعلى آل محمد  
وارحم ما خلقت واغفر  
ما قدرت وطيب  
ما رزقت وتمم ما أنعمت  
وتقبل ما استعملت  
واحفظ ما استحفظت  
ولا تهتك ما سترت فانه  
لا إله إلا أنت أستغفرك  
من كل لفة بغير ذكرك  
ومن كل راحة بغير  
خدمتك ومن كل  
سرور بغير قربك  
ومن كل فرح بغير  
مجالستك ومن كل

ولذلك قيل لراية العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومشاكلهم مثال العاشق للسهر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه ما واحدا وهو محبوه ولم يبق فيه متسع لغير محبوه حتى يلتفت إليه لانه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ورفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه.

( بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب )

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب . منها الاصرار والواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها رجي من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ « خير الأعمال أدومها وإن قل » (١) والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للتصميم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر قلما يزي الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها رجي من صغيرة واظب الانسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكرهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو للطلوب تنويره بالطاعات والمخدور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه وللنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » (٢) وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول المبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعله يحلال الله فاذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بفسر معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على قنوت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته مخالطة ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطينا يا حافظ

- (١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة يلفظ أحب وقد تقدم.
- (٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخاري من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه قد ذكر هذا وحديثه أنه أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .



رضي الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللواتك إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما يقول أمارأيتي كيف مزقت عرضه ويقول للناظر في مناظرته أمارأيتي كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول للعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحققتة فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحله عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقنناً ليزداد بالامهال إثماً فيظن أن تمكنه من العاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان الغرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده عليه وتحريك لرغبة الشريفة من أصمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به فان انضاف إلى ذلك الرغبة للغير فيه والحمل عليه وتهمة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاخى الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين ببيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه <sup>(١)</sup> » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجليل ويستر القبيح ولا يهتك السر فالظاهر كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين ولذلك قال تعالى - للناقص والناقص بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف - وقال بعض السلف ما تهتك للرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون للذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الانكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصده إلا الجاه كالم الجدول والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطير في العالم آماداً متطاولة فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً <sup>(٢)</sup> » قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقيل ابن عباس ويل للعالم من الأتباع زل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

(١) حديث كل الناس معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمق وقد تقدم (٢) حديث من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .

الحافظين وإذا كر  
الذاكرين وإشاك  
الشاكركين بذكرك  
ذكروا وبفضلك  
شكروا بإغياث ياغيث  
يا مستغاث ياغيث  
المستغيثين لا تكني إلى  
نفس طرفة عين  
فأهلك ولا إلى أحدهم  
خلقك فأضيع أكلاتي  
كلادة الوليد ولا تحمل  
عني وتولني عاتولي به  
عبادك الصالحين أنا  
عبدك وابن عبدك  
ناصرتي بيدك جار في  
حكمتك عدل في  
نضاؤك نافذ في مشيتك  
إن تعذب فأهل ذلك  
أنا وإن ترحم فأهل  
ذلك أنت قافل اللهم  
يا مولاي يا الله يارب  
ما أنت له أهل ولا تفعل

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويفرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدر كته توبة فعمل في الإصلاح دهرا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار . فهذا يتضح أن أمر العلماء خطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب والأخرى إخفاؤه وكما تضعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمل والليل إلى الدنيا وقع منها باليسر ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيقبح عليه ويتقذى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدر على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فخر كات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالريح وإما بالحسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

### ( الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر )

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أورثه العلم يكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتتمام وتتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من ميانها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسببها . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيئته وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فالندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة <sup>(١)</sup> » ومن علامته أن تتمكن من حرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالليل كراهية وبالرغبة قهرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله يقول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يقبل توبته فقال وعزنى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه . فان قلت فالذنوب هى أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالدوق واستلته ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وقلبت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فان قلت لا فهو جحد للشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بعزل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمة وأرق قلبا .

اللهم يارب يا الله  
ما أنا له أهل إنك أهل  
التقوى وأهل المغفرة  
يا من لا تضره الذنوب  
ولا تنقصه المغفرة هب  
لى ما لا يضرك وأعطني  
مالا ينقصك ياربنا  
أفرغ علينا صبرا  
ومتوفنا مسلمين توفا  
مسلمنا وألحقنى  
بالصالحين أبت ولينا  
فاغفر لنا وارحمنا وأنت  
خير الغافرين ربنا  
عليك توكلنا وإليك  
أنبنا وإليك المصير  
ربنا اغفر لنا ذنوبنا  
وإسرافنا فى أمرنا  
وثبت أقدامنا وانصرنا  
على القوم الكافرين  
ربنا آتنا من لدنك  
رحمة وهب لنا من  
أمرنا رشدا ربنا

ويتنبى أن يجد هذه المראה في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجدم تناول السم في غسل النقرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من الغسل بل بمغافيه ولم يكن ضرر الثائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو واجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشروط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسنة أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما أتى قصر فيه منها وإلى المعاصى ما أتى قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية في قضائها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف بمجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشغل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فإن ذلك لا يجزئه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفقه له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا (١) » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن صمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر ومما عساه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالدم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث اللذة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » بل من قوله تعالى - إن الحسنات يذهبن السيئات - فيكفر بمما عساه من المصالح بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر من الصحف محدثا بكرام للصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقييله بأن يكتب مصحفا ويعمله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وإفراغ الصبر في الخدمة وإيداع الشكر في النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن القلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق للضادة فإن للرض يالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا يحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي التماسبات فلهذا ينبغي أن تحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينوب بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم <sup>(١)</sup> » وفي لفظ آخر « إلا الهم بطلب العيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه <sup>(٢)</sup> » ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع . فإن قلت هم الإنسان غالباً بما له وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكتيب فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال أجرمته شهيد فاذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد فغيرها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً لما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والائتيان بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل بإياديه الناس بالاحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراسهم بالعبية والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيدته والاعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس والأموال والأعراض أو بالتأويل أعني به الإيذاء المحض . أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إمامته أو من عاقلة وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمداً موجبا للقصاص فبالقصاص فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ما عزم بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ولا خواتنا الذين  
سبقونا بالإيمان ولا  
تجعل في قلوبنا غلا  
للذين آمنوا ربنا إنك  
رؤوف رحيم اللهم  
اغفر لي ولوالدي وللمن  
تولوا وارحمهم كما  
ربياني صغيرا واغفر  
لأعمامنا وعماتنا  
وأخواننا وخالاتنا  
وأزواجنا وذرياتنا  
ولجميع المؤمنين  
والمؤمنات والمسلمين  
والمسلمات الأحياء  
منهم والأموات يا أرحم  
الراحمين يا خير الغافرين  
ولما كان الدعاء مخ  
العبادة أحببنا أن  
نستوفي من ذلك قسما  
صالحا نرجو بركته  
وهذه الأدعية  
استخرجها الشيخ

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفي لفظ آخر إلا الهم في طلب المعيشة طس  
وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح  
(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم وتقدم أيضاً  
في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بافظ ابتلاه الله بالحزن .

قَالَ يَارَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَطَهِّرَنِي فَرَدَّهُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ  
 قَالِ يَارَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ أَمَرَ بِهِ خُفِرَ لَهُ خُفْرَةٌ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرَجِمَ  
 فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فَرِيقَيْنِ قَعَائِلُ يَقُولُ لَقَدْ هَلَكَ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ وَقَائِلُ يَقُولُ مَا تَوْبَةُ أَصْدَقَ مِنْ  
 تَوْبَتِهِ قَالِ يَارَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قَسَمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوْ سَعَتَهُمْ (١) « وَجَاءَتْ  
 الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ « يَارَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي فَرَدَّهَا فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَتْ يَارَسُولَ اللَّهِ لَمْ تَرُدَّنِي  
 لِمَلِكٍ تَرِيدُ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَا عَزَا فَوَاللَّهِ إِنِّي لِحَبْلِي قَالِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا الْآنَ فَاذْهَبِي حَتَّى  
 تَضَعِي فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْ بِالصَّبِيِّ فِي خُرْقَةٍ فَقَالَتْ هَذَا قَدْ وَلَدْتَهُ قَالَ إِذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَهْطِطَ عَلَيْهِ فَلَمَّا فَطَمَتْهُ  
 أَتَتْ بِالصَّبِيِّ وَفِي يَدِهِ كَسْرَةٌ خَبِزَ فَقَالَتْ يَا بَنِي اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ  
 الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا خُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسُ فَرَجَوْهَا فَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحِجْرِ فَرَمَى  
 رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ فَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ يَبْهَاهَا قَالِ مَهْلًا يَا خَالِدُ  
 فَوَالَّذِي نَفْسِي فِيهِ يَدُهُ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغَفَرَ لَهُ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصُلِّيَ عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ (٢) .  
 وَأَمَّا الْقَصَاصُ وَحَدُّ الْقَذْفِ : فَلَا بَدَّ مِنْ تَحْلِيلِ صَاحِبِهِ لِلْمُسْتَحَقِّ فِيهِ وَإِنْ كَانَ لِلتَّنَاقُلِ مَا لَا تَنَاقُلَهُ  
 بِنُصْبٍ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ غِبْنٍ فِي مَعَامَلَةٍ بَنُو عِيسَى كَتَرُويحَ زَانِفٍ أَوْ سَتَرِ عَيْبٍ مِنَ الْبَيْعِ أَوْ قَصَصِ أَجْرَةٍ  
 أَجِيرٍ أَوْ مَنَعَ أَجْرَتَهُ فَكُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَفْتَشَى عَنْهُ لَأَمِنْ حَدِّ بَلَاغِهِ بَلَّ مِنْ أَوَّلِ مَدَّةٍ وَجُودِهِ فَإِنْ  
 مَا يَجِبُ فِي مَالِ الصَّبِيِّ يَجِبُ عَلَى الصَّبِيِّ إِخْرَاجُهُ بَعْدَ الْبُلُوغِ إِنْ كَانَ الْوَلِيُّ قَدْ قَصَرَ فِيهِ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ كَانَ  
 ظَالِمًا مُطَالِبًا بِهِ إِذْ يَسْتَوِي فِي الْحَقُوقِ لِلصَّالِيَةِ الصَّبِيِّ وَالْبَالِغِ وَلِيحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى الْحَيَاتِ وَالْذَوَاتِ مِنْ  
 أَوَّلِ يَوْمٍ حَيَاتِهِ إِلَى يَوْمِ تَوْبَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَحَاسِبَ فِي الْقِيَامَةِ وَلِيَنَاقِشَ قَبْلَ أَنْ يَنَاقِشَ فَمَنْ لَمْ يَحَاسِبْ نَفْسَهُ  
 فِي الدُّنْيَا طَالَ فِي الْآخِرَةِ حِسَابُهُ فَإِنْ حَصَلَ مَجْمُوعٌ مَا عَلَيْهِ بَظَنِّ غَالِبٍ وَنَوْعٌ مِنَ الْاجْتِهَادِ مُمْكِنٌ فَلْيَكْتُبْهُ  
 وَلْيَكْتُبْ أَسْمَى أَصْحَابِ الْمَظَالِمِ وَاحِدًا وَاحِدًا وَلْيُطَفِّ فِي نَوَاحِي الْعَالَمِ وَلْيُطْلِبْهُمْ وَلْيَسْتَحْلِمْهُمْ أَوْ لِيُؤَدِّ  
 حَقُوقَهُمْ وَهَذِهِ التَّوْبَةُ تَشَقُّ عَلَى الظَّالِمَةِ وَعَلَى التَّجَارِفَاتِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى طَلَبِ الْعَامِلِينَ كُلِّهِمْ وَلَا عَلَى  
 طَلَبِ وَرَثَتِهِمْ وَلَكِنْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِنْهُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَإِنْ عَجَزَ فَلَا يَبْقَى لَهُ طَرِيقٌ  
 إِلَّا أَنْ يَكْثُرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ حَتَّى تَقْضِيَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُؤْخَذَ حَسَنَاتُهُ وَتَوْضَعُ فِي مَوَازِينِ أَرْبَابِ  
 الْمَظَالِمِ وَلَتَكُنْ كَثْرَةُ حَسَنَاتِهِ بِقَدَرِ كَثْرَةِ مَظَالِمِهِ فَإِنْ لَمْ تَفَّ بِهَا حَسَنَاتُهُ حَمَلَ مِنَ السَّيِّئَاتِ أَرْبَابِ  
 الْمَظَالِمِ فِيهِلِكَ بِسَيِّئَاتٍ غَيْرِهِ فَهَذَا طَرِيقُ كُلِّ تَائِبٍ فِي رَدِّ الْمَظَالِمِ وَهَذَا يَوْجِبُ اسْتِغْرَاقَ الْعُمْرِ فِي الْحَسَنَاتِ  
 لَوْ طَالَ الْعُمْرُ بِحَسَبِ طَوْلِ مَدَّةِ الظُّلْمِ فَكَيْفَ وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْرِفُ وَرَبِّمَا يَكُونُ الْأَجَلَ قَرِيبًا فَيَنْبَغِي  
 أَنْ يَكُونَ تَشْمِيرُهُ لِلْحَسَنَاتِ وَالْوَقْتُ ضَيْقٌ أَشَدُّ مِنْ تَشْمِيرِهِ الَّذِي كَانَ فِي اللَّعَاصِي فِي مَتَسَعِ الْأَوْقَاتِ  
 هَذَا حِكْمُ الْمَظَالِمِ الثَّابِتَةِ فِي ذِمَّتِهِ . أَمَّا أَمْوَالُهُ الْخَاضِرَةُ فَالْإِدْرَاقُ لِلْمَالِ كَمَا يَعْرِفُ لَهُ الْمَالُ كَمَا يَعْنِي وَمَا لَا يَعْرِفُ  
 لَهُ الْمَالُ كَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ فَإِنْ اخْتَلَطَ الْحَلَالُ بِالْحَرَامِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ الْحَرَامِ بِالْأَجْرَادِ وَيَتَصَدَّقَ  
 بِذَلِكَ الْقَدَرِ كَمَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ فِي كِتَابِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ . وَأَمَّا الْجَنَائِيَةُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمُشَافَهَةِ النَّاسِ  
 بِمَا يَسُوؤُهُمْ أَوْ يَمِيهِمْ فِي النِّعَةِ فَيُطْلَبُ كُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ بِلِسَانِهِ أَوْ أَدَّى قَلْبُهُ بِفِعْلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ وَلَيْسَتْ تَحِلُّ  
 وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْهُمْ وَمَنْ مَاتَ أَوْ غَابَ فَقَدْ فَاتَ أَمْرُهُ وَلَا يَتَدَارَكُ إِلَّا بِتَكْثِيرِ الْحَسَنَاتِ لَتُؤْخَذَ مِنْهُ  
 عَوَضًا فِي الْقِيَامَةِ وَأَمَّا مِنْ وَجَدَهُ وَأَحْلَهُ بِطَيْبِ قَلْبٍ مِنْهُ فَذَلِكَ كِفَارَتُهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ جَنَائِيَتِهِ

(١) حَدِيثُ اعْتِرَافِ مَا عَزَا بِالزَّانَا وَرَدَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى اعْتَرَفَ أَرْبَعًا وَقَوْلُهُ لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً  
 الْحَدِيثُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ (٢) . حَدِيثُ الْغَامِدِيَّةِ وَاعْتِرَافُهَا بِالزَّانَا وَرَجْمُهَا وَقَوْلُهُ صَلَّى  
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً الْحَدِيثُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ وَهُوَ الَّذِي قَبْلَهُ .

أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ رَحِمَهُ  
 اللَّهُ فِي كِتَابِهِ قُوَّةُ  
 الْقُلُوبِ وَعَلَى قَلْبِهِ كُلِّ  
 الْإِعْتَادِ وَفِيهِ الْبَرَكَةُ  
 فَلْيَدْعُ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ  
 مُنْفَرِدًا أَوْ فِي الْجَمَاعَةِ  
 إِمَامًا أَوْ مَأْسُومًا  
 وَيَخْتَصِرْ مِنْهَا مَا يَشَاءُ  
 [البَابُ الْخَامِسُونَ فِي  
 ذِكْرِ الْعَمَلِ فِي جَمِيعِ  
 الْتِهَارِ وَتَوْزِيْعِ  
 الْأَوْقَاتِ]

فَمَنْ ذَلِكَ أَنْ يَلَازِمَ  
 مَوْضِعَهُ الَّذِي صَلَّى هُوَ  
 فِيهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ إِلَّا  
 أَنْ يَرَى انْتِقَالَهُ إِلَى  
 زَاوِيَةٍ أَسْلَمَ لَدَيْتِهِ لَنَا  
 يَحْتَاجُ إِلَى حَدِيثٍ  
 أَوْ تَفَاتٍ إِلَى شَيْءٍ فَإِنْ  
 السَّكُوتُ فِي هَذَا الْوَقْتُ  
 وَتَرَكَ الْكَلَامَ لَهُ أَثَرُ  
 ظَاهِرٍ بَيْنَ يَحْدِهِ أَهْلُ

وتعريضه له فالاستحلال للهيم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال  
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنايته على  
 الغير مالو ذكره وعرفه لتأذي بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا  
 عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم  
 تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة  
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال  
 بقيت للمظلمة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهامته وأغراضه ويظهر من  
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة  
 فاذا طاب قلبه بكثرته تودده وتلطفه ممحت نفسه بالاحلال فان أبي إلا الاصرار فيكون تلطفه به  
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرجه  
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك  
 منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن ألتف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من  
 القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة  
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي الاتفاق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله  
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم  
 أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا  
 فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس  
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها  
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا  
 نصف الطريق أتاه للوت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة  
 جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي  
 فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاموا فوجدوه أدنى  
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) » وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب  
 منها بشبر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى  
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا بالرجحان  
 ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد للتعليق بالماضى .  
 وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعتقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود  
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزمًا جزما  
 أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه  
 الشهوة في ثانی الحال ولكن لا يكون تائبا مالم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب  
 في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث  
 حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس للعاصي أكل الحرام  
 فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل  
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

العاملة وأرباب التلويح  
 وقد ندب رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم إلى  
 ذلك ثم يقرأ الفاتحة  
 وأول سورة البقرة إلى  
 المفلحون والآيتين  
 وإلهكم إله واحد وآية  
 الكرسي والآيتين  
 بعدها وآمن الرسول  
 والآية قبلها وشهد الله  
 وقل اللهم مالك الملك  
 وإن ربكم الله الذي  
 خلق السموات  
 والأرض إلى الحسين  
 ولقد جاءكم رسول إلى  
 الآخر وقل ادعوا الله  
 الآيتين وآخر الكهف  
 من إن الذين آمنوا  
 وذا النون إذ ذهب  
 مغاضبا إلى خير الوارثين  
 فسبحان الله حين  
 تمسون وحين تصبحون

في المأ كولات واللبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لاتصح إن عنت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بفوات محبوه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوطة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فان استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التماسات فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول يقول إن العقد لا يصح أى لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنتق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتقدم عليه كالذي يحسن على أهل الملك وحرمة ويحسن على دابته فيكون خائفا من الجنابة على الأهل مستحقرا للجنابة على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كما في تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر  
السورة ولقد صدق الله  
وأول سورة الحديد إلى  
بذات الصدور وآخر  
سورة الحشر من  
لو أنزلناهم بسبح ثلاثا  
وثلاثين وهكذا محمد  
مثله ويكبر مثله ويتمها  
مائة بلا إله إلا الله وحده  
لا شريك له فإذا فرغ  
من ذلك يشتغل بتلاوة  
القرآن حفظا أو من  
المصحف أو يشتغل  
بأنواع الأذكار ولا  
يزال كذلك من غير  
فتور وقصور وناس  
فان النوم في هذا الوقت  
مكروه جدا فان غلبه  
النوم فليقم في مصلاه  
قائما مستقبل القبلة  
فان لم يذهب النوم  
بالقيام فليخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لاتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجيح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن القية أو عن النظر إلى غير الحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه مامن ، ومن إلا وهو خائف من معاصيه وندم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون لذته نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فان سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالنية وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يجمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوة فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذاب وأرخص العنان بالكيفية بل أجاهده في بعض المعاصي فمسأني أغلبه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فان أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول لله تعالى طي أمران ولى طي الخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفطر شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا . وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » . ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه للعاني تبيين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمرضى الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يقنأ قليلا ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاءه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فان قلت هل تصح توبة العنيد من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا يتركه إياه ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية

نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة في إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك محمد الله وأوصى به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وتبتي أوقات النهار جميعا على هذا البناء فإذا قارب طلوع الشمس يتسدى بقرأة السبعات العشر



لكانت حرقه الندم تفتح تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته إذ لاختلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه نائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة للعصية تمنحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل مالم يش التائب بعد التوبة مدة مجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً. فان قلت إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها وينعها فأيهما أفضل ؟ . فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لأنه لو قتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد بدل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ، وأعني بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبثق بإشارة اليقين وتفتح الشهوة للنبذة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو قتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلوش شرطه اقتحام الاغرار بل كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأخرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بظلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد للمقاسي لهيجان الشهوة وقمعها ، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر ومثاله كمنال من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما ناعمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجحاح بالاضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد نزل

وهي من تعليم الخضر  
عليه السلام عليها  
ابراهيم التيمي وذكر  
أنه تعلمها من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ،  
وينال بالمداومة عليها  
جميع التفرق في  
الأذكار والدعوات ،  
وهي عشرة أشياء  
سبعة سبعة الفأحة  
وللعوذتان وقل هو  
الله أحد وقل يا أيها  
الكافرون وآية  
الكرسي وسبحان الله  
والحمد لله ولا إله إلا الله  
والله أكبر والصلاة  
على النبي وآله ويستغفر  
لنفسه ولوالديه  
وللمؤمنين والمؤمنات  
ويقول سبعا اللهم افعل  
بي وبهم عاجلاً وآجلاً  
في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإمالتها بالسكينة مقصود حتى جرب بعضهم نفسه ففجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات . فان قلت فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من اللذيين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين وكلام للتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يجبر عن حال نفسه فقط ولا يهتم حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة والارادة والجديد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازل له أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم عن هو أهدي سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق التبتدي لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف والوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يرجع على غير السلوك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماضيه من أحواله وهو الكمال بل لو عاق للسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب للسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره ينيكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك للمانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بتذكر تخريب الجسر والبقاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع المهلكات بل تقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ولكن إن كان شابا فلا ينبغي أن يبطئ فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته في طلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدي أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتمة بأنهم قانهم ما بعثوا إلا لأرشادهم فليهم التلبس بما تنتفع أنهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على الريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشجع <sup>(١)</sup> » وفي لفظ « إنما أسهو لأسن » .

(١) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشجع ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

مأنت له أهل ولا تفعل ربنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رؤوف رحيم . وروى أن إبراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الحضرة رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى لللائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسببات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ »<sup>(١)</sup> لما أخذ تمره من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فإنها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقته ترك الفصاحة ونزل إلى لسانه بل الذي يعلم شاة أو طائراً يصوت به رغاء أو صفيراً تشبهاً بالبهيمة والطائر تلتطف في تعليمه فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزية أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

### ( بيان أقسام العباد في دوام التوبة )

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالحيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس الطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون للستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكرك عنهم أو زارهم فوردوا القيامة خفافاً »<sup>(٢)</sup> فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتن زاعها ولم يشغله عن السالك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملئ بمجاهدتها وردّها ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن محتط بموت قريباً من توبته يخط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن يحمل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فاعماً تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطعم في الانكشاف فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه لليسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تقتره لاعتدائه وعمد وتجريد قصد ولكن يتلى بها في مجارى أحواله من غيره أن يقدم عزمه على الأقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمع للاحتراز من

لا يوجد في اللوطاً إلا مرسل لا إسناد له وكذا قال حمزة الكنعاني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للآئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً (١) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمره من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق المفردون للستهترون بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة العدة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد قل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أثراً ونوراً وروحاً وإنسا إذا كان صادقاً والذي يحمد

أسبابها التي تعرض لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لاعن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللوم إن ربك واسع المغفرة - فكل إمام يقع بصغيرة لاعن توطئ نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللوم المغفوع عنه قال تعالى - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأتى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولو لمهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب (١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تنفث أحيانا ويميل أحيانا (٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٣) » أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة الصيرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالضيق الذي يؤيس للتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقهاء بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون (٤) » وقال أيضا « المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقعة (٥) » أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة فلما وصفهم بعدم السيئة أصلا. الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلب الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقره الله تعالى على قهرها وكفاه شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتقدم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس السائلة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمرهم من حيث مواظبتهم على الطاعات وكرهتهم لما تعاطاه مرجو

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث للمؤمن كالسنبلة تنفث أحيانا وتميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسل وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تنفث وفي الأمثال: للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس (٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذي واستغربه الحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون . قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخاري (٥) حديث للمؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقعة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا فسعيد بدل غيرهم .

من البركة ثواب مجبل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الأولى آية الكرسي وفي الأخرى آمن الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه في يومه وليته ثم صلى ركعتين آخرين يقرأ العوذتين فيهما في كل ركعة سورة وتكون صلاته هذه ليستعين بالله تعالى من شر يومه وليته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ باسمك وكلتك التامة من شر السامة والهامة

فحسب الله أن يتوب عليه وعاقبته خطيرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في الشبهة فإن تدارك الله بفضلله وجبر كسره وامن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الحاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تعذر على للتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول قفه النفس الذي به تستحق للناسب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تنقية النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت ققيمة بطول التفتية فلا يصلح للملك الآخرة ونعيمها ولللقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتقدير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - ونفس وماسواها فأنهضها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهوا وقدخاب من دساها - فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها<sup>(١)</sup>» فاذن الخوف من الحاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الأهاس وإلا وقع في المخذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصيرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفارقة من الخير ويخاف على هذا سوء الحاتمة وأمره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده وأن يجلس في البيت ليحمله الله عالمنا بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في الواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم لللائكة وإيت من اجتهد تعلم وليت من أجاز استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا الخالصون والخالصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا زعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض في بيته الحرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والفرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر للمغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة بعد عند أن باب القلوب من العتوهين والعجب من عقل هذا الممتوه وتروجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ باسمك وكلتك  
التامة من شر عذابك  
وشر عبادك وأعوذ  
باسمك وكلتك التامة  
من شر ما يجري به الليل  
والنهار إن ربى الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت  
وهو رب العرش العظيم  
ويقول بعد الر كمتين  
الأولين اللهم إني  
أصبحت لا أستطيع  
دفع ما أكره ولا أملك  
شع ما أرجو وأصبحت  
مرتها بعملى وأصبحت  
أمرى يد غيرى فلا  
قصر أقصر منى اللهم  
لا تشمت بى عدوى  
ولا تسي بى صديقى  
ولا تجعل مصيبتى فى  
دينى ولا تجعل الدنيا  
أكبر همى ولا مبلغ  
على ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدنار وإذا قيل: إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن قهرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعماء برزقك من حيث لا تحسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستنزي به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم للفرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم القنور عن كسب المال ومقتضاه القنور عن العمل للمالك القيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسب قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فتعذبه الله من العمى والضلال فما هذا إلا انعكاس على أم الرأس وانعكاس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا - أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فتعذبه الله من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة إلى سوء النقلب والمآب.

(يان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إلمام بحكم الاتفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كاذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرك بالحسنة السيئة ليحوها فيكون بمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليتكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذلة بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق للذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضم بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الاقتلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل للمسجد وتصل ركعتين<sup>(١)</sup> وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات<sup>(٢)</sup>

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل للمسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلّي ثم يستغفر الله إلا غفر الله لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فلعن المصنف عبر بالأثر لإرادة الوقوف فدكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرجحني اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيد النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ثم يصلي ركعتين أخريين بقية الاستخارة لكل عمل يعمل في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فلا استخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلّيها أمام كل أمر يريد به ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - . وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية <sup>(١)</sup> » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا لليسيس فأقضى على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ماصليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات <sup>(٢)</sup> » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للاستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله <sup>(٣)</sup> » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا <sup>(٤)</sup> . فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخالوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة <sup>(٥)</sup> » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب والتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة ققام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل - وأقم الصلاة طرفي النهار - الآية وإسناده جيد <sup>(١)</sup> حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر الحديث <sup>(٢)</sup> حديث إن رجلا قال يا رسول الله إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا لليسيس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث <sup>(٣)</sup> حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بآيات الله وسنده ضعيف <sup>(٤)</sup> حديث بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفع الترمذي من حديث أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس <sup>(٥)</sup> حديث ما أصر من استغفر الحديث تقدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجعل فيه  
الخيرة . ثم صلى  
ركعتين أخريين يقرأ  
في الأولى سورة الواقعة  
وفي الأخرى سورة  
الأعلى ويقول بعدها  
اللهم صل على محمد  
وعلى آل محمد واجعل  
حبك أحب الأشياء  
إلى وخشيتك أخوف  
الأشياء عندي واقطع  
عنى حاجات الدنيا  
بالشوق إلى لقائك وإذا  
أقررت أعين أهل  
الدنيا بدنياهم فأقر  
عيني بعبادتك واجعل  
طاعتك في كل شيء  
نبي يا أرحم الراحمين  
ثم يصلى بعد ذلك  
ركعتين يقرأ فيهما  
شيئا من حزه من  
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاه فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فان عصى قال يارب استر علي فاذا فرغ من العصى قال يارب تب علي فاذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من قصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم ينتقل إلى الاقتراد ثم الثبات ثم اليان ثم الفكر ثم المعرفة ثم اللناجة ثم المصافاة ثم اللوالة ثم محادثة السرو وهو الخلقة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والله كقوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش ، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقال إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية . وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه ، والمقصود أن التوبة ثمرتين إحداها تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه نحو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يغلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل الشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كلالا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكن لا يرجح للزبان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل قترفع كفة السيئات فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيتها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الحرقاء تسكسكس عن الغزل تلعلا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد تقول أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطارهم اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيق عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلي غافل . فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى في إحدى الكلمتين وسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعاني قوله تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغبية واللعن والفضول هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات وتضعف الآخرة أكبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليحضر لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين ليقبه الله سواء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقبه الله سواء للدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت



يملكون - فأياك وأن تلج في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات فإن هذه مكيدة وروجها الشيطان بلمعته على الغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هي كلمة حق أردت بهم إبطالا فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أشك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم للغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأضعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والواقعة كما قيل : وافق شن طبقه . وافقه فاعتقه . وأما للمقتصد فلم يقدر على إرغامه بأشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالاضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته قتركها وأصبح كاتباً والظالم للتخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لا أنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة إلى الكاتب لا بالاضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة وكذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تنم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تنم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فإن سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فكذلك ينبغي أن تفهم ذم ما يندم وحمد ما يحمى وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القربين . فإن هذه أمور ثبتت بالاضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاء في طاعته فلا محروا منها شيء فلعل رضاء فيه وغضبه في معاصيه فلا تحمروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته في عبادته فلا تحمروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء قريباً كانت الاجابة فيه .

#### (الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزيز نادر : والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الدواء إذا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواءه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله ولا يبطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الشهوة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الضرب على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم الثافلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون - فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلالة العلم وممرارة الصبر وكما يجمع السكنجين بين حلالة السكر وحموضة الحل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيجمع الأسباب الهيجة للصفراء فكذلك ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار فاذا لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من ياتهما .

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أبضاً يقول  
السلام على عباد الله  
الصالحين المؤمنين وإن  
كان متفرغاً فأحسن  
أشغاله في هذا الوقت  
إلى صلاة الضحى الصلاة  
فإن كان عليه قضاء  
صلى صلاة يوم أو  
يومين أو أكثر وإلا  
فليصل ركعات يطولها  
ويقرأ فيها القرآن فقد  
كان من الصالحين من  
يختم القرآن في الصلاة  
بين اليوم والليلة وإلا  
فليصل أعداداً من  
الركعات خفيفة بفاتحة  
الكتاب وقل هو الله  
أحد وبآيات التي في  
القرآن وفيها الدعاء  
مثل قوله تعالى ربنا  
عليك توكلنا وإليك  
أئبنا وإليك للصيرب

فان قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم بمجملها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مآربه مسبب الأسباب وهذا هو الإيمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة والشقاوة سببا هو العصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان . الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصنى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول القواكه والأسباب للضررة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الاصغاء إلى الآيات والأخبار للشملة على الترفع في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقي إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف للقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصنى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يارمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ماسبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يستل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فانهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قريبا متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والقرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار الرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بدواوة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتجى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيد بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان لثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فمما بالله يطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التستري لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فاذا ارضعت الشمس

فإن عاقبة موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد اللوت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتشكل على فضل الله في مرض القلب ويجهد في علاج مرض البدن من غير اتكال . والثالثة : وهو الداء المضال قد الطبيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا غديدا عجزا وعن علاجه وصارت لهم سادة في عموم المرض حتى لا يظهر قصاتهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيد مرضهم لأن الداء الهلاك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فإياكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الواء واقطع الدواء وهلك الخلق لقد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوهم بل غشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم إذا تكلموا لم يهملهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألد في الأسماع وأخف على الطباع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائفا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادى الملة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فكسر سورة إسراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك المصير على الذنوب للشبهة للتوبة للمتنع عنها بحكم القنوط والياس استعظاما لذنوبه التي سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة المفورر للسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المفورر بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي المصلحة التي لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فأذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فأعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع الناقصة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والمعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا علموا بما علموا <sup>(١)</sup> » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعلموا بما علموا تابوا بما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب الثمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبدي يصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتاه لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأعقر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وزوى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن الله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاهه الحديث وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

وتتصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والغروب صلى الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رمضت الفصال وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حرم الشمس . وقيل الضحى إذا ضجبت الأقدام بحر الشمس وأقبل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

حق يقضى مما ندب  
إليه من زيارة أو عيادة  
يعفى فيه ولا فيديم  
العمل لله تعالى من غير  
فسور ظاهرا وباطنا  
وقلبا وقالبيا وإفباطنا  
وترتيب ذلك أنه يصلى  
مادام منشرا وتسه  
محبة فان سبم ينزل من  
الصلاة إلى التلاوة فان  
مجرد التلاوة أخف على  
النفس من الصلاة فان  
سبم التلاوة أيضا يذكر  
الله بالقلب واللسان فهو  
أخف من القراءة فان  
سبم الله كريدع ذكر  
اللسان ويلزم بقلبه  
للراقة والراقة علم  
القلب بنظر الله تعالى  
إليه فما دام هذا العلم  
ملازما لقلبه فهو  
مراقب والراقة عين

فذلك معنى قوله تعالى - إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من  
أحد من بعده - وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فاذا  
انتهكت الحرمات واستحللت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها (١) » وفي حديث  
مجاهد « القلب مثل السقف للفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصابع حتى تنقبض الأصابع  
كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع (٢) » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدا من  
العاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوقه بعدها خيرا والأخبار والآثار في ذم العاصي  
ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فانه ما خلف دينار ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (٣) .  
النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من اللصائب بسبب ذنوبهم فذلك  
شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من  
الخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته  
فاستجيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفع عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه  
وحل الإكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش : اهبط من جوارى فانه لا يجاوزني من عصاني  
قال فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال هذا أول شؤم للعصية أخرجنا من جوار الحبيب . وروى أن  
سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما  
وقيل لأن للرأه سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها  
على خصمه لمكانها منه فسلم أربعين يوما فهرب تأمها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم  
فاذا قال أطعموني فاني سليمان بن داود شجع وطرد وضرب . وحكى أنه استظم من بيت لامرأته  
فطرده وبصفت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فضبته على رأسه إلى أن أخرج  
الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فجاءت الطيور فمكفت على  
رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه  
فقال لا ألوكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذركم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه .  
وروى في الاسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلبه أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته  
نفسه وطالبته بها فجاهدها واستصم قال فبأه الله يركه تقواه فكان نيا في بني إسرائيل وفي قصص  
موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتر كي العاصي  
لأجل الله تعالى . وروى أن الرج كانت تسير بسليمان عليه السلام فظفر إلى قميصه نظرة وكان جديدا  
فكانه أعجبه قال فوضعت الرمح فقال لم فعلت هذا ولم آرك ؟ قالت إنما نظمتك إذا أظمت الله .

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من دوائ العرش فاذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدي  
وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل السقف  
للفتوحة . قلت هكذا قال للصف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره للفسرون  
من قوله وليس بمرفوع وقد روينا في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى  
الله عليه وسلم ما خلف دينار ولا درهما وإنما خلف العلم والحكمة البخاري من حديث عمرو بن الحارث  
قال مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينار ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من  
حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم دينار ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من  
دينار ولا درهما وإنما ورثوا العلم الحديث وقد تقدم في العلم .

الذكر وأفضله فان عجز  
عن ذلك أيضا وتعلمته  
الوساوس وتزاحم في  
باطنه حديث النفس  
فليتم في النوم السلامة  
وإلا ففكرة حديث  
النفس تقسى القلب  
ككثرة الكلام لأنه  
كلام من غير لسان  
فيحترق عن ذلك قاله  
سهل بن عبد الله أموا  
العاصي حديث النفس  
والطالب يريد أن يستبرأ  
باطنه كما يعتبر ظاهره  
فانه بحديث النفس  
وما يتخيل له من ذكر  
مامضى ورأى ومما  
كشخص آخر في باطنه  
فيقيد الباطن بالمراقبة  
والرعاية كما يقيد الظاهر  
بالعمل وأنواع الذكر  
ويمكن للطالب المجد

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون - لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدري لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيني بهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسفار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب البكبار، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على ألسنة الصالحين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته قرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه <sup>(١)</sup> » وقال ابن مسعود إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا <sup>(٢)</sup> » وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه ونقصا في اللسان إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرامان عن رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمتن الله تعالى ليمتته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى في وسط الوحل ويكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاربها حتى يقع في ذنب وذنبين فسندها يخوض في الذنوب خوفا وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقت أنظر إليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحبكة كيف خلقت النار فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبا غيرتم من أعمالكم <sup>(٣)</sup> » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظه إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبا أنكرتم من أعمالكم البيهقي في الرهد من حديث أبي الدرداء

بالبعد إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذيذ مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلى غفراً قلبي هوى طاولته ففكرتني حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة فلما أثبتته قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولاً أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فصجبت كيف علم بذلك وهو يعداد وأنا بالرقة . وإعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجهه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقيماً أخفى عنه حتى يهلك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما للطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشغل بعلاجها فليستدل بهرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لمواقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تكثر على قال لا تنضب (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يمتدح منه (٣) » وقال رجل لمحمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فتهاه عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل ومخايل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رجلاً أوصني فقال كن لك بالجنة زعيماً فكأنه نفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة . وقال رجل لابراهيم بن آدم أوصني فقال إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أراهم بالناس بل غمسون في ماء اليأس فكأنه نفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتفي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يحبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة . وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يبين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فيعد الإنتباه

وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هانيء . قلت : هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما صنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعته أن أحرمه لذنة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر على قال لا تنضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس» (١) والسالم عليك فانظر إلى قهها كيف تعرضت لآفة التي تكون الولاية بصدها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاهك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغفوا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال الالهيّة ليكون اشتغاله بهم فان حكاية جميع مواظب الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضيق زمان . فان قلت : فان كان الواظ يتكلم في جمع أوساله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشريعة أغذية وأدوية فالأغذية للسكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت لإلّا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعزّ أمر الله عزّك الله . وقال لقمان لابنه يابني زاحم العلماء بركتك ولا تجادلهم فيمفتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأتق فضول كسبك لاخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفه ولا تغالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يابني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عمالا عنيك ولا تضيق مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يابني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلّم ومن يقل الخير يغمّ ومن يقل الشر يأنم ومن لا يملك لسانه ينسّم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل ما لوجاءك الموت عليه فرأيت غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن نقاعا ولا تكن ضرارا واتزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يابني عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف أوصني فقال اجعل لديك غلافا كغلاف للصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا ما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا ما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى : أما بعد ، خف بما خوّفك الله واحذر مما حذر الله وخذ بما في يديك لما بين يديك فبند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمر للقطعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالمطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضلّ ومن حلم غمّ ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدين ادار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يقتل من لا علم عنده فكن فيها يأمر المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

من نوم النهار تجدد  
في الباطن نشاطا آخر  
وشغلا آخر كما كان  
في أول النهار فيكون  
للصادق في النهار نهرا ن  
يغتنمهما بخدمة الله  
تعالى والدؤوب في العمل  
وينبغي أن يكون  
اتباعه من نوم النهار  
قبل الزوال بساعة  
حتى يتمكن من  
الوضوء والطهارة قبل  
الاستواء بحيث يكون  
وقت الاستواء  
مستقبل القبلة ذا كرم  
أو مسجدا أو تاليا قال الله  
تعالى وآنم الصلاة طرفي  
النهار وقال - فسبح  
محمد ربك قبل طلوع  
الشمس وقبل غروبها -  
قل قبل طلوع  
الشمس صلاة الصبح

على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أرتاة أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أوليؤه فعمتهم وأما أعداؤه فترتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعه فهذه اللواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الانتفاع بها ولأجل فقد مثل هؤلاء اللواعظ انفسهم باب الاتعاط وغلبت المعاصي واستشرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجعا وينشدون أياتا ويشكفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متصلف والسمتع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج للرضي وطلب العلماء أول علاج للعاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره وإنما تناول ذلك إما لفعلته عن مضرته وإما لشدة غلبة شهوته فله سبيلان فإذ ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كوله مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشباب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيبة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور الشتهي والنظر إليه وعلاجه الحرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بالصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وانتكار أو عن مماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسن فسييسره الله تعالى ليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسن فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإعانة الله الآخرة والأولى . فان قلت فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بعرفة الخوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أحدها أن العقاب الموعود غيب ليس محاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود وضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالحق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة والتزوع عن

وقبل غروبها صلاة العصر - ومن آفاه الليل فسيح - أزداء العشاء الأخيرة سواطراف النهار أراد الظهر والغرب لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة للغرب فصار الظهر آخر الطرف الأول والغرب آخر الطرف الآخر فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ويصلي في أول الزوال قبل السنة والقرض أربع ركعات



بتسليمة واحدة كان  
يصلها رسول الله صلى  
الله عليه وسلم وهذه  
صلاة الزوال قبل الظهر  
في أول أوقاتها وبحاج  
أن يراعى لهذه الصلاة  
أول الوقت بحيث  
يفطن للوقت قبل  
للؤذين حين يذهب  
وقت الكراهية  
بالاستواء فيشرع في  
صلاة الزوال ويسمع  
الأذان وقد توسط  
هذه الصلاة ثم يستعد  
لصلاة الظهر فإن وجد  
في باطنه كدرا من  
مخالطة أو مجالسة  
اتفقت يستغفر الله  
تعالى ويتضرع إليه  
ولا يشرع في صلاة  
الظهر إلا بعد أن يجد  
الباطن عائدا إلى حاله

العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تجبون العاجلة وتندرون الآخرة -  
وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه  
وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (١) » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى  
خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فدخلها فحفا  
بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبق أحد إلا دخلها، وخلق  
الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفا  
بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد (٢) » فإذا كون  
الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى اللآل سيبان ظاهران في الاسترسال مع حصول  
أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا  
بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهمون عليه الألم للتأخر. الثالث أنه  
ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك  
يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة  
ربما يقدم عليه مع الإيمان. الرابع أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب  
العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب  
أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان ، نعم قد يقدم للذنب بسبب خامس يقدح  
في أصل إيمانه وهو كونه شاككا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول  
ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به  
فهذا هو الكفر . فإن قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه  
في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب  
إلى كل أحد من شرك نعله فما يدرى لهل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذ كر نفسه  
أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ ركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الريح  
الذى يظن أنه قد يحتاج إليه في ثانی الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد  
يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألد لحظة إذا لم يخف  
ما بعده ومفارقته للدنيا لا بد منها فكيف نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا فليظن كيف يبادر  
إلى ترك ملاذه بقول ذي لم تهم معجزة على طيه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء للوئدين  
بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طيه ولا يشهد له إلا عوام الخلق  
وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف  
سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكير بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول إذا كنت  
لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهى أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا وأبدا وإذا كنت لا أطيع  
ألم الصبر فكيف أطيع ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنصها وامتناع  
صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجها بالكفر في أن أكثر صياح  
أهل النار من التسويف لأن للسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فله لا يبق . وإن بقى  
(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث إن الله  
خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث  
أبى هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

فلا يقدر على الترك غذا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال إلا لعلة الشهوة والشهوة ليست تهارقه غذا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتقاد فليست الشهوة التي أكد بها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين التائبين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق وماء مال السوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فراهقوية لا تنقلع إلى عشقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كثر في أرض خربة فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع التهب من الظلمة في بله وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن اللوت يمكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأسفار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فتنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يجال يعلم قريب يليق بحمد عقله فيقال له مقاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال أعلم استحالة كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجبول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولعت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطمعة فيقول أتركه لاحالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوى الألباب عن صدق رجل واحد مجبول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوبا وعقابا وإن اختلفوا في كيفيته فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبق أبدا الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية للكدر فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لانسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا بمائة بالذرة وقدرنا طائرًا يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التنوخي الممرى :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما  
إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكم

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان كما إن صح ما قلت قد تخلصنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت هذه الأمور جليلة ولكنها ليست تتال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستغفلت وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر

من الصفاء والذات هون  
حلاوة النجاة لأبدان  
يحدوا صفو الأنس في  
الصلاة ويتكبدون  
يسير من الاسترسال  
في اللباس ويصير على  
بواطنهم من ذلك عقد  
وكدر وقد يكون ذلك  
بمجرد الخاطلة والمجاسة  
مع الأهل والولد مع  
كون ذلك عبادة  
ولكن حسنات الأبرار  
سيأت للقرين فلا  
يدخل الصلاة إلا  
بعد حل العقد  
وإذهاب الكدر وحل  
العقد بصدق الانابة  
والاستغفار والتضرع  
إلى الله تعالى ودواء  
ما يحدث من الكدر  
بمجالسة الأهل والولدان  
أن يكون في مجالسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم القيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أهواؤه شهوة قد تسلطت عليه واسترقت فصار عقله مسخرًا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك ، وأما علاج هذين النوعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألمًا بذكره مع استحقار ألم مواعته فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتًا لذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فأنه لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدور وهي مشوبة بالمكدرات لما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بعرفته وطاعته وطول الأنس به ولو لم يكن للطبع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيًا فكيف بما يضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تعود والخير عادة والشر لحاجة ، فاذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبهات تقع للقلب بأسباب تنفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موافقًا للطبع فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع للواقعة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الازادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما ذابني ، فقال على رضي الله عنه بني على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمى نسي الذكر ومن غفل جاد عن الرشود ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدأ له من الله ما لم يكن يحتسب ، ثم ذكرناه يان لبعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنًا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

### ﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

( وهو الكتاب الثاني من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، التفرد برباء الكبرياء ، للتوحد بصفات المجد والعلاء ، للوحد بصفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والافتضاء [ أما بعد ] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر <sup>(١)</sup> كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهي أيضًا وصفان من أوصاف الله تعالى وإيمان من أعمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورًا وشكورًا فالجمل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

### ﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

غير راكن إليهم كل  
الركون بل يسترق  
القلب في ذلك نظرات  
إلى الله تعالى فتكون  
تلك النظرات كفارة  
لتلك المجالسة إلا أن  
يكون قوى الحال  
لا يجنبه الخلق عن  
الحق فلا يعتقد على  
باطنه عقدة فهو كما  
يدخل في الصلاة  
لا يجدها ويجد باطنه  
وقلبه لأنه حيث  
استروحت نفس هـ ،  
إلى المجالسة كان  
استرواح نفسه منغمرًا  
يروح قلبه لأنه يجالس  
ويخالط وعين ظاهره  
ناظرة إلى الخلق وعين  
قلبه مطالعة للحضرة  
الإلهية فلا يعتقد على  
باطنه عقدة وصلاة

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مآبه الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مآبه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميته باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

### ( بيان فضيلة الصبر )

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا - وقال تعالى - ولنجزيَن الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - أولئك يؤتُونَ أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يؤفَى الصابرون وأجرهم غير حساب ثم من قرية إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واصبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا وبأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان <sup>(١)</sup> » على ما سألني وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاتهُ من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافقني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتضح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكأل ثوابه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - <sup>(٢)</sup> » الآية وروى جابر أنه سئل عن الإيمان فقال « الصبر والسباحة <sup>(٣)</sup> » وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة <sup>(٤)</sup> » وسئل مرة « ما الإيمان فقال الصبر <sup>(٥)</sup> » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة <sup>(٦)</sup> » معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر مثل عن الإيمان فقال الصبر والسباحة الطبراني في معارج الأئمة وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

الزوال التي ذكرناها  
تحل العقد وتبيء  
الباطن لصلاة الظهر  
فيقرأ في صلاة الزوال  
بمقدار سورة البقرة  
في النهار الطويل وفي  
القصير ما ييسر من  
ذلك قال الله تعالى :  
سوعشا وحين تظهرون  
وهذا هو الإظهار فان  
انتظر بعد السنة  
حضور الجماعة للقرض  
وقرأ الدعاء الذي بين  
القرينة والسنة من  
صلاة الفجر فحسن  
وكذلك ماورد أن  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم دعا به إلى  
صلاة الفجر ثم إذا  
فرغ من صلاة الظهر  
يقرأ الفاتحة وآية  
الكرسى ويسبح

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»<sup>(١)</sup> وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاق وإن من أخلاق أنى أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أؤمنون أتم؟ فسبكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب السكبة»<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير»<sup>(٣)</sup> وقال للشيخ عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين»<sup>(٤)</sup> والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر وأعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر: الصبر في الصييات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. وأعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أنضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه: بنى الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضى الله عنه يقول: نعم العبدان ونعمت العلاوة للصابرين يعنى بالعبدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلامة ما يحمل فوق العبدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية - إنا وجدناه صابرا نعم العبدان - أبى وقالوا بحجاءه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو اللثى. وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الوصف فلذلك حقيقة ومعناه وبالله التوفيق.

( بيان حقيقة الصبر ومعناه )

أعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إيماناً تنظم من ثلاثة أمور: مغارف وأحوال وأعمال فالمعارف هى الأصول وهى تورث الأحوال والأحوال تشر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على السكل كاذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين اللائكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك في البهائم ولللائكة أما في البهائم فلنقصانها. وأما في اللائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا. وأما اللائكة

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لأصل له مرفوعا وإجماعا هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أؤمنون أتم فسبكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله الحديث الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٣) حديث في الصبر على ما تكره خير كثير الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبراني من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقلى.

ويحمد ويكبر ثلاثا  
وثلاثين كما وصفنا ولو  
قدر على الآيات كلها  
التي ذكرناها بعد  
صلاة الصبح وعلى  
الأدعية أيضا كان ذلك  
خيرا كثيرا وفضلا  
عظيما ومن له همة  
ناهضة وعزيمة صادقة  
لا يستكثر شيئا لله  
تعالى ثم يحيى بين  
الظهر والعصر كما يحيى  
بين العشاءين على  
الترتيب الذى ذكرناه  
من الصلاة والتلاوة  
والذكر والراقبة  
ومن دام سهره بنام  
نومة خفيفة في النهار  
الطويل بين الظهر  
والعصر ولو أحيا بين  
الظهر والعصر ركعتين  
يقرأ فيهما ربيع القرآن

عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلب عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بمجد آخر يغلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل الهميمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبر إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه فتميز بمعونة للملكين عن البهائم ، واختص بصفيتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة للصالح التعاقبة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فلذلك لا تطلب إلا اللذيق . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بمجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنضم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنضم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من اللائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال للشهوة عمل يشره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال تتمررها للعروة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوى يقينه أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا للطريق إلى الله تعالى قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تنقاضه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والإيمان فتصبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للسلطان هما للتكفلان بهذين الجندين بأذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما ، وهما من الكرام الكاتبين وهما للسلطان للوكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك للقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذي أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، ينبغي أن يكون مسلما له فهو أذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومتنقذ إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب أقباله حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بأبائهما فلذلك سميا كراما

أو قرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وإن أراد أن يحيي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بعشرين ركعة قرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال إذا كان صائما وإن لم يكن صائما فأى وقت تميز فيه الفهم . وفي الحديث « السواك مطهرة للفهم مرضاة للرب » وعند القيام من الفرائض يستحب قبل إن الصلاة بالسواك غنض على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقيل هو خير إن أراد أن يقرأين

كاتبين أما الكرام فلا تنفخ العبد بكرمهما ولأن اللاتكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبون فلا ثابتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحافتها وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف للطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأغنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته <sup>(١)</sup> » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال - ولقد جتمعونا فرادى كل خلقنا كم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمة الخلق وفيها يساق للتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والهول الأول هو هول القيامة الصغرى وجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلالفان أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا زلت يبلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن غيرك فليس يحظك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من زلزلة أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك فخطك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فاذا تهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالا فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام قد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمك وبصرك وسائر خواصك قد انكسرت النجوم انكسارا فاذا انشق دماغك قد انشقت السماء انشقا فاذا اهتجرت من هول الموت عرق جبينك قد جفرت البحار تفتجيرا فاذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك قد عطلت العشار تعطيلًا فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انثرت خواصك التي بها تنفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه قد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماؤه فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلواتين في صلاته في  
عشرين ركعة في كل  
ركعة آية أو بعض آية  
تقرأ في الركعة الأولى  
- ربنا آتنا في الدنيا  
خسنة وفي الآخرة  
حسننة وقنا عذاب  
النار - ثم في الثانية  
- ربنا أفرغ علينا صبرا  
وثبت أقدامنا وانصرنا  
على القوم الكافرين -  
ثم - ربنا لا تؤاخذنا  
إلى آخر السورة ثم - رب  
لا تزغ قلوبنا - الآية ثم  
- ربنا إنا سمعنا ناديا  
ينادي للإيمان - الآية  
ثم - ربنا آمنا بما  
أنزلت - ثم - آفة  
ولينا فاغفر لنا - ثم  
- فاطر السموات  
والأرض أنت ولي -  
ثم - ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار ممكن إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم قس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - وننشئكم فيما لا تعلمون - فالقبر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والقبر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور الدجال ، فما أعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك للسكين وبين يديك هذه الأهوال فان كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا <sup>(١)</sup> » أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند اللوت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات اللوت <sup>(٢)</sup> » أو ما تستحي من استبطائك هجوم اللوت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من اللوت فلا ينجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قبلا لهم من أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن اللوتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جمع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولنرجع إلى الغرض فان هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم العاملة - فنقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه للقاومة من خاصة الأديمين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يماقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمعت الكرام الكاتبين البررة الأخبار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذه عليه بالضرب فبكل ولي هذا ممتة في حق الصبي فقد ورث أخلاق لللائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما ناله لللائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه إريسع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات اللوت الترمذي وقل غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة ناظم اللهم أعني على سكرات اللوت .

مانحني وما تعلمن -  
الآية ثم - وقل رب زدني علما - ثم - لا إله إلا أنت سبحانك - ثم - رب لا تنذرني فردا - ثم - وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - ثم - ربنا هب لنا من أزواجنا - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين - ثم - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي - الآية من سورة الأحقاف ثم - ربنا اغفر لنا



«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة (١)» وأشار إلى أصابعه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

( بيان كون الصبر نصف الإيمان )

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا والمعارف أبواب والأعمال أبواب ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين للمعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن للمصيبة ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال الثمرة للأعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيها وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين . باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيق والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة قسط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بمجود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فان اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

( بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عناه الصبر )

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد وللرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمدا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفس عن مشتريات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان في احتمال الغنى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان في حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمى حلا ويضاده التذمر وإن كان في نائمة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان في إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولا خواتنا الدين -  
الآية ثم - ربنا عليك  
توكلنا - ثم رب اغفر  
لى ولوالدى ولمن دخل  
بى مؤمنا وللمؤمنين  
والؤمنات ولا تزد  
الظالمين إلا تبارا -  
مها يصل فليقرأ بهذه  
الآيات وبالحفاظ على  
هذه الآيات فى الصلاة  
مواظنا للقلب واللسان  
يوشك أن يرقى إلى  
مقام الاحسان ولورد  
فرد آية من هذه فى  
ركعتين من الظهر أو  
الصبر كان فى جميع  
الوقت مناجيا لمولاه  
وداعيا وتاليا ومصليا  
والدؤوب فى العسل  
واستيعاب أجزاء النهار  
بلقادة وحلاوة من  
غير سامة لا يصح

الحرم وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ صمى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق  
الإنسان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر  
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفة»<sup>(١)</sup> وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وصمى الكل صبرا فقال تعالى  
- والصابرين في البأساء - أي للصيبة - والضراء - أي الفقر - وحين البأس - أي المحاربة - وأولئك  
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعاني من  
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذاتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة والذي  
يسلك الطريق للمستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعاني أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي  
فانها وضعت دالة على المعاني فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع  
لا بد وأن يزل وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى - أفمن يمشى مكبرا على وجهه أهدي أمن يمشى  
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يغلطوا فيها غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل  
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

( بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف )

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا يبق  
له قوة للنزعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة  
هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون للقرينين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا هؤلاء لازموا الطريق  
للمستقيم واستبوا على الصراط القويم واطمأننت نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى للنادي  
- يأتيتها النفس الطمينة ارجعي إلى ربك راضية مرضية - . الحالة الثانية أن تغلب داعي الهوى  
وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة  
وهؤلاء هم النافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فكروا  
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله واليهام بالإشارة بقوله تعالى  
- ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -  
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم - فأعرض عمن  
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط  
والفرور بالأمان وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد  
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»<sup>(٢)</sup> وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق  
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على قلبي أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن  
الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل  
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته فقد صار عقله في يد شهواته كسليم  
أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الحنجر وحملها وعمله عند الله تعالى  
محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر  
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا  
لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل  
بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف

(١) حديث الحج عرفة أحجج النبي من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

إلا بعد تزكت نفسه  
بكمال التقوى  
والاستقصاء في الزهد  
في الدنيا وانزع منه  
متابعة الهوى ومقاييس  
على الشخص من  
التقوى والزهد والهوى  
بقية لا يدوم روحه في  
العمل بل ينشط وقتا  
ويسأم وقتا ويتناوب  
النشاط والكسل فيه  
لبقاء متابعة شيء من  
الهوى بنقصان تقوى  
أو محبة دنيا وإذا صح  
في الزهد والتقوى فإن  
ترك العمل بالجوارح  
لا يفتر عن العمل بالقلب  
فمن رام دوام الروح  
واستحلاء الدؤوب في  
العمل فعليه بحسم مادة  
الهوى والهوى روح  
النفس لا يزول ولكن

تزل متابعته والنبي  
عليه السلام ما استعاذ  
من وجود الهوى  
ولكن استعاذ من  
متابعته فقال « أعوذ  
بك من هوى متبع »  
ولم يستعذ من وجود  
الشح فانه طبيعة  
النفس ولكن استعاذ  
من طاعته فقال « وشح  
مطاع » ودقائق متبعة  
الهوى تتبين على قدر  
صفاء القلب وعلو الحال  
فقد يكون متبع للهوى  
باستحلاء مجالسة الخلق  
ومكالمهم أو النظر  
إليهم وقد يتبع الهوى  
بتجاوز الاعتدال في  
النوم والأكل وغير  
ذلك من أقسام الهوى  
للتبع وهذا شغل من  
ليس له شغل إلا في الدنيا

الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الحسيس الذي هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلماً لكافر بل هو كمن قصد الملك النعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أن يفض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنعمته لأن الهوى أفض إليه عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين بعد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئاً منها أو يغلب بعضها دون بعض وتنزل قوله تعالى - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً - على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً الدبر يقينا ولذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كقص القادرين على التمام

ويتقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجهود شديد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ونحس ذلك باسم الصبر وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسر - ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لعوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باغث الدين وباغث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات واقفعت وتسلبت باغث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » (١) وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على اللصائب والبلايا : واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نقل والصبر على الأذى المحظور كمن تقطع يده أو يذ ولده وهو يصبر عليه ما كتباو كمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم والصبر للمكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميع محمود جل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

( بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال )

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما هو الذي يوافق هواه .

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم .

والآخر هو الذي لا يوافق بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة واللئال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهمك في ملاذها الباحة منها أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والعوائق لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخله مجبنة مخزنة (١) » . « ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن النبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذه (٢) » ففي ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرج بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالاتفاق وفي بدنه يذل للمعونة للخلق وفي لسانه يذل للصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق النكر كما سيأتي وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجابة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على قصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثاني : ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشقي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان . الضرب الأول : الطاعة والعبد يحتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجدله مجالاً وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان متمتعا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبداده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء؛ فاذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء

(١) حديث الولد مجبنة مبخله مخزنة أبو يعلى اللوصلى من حديث أبي سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن النبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .

ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ في الأربع قبل العصر إذا زلزلت والماديات والقارعة والمهاكم وصلى العصر ويجعل من قراءته في بعض الأيام والسماء ذات البروج وممعت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الله ما ميل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

العصر ذهب وقت  
التفعل بالصلاة وبق  
وقت الأذكار والتلاوة  
وأفضل من ذلك  
مجالسة من يزهد  
في الدنيا ويسدد  
كلامه عرا التقوى  
من العلماء الزاهدين  
للكلمين بما يقوى  
عزائم المؤمنين فاذا  
صحت نية القائل  
والستمع فهذه المجالسة  
أفضل من الانفراد  
والداومة على الأذكار  
وإن عذمت هذه  
المجالسة وتعذرت  
فليرجح بالتفعل في  
أنواع الأذكار وإن  
كان خروجه لحوائجه  
وأمر معاشه في هذا  
الوقت يكون أفضل  
وأولى من خروجه

ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صاوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »<sup>(١)</sup> وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شذائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض وقيل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى - فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو البروة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثاني للعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع للعاصي في قوله تعالى - ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه »<sup>(٢)</sup> والعاصي مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن للعاصي الصبر عن اللعاصي التي صارت مألوفاً بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتضريحا . وأنواع الزح للوذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر اللوئى والقدح فيهم وفي علوهم وسيرهم ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداها نفى الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية ولا اجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات بصبر الصبر عنها ، وهي أكبر للووقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها ترى الإنسان يلبس حريرا مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد »<sup>(٣)</sup> فلا ينبغي غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد للعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوسوس فلا جرم يبقى

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والفسائى في الكبرى بالشرط الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الغيبة أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه . القسم الثاني ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه كالو أذى بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى ، وقال تعالى - ولنصبرن على ما آتيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون - « وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرّت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر من هذا فصر<sup>(١)</sup> » وقال تعالى - ودع أذاهم وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرة جيلا - وقال تعالى - ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصص وغيره فقال تعالى - وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك<sup>(٢)</sup> » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة و هلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا<sup>(٣)</sup> » فهذا صبر مستندة حسن اليقين . وقال أبو سليمان وألفه ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو أولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب ميزانا أو أنشر له ديوانا<sup>(٤)</sup> »

في أول النهار ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء . وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون ويقول كلما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسبي الله لا قوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ؛ وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو ثمرة أو لقمة فإن القليل بحسن النية كثير . وزوى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمة مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو أولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم أوثرني في مصيبتى وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك <sup>(٢)</sup> » وقال أنس حديثي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كريمته قال سبحانه لا أعلم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه ودما خيرا من دمه فإذا برأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي <sup>(٤)</sup> » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أزعجه عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنعم الله على عبد نعمة فأنزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الرضا لا يتمنى فوق منزلته ، وقيل حبس الشبلي رحمه الله في السارستان فدخل عليه جماعة فقال من أتم قالوا أحباؤك جاءوك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي ، وكان بعض العارفين في جيهة رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها - واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا - ويقال إن امرأة تنح للوصلي عثرت فاقطع ظفرها فضحك فقيل لها أما تعجدين الوجع فقالت إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك <sup>(٥)</sup> » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كفه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في الحذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرتني قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فإني صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر السالك طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمرو بن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد اللبالي في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللمزمذ من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كريمته الحديث الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسمل وأسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصر عوضته منهما الجنة رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثوبا دون الجنة قلت يا رسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي ببلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه الحديث مالك في اللوطا من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفا على أبي هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في اللرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لتأقيل ذر كثير . وجاء في الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له خرز من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فن قات فبماذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية الصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغير العادة في اللبس والفرش والطعم وهذه الأمور داخلية تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقامت فسجنته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقامت فحيأت له إبطاراه فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تضرعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بشئ ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبى طلحة ، وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب الصيبة من غيره ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإني أرى رحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجابة والقصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسبأ في ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجیح يعزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبواه له . واعلم أن للساضي قبلك هو الباقي والباقي بعدك هو للأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالتواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة قد تظهر لك بهذه التسميات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فان الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والافتراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدرك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكير يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الخيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره وأمن يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه بل يقدر الخائف من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به

(١) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقامت فسجنته في ناحية البيت الحديث طب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله والكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ومحمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة



مرة ما شاء الله لا قوة  
إلا بالله ورأيت بعض  
الفقراء من المغرب  
بمكة وله سبعة فيها  
ألف حبة في كيس  
له ذكر أن ورده أن  
يديرها كل يوم ألفي  
عشرة مرة بأنواع  
الذكر . وقيل عن  
بعض الصحابة أن  
ذلك كان ورده بين  
اليوم واليلة وقيل عن  
بعض التابعين كان  
ورده من التسبيح  
ثلاثين ألفا بين اليوم  
واليلة وليل مائة  
مرة بين اليوم واليلة  
هذا التسبيح سبحان  
الله العلي الديان سبحان  
الله شديد الأركان  
سبحان من يذهب  
بالليل ويأتي بالنهار

في محالته ولا يزال في شغل دائم فالشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة  
جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان  
من صلصال كالفخار والقهار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها  
الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبيعتها وقد كلف للملعون المخلوق من النار أن  
يطمئن عن حر كته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستصصى وعبر عن سبب استعصائه  
بأن قال - خلقني من نار وخلقته من طين - فأذن حيث لم يسجد للملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه  
وسلامه فلا ينبغي أن يطعم في سجوده لأولاده ومهما كلف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه  
وجولانه فقد أظهر اقياده وإذعانه واقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وإتمامه الجبهة  
على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف  
بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي للعظم المحترم يرى استخفافا بالمادة فلا ينبغي أن  
يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح ونشر اللب عن اللب فتكون بمن قده  
عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من النظيرين فلا يتواضع لك بالكف عن  
الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهو منك هم واحد قد تشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا  
فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولا تظن  
أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدر  
فأنك إن أردت أن يخلو القدر عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره فقد طمعت في غير  
مطمع بل بقدر ما يخلو من اللب يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بغيرهم في الدين  
لا يخلو عن جولان الشيطان وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا  
الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين - وقال صلى  
الله عليه وسلم «إن الله تعالى ينقض الشاب الفارغ<sup>(١)</sup>» وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل  
باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يشغله فيه الشيطان  
ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفراده أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان  
توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلقاء اليابسة كثرت والله  
فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس  
الشاب للشيطان كالحلقاء اليابسة للنار وكما لا يتبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى  
للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فأذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك  
ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو فقال هي  
نفسك إن لم تشغلها شغلتك فأذن حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حر كدمومة وحر كالباطن  
أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله جيسن التوفيق بمنه وكرمه .

( بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه )

اعلم أن الشيء أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقا أو ممثنا فتحصيله ممكن  
بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تكب الأدوية للأمراض القلوب كلها ولكن  
يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام الملل للمانة منه  
مختلفة وإذا اختلفت الملل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك بما يطول

(١) حديث إن الله ينقض الشاب الفارغ لم أجده .

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فنقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الواقع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدّثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسهيل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحرّكة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة . الثاني قطع أسبابه المهيجة في الحال فانه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور للشهوات والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس <sup>(١)</sup> » وهو سهم يسدده للعون ولا ترس يمنع منه إلا تعميص الأجنان أو الحرب من صوب رمية فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه . الثالث تسليّة النفس بالمباح من الجنس الذي تشبهه وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهي الطبع في اللباحت من جنسه ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعله بالصوم فان الصوم له وجاء <sup>(٢)</sup> » فهذه ثلاثه أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهاى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضارى ليضعف فتسقط قوته . الثاني يضاهاى تغيب اللحم عن الكلب وتغيب الشعر عن البهيمة حتى لا تحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهاى تسليتها بشيء قليل مما يعيل إليه طبعها حتى يبق معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقتين أحدها إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر : إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مودة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أيد الدهر ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينفى أن يحزن لقوات الخسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجها شديدا وإن ضعف ضعفه وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن يهود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها فان الاعتقاد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكّد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الجمالين والفلاحين والقاتلين وبالجملة تقوى للمارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والطارئين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قواهم لم تنهك بالممارسة فالعلاج الأول يضاهاى أطباع المصارع بالجملة عند الغلبة ووعده بأنواع العكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال - وإنكم إذا لمن للقربين - والثاني يضاهاى تعويد الصبي

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعله بالصوم الحديث تقدم في النكاح .

سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الحنان اللين سبحان الله المسبح في كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر فسمع في هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذي أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أصبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت ما اسمك فقال مهلبائيل قلت ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . وروى أن عثمان رضى

الله عنه سأله رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
عن تفسير قوله تعالى  
- له مقاليد السموات  
والأرض - فقال سألتني  
عن شيء عظيم ما سألتني  
غيرك هو إلا الله  
والله أكبر وسبحان الله  
والحمد لله ولا حول  
ولا قوة إلا بالله عز وجل  
وأستغفر الله الأول  
الآخر الظاهر الباطن  
له الملك وله الحمد  
الحمد لله وهو على كل شيء  
قدير من قائلها عشر  
حين يصبح وحين  
يمسي أعطيت ست خصال  
قأول خصلة أن يحرم  
من إبليس وجنوده  
الثانية أن يعطى قطارا  
من الأجر الثالثة يرفع  
له درجة في الجنة

الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأمن به ويستجري عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالسكينة المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه وإنما أشدها كفف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن وقع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصبر المومها واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينبغي إلا الأوراد المتواصلة للترتبة في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطينان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب البعشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة . وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالطعم والملبس وأسباب العاش فان تهته ذلك أيضا تخرج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملة أو واقعة وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والالتقاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تتأهل بالاكْتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقديقل الجهد ويحل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الخطو والعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجدوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو متجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب مجاورة إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يبسر الله تعالى أسباب الرزق فنا علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا مطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يغلي سنة عن مطر فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع المهم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان المهم والأنفاس أسباب يحكم تقدير الله تعالى لاستدرا رحمة حتى

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدراز أمطار الكاشفات والطائف المعارف من خزائن  
 للسكرات أشد مناسبة منها لاستدراز قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل  
 الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك  
 حجاباً بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من  
 باطن القلب واطهار ماء الأرض بمحجر القنى أسهل وأقرب من استرسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها  
 ولكونه حاضراً في القلب ومنسياً بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكري فقال تعالى  
 - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وقال تعالى - ولتذكر أولوا الألباب - وقال تعالى - ولقد  
 يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات  
 الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الحواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا  
 إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب  
 شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق  
 على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في  
 الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية  
 والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمر الربوبية وغنة العبادة بقوله تعالى  
 - قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب  
 تقرير الشيطان اللعين للبعد عن عالم الأمر إذ حسنه على كونه من عالم الأمر فأضله وأغواه وكيف يكون  
 مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب إلبقاء لافناء فيه وعزا لادله فيه وأما لاخوف فيه  
 وغنى لا فقر فيه وكالا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل  
 حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخره وطالب الملك طالب للعز والكمال لا محالة ولكن الملك  
 ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك خلد  
 دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة فجاء  
 الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة  
 الحق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال عليه السلام «والأحقق من أتبع نفسه  
 هواها وتغنى على الله الأمانى» فأنخدع الخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم  
 يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فبهر عن الخذولين بقوله تعالى - كلا  
 بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً  
 ثقيلاً - وقال تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم -  
 ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق  
 من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل  
 له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم - يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انظروا في سبيل  
 الله أنما قلتم إلى الأرض أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل -  
 فالتوراة والإنجيل والزيور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما نزل إلا لدعوة  
 الخلق إلى الملك الدائم الخلد والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة أما ملك الدنيا  
 فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لافناء فيه وعزا  
 لا ذل فيه وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك  
 الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً

الرابعة يزوجه الله من  
 الحور العين الخامسة  
 اثنا عشر ملكاً  
 يستغفرون له السادسة  
 يكون له من الأجر كمن  
 حج واعتمر ويقول  
 أيضاً في هذا الوقت وفي  
 أول النهار اللهم أنت  
 خلقتني وأنت هديتني  
 وأنت تطعمني وأنت  
 تسقيني وأنت تميتني  
 وأنت تحييני أنت ربي  
 لا رب لي سواك ولا  
 إله إلا أنت وحدك  
 لا شريك لك ويقول  
 ما شاء الله لا قوة إلا بالله  
 ما شاء الله كل نعمة  
 من الله ما شاء الله الخير  
 كله بيد الله ما شاء الله  
 لا يصرف السوء إلا الله  
 ويقول حسبى الله لا إله  
 إلا هو عليه توكلت

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم معها تسلم وتم الأسباب ينقضى العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصد عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل الهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذًا بمخنته إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترار الانسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة ومليكى أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبدلى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكك هؤلاء كلهم فهم عبيدلى فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك في الآخرة فالحمدوعون بمرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وقوا الاشتداد على الصراط استقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بركة ملكا في الحال وترجوه ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألغى الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور: أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحرمة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وقيل في مسكن ومابس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغى أن يبدلها بغيرها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة إلا للزيادة . الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع قور ولا يمكن قلبه عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسلى نفسه ببعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التى رسخت فيه وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن للنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» (١) وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه» (٢) فاذا ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضافه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربح المهلكات فآخذة دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التى فصلناها من قبل فإن تفصيل الأحاد بطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه تقدم فيه .

وهو رب العرش العظيم  
ثم يستعد لاستقبال  
الليل بالوضوء والطهارة  
ويقرا السبعات قبل  
التسربوب ويديم  
التسبيح والاستغفار  
بحيث تغيب الشمس  
وهو في التسبيح  
والاستغفار ويقرأ عند  
التسربوب أيضا والشمس  
والليل والعمودتين  
ويستقبل الليل كما  
استقبل النهار قال الله  
تعالى - وهو الذى  
جعل الليل والنهار خلف  
لمن أراد أن يذكرا أو  
أراد شكورا - فكما  
أن الليل يعقب النهار  
والنهار يعقب الليل  
ينبغي أن يكون العبد  
بين الذكر والشكر  
يعقب أحدهما الآخر

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه وهذا لا يعرف إلا بالنجربة والدوق وله نظير في العادات فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال الصبر في الله تعالى فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فقال فيش؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى - اصبروا وصابروا وابطأوا - اصبروا في الله وصابروا بالله وابطأوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه: والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود وقيل أيضاً: الصبر يحمل في للوطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره.

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر، وله ثلاثة أركان

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه. الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة. الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول في نفس الشكر

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرفي كتابه مع أنه قال - ولله أكبر - فقال تعالى - فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم - وقال تعالى - وسنجزى الشاكرين - وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين - لأقعدن لهم صراطك المستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ولا تجدوا أكثرهم شاكرين وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الأغناء والجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى - فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء - وقال: يرزق من يشاء بغير حساب وقال: ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال: ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين - وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» (١) وروى عن عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأى شأنه لم يكن عجباً أتاني ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدِي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لكنني أوتره والفاذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلاً كون عبداً شكوراً ولم لأفعل ذلك

(١) حديث الطعامة الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف.

ولا يخللها شيء كما لا يخلل بين الليل والنهار شيء والدكر جميعه أعمال القلب والشكر أعمال الجوارح قال الله تعالى - اعملوا آل داود شكراً - والله الوفي العين -

[ الباب الحادي والخمسون في آداب المريدين مع الشيخ ]  
أدب المريدين مع الشيخ عند الصوفية من مهام الآداب وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى على - إن في خلق السموات والأرض - (١) « الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيزه من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذلك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً . وروى عنه عليه السلام أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقيم الحمدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمدون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٢) » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في رضىته بالشكر مكافأة من أوليائى في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل في السكون مازل . قال عمر رضى الله عنه « أى اللال تتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لساناً إذا كرا وقلبا شاكراً (٤) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن اللال . وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان .

( بيان حد الشكر وحقيقته )

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحبو به ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة في حقه وبذات النعم ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه . عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفة هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط مستخرون من جهته . وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتقار بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأى أمره لم يكن عجبا الحديث في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزى في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبى حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء دون قولها وأى أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٢) حديث ينادى يوم القيامة ليقيم الحمدون الحديث الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحمدون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده أصلا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة الكبير رداؤه الحديث وتقدم في العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا إذا كرا وقلبا شاكرا الحديث تقدم في النكاح .

الله جميع عليهم -  
 روى عن عبد الله بن  
 الزبير قال قدم وفد  
 على رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم من بني تميم  
 فقال أبو بكر أمر  
 القعقاع بن معبد وقال  
 عمر بل أمر الأقرع  
 بن حابس فقال أبو بكر  
 ما أردت إلا خلاقي  
 وقال عمر ما أردت  
 خلافتك قماريا حتى  
 ارتفعت أصواتهما  
 فأمر الله تعالى بإيائها  
 الذين آمنوا - الآية  
 قال ابن عباس رضى  
 الله عنهما لا تقدموا  
 لا تتكلموا بين يدي  
 كلامه وقال جابر كان  
 ناس يضحون قبل  
 رسول الله فنهوا عن  
 تقديم الأضحية على

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك ، نعم لا ينقض من توحيده في حق الملك وبكال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه فانه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فان الله تعالى هو السلط للدواعي عليها لفعل شاءت أم أبت كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه للقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما تفعلك فهو إذن إنما يطلب شع نفسه بنفعك فليس بمنعك عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك فان عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجرد ما شاكرنا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم يديك وفعلت وفعلت فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرنا فاذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فان خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأصل. الأصل الثاني: الحال للستمة من أصل للعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

(١) حديث من قال سبحان الله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن جابر من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجدهم رفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفا .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبي لا نسبوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب الريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا لأعمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى



شكر على تجرّده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه ، وشرطه أن يكون فرح بالنعمة ولا بالإنعام ، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأنتم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح للنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجد في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح . الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشقيقته عليه وإهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغناؤه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك . الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يفتنح بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتق به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطة ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظرها صاحبها مقصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعطي ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذينة ومواقفة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الانعام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا . وأما أنه أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعتبه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذينة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهمليج بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكر رؤية للنعم لارؤية النعمة . وقال الحوّاص رحمه الله : شكر العامة على اللطم واللبس والشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدرجات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الضجة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلّ الأشياء للذة كما قيل :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّابه للاء الزلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فعزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه . الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة للنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير وإضاره لكافة الخلق . وأما باللسان فأظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت أمشي أمام أبي بكر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تمتنى أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة وقيل نزلت في أقوام كانوا يجلسون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شيء خاضوا فيه وتقدّموا بالقول والفتوى فهوا عن ذلك وهكذا أدب الريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يأنم السكوت ولا يقول شيئا يحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحله في ذلك وشأن

الاستعانة بها على معصيته حتى إن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يتساءلون ونيّهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك للملوك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو البلي والقادر على إزالة البلاء وذلّ العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذلّ وإظهار القلّة للعبد مع كونه عبدا مثله ذلّ قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يأمر المؤمنين لو كان الأمر بالسنة لكان في المسلمين من هو أسنّ منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة النعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشد منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طيفيا إشارة إلى أن معنى للعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجند الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تنفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما بهمهم عمالا بهمهم أو يتكلمون بما يرونه لا بما يحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لوعرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يقتل بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله للوفيق برحمته .

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح .

السريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه فتطمعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطمعه إلى القول بده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جناية للريد . وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

( بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى )

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر للولوك إما بالثناء ليزيد محلمهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين يديه ركها سجدا فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه يضاهاى شكرنا للملك النعم علينا بأن تام في يوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ماتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول منا بل كان الثاني محتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر له أود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكركم لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة مني رضى منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فاني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكر للخلة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم العامة ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه للشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبداً لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ للوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - فقال وأعجابه أعطى وأبني إشادة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني وهو المثني عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميثقي حيث قرئ بين يديه - يحبهم ويحبونه - فقال لعمري يحبهم ودعه يحبهم

وهو عند حضور  
الصادقين يرفع قلبه  
إلى الله ويستعطر  
ويستسقى لهم فيكون  
لسانه وقلبه في القول  
والنطق مأخوذين إلى  
مهم الوقت من أحوال  
الطالبين المحتاجين إلى  
ما يفتح به عليه لأن  
الشيخ يعلم تطلع  
الطالب إلى قوله  
واعتداده بقوله  
والقول كالبذر يقع في  
الأرض فاذا كان  
البذر فاسدا لا ينبت  
فساد الكلمة بدخول  
الهوى فيها فالشيخ  
ينقى بذر الكلام عن  
شوب الهوى ويسلمه  
إلى الله ويسأل الله  
المعونة والسداد ثم يقول  
فيكون كلامه بالحق

فبحق محبتهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل مافي الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنفته فإن أحبه فما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز فيضحك عليهم الجبال لجملهم بمعاني كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الدين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظرين . النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قهرا قسم لم يشتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب بعد وهؤلاء هم العميان للنكوسون وعماهم في كلتا العينين لأنهم تقوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم قائم به ولم يقتصر واطى هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لامن حيث وجدوا وفرق بين الوجود وبين الوجد وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد فالوجود حق والوجد باطل من حيث هو هو الوجود قائم وقيوم وللوجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني ليس بهم عى ولكن بهم عور لأنهم يبصرون بأحدى العينين وجود الوجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عماها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتنا بين الوجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقولون والجاحدون والمتركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

من الحق للحق فالشيخ  
للمريدين أمين الإلهام  
كما أن جبريل أمين  
الوحي فكما لا يخون  
جبريل في الوحي  
لا يخون الشيخ في  
الإلهام وكما أن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
لا ينطق عن الهوى  
فالشيخ مقتد برسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
ظاهرا وباطنا لا يتكلم  
بهوى النفس . وهوى  
النفس في القول  
بشئين : أحدهما طلب  
استجلاب القلوب  
وصرف الوجوه إليه  
وما هذا من شأن  
الشيخ . والثاني ظهور  
النفس باستحلاء  
الكلام والعجب وذلك  
خيانة عند المحققين

لسكل إلى شأو العلا حر كات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قليل له - واسجد واقترب - قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقرب ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقرب ورتقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذا ومثنياً ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقرب فقال «لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» قوله صلى الله عليه وسلم «لأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» بيان أنه اللئى واللئى عليه وأن السكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شئ هالك إلا وجهه - فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله فيستعبد بفعل من فعل فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (٢) فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض أو لها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضى الله عنها «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبداً شكوراً» (٣) بمعنى أفلا أكون طالباً للمزيد في اللقائات فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا تغلغلنا في بحار للكاشفة فلنقبض العنان ، ونرجع إلى ما يليق بعلوم للعامة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا للدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرح كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك اللقائات بالإضافة إلى تلك للمشاهدة الشكر والشكر والشكر والشكر ولا يعرف ذلك إلا بمثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً وقد أجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبِعافاتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقيله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها للتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المغيرة بن شعبه .

والشيخ فيما يجرى على لسانه راقداً النفس تشغله مطالعة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يليق إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

لأنه لا يفوى على القيام بخدمة تقى فيه غناء وغيتة لا تنقص من ملكه فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا ينتفع الملك به وابتغاه فتمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لافي للمنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرًا وكافرًا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنعم الله عليه مولاه فيما أحبه لأجله للأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطيه أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فهم البس العبد الثوب وركب الفرس ولم يتفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته في محبته أي فيما أحبه لعبده لأنفسه وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لأنفسه وإن جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذ أهملها وعطّلها وإن كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيعدون بها عن حضرته وإتمام سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقرّبهم عبر الله تعالى إذ قال - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتقامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشتملها الشبهة ولكن لا تشتملها المحبة والكرهية بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سرّ القدر الذي يمنع من إفشائه وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضاً ينحل الثاني فانا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أنعم عليك وثأؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أنعم وصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل اللعني الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً فان قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقاً وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) «لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى وعمل أفعاله وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وإن كان جارياً على

في المنام كأن قال لا يقول له أليس الغواص ينوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في محلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل فقههم بالنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب المرید مع الشيخ السكوت والجمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولاً وفعلًا وقيل أيضاً في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل بمهد شرط الحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان وما إلى النشأ فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا والاعتقاد سبب لميكان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار القرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن مماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا ولم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والقرور عليه فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك معمواعند ذلك نداء النداء - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعم الكشف ، فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فانه أصل أسباب الهلاك .

( بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه )

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه وتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدر كان : أحدها السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه اذ ما خلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالمعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب  
وأعزها وينبغى للمريد  
أن لا يحدث نفسه  
بطلب منزلة فوق  
منزلة الشيخ بل محب  
للشيخ كل منزلة عالية  
ويتعنى للشيخ عزيز  
النسب وغرائب اللواهب  
وبهذا يظهر جوهر  
المريد فى حسن الإرادة  
وهذا يعز فى المريد  
فإرادته للشيخ تعطيه  
فوق ما يتعنى لنفسه  
ويكون قائما بأدب  
الإرادة . قال السرى  
رحم الله حسن الأدب  
ترجمان العقل . وقال  
أبو عبد الله بن حنيفة  
قال لى رويم يابى  
اجمل عملك ملحا  
وأدبك دقيقا ، وقيل  
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صينا للنساء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبئتنا فيها حيا وغنا - الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت خفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة السماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم مماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين لا تبصر إلا للبش واليد لا لبش ولا للمشي والرجل لا للمشي لا للشم فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والرارة والكبد والكلى وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجايف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - فإذا من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لئلا يهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذ الإصاير يتم بها وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والنساء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس للطمعة بطول العباداة والعرفة فذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك العصية . ولندكر مثلا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرامم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يصحز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير لا يبدل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بثياب أو عبدا بخمف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوي بالزعفران فتعذر للعاملات جدا فافقرت هذه الأعيان للتنافرة التباعدة إلى متوسط بينهما يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدرام حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوي

لكل وقت وأدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهورى الصوت فكان إذا كلم انسا نا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأزل الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره .



أخبرنا ضياء الدين  
عبد الوهاب بن طي  
قال أنا أبو الفتح  
المروى قال أنا أبو نصر  
الرياقى قال أنا أبو محمد  
الجراحى قال أنا  
أبو العباس المحبوبي  
قال أنا أبو عيسى  
الترمذى قال ثنا محمد  
ابن الثنى قال ثنا مؤمل  
ابن إسماعيل قال ثنا نافع  
ابن عمر بن جميل الجحى  
قال حدثني حابس بن  
أبي مليكة قال حدثني  
عبد الله بن الزبير أن  
الأقرع بن حابس قدم  
على النبي صلى الله عليه  
وسلم فقال أبو بكر  
استعمله على قومه فقال  
عمر لا تستعمله يارسول  
الله فتكلمنا عند النبي  
صلى الله عليه وسلم

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن  
متساويان وإنما أمكن التعديل بالتقدين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما  
اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض  
له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل  
والحكمة أخرى وهى التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عززان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها  
ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً  
فانه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة  
مثلاً فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والثىء  
إنما تستوى نسبته إلى مختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لالون لها  
وتحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لامتعى له في نفسه  
وتظهر به العانى في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما  
عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كنزها  
قد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم للسليين في سجن بمنع عليه الحكم  
بسببه لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد  
خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحد في أعيانها فانهما حبران وإنما خلقا لتداولهما الأيدي  
فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يجزون  
عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذى  
لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام مسموع من رسوله صلى الله  
عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى  
- والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباد أليم - وكل من اتخذ من  
الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز لأن مثال هذا  
مثال من استسخر حاكم البلد في الحياة والكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس  
أهون منه وذلك أن الحرف والحديد والرصاص والنحاس تتوب مناب الذهب والفضة في حفظ  
المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكفي الحرف والحديد في المقصود الذى  
أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آتية من  
ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم<sup>(١)</sup> وكل من عامل معاملة إلى باطل الدراهم والدنانير فقد كفر  
النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لأنفسهما إذ لا غرض في عينهما فإذا أبحر في عينهما فقد اتخذها  
مقصوداً على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا قد معه نقد  
لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد  
آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فاتهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانها وموقعهما  
في الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء لمعنى في غيره  
وكموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على التقذاية  
عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة الكنوز وتقييد الحاكم والبريد للوصول إلى الغير ظلم  
(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم متفق عليه من  
حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً .

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للدخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز يبيع أحد النقدين بالآخر ولم جاز يبيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا ففي النع منه ما يشوش للمقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما يبيع الدرهم بدرهم بمثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساوى ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه فلا تمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء فذلك إما قد يقصده فلا جرم تمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحققا أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فاعلم أن الجزاء ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة الساعية فيكون له حمد وأجر . وللعارضة لاحد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص الساعية وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وإن جعله بضاعة تجارة فليسته ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في القرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه ثابت فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوى الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التمتع أسقط الشرع غرض التمتع فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهاء فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون المكيلات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا اللبس لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات ولكن كل معنى يرفع الشرع فلا بد أن يضبط بمحد وتحدد هذا كان يمكننا بالقوت وكان يمكننا بالمطعموم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعموم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحدد التحجير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فعين المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه -

حتى علت أصواتهما  
فقال أبو بكر لعمر  
ما أردت إلا خلافا وقال  
عمر ما أردت خلافا  
فأنزل الله تعالى الآية  
فكان عمر بعد ذلك  
إذا تكلم عند النبي  
صلى الله عليه وسلم  
لا يسمع كلامه حتى  
يستفهم . وقيل لما نزلت  
الآية آلى أبو بكر أن  
لا يتكلم عند النبي  
صلى الله عليه وسلم إلا  
كأن السراة فكذلك  
ينبغي أن يكون المريد  
مع الشيخ لا يبتسط  
رفع الصوت وكثرة  
الضحك وكثرة  
الكلام إلا إذا بسطه  
الشيخ فرفع الصوت  
تحية جلباب الوقار  
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما يحدث شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس السكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التجريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النعمين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة سون يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) وإذا عرفت هذا المثال قصص عليه حركاتك وسكونك ونطقك وسكونك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكرهية وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر - فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليمين إذ خلق الله لك اليمين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بمزيد رجائه في الغالب التشریف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليمين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للصحف وبعضها خسيس كالزلة النجاسة فإذا أخذت الصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعة في حركاتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ماشرقها بأن وضع فيها بيتنا أضافه إلى نفسه استالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهى شريفة كالطاعات وإلى ماهى خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فإذا رميت بصافك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك إذا لبست خنك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخنف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ فينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيضه ظلم وكفران لنعمة الخنف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن ساء الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الخطئة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست اللداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمور في هذه الأمور لأنه مسكين بل باصلاح العوام الذين تقرب درجهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقيس أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدر يساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة فقيس أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقيس أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فينبغي أن ينجب البعض فالسيد قد يساقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان  
ما يقول وقد ينزل  
باطن بعض للربدين  
من الحرمة والوقار من  
الشيخ مالا يستطيع  
للريد أن يشيع النظر  
إلى الشيخ وقد كنت  
أحم فيدخل على عمي  
وشيخي أبو النجيب  
السهروردى رحمه  
الله فيترشح جسدي  
عرقا وكنت أتمنى  
العرق لتخف الحمى  
فكنت أجد ذلك  
عند دخول الشيخ  
على ويكون في قدومه  
بركة وشفاء وكنت  
ذات يوم في البيت  
خاليا وهناك منديل  
وهبه لي الشيخ وكان  
يتعم به فوق قدمي  
على المنديل اتفاقا فلم

لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكايه في نفسه فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحا فيه في الفقه مع العوام فسيبه هذه الضرورة وإلا فكل هذه للكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة وقصان عن الدرجة البليغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكيفية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فأنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المينة على الطاعة . وأما الشجر فأنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغذاء والنجاء ليلبغ منتهى نشوه فيتنتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل فإن كان له غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جملا فداء لأغراض الانسان فأنها جميعا فانيان هالكان فافناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بعينها لا تنفي بحاجات عباد الله كلهم بل تنفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا يسعى آدمي اختص بمفرسه أو بفهرسه فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فالسابق خاصة السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك للملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالمالك ينصب مائدة لبيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها براجه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تنفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمرا الله في عبادته ولذلك تقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الدين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإعما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن الله واللعب حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاعتصار في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جيلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكموها فحسبكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الرأب فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن ركب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأب وبال عليه

باطن من ذلك وهاتين  
الوطء بالقسم على  
منديل الشيخ وانبعث  
من باطن من الاحترام  
ما أرجو بركته . قال  
ابن عطاء في قوله تعالى  
- لا ترفعوا أصواتكم -  
زجر عن الأدنى لئلا  
يتخطى أحدا إلى ما فاقه  
من ترك الحرمة وقال  
سهل في ذلك لا تخاطبوه  
إلا مستفهمين . وقال  
أبو بكر بن طاهر  
لا تبهدهم بالحطاب ولا  
تجيهوه إلا على حدود  
الحرمة ولا تجهروا له  
بالقول كجهر بعضهم  
لبعض أي لا تغلظوا له  
في الحطاب ولا تنادوه  
بأصواتهم يا أحمد يا أحمد كما  
ينادي بعضهم بعضا  
ولكن غصوه

في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك محتاج إلى مجلدات ثم لانفي إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا التقدير ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادي الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدوا كثيرهم شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت فقد رجح حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية للزادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باق وهو أن فعل العبد للنقسم إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى فأين العبد في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم الكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها فهمها من عرف منطق الطير ويحدها من يحجز عن الإيضاح في السير فضلا عن أن يحول في جوار للكوكب جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة على وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلاله وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لالتموس في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش واضطر الدين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعبروا من حضيض عالم التناطين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضئيلا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسروا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا الله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر أقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة للمشية فهي توهم منها أمرا مجملا عند التناطين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشية عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشية لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايتها عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايتها عبارة الكراهة وقيل إنهما جميعا داخلان في وصف المشية ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند طالي الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشية الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمتها دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمتها إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشية خاصة فاستعير لنسبة المستعبرين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقتت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساق بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموا وقولوا له :  
يا نبي الله يا رسول الله  
ومن هذا القبيل  
يكون خطاب المرید  
مع الشيخ وإذا سكن  
الوقار القلب علم اللسان  
كيفية الخطاب . ولما  
كلفت النفوس بحجة  
الأولاد والأزواج  
ونمكنت أهوية  
النفوس والطباع  
استخرجت من اللسان  
عبارات غريبة وهي  
تحت وقتها صاغها  
كلف النفس وهوها  
فاذا امتلأ القلب حرمة  
ووقارا تعلم اللسان  
العبارة . وروى لما  
نزلت هذه الآية قد  
ثابت بن قيس في  
الطريق يكي فربه  
عاصم بن عدي قال

بخلة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف للملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو اللئى على الجمال فهو اللئى عليه بكل حال وكأنه لم يأن من حيث المعنى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلعج بالبصر أو هو أقرب فافضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد القدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ولفظ القدر بإزاء التفصيل للتأدى إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لما إذا اقتضت هذا التفصيل وكيف اتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاختواء على مجامعه فألجؤا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم لا يستل عما يفعل وهم يستلون وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسه نار فمسته نار فاشتعل نورا على نور فأشرقته أقطار للملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه قبيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكنوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١) فان للحيطان أذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتسبوا من بقايا أنواركم للشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيجابه حياة محتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة للتردين في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب  
شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يهتد ولكن إلى حداما إذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجروا به أعشى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد قدر الماهر بصناعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجروا به آخر فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة للشيء على الماء إلى الشيء على الأرض والسباحة يمكن أن تعلم فأما الشيء على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لمشى على الهواء (٢) » فهذه

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح للصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد الحواريون نبيهم قليل له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما اتهموا إلى البحر

ما يبيحك يا ثابت قال  
هذه الآية تخوف أن  
تكون زلت في - أن  
تخط أعمالك وأنتم  
لا تشعرون - وأنا  
رفيع الصوت على النبي  
صلى الله عليه وسلم  
أخاف أن يحيط عملي  
وأكون من أهل النار  
ففضى عاصم إلى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
وغلب ثابتا البكاء  
فأتى امرأته جميلة بنت  
عبد الله بن أبي بن سلول  
قالت لها إذا دخلت  
بيت فرسى فسدى على  
الضبة بمسار فضربت  
بمسار حتى إذا خرجت  
عطفتها وقال لا أخرج  
حتى يتوفاني الله أو  
يرضى عني رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فلما

رموز وإشارات إلى معنى السكر اهفة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم العاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قل نزل به روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ليضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف المباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والارشاد سيقاه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أتبعهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى؟ فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل للكره والكره بالشخص المكره والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل فإن عدله تارة يتم بأمر لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضاً من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعملك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبته بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال للعدالة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فذلك تضيغه إلى نفسك وإعما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لب للشعبد الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد الشعبد وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده ، وأما العقلاء فأنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الشعبد الذي الأمر إليه والحادثة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها التحركة فيحيون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفين والعلماء الراسخون فأنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عسكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لادقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رموس تلك الخيوط في مناطق لها هي معلقة بها وشاهدوا تلك المناطق مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسماوات وشاهدوا أيضاً ملائكة السماوات منصوفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يصوا الله ما أمرهم ويفعلوا ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر بقيل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص

إذا هو قد أقبل يمشي على الماء قد كر حديثاً فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لوعرقم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

أتى عاصم النبي وأخبره  
بخبره قال اذهب  
فادعه فجاء عاصم إلى  
الكان الذي فيه رآه  
فلم يجده فجاء إلى أهله  
فوجد في بيت الفرس  
فقال له إن رسول الله  
يدعوك فقال اكسر  
الضية فأتى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : ما بيك  
يا ثابت فقال أنا صيت  
وأخاف أن تكون هذه  
الآية نزلت في فقال له  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم أما رضى أن  
تعيش سعيداً وتقتل  
شهيداً وتدخل الجنة  
فقال قدر ضيقت بشري  
الله تعالى ورسوله ولا  
أرفع صوتي أبداً على

الراسخين في العلم معلوم لا تختملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمرينهن - فقال لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجعتموني وفي لفظ آخر قلتم إنه كافر . ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله لللائكة ولهم أيضاً ترتيب ومانهم إلا وله مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ويلي درجتهم درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وعم بهم حكمتهم وأعلامهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فانه أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج راع . واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكفرون ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر فان أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فلهم الوزر وعليكم الصبر <sup>(١)</sup> » . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعا السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير قال السلطان فقيل كذا ترى أن شر الناس السلطان فقال مهلاً إن لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الحشبات السود للعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصياً يقصون .

( الركن الثاني من أر كان الشكر ماعليه الشكر )

وهو النعمة فلندكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وبجماها فيما يخص ويعم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فنقدم أموراً كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب .

( بيان حقيقة النعمة وأقسامها )

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتكفرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أمراء وقال حسن صحيح والبخاري بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو خاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبيد الله اصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثاً والإمارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبراني في الكبير باسناد لا بأس به .

رسول الله فأنزل الله تعالى - إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله - قال أنس كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان يوم القيامة في حرب مسلماً ترى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهمزمت طائفة منهم فقال آف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتنا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله



صلى الله عليه وسلم  
وعليه درع فرآه  
رجل من الصحابة بعد  
موته في المنام فقال له  
اعلم أن فلانا رجلا من  
المسلمين نزع درعي  
فذهب بها وهو في  
ناحية من العسكر  
وعنده فرس يستن  
في طيله وقد وضع على  
درعي برمة فأتته  
ابن الوليد فأخبره  
حتى يسترد درعي وأنت  
أبا بكر خليفة رسول  
الله عليه السلام قل  
له إن علي دينا حتى  
يقضى عني وفلان من  
عبيدي عتيق فأخبر  
الرجل خالدًا فوجد  
الدرع والفرس على  
ما وصفه فاسترد الدرع  
وأخبر خالدًا أبا بكر

السعادة الأخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقًا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويسمى عليها إما بواسطة واحدة أو بواسطة ثلثة فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يقضى إلى النعمة الحقيقية والأسباب للنعمة والذات المسماة نعمة تشرحها بتقسيمات [القسم الأول] أن الأمور كلها بالإضافة إلى ما تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحقيرا وهو ضدها والنافع في الحال والضرر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يبعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه والضرر في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأقسام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعامل يبعده نعمة ويتقصد المنة بمن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولداه من الحجامه والأب يدعوها إليها فإن الأب لكامل عقله يلج العاقبة والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال والصبي لجهله يتقصد منة من أمه دون أيه ويأمن إليها وإلى شقيقتها ويقدر الأب عدوا له ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن منعها إياه من الحجامه يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامه ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو [قسمة ثانية] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضرر كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى ماضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكافئ ضرره نفسه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفعه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حق [قسمة ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول ما يؤثر لذاته لا لغيره كذلة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا يقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته كالدراهم والدينار فإن الحاجة لو كانت لا تقضى بها لكانت هي والحسب بمتابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى الذات سريعة الإقبال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتهنئته وهو غاية الجهل والضلال . الثالث ما يقصده لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليتقرب بسببها إلى الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراءى سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل

من حيث إنها سلامة فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً وما يؤثر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأول فأما ما لا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهم من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والمادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب والدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة [قسمة رابعة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيد وجميل فاللذيد هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والضرور أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فأنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقص وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة . والضرب الثاني للقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب نافع ومؤلم كقطع الأصبع للتأكل والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحق فانه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قبحاً ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما وإلى ما لا يكون ضرورياً كالسكنجيين مثلاً في تسكين الصغراء فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قسمة خامسة] اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيد والذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق واللبط ولا الفرج وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل الذات وجوداً وهي أشرفها أما قلتها فلأن العلم لا يستلذ إلا عالم والحكمة لا يستلذها إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر للتسمين باسمهم والتسمين برسومهم وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ودائمة لا تمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستقل والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستقل ومن قدر على الشريف الباقي أبداً الآباد إذا رضي بالحسبي الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظه بخلاف المال إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزيد بالإتقان والمال ينقص بالاتفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً ثم العلم نافع ولذيد وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيراً في مواضع وأما قصوراً أكثر الخلق

بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس رضي الله عنهما لأعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذي يعتمد مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال - أولئك

عن إدراك لذة العلم فإنما لعدم الذوق فمن لم يذوق لم يعرف ولم يشق إذ الشوق تبع الذوق وإما الفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمرض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًا وإما لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذينة ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن ذوق لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحى باطنه كالطفل وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لينذر من كان خيا - إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كذمة الرياضة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسود والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كذمة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمغافلين فان جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياضة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياضة وأما مشرعه البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياضة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياضة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل يعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإيمانه بالجهاد والرياضة واللذات وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفة والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البدو أما الثاني فالله تعالى طائفة به وأما الثالث والرابع فوجدان ولكن على غاية التدور ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا وهو مع التدور يتفاوت في القلة والكثرة وإمات تكون كثرته في الأعصار القريية من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإمعا وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز وللولاك لا يكثر . فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها أولى في حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى - أى اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه وكان اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب فهذا ينبغي أن يكون السريد مع الشيخ . قال أبو عثمان الأدب عند الأكابر وفي مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى والخير في الأولى والعقبى ألا ترى إلى قول الله تعالى - ولوا أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم - ومعنا عليهم الله تعالى قوله سبحانه - إن الذين ينادونك من وراء الحجرات

ولكن الانعكاس والاتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب ولللكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصير به إلى عالم لللكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا يا أولى الأبصار - ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنتفع إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأثمة إلا أن بينه وبين إدراك ألقها حجابا فإذا رفع ذلك الحجاب بالموث أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم - أى في الدنيا - ثم لترونها عين اليقين - أى في الآخرة فإذا قد ظهر أن القلب الصالح للملك الآخرة لا يكون إلا عزرا كالشخص الصالح للملك الدنيا .

(قسمة سادسة حاوية لمجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الغاية فاتها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا عيش إلا عيش الآخرة»<sup>(١)</sup> وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر وقال ذلك مرة في السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحدائق الناس به في حجة الوداع<sup>(٢)</sup> وقال رجل «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم تمام النعمة؟ قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة»<sup>(٣)</sup> وأما الوسائل فتتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب الطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم للكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسوله وإلى علوم للعاملة ، وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في السكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يتبع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى - أن لا تطغوا في الليزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الليزان - فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الليزان ومن انهك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الليزان وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسار فتعدل به كفتا الليزان فاذا الفضائل الخاصة بالنفس القربة إلى الله تعالى أربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يقولون -  
وكان هذا الحال من  
وفد بني تميم جاءوا إلى  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فنادوا يا محمد  
أخرج إلينا فان مدحنا  
زين وذمنا شين قال  
فسمع رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فخرج  
إليهم وهو يقول «إنما  
ذلكم الله الذي ذمه  
شين ومدحه زين» في  
قصة طويلة وكانوا أنوا  
بشاعرهم وخطيبهم  
قتيلهم حسان بن ثابت  
وشبان المهاجرين  
والأنصار بالخطبة وفي  
هذا تأدب للريد في  
الدخول على الشيخ  
والإقدام عليه وتركه  
الاستعجال وصبره إلى  
أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا عيش إلا عيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث قوله في حجة الوداع لا عيش إلا عيش الآخرة الشافعي مراسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم في الحج (٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

موضع خلوته . سمعت  
أن الشيخ عبد القادر  
رحمه الله كان إذا جاء  
إليه فقير زائر يجبر  
بالفقير فيخرج ويفتح  
جانب الباب ويصافح  
الفقير ويسلم عليه ولا  
يجلس معه ويرجع  
إلى خلوته وإذا جاء  
أحد بمن ليس من  
زمرة الفقراء يخرج  
ويجلس معه . فخطر  
لبعض الفقراء نوع  
إنكار لتركه الخروج  
إلى الفقير وخروجه  
لغير الفقير فاتهم  
ماخطر للفقير إلى  
الشيخ فقال الفقير  
رابطتنا معه رابطة  
قلبية وهو أهل وليس  
بغنى أجنبية فنكتفي  
معه بمواقفة القلوب

وهي أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تنبأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي  
النعم الخارجة المطيعة بالبدن وهي أربعة للمال والأهل والجاه وكرم العشرة ولا ينتفع بشيء من هذه  
الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل  
النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأيدته ، فمجموع هذه النعم ستة عشر  
إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها  
إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان  
وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بما قلبي للانسان إلا ما سعى وليس  
لأخذ في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب  
الأخلاق إلى صحة البدن ضرورية . وأنا الحاجة النافعة طي الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية  
إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فان ذلك لو عدم ربما طرق الحلل إلى بعض النعم الداخلة .  
فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشرة . فاعلم  
أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة للسهلة للمقصود . أما المال فالفقير في طلب العلم  
والكمال وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي بروم الصيد بلا جناح ، ولذلك  
قال صلى الله عليه وسلم « نعم للمال الصالح للرجل الصالح » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون  
على تقوى الله للمال » (٢) وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأقوات وفي  
تهيئة اللباس والسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر  
ولا تتدفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات .  
وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم فقال : الغنى فاني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال  
الأمن فاني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فاني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل  
زدنا ، قال الشباب فاني رأيت الهرم لا يعيش له ، وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من خبت  
إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافي في بدنه آمناني  
سريه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » (٣) وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى  
وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » (٤) وقال صلى  
الله عليه وسلم في الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له » (٥) الحديث  
وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه  
كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو اتقده لطلال  
شغله وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص  
بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله للمال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من  
رواية محمد بن المنكدر عن جابر وزوايه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلا ومن طريقه  
رواه القضاة في مسند الشهاب هكذا مرسلا (٣) حديث من أصبح معافي في بدنه آمناني في سريه  
الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محسن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث  
نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع  
وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من  
حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح .

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاء ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاء إلى ملك القلوب كالأغنى إلى الملك الدرام ومن ملك الدرام تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الثوب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وطى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاء وكذلك علماء الدين لا طى قصد التناول من خزانهم والاستئثار والاستيثار في الدنيا بمتابعتهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ويمكن في القلوب جبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى اقتقر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم العشرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش (٢) » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قليل وما خضراء الدمن ؟ قال للمرأة الحسنة في اللبث السوء (٥) » فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الاتساع إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الاتساع إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار للتوسمين بالعلم والعمل . فان قلت لما معنى الفضائل البدنية . فأقول لاختفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

وقنع بها عن ملاقة الظاهرة بهذا القدر وأما من هو من غير جنس القسراء فهو واقف مع العادات والظاهر ففى لم يوف حقه مسن الظاهر استوحش حق للريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ ، قيل لأبي منصور القسري كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لأصحبته فالصحة مع الإخوان والأقران ومع الشايع الخدمة وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى اقتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل الحديث وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أؤذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع للشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث وللبزار وأبى يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه ققام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أقتلون رجلا أن يقول ربي الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث وائلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وفي رواية الترمذى إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه والطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم وفي حديث ابن عباس ما بال أقوام يتنزلون أصلي فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم في التكاثر (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى <sup>(١)</sup> » وإنما يستحق من جملة أمر الجمال يقال يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجليل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجليل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن فالمنظر والخبر كثيراً ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيأت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنعم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للمأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فأسقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرفت على الظاهر فصباحة أو على الباطن قفصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه <sup>(٢)</sup> » وقال عمر رضي الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاً ثم بالامامة ، وقال تعالى تمت بذلك وزاده بسطة في العلم والجسم - ولنا نغني بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإنما نغني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناسف خلقة الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه . فان قلت فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> وكذا العلماء قال تعالى - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - وقال على كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل للرء بنفسه لا بأبيه فمافى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة للؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق مظهره منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جردها إلا أن فيها فتناً وخاف ، فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع فان أصابها العزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن مهابط طريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وإن أصابها السوادى الغر ففى عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالماً بالسباحة وطريق القوص وطريق الاحتراز عن

ينكرها موسى وإذا أخبره الخضر بسرهما يرجع موسى عن إنكاره فلما ينكره المرید لقلعة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فللشيخ في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة . سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فأجابه الجنيد فعارضه في ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا الى فاعتزلون وقال بعض للشايع نحن لم نعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب ، وقيل من قال لأستاذة لا ، لا يفلح أبداً . أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللتزمذى من حديث أبى بكر أن رجلاً قال يا رسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح (٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ذم المال والجاه الترمذى من حديث كعب بن مالك ما ذنبان جائعان أرسلوا في غم بأفسد لها من حب المال والتبشر لدينه وقد تخدم في ذم المال والبخل .

مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فذلك مدح الله تعالى للمال  
وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى للمال »  
وكذلك مدح الجاه والعز إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله  
وحبه في قلوب الخلق وهو المعنى بالجاه ولكن النقول في مدحهما قليل والنقول في ذم المال والجاه  
كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك  
القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحيه للمال وطريق  
العوس في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى تربيته ويهلكهم  
تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانوا في أعيانهم مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما  
تصور أن ينضاف إلى النبوة للملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن ينضاف إليها النقي كما كان  
لسليمان عليه السلام فالتناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون فقد يضر الصبي  
ملا يضر العزم ، نعم للعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل  
تربيتها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ  
الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن  
الترياق ولا يضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب  
عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن  
فيها سببا قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدته أصلا بما فيها من قبح الترياق فان ذلك ربما يضره فيقدم عليه  
من غير تمام العرفة وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يبرأ من ولده لاتبعه وهلك فواجب  
عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فان كان لا ينجو من الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده  
يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه يمين يديه فكذلك  
الامة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغنياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم  
مثل الوالد لولده <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ  
بمحزكم <sup>(٢)</sup> » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهلك فانهم لم يشعروا إلا ذلك وليس لهم في المال  
حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يسكوه بل أقفوه فان الاتفاق  
فيه الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما ألوا إلى سم الامساك  
ورغبوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قيحت الأموال والمعنى به تقيح إمساكها والحرص عليها بالاستكثار  
منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها فلما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض  
إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن  
يختص بما يحمله . فأما إذا صمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرقاء فلا بأس بالاستكثار  
وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب <sup>(٣)</sup> » معناه لأنفسكم خاصة

قال أنا أبو الفتح  
المهروى قال أنا أبو نصر  
الترياق قال أنا أبو محمد  
الجسراحي قال أنا  
أبو العباس المحبوبي قال  
أنا أبو عيسى الترمذى  
قال حدثنا هناد عن  
أبي معاوية عن  
الأعمش عن أبي صالح  
عن أبي هريرة قال :  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « اتركوني  
ما تركتكم وإذا  
حدثتكم فخذوا عني  
فإنما هلك من كان  
قبلكم بكثرة سؤا لهم  
وإختلافهم على أنبيائهم »  
قال الجنيد رحمه الله  
رأيت مع أبي حفص  
التمساجوري إنسانا  
كثير الصبب لا يتكلم  
قلت لأصحابه من هذا

- (١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده . مسلم من حديث أبي هريرة ذون قوله لولده وقد تقدم  
(٢) حديث إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بمحزكم متفق عليه من حديث  
أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمق كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب  
والفرائش يقعن فيه فأنما آخذ بمحزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بمحزكم  
عن النار وأنتم تفلتون من يدي (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه



وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة » ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم للسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف <sup>(١)</sup> الحديث . فأذن النعم الدينوية مشوية قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها وشعبها بضرها فمن وثق بصيرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والقرار القرار عن مظان الأخطار فلا تعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يحنى عليه اجتهد

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى مافيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم مافيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدر والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى - ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا <sup>(٢)</sup> » . والهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناك للنجدين - وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وأما بعد فهديناكم فاستجبوا للعمى على الهدى - فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار قال تعالى - فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور - ومن جملة للعميات الإلف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاکم من حديث سلمان لفظ الحاکم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثله زاد الراكب (١) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فزل جبريل فقال مره أن يطعم للسكين الحديث الحاکم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خاله بن أبي مالك ضعيف جدا (٢) حديث مامن أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبي هريرة أن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتخمدني الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم مامن أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة وأقرده بمسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لي هذا إنسان  
يصحب أبا حفص  
ويخدمنا وقد أفتق  
عليه مائة ألف درهم  
كانت له واستدان مائة  
ألف أخرى أفتقها عليه  
مايسوغ له أبو حفص  
أن يتكلم بكلمة واحدة  
وقال أبو يزيد البسطامي  
صحب أبا حفص السندی  
فكنت ألقته ما يقيم به  
فرضه وكان يلحنى  
التوحيد والحقائق  
صرفا . وقال أبو عثمان  
صحب أبا حفص وأنا  
غلام حدث فطردنى  
وقال لا تجلس عندى  
فلم اجعل مكافأتى له على  
كلامه أن أولى ظهري  
إليه فانصرفت أمشى  
إلى خلف ووجهى  
مقابل له حتى غبت .

— إنا وجدنا آباءنا على أمة — الآية وعن الكبير والحسد العبارة بقوله تعالى — وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم — وقوله تعالى — أبعثنا منا واحدا نتبعه فبهذه العميات هي التي منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى — والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا — وهو المراد بقوله تعالى: — والذين اهتدوا زادهم هدى — والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيتهدى بها إلى ما لا يتهدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عده حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى — قل إن هدى الله فبغيره لا شريك له — وهو المسمى حياة في قوله تعالى — أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس — وللعنى بقوله تعالى — أمّن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه — وأما الرشد فعنى به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتّره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى — ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عاينين — فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محرّكة إليها فالصبي إذا بلغ خيرا يحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ولكنه مع ذلك يندرج ولا يريد الاستثناء لا يسمى رشيدا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكيف من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فإن الهداية بمجرد ذلك لا تكفي بل لا بد من هداية محرّكة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لا بد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأيد فمكانه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل — إذا بدت لك من أمره بالبصيرة من داخل وتقوية العصمة وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كأنه من باطنه غير محسوس وإياه عنى بقوله تعالى — ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه — فهذه هي مجامع النعم ولن تثبت إلا بما يحولها الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع للراعى والعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن اللهايات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرة والعز الذي يصونه عن سفه السفاء وظلم الأعداء ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل للتحريرين وملجأ للضطربين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاؤها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى — وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها — والله التوفيق .

( بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء )

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا محبة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة للتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم تقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على

عنه واعتقدت أن أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بأذنه فلما رأى ذلك منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن المرید لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فإن المرید من شأنه التبذل للخدمة في السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التميز وهيبة الشيخ تملك المرید عن الاسترسال في السماع وتحيده واستغراقه في

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكل ولا بد للأكل من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فأنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الارادات ثم أسباب القدرة ثم أسباب للأكل على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

( الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك )

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والندى والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغنى فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعيرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويمس أصله جف وليس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مسك نار محرقة أو سيف جرح تحس به قهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأخص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه فان الاحساس مما يبعد منه إحساس أم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها إذا غرز فيها إبرة اهبطت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما لمس بدنتك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك غفاق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شمعت ريحه وربما تعثر فتكون في غاية نقصان لو لم يخلق لك إلا هذا يخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا واء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فتخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا أو ما العائب فلا يمكنك معرفته إلا بالكلام ينظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك وبميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يفيك لو لم يكن لك حسن الدوق إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله قهرك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تأدى إليه هذه الحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولا لاطال الأمر عليك فانك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مراحا فاللذات فتركتها فإذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مضر مالم تذوقه ثانيا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك للرائحة فكيف تمتنع عنه والدوق يدرك الرائحة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم تجمع عنده الصفرة والرائحة جميعا حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه مرفيع تمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشارك فيه الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا فان الهيمة يحتمل عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع ومن الأدب أن لا يكتم على الشيخ شيئا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه وما يستحي من كشفه يذكره إيماء وتعريضا فان للريد معنى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تعريضا أو تعريضا يصير على باطنه منه عقدة في الطريق وبالقول مع الشيخ تحل العقدة وتزول ومن الأدب أن

تخلص إذا قيدت وقد تلقى نفسها في بر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا فيمرك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرّة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عاله وعند ذلك تتقلب فائدة الحواس الخمس في حرك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار للوكلين بنواحي الملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والحشونة والملامة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتضون الأخبار من أقطار الملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك للحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الإنهاآت إليه مختومة فيفتشها للكل ويطلع منها على أسرار الملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام وللصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تعين له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ولا تظن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركب العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أوصفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد قفس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمة في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه ومجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

( الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات )

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أرفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة وقرّة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكّلها بك كالمقتاضي الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتنتدى فتبقى بالتذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لئلا تترك الأكل بها لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب للماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تتجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند اللريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان اللريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمجبة والتألف هو الواسطة بين اللريد والشيخ وعلى قدر قوة المجبة تكون سراية الحال لأن المجبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية جالبة للريد حال الشيخ أو بعض حاله

دم الحيض وتأليف الجنين من اللبى ودم الحيض وكيفية خلق الأثنين والعروق السالكة إليهما من الفقار الذى هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتغير في بعضها فتتشكل بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك الهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضاذك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل واحد يشتمى ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضاذك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا بدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في الآل فلا تسكن في هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل للعروف للمواقب كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدارك الحس المدرك للحالة الحاضرة قم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يفيك في الاحتراز عنها مالم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهايم كما ما لبنى آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد مميها هذه الارادة بأعشا دينا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

### ( الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة )

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك والارادة لا معنى لها إلا اللبى إلى الطلب والمهرب وهذا الكتابة فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله أولا يمكنه أن يتناول له لفقد يده أو فليج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والمهرب كالرجل للانسان والجنح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ماله رجلان ومنها ما يدب وذلك بطول قلند كالأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فقول : رؤيتك الطعام من بعد وحررتك إليه لا تسكنى مالم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشمعلتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتعتد وتثنى إليك فلا تكون كخشب منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا يخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجعلها في صفيين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة وإن جمعها كانت لك آلة للضرب وإن شربتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفار وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تنفقت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك ثم هب أنك أخذت الطعام بالدين فمن أين يكفيك هذا مالم يضل إلى اللعنة وهى في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة  
أبو الفتح محمد بن  
سليمان قال أنا أبو الفضل  
حميد قال أنا الحافظ  
أبو نعيم قال ثنا سليمان  
ابن أحمد قال ثنا أنس  
ابن أسلم قال ثنا عتبة  
ابن رزين عن أبي  
أمامة الباهلي عن  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال « من علم  
عبدا آية من كتاب  
الله فهو مولاه ينبغي  
له أن لا يخذله ولا  
يستأثر عليه فمن فعل  
ذلك فقد فسم عروة  
من عرا الإسلام » ومن  
الأدب أن يراعى  
خطرات الشيخ في  
جزئيات الأمور  
وكلياتها ولا يستحقر  
كراهة الشيخ ليسير

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فيجعل القم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحسك الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في القم وهو قطعة واحدة فلا تيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالآنياب ثم جعل مفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر الإضراب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الأسفل متحركا كحركة دورية واللحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنمه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنمه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء القم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل القم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب القم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الدوق وعجائب قوة النطق والحكم التي لسانا نطلب بدكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الخلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحسنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام للطحون للنعجن من يوصله إلى المعدة وهو في القم ولا تقدر على أن تدفيه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى للرءى والخنجرة وجعل على رأسها طبقات تفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهرب إلى المعدة فيدهليز للرءى فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى للمعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحوى عليه وتخلق عليه الأبواب فلا يزال لاثبا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام التراب ومن خلف لحم الصلب فتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابهها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه وورقه وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بالون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحداها شبيهة بالدرى والعكر وهو الخلط السوداوى والأخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى للراة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخل في تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكامل حله ومداراته. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله للعربى ونحن شبان ويسافر بنا في البرارى والقلاوب وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب للرءى مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر

فنجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداء فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء خلق الله سبحانه السكيتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لعلظ ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية قد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث شيئا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تترك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الحائط السوداء حدثت الأمراض السوداء كالبلق والجذام والماليخوليا وغيرها وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدثت منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب النافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها وتنفذ بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليخلص له في ثقل الطعام رطوبة مزلفة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بمحوضته وينبهها ويشيرها ويخرج الباقي مع الفضل وأما الكلية فإنها تعتدي بما في تلك الدائنة من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولوذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها وربوطاتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواء بل في آدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جعلها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يامسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولًا لتقوى بعدها على الشكر فأنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسنها ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فأكل والجمار أيضا يعلم أنه يجوع فأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمض فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الجمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط قس على الاجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه جذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك قيمة من معاني قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وأدراكها وقواها بخار لطيف يتصاعد من الأخطاط الأربعة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن

فإن كان واقعة للريد من الله تعالى بواقعه الشيخ وبعضها له وما كان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتسب للريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالريد لعله في واقعه بخامره كمن إرادة في النفس فيشتبك كمن الإرادة بالواقعة منما كان ذلك أويقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم الريد باستئصال شأفة السكامن في النفس وإذا ذكره للشيخ فما في الريد من كون إرادة النفس مفقود في حق الشيخ فإن

إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سبباً له بحكته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح وعمله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيتُه انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ\* مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ\* السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفراط حرارة القلب فينطفئ\* مع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت لقبولاً تشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ\* بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ\* بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج ببناء الزيت أو فساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقه أنوار التي كان يستفيد منها من الروح هي أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضاً رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعته وحكته ليعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً. فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي» (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لانطوئ بذكرها ونحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يما لجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأذى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمر سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تحجب فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتزول في ذكر مبادئ وصفها معاقدة العقول للقيدة بالجواهر والعرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية نسبتبه إلى العقل نسبة العقل إلى الوجود والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك العقول لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقول ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث

ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وإن كان ينزع واقفته إلى كمون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة للريد وتجعل الشيخ تقل ذلك لقوة حاله وحة إيوائه إلى جناب الحق وكما معرفته ومن الأدب مع الشيخ أن للريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستجبل بالإقدام على مكالمته الشيخ والمهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسام كلامه وقوله متفرغ فكما أن للدعاء أوقاتاً وأدبا وشروطاً لأنه مخاطبة الله تعالى



وإنه لقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارء بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولباب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أول اللبدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل اللبدان فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من للشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه وأتى يصادف هذا في خزانة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل للعنى للسعى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فطن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فطن أنه رأى الملك ولا يشك في أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أخف منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى - يأيتها النفس اللطمة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلنى جننى - ولترجع الآن إلى الغرض فإن للقصور ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

( الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة

وتصير سالحة لأن يصلحها الأدنى بعد ذلك بصنفته )

اعلم أن الأطعمة كثيرة والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تنتهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلنأخذ الأغذية فانها الأصل ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ولنضع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها قويت وبقيت جائعا فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يختدى به كما خلق فيك فان النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لأنه يختدى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تختدى أنت وتجذب ولستنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه . فنقول : كما أن الحشب والتراب لا يتخذ بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تختدى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يخرج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعبا وقضاويزونا ونخللا - ثم لا يكفى للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة مقرا كنه لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بهر وغنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإتسا إلقاها في إيقاع الأزواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يتخذ لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج إلى جراحة الريح والصف قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج الماء لينساق

فذلك قول مع الشيخ أيضا  
آداب وشروط لأنه من  
بمعاملة الله تعالى ويسأل  
الله تعالى قبل الكلام  
مع الشيخ التوفيق  
لما يجب من الأدب  
وقد نبه الحق سبحانه  
وتعالى على ذلك فيما أمر  
به أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في  
مخاطبته فقال - يا أيها  
الذين آمنوا إذا نادىكم  
الرسول فقدموا بين  
يدينكم سجواكم صدقة  
يعنى أمام مناجاتكم  
قال عبد الله بن عباس  
سأل الناس رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فأكثروا حتى شقوا  
عليه وأخفوه بالمسئلة  
فأدبهم الله تعالى  
وقطعهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار ونجر العيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرشعة ولياء لا ترشح إليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضي في وقت الربيع والحريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع والواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فاتها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخرة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في القواكه انقصاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تتضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته التريط كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج القواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف تريط القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يبرئ عنها بالزكام فكما يربط رأسك يربط الفاكهة أيضا ولا تطول فيما لا مطمع في استقصائه بل تقول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للتريط فلا تخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها ولولم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا لفائدة - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن نظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة يخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل للنهي عنه في النجوم أمران : أحدهما أن تصديق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تخفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى

وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلائهم لم يجدوا شيئا وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى - أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد ولا طبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتى الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان فقال قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه وللعلم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذا السكواكب ما خلقت عبثاً بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا «نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتل عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» (١) ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء السكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً فمن قنع منه بعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأقنص والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف الصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده فإن تصببت من تصنيف فلا تصعب من للصنف بل من الذي سخر للصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتمييده وتعرفه كما إذا رأيت لب المشعوز ترقص وتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تصعب من اللعب فانها خرق محركة لا متحركة ولكن تعجب من خلق المشعوز المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذا للتصوّد أن غداء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والسكواكب ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها ولا يتم الأفلاك إلا بحركاتها ولا يتم حركاتها إلا بملائكة ساوية يحركونها وكذلك يتأدى ذلك إلى أسباب بيضة تركنا ذكرها تنبئها بما ذكرناه على ما هملناه ولتقتصر على هذا من ذكر أسباب غداء النبات .

#### ( الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك )

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجارة وسلط عليهم حرص حبّ الدال وشهوة الربح مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن تخرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يعمتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذوها ورتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجبل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويعتروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والجل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والبطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتل عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي ترك تأملها التعلّي من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جنان يحيى بن أبي حبة ضعيف .

لم ينج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب فقدم ديناراً فصدق به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا علياً وقال ماترى في الصدقة كم تكون ديناراً قال على لا يطبقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لو هيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ومانبه الحق عليه بالأمر بالصدقة ومافيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن المحصر نرى تركها طلبا للإيجاز .

### ( الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة )

اعلم أن الذي يثبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يضم ويؤكل وهو كذلك بل لابد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلنعين رغيفا واحدا ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث لزرع وبصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصانع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فان قشيت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدئ من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الثلاثكة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الإنسان ، فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديد تصليح للآلة إلا بعد أن تمر على يد الأبرى خمسة وعشرين مرة ويتماطى في كل مرة منها عملا ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافترقت إلى عمل المنجل الذي تصعد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نقطة قدرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى القراض مثلا وما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا وافترقنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل القراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وخذها فضلا عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أحسن الصالحين أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصانع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته . ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضا فان القرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

### ( الطرف السابع : في إصلاح الصالحين )

اعلم أن هؤلاء الصالحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتاخرت طباعهم وتأخر طباع الوحش لابتدؤوا وتبعوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلطان الأنس والمحبة عليهم لو ألفت ما في الأرض جميعا

مانسخ ، والفائدة  
باقية . أخبرنا الشيخ  
الثقة أبو الفتح محمد  
ابن سلمان قال أنا  
أبو الفضل أحمد قال  
أنا الحافظ أبو نعيم  
قال حدثنا سليمان  
ابن أحمد قال حدثنا  
مطلب بن شعيب قال  
حدثنا عبد الله بن صالح  
قال ثنا ابن لهيعة  
عن أبي قبيل عن  
عبادة بن الصامت قال  
سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
يقول وليس منا من  
لم يعمل كبرنا وبرحم  
مغيرنا ويعرف لعالمنا  
حقه فاحترام العلماء  
توفيق وهداية وإجمال  
ذلك خدلان وعقوق .

ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وبناو المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتراسخون عليها ويتنافسون فيها في جبلته الإنسان الغيظ والحسد والنافسة وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب وألقى رعيهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينفع البعض منها البعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وأنزموهم للتساعد والتعاون حتى صار الحداد ينفع بالقصاب والحجاز وسائر أهل البلد وكلهم ينفعون بالحداد وصار الحجام ينفع بالحراث والحراث بالحجام وينفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحو السلاطين الصالحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخازن يخبر العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلح بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والتجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات للصالحين لآلات الأطعمة والسلطان يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوغ كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لتبشرونا إلى طلب الاحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تكلمنا فإذنه انبسطنا وان سكنتا فبقهره اقتبضنا ، إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

( الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام )

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتضرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسموية وحلة العرش . فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرها . واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يقتدي إلا بأحد يوكل بمسبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف وذلك الغذاء يصير دما في آخر الأمر ثم يصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما تم اغتداؤك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكتفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيننا ثم عجيننا ثم خبزنا مستديرا مخبوزا إلا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما

[الباب الثاني والخمسون]

في آداب الشيخ وما  
يعتمده مع الأصحاب  
والتلامذة]

أهم الآداب : أن

لا يتعرض الصادق

للتقدم على قوم ولا

يتعرض لاستجلاب

بواطنهم بلطف الرفق

وحسن الكلام محبة

للاستبلاغ فإذا رأى

أن الله تعالى يبعث

إليه المرشدين

وللمرشدین بحسن

الظن وصدق الإرادة

يحذر أن يكون ذلك

ابتلاء وامتحانا من

الله تعالى والتفوس

محبولة على محبة إقبال

الخلق والشهرة وفي

المحول السلامة، فإذا بلغ

الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع في الباطن هم اللائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمة ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمة الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلقى ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يعرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يسطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا يسطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذة لكبر أنفه وبطن تجويفه وتشوهت صورته وخلقت له بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدة مع صفائها وإلى الأنف مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض اللواضع وضعف بعض اللواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا لم يبق تلك الرجل كما كانت في جد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمرعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من اللائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان يحيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي اللائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزاءك الذي لا يتجزأ حتى يفترق بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفضيل ذلك للإيجاز واللائكة الأرضية مدغم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والإسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا اقتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها اقتح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت نبت إلا وتحتة ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكر أوى وأسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف والطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون السلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس ولترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديا بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل فلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة الحديث .

العبد من حاله وعلم تعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريدين في فككهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يرجع الله تعالى في معناه ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالسكمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تسكلم أحدا من القراء إلا في أصفى

الأفضل إلى ملك واحد ولم أفكر إلى سبعة أملاك والخنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولئك إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من ياصقها بالنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فإلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ؟ . فاعلم أن خلق الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحده في الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما من إله مقام معلوم - فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وقوله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولاهما يبازان عن الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتراحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتراحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والحبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سيده اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحده في الصفة فلم يكن وحده في الفعل ولذلك نرى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للعصية في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراحم منهم راحم أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جزمت الإرادة فتفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا بإشارتك فهذا يشبه من وجهه ولكن يخالفه من وجه إذا جفن لاعلم له بما يصدر منه من الحركة فتعاه وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه - فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في نظريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غرض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بمجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى في كل نظريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذا لباض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون ما تعالاهوأم من الديق إلى باطن العين ومقتبنا للأقذاء التي تتأثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصها وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قديم من قش العين ولو طبق لم يضر فيجمع الأجفان مقدار ما تشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر فيكون شبك الشعر ما تمنع من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدقة غبار قد خلق

أوقانك ، وهذه وصية نافعة لأن الكلمة تقع في سمع اللريد الصادق كالجبة تقع في الأرض وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حية الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم ففند الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند السيد فيكون ناظرا إلى الله مصفيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحديقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة وأمرتين وقد انصقلت الحديقة من التبار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان والذباب لما لم يكن لحديقته جفن خلق له يدين قواه على النوم يسبح بهما حديقته ليصقلهما من التبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا نقدره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتاباً مضموناً فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسجيه بحجاب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجنان ولا تقوم الأجنان إلا بالعين ولا العين إلا بالرأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالسواء والأرض والهواء والطر والعيم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات وبلا السموات إلا باللائكة فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جاد إلا يلعبه ولذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر (٢) وأن اللائكة يلعنون العصاة (٣) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع مافي الملك والملكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيقبل اللعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال للسلطان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علواً رتبة وعندى آتى أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم ، وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين فإذا بنسبته يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وباتقاضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه باقضاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان أن لينت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأمر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع إلى اللطيم والشرب فاعتبر ما سواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طبع في غير مطعم .

#### ( بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر )

اعلم أنه لم يقصر الخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغلظة فانهم منغوا بالجهل والغلظة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين العرفتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم لم أجده أصلاً (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر تقدم في العلم (٣) حديث إن اللائكة يلعنون العصاة مسلم من حديث أبي هريرة اللائكة تلعن أحداًكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

للشيخ أن يعتبر حال  
الريدين ويتفرس فيه  
بنور الإيمان وقوة العلم  
والعرفه ما يتأتى منه  
ومن صلاحيته  
واستعداده فمن  
الريدين من يصلح  
للتعبد المحض وأعمال  
القنابل وطريق  
الأبرار ومن للريدين  
من يكون مستعداً  
صالحاً للقرب وسلوك  
طريق القربين المرادين  
بمعاملة القلوب  
والعالمات السنية  
ولكل من الأبرار  
والقربين مبادونهايات  
فيكون الشيخ  
صاحب الاشراف على  
البواطن يعرف كل  
شخص وما يصلح له  
والعجب أن الصحرأوى



واستلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس يجملهم لا يعدون ما بهم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فان ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال الأولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة نعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعبده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكيا بعضهم قمره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أنك أنقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورة اسم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السكك على بعض الخلفاء وبه كوز ماء يشربه فقال له عظمي فقال لو لم تعط هذه الشربة إلا يذلل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لولم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطبايع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلندكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فتقول مامن عبد إلا ولو أمعن النظر في أحوال الرأى من الله نعمة أو نعمنا كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والعلم أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كزنا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوب يكرهها وأخلاقا يذمها وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها فإذا لم يشتغل بدم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منقرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لأفضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

يعلم الأراض والغروس  
ويعلم كل غرس وأرضه  
وكل صاحب صنعة يعلم  
منافع صنعته ومضارها  
حتى المرأة تعلم قطعتها  
وما يتأتى منه من الغزل  
ودقه وغلظه ولا يعلم  
الشيخ حال للريد  
وما يصلح له . وكان  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يكلم الناس  
على قدر عقولهم  
ويأمر كل شخص بما  
يصلح له فمنهم من كان  
بأمره بالافتاق ومنهم من  
أمره بالإمساك ومنهم  
من أمره بالكسب  
ومنهم من قرره على  
ترك الكسب كأصحاب  
الصفة فكان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقاً وإما في بعض الأمور فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقرانه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً لو سلب ذلك منه وأعطى ما يخص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً وحياً لا جماداً وإنساناً لا بهيمة وذكر لا أثنى وصحيحاً لا مريضاً وسليماً لا مريضاً فان كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضاً فان هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضاً وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما يخص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به إلا أكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص فاذا كان الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المتبوعين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه على نيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في التساق كثرة فينظر أبداً في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حاله أكثر الخلق في الدين خير منه وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً وشاكراً ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً (١) » فاذا كل من اعتبر حال نفسه وقتش عما يخص به وجدته تعالى على نفسه نعماً كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشاً رحيماً يسطيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا فلينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله (٢) » وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه (٣) » وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن (٥) » وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى (٦) » وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب للنزلة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً وشاكراً الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه للثني بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الغناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسل وهو أشبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه ووطن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي قد صغر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحبته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبراني من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفاً عليه وقد تقدم.

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإتيان الحجة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق ولا يخص بالدعوة من يتجرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظناً منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فان رسول الله

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن  
وأصبحت أخا حزن فلا فارحك الحزن

بل أرقش العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال « من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها <sup>(١)</sup> » وبهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عابهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصلوهم إلى النعيم للقيم والمالك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشر علمك لم يأخذها وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاتك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذها لعله بأن لذة العلم دأمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تعصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذا ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخضع حتى إذا اتخذت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشباب الشبق الغنى حتى إذا تقيدها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت أبواب الدنيا في شباك الدنيا وجبائلها ولا ينبغي أن تقول إن العرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن القبل عليها يضام تألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم للعرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم للقبل يفضي إلى الألم في الآخرة قليلا العرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى - ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون - فإذا نمتنا سدد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامية . فان قلت فما علاج هذه القلوب العاقلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسيده أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأحياء إلى اللوتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصي الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غننى إذ ضيعت بعض الأوقات في الباحات، وأما العاصي فغيبته ظاهر فاذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كل حاله كان له قيام الليل وصلاوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطف ذلك أو كنف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترسل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخا للبطالين بلقمة تؤكل عنده ويرفق يوجد منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا يقينه سلوك طريق للتقين فافتن وأقن ويقى في خلة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الأمل إلى كل نفس من الأناس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزوّد من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فحسبها تشكروا وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلّا في عنقه ويأثم في لحدّه ثم يقول رب ارجعوني لعمل صالحاتم يقوم ويقول ياربيع قد أعطيت مأسألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم ملازمة الشكر على النعم قبل زوالها زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر « ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه <sup>(١)</sup> » فمن تهان بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر ( بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد )

لعلك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فامعنى الصبر إذن وإن كان البلاء موجوداً فامعنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أننا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعى ألماً والشكر يستدعى فرحاً وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بآبائات النعمة يوجب القول بآبائات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء . ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه وأما في الآخرة فكسعادة العبد بالتزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إمامدة وإما أبداً وأما في الدنيا فالكفر والعصية وسوء الخلق وهى التي تقضى إلى البلاء المطلق وأما التقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا للعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يصرّف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا يصبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك للعصية بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان اللسان مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فإن النفي مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث زرواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجاج الأعور .

دائرة الفتور فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بما له وقلبه فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع وفي كل حركة بين يدي الله خضوع وإنما دخلت الفتنة على الغرورين للدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة لقسلة معرفتهم بصفات النفس واعتقارهم بيسر من الموهبة وقلة تأدبهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم فاذا رأى الفضل في الخلوة يخلو

والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدينية إلا ويجوز أن يصير بلاء ولكن بالإضافة إليه فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الحيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعمة في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قفدها نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطلأ أله وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالحصول المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتها ولو عرف ذلك وآذى كان إيمه لعمالة أعظم فليس من آذى نيبا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض الكائنات فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فنهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق التآلم بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من العصية كقطعه يذ نفسه ووشمه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم بمن العباد لافي حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا أكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبدولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على البتلى أو على غير البتلى فاذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يمت به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاعتماد والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويحجزها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا . الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتي

(١) حديث إن الله ليحمي عبده الدنيا الحديث الترمذى وحسنه والحاكم ومصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في  
الجلوة يجلس مع  
الأصحاب فتكون جلوته  
في حماية خلوته وجلوته  
مزيدا لخلوته وفي هذا  
سر وذلك أن الأدعى  
ذو تركيب مختلف فيه  
تضاد وتغاير على  
ما أسلفنا من كونه  
متربدا بين السفلى  
والعلاوى ولما فيه من  
التغاير له حظ من  
الفتور عن الصبر  
على صرف الحق ولهذا  
كان لكل عامل  
فترة والفترة قد تكون  
تارة في صورة العمل  
وتارة في عدم الروح في  
العمل وإن لم تكن في  
صورة العمل في وقت  
الفترة للمريدتين  
والسالكين تضييع

واستروح النفس  
وركون إلى البطالة فمن  
بلغ رتبة الشيخة  
انصرف قسم قترته إلى  
الخلق فأفلق الخلق  
بقسم قترته وما ضاع  
قسم قترته كضياعه في  
حق الريدين فالريد  
يعود من القتره بقوة  
الشدة وحدة الطلب إلى  
الإقبال على الله والشيخ  
يكتسب الفضيلة من شمع  
الخلق بقسم قترته  
ويعود إلى أوطان  
خلوته وخاص حاله  
بنفس مشرقة أكثر  
من عود الفقير بحدة  
إرادته من قترته فيعود  
من الخلق إلى الخلوة  
منزع الفتور بقلب  
متعطش وافر النور  
وروح متخلصة عن

**الأعضاء**

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالمصلحة غذا يتمتعون لو كانوا مجانين أو صيانا ولم يتصرفوا بعلومهم في دين الله تعالى فإمن شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلاء إذا أوتوا ثواب الله على البلاء كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عنايته الآباء بالأولاد فقد روى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاه عليك (١)» ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضرراء رضى وكان خيرا له (٢)» الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار التمرور ومواناة النعم على وفق للراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالحلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزن إلى الخروج منها والكافر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الواحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامه بمن يتولى حجامتك مجانا أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا فانك تألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأنا من منزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما ينزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلاء ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة. وحكى أن أعرايا عزى ابن عباس على أبيه فقال:

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاه عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بن زياد في أوله وفي إسناده ابن لمبة (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحه عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له وللنساء في اليوم واليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمدي وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار  
قائمة بمحنة شغلها إلى  
دار القرار. ومن  
وظيفة الشيخ حسن  
خلقه مع أهل الإرادة  
والطلب والتزول من  
حقه فيما يجب من  
التبجيل والتعظيم  
للمشايع واستعماله  
التواضع. حكى الرقي  
قال كنت بمصر وكنا  
في المسجد جماعة من  
الفقراء جلوسا فدخل  
الزقاق فقام عند  
أسطوانة يركع قلنا  
يفسرغ الشيخ من  
صلاته وقوم نسل عليه  
قلنا فرغ جاء إلينا وسلم  
علينا قلنا نحن كنا  
أولى بهذا من الشيخ  
فقال ما عذب الله

اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية بعد صبر الراس  
خير من العباس أجرك بعده والله خسير منك للعباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تمزيته. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصبر منه» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استجيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا. وقال عليه السلام «مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كريمته فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لشكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يتلى بيلاه في جسمه فيبلغها بذلك» (٣) وعن خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه قتلنا يا رسول الله ألا ندعو الله تستنصره لنا فجلس محمرا لونه ثم قال «إن من كان قلبكم ليؤتى بالرجل فيحضر له في الأرض حفرة ويحيا بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرتين ما يصرف ذلك عن دينه» (٤) وعن علي كرم الله وجهه قال : أيا رجل خبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات فهو شهيد. وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للثوب وتعمرون للخراب وتجزون على ما يفنى وتلدون ما يبقى ألا هذا الكروهاة الثلاث الفقر والمرض والموت. وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا وأراد أن يصابه صيب عليه البلاء صبا ونجبه عليه نجا فإذا دعاه قالت لللائكة صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يا رب قال الله تعالى لبيك عبيدي وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جرى بأهل الأعمال فوقوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والضيامة والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم السلام صبا»

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصبر منه. البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يتلى بيلاه في جسمه فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية الأوّلوي ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عنه خالد إلا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فله أعلم وطى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فله أعلم (٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث تقدم.

قلبي به سدا قط يعني  
ما تعبدت بأن أحترم  
وأقصد. ومن آداب  
الشيوخ التزول إلى  
حال المرئيين من  
الرفق بهم وبسطهم.  
قال بعضهم: إذا رأيت  
الفقير ألقه بالرفق ولا  
نلقه بالعلم فإن الرفق  
يؤنس والعلم يوجسه  
فاذا فصل الشيخ  
هذا المعنى من الرفق  
يتدرج بالريد بركة  
ذلك إلى الاتقاع  
بالعلم فيعامل حينئذ  
بصرح العلم. ومن  
آداب الشيوخ  
التعطف على الأصحاب  
وقضاء حقوقهم في  
الصحة والمرض ولا  
يترك حقوقهم اعتمادا  
على إرادتهم وصدقهم



قال بعضهم لا ضيع  
حق أخيك بما  
بينك وبينه من  
اللودة . وحكى عن  
الجريري قال وائت  
من الحج فابتدأت  
بالجنيد وسلمت عليه  
وقلت حتى لا يتنى  
ثم أتيت منزلي فلما  
صلبت الغداة التفت  
وإذا بالجنيد خلفي  
قللت بإسدي إني  
ابتدأت بالسلام عليك  
لكيلا تتنى إلى ههنا  
فقال لي يا أبا محمد هذا  
حقك وذاك فضلك .  
ومن آداب الشيوخ  
أنهم إذا علموا من  
بعض الشرشدين ضعفا  
في مراغمة النفس  
وقهرها واعتاد ضدق  
العزيمة أن يرقعوا

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب « فذلك قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكنا في من الأنبياء عليهم السلام إلى ربهم فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويحترق عليك وعلى معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحترق عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي وبالبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسبائته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر أأنت تمرض أأنت يصيبك الأذى أأنت تحزن فهذه مما تجزون به (٢) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيت الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء - (٣) » يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بفتنة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلما هم تركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأتى في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « وجهه ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا تطرت قطرة

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب للرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخضر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمسامة وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر أأنت تمرض أأنت يصيبك الأذى أأنت تحزن فهذه مما تجزون به (٣) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيت الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) » حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلاة الرحم<sup>(١)</sup> . وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن سليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديده في زى الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الجادة فأثبت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أماعلت أن لا بد للناس من الطريق . قال فلم تحزن على ولدك أماعلت أن الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربه ولم يحزن على ولد بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يابني : لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يابنتي : لأن من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فعزاه مجوس يعرفه ، فقال له ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك كتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله لينبئ العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده بالباء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتاج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى الرضى بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة ففر فواذلك فجىء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن سعدت منك أنه ثانية لأحسونك من ديوان النبوة فعز زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بمصيبة فزق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يابني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكي ضرسى ، فقلت لعلمي ماتمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشككني إلى خلقي واشك إلى كمال أشكوك إلى ملائكتي إذا سعدت مساويك وضائحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة .

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو القديس منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدا ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو القديس منكر الحديث .

به ويوقفوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حريم إذا ثبت وخالف الفقهاء وتدرب في لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف إبراهيم الصائغ وكان لأبيه نعمة فاقطع إلى الصوفية ومحب أبا أحمد القلانسي فرمى كان يقع يد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

( بيان فضل النعمة على البلاء )

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء .  
فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعيز في دعائه من  
بلاء الدنيا وبلاء الآخرة <sup>(١)</sup> » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة  
وفي الآخرة حسنة <sup>(٢)</sup> » وكانوا يستعيزون من شدة الأعداء وغيرها <sup>(٣)</sup> . وقال على كرم الله وجهه  
اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية <sup>(٤)</sup> » وروى  
الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما  
أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين <sup>(٥)</sup> » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجمل والشك  
فعافية القلب أطي من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الحير الذي لا شرفه العافية مع الشكر  
فكم من نعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله لأن عافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر  
وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلى <sup>(٦)</sup> » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل  
واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إمام في الدنيا أو في  
الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من  
البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه  
على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم  
فينجون وأكون أنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعله الحصر  
فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا العمكم الكذاب . وأما محبة الانسان  
ايكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب نفسه  
حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في السلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب  
عليه كان حالة لا حقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث  
بشر بن أبي أرطاة بلفظ أجربنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولائي داود من حديث  
عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة  
(٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا  
عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول  
اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنتين ربنا آتنا الحديث (٣) حديث كان يستعيز من شدة  
الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال على رضي الله عنه اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم  
لقد سألت الله البلاء فسله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما  
قال سمع رجلا وله ولثمنائي في اليوم والليلة من حديث على كنت ساكنًا ثم بي رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فإن كان بلاء فصبرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن  
محيي (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد  
جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلى ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى  
الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا

النعمة فيجب أن تفرق  
به وتؤثره على غيره .  
ومن آداب الشيوخ  
التزهد عن مال للريد  
وخدمته والارهاق  
من جانبه بوجه من  
الوجوه لأنه جاء الله  
تعالى فيجعل نفسه  
وإرشاده خالصا لوجه  
الله تعالى فما يسدى  
الشيخ للسريد من  
أفضل الصدقات .  
وقد ورد « ما تصدق  
متصدق بصدقة أفضل  
من علم يثبته في الناس »  
وقد قال الله تعالى  
تنبيه على خلوص  
ماله وحراسته من  
الشوائب إنما نطعمكم  
لوجه الله لا نريد منكم  
جزاء ولا شكورا فلا  
ينبغي للشيخ أن يطلب

يستلذ سماعه ولا يعول عليه كما حكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتحننه فقال ما الذي يمنعك عنى ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لعلته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدماه وعاتبه فقال يابني الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومعناه أنى أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون المهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهمين فى درهمين فهو يحب الدرهمين بترك الدرهم فى الحال . الثانى أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنه رضاه فقط ويكون له لذة فى استشعاره رضاء محبوبة منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته فند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضاء الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهو لاء إذا قدر وارضاه فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يعدو وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هى حالة صحيحة أم حالة تقتضها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يلىق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ففسأل الله تعالى للآن بفضل على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

( بيان الأفضل من الصبر والشكر )

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سياتى وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلامعنى للتطويل بالنقل بل البادرة إلى إظهار الحق أولى فقول فى بيان ذلك مقامان : للقام الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغي أن يحاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغي أن يعتمد الوعاظ إذ مفسود كلامهم من مخاطبة العوام وإصلاحهم والظن المشقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلوات بل بالبن اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بوقته ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بيئته فقول : هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه الفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر <sup>(١)</sup> » وفى الخبر « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يحزبك كما حزننا هذا الشاكر ، فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر واجتلتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين <sup>(٢)</sup> » وقد قال الله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر <sup>(٣)</sup> »

ورواه أبو عبد الله بن منه من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجمل (١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلاً (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شئ من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه أو صلاح يراه للشيخ فى حق المرید بذلك فيكون التلبس بالله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المرید مأمونة الغائلة من جانب الشيخ قال الله تعالى - يؤتىكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيعضكم نسيخوها ويخرج أضعافكم - معنى يحضكم أى يجهدكم ويلج عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أنه فى خروج المال إخراج الأضغان وهذا

فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض للبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجج للمساكين وجهاد للرأفة حسن التبع (١)» وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كعابد الوثن (٢)» وأبدا للشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فان كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل والعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه (٣)» وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا (٤)» وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام (٥)» وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الثني، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم . المقام الثاني : هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بمخاتق الأمور بطريق الكشف والابضاح فتقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن للموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن للموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حج للمساكين وجهاد للرأفة حسن التبع الحرف بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن رياح وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الخمر بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدي إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصهباني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة ، وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلا ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة ، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده إن ما بين للصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين للصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

تأديب من الله الكريم  
والأدب أدب الله .  
قال جعفر الخليلي جاء  
رجل إلى الجنيدي وأراد  
أن يخرج عن ماله  
كله ويجلس معهم  
على الفقر فقال له الجنيدي  
لا تخرج من مالك  
كله احبس منه مقدار  
ما يكفيك وأخرج  
الفضل وتحت بما  
حبست واجتهد في  
طلب الحلال لا تخرج  
كل ما عندك فلتست  
آمن عليك أو  
تطالبك تهتك وكان  
النبي عليه السلام إذا  
أراد أن يعمل عملا  
ثبت وقد يكون  
الشيخ يعلم من حال  
الريد أنه إذا خرج  
من الشيء يكسبه من

والنقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه القامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر اللقامات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها ببعض لاجل الناظرين في الظواهر أن العلوم تتراد للأحوال والأحوال تتراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أبواب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تتراد للأحوال والأحوال تتراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم للكاشفة وهي أرفع من علوم للعامة بل علوم للعامة دون العامة لأنها تتراد للعامة فتأثيرها إصلاح العمل وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه بما يعمى فقهه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم للكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخم بالإضافة إليها فإنها إنما تتراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يقضى إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل . وأما الأحوال فنحن بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا ظهر وصفه اتضح له حقيقة الحق فاذا فاضل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم للكاشفة ، وكما أن تصفية الرأفة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للرأفة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فلكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكل عمل إيمان يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهتة للكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول للعصية واسم الثاني للطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن الغنى الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفسك من علوم للكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا الدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشغول بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتتاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في الهلك الذي استولى عليه والشح الطاع . من جملة المهلكات ولا يزال صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزال إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع المهلكات فليرجع إليه فاذا باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ

الحال لا يتطلع به إلى المال فينتد يجوز له أن يفسح للسريد في الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض الريدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحسن منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه اللذمة مجملات فصل بذلك الفائدة للكل فهذا أقرب إلى الداراة وأكثر أثرا لتألف

إذ لو قال لنا قائل الحزن أفضل أم اللام لم يكن فيه جواب حتى إلا أن الحزن للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتماعا فليُنظر إلى الأغلب فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالحزن أفضل فان تساوى فهما متساويان وكذا إذا قيل السكنجيين أفضل أم شراب اللينوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا السكنجيين أفضل أم عدم الصفراء . فنقول : عدم الصفراء لأن السكنجيين مراد له وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لاحتالة فاذن في بذل المال عمل وهو الإشفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب وتبني القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وجهه فالأفضل للعروة ودونها الحال ودونها العمل . فان قلت قد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - وقال تعالى - وبأخذ الصدقات - فكيف لا يكون القعل والاتفاق هو الأفضل . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب بما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسبيل معه للبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحسنته فرط الثناء على اللواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يشب ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعد على ذلك بالجيل لتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي للسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقد ر عليه دون تكليفي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن وربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - ولو شاء الله إطعام الساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار - وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وقالوا أيضا - لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا - فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثير أو يهدى به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل الساكين والفقراء أولأجل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في الساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أأنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره إلى ما فيه سعادته ، فهذا للتاليين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن للسكين الآخذ لما يستوفي بواسطة المال حيث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج خروجه الدم الملة للهلكة من باطنك فالجوام خادم لك لا أنت خادم للجوام ولا يخرج الجوام عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من  
للريد تقصير في خدمة  
نديه إليها يحمل تقصيره  
ويعفو عنه ويحرضه  
على الخدمة بالرفق  
واللين وإلى ذلك نذب  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فيما أخبرنا  
ضياء الدين عبد الوهاب  
ابن علي قال أنا أبو القتح  
الكروخي قراءة عليه  
قال أنا أبو نصر الترياق  
قال أنا أبو محمد الجراحي  
قال أنا أبو العباس  
الحجوي قال أنا أبو عيسى  
الترمذي قال ثنا قتيبة  
قال ثنا رشدين بن  
سعد عن أبي هلال  
الحولاني عن ابن  
عباس بن جليد  
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبايا الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام ومماها أو سائح أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) وللقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع للهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبه التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر رجعنا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العي من الله وهو ما يعرفان متلازمان متساويان هذا إن اعتبرنا في البلاء وللصائب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن العصية وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصبر به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فادن مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة والعصية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورة كالعينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر أن الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلهم على وضيم وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

(١) حديث النهى عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة ومماها أو سائح الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد الطلب بن ربيعة إن هذه الصدقة لا تحمل لنا إنما هي أو سائح القوم وإنما لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أو سائح الناس .

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال «كل يوم سبعين مرة» وأخلاق للشافعي مذهبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس بأحياء سنته في كل ما أمر ونهى وأنكروا وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنعون من أنواع النسخ فسر الريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس الريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه



أن الوقوف مع شيء  
من هذا يشغل عن  
الله ويسد باب الزيد  
بل يعرفه أن هذه نعمة  
تشكر ومن ورأها نعم  
لاتحصى ويعرفه أن  
شأن اللريد طلب النعم  
لالتعنة حتى يبقى سره  
محفوظا عند نفسه  
وعند شيخه ولا يذيع  
سره فاذاعة الأسرار  
من ضيق الصدر  
وضيق الصدر  
الوجب لإذاعة السر  
يوصف به النسوان  
وضعاء العقول من  
الرجال وسبب إذاعة  
السر أن للإنسان قوتين  
أخنة ومعطية وكلتاها  
تنشوف إلى الفعل  
المتخص بها ولولا أن  
الله تعالى وكل المعطية  
بإظهار ما عندها

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع للبإح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئ  
أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين  
أبعاضها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع للبإح فالصبر ههنا أفضل  
من الشكر والفقر الصابر أفضل من الغنى للمسك ماله الصارف إياه إلى البإحات لا من الغنى الصارف ماله  
إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعى  
لا محالة قوة والغنى أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على البإح والبإح فيه مندوحة عن الحرام  
ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه  
القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التمتع على البإح والشرف لتلك القوة التي بدل العمل عليها فإن الأعمال  
لا تزد إلا أحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان فمادل على زيادة  
قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار  
إنما أريد به هذه الرتبة على الحصر لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها  
والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لأن يصرفها  
إلى الطاعة ، فاذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه  
العامة وإلى هذا الغنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل  
فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم وإنما للدخ في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما  
فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم  
صفته وتقضيها وتزعجها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي ألم صفته وأزعجها  
أتم حالا ممن منع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم  
الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغنى  
الشأكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف  
أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير  
الصابر على الغنى الشأكر ومهما لاحظت للعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجها  
في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غنى شأكر كما سبق ورب غنى شأكر أفضل من فقير صابر وذلك  
هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات  
أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكين وإنما ينتظر حاجه تسنح حتى يصرف البها ثم إذا  
صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عبادته فهذا أفضل من الفقير  
الصابر . فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك  
يستشعر ألم الصبر فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الاتفاق . فاعلم أن الذي  
نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطع عن  
نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطلوبا بعينه بل لتأديبها  
وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التآذب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على  
الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان  
مؤلما في حقه لذبة عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذبة وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان  
الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلفه  
أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراد من عموم الخلق ، فإذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق فقصص فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذا صبر مع التألم والرضا يمكن بما لا أفيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فان حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله (١)» وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار وقد روي عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسأله عن حاله فقال إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني فاتفق أنهما زوجت مني قليلة زفافها قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدا منا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصاينا طول الليل فمضت سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لوصبرا على بلاء الفرقة أن لولم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذن لا وقوف على حقائق الفضلات إلا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

### ﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

( وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله للرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائهم والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسيات التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأنتمته والتهدف لسخطه وشمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللفظ إلى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[ أما بعد ] فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير القربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء مخفوقا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه مخفوقا بلطائف السموات وعجائب اللذات إلا بسيات التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذن من بيان حقيقتيهما وتفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتمازجهما ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

### ﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

ما ظهرت الأسرار  
فكامل العقل كلما  
طلبت القوة الفعل  
قيدها ووزنها بالعقل  
حتى يضعها في مواضعها  
فيجل حال الشيوخ  
عن إذاعة الأسرار  
لرزانة عقولهم وينبغي  
للريد أن يحفظ سره  
من بثه في ذلك صحته  
وسلامته وتأيد الله  
سبجانه وتعالى له  
بتدارك الريد  
الصادقين في مورد  
ومصدرهم .

[ الباب الثالث  
والجسود في حقيقة  
الصحة وما فيها من  
الخير والشر ]  
للتنقي للصحة وجود  
الجنسية وقد يدعو  
إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يحتل به الرجاء .

### ( بيان حقيقة الرجاء )

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يشعر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينتسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في المستقبل فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكراً وتذكراً وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمى وجداً وذوقاً وإدراكاً وإنما سمى وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في المستقبل وغلب ذلك على قلبك سمى انتظاراً وتوقفاً فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمى خوفاً وإشفاقاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب بانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب للتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظاراً مع انحراف أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحرق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى قلب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد للمغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات للفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا يتمتع أيضاً سمى انتظاره تمنياً لا رجاء ، فاذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسادات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص الأوصاف فالدعاء بأعم الأوصاف كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض وكميل أهل العصية بعضهم إلى بعض فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصلابة وجسود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليتنقذ الإنسان نفسه عند الليل إلى صلابة شخص وينظر ما الذي يميل به إلى صحبته ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع فإن

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيتته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة للفضيلة إلى الغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على اللواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب الغفرة إلى الموت وإن قطع عن بذل الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر للغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١)» وقال تعالى - غلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - غلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا - وذنم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة تأتيه ولن يرددني إلى ربِّي لأجِدن خيرا منها من قبلا - فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير حقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشاقق إليها حقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه الغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تقي. قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاعتزاز عندى القمادي في الذنوب مع رجاء الغفر من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة يذر النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

رجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليسر فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومطلته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بحريان أكثر الأسباب وهذه الحالة ثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش يثبت فيها فلا يفتقر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس وينع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا يثبت فيترك لأعماله تفقد الأرض والتعب في تعهدا والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال واللواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التعلق له فان هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والزوال في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل (١) حديث الأحق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة فليشتر نفسه بحسن الحال فقد جعل الله تعالى مرآته مجاوة يلوح له في مرآة أخيه جمال حسن الحال وإن رأى أفعاله غير مسددة فليرجع إلى نفسه باللائمة والالتام فقد لاح له في مرآة أخيه سوء حاله فبالجدير أن يفر منه كفراره من الأسد قائما إذا اصطجبا ازداد اظلمة واعوجاجا ثم إذا علم من صاحبه الذي مال إليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك في مرآة أخيه فليعلم أن الميل بالوصف الأمم مركوز في جبلته والميل بطريقه واقع وله

ويدل على إيماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه قال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأ لك لها ثم لا يبالى في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور<sup>(١)</sup>».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له والحب يغلب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيا في وقت الموت قال تعالى - لا تقنطوا من رحمة الله - فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى<sup>(٢)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء<sup>(٣)</sup>» «ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع فقال كيف تجدك فقال أجدي أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمع في قلب عبد في هذا اللوطن إلا أعطاه الله مارجاً وأمنه مما يخاف<sup>(٤)</sup>» وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قوماً فقال - وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة مامنك إذ رأيت للنكر أن تنكره فإن لقنه الله حجة قال يا رب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك<sup>(٥)</sup>» وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يداين الناس فيسأع النسي ويتجاوز عن العسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا<sup>(٦)</sup>» ففأ عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي ﷺ الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير قال يا رسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة مامنك إذ رأيت للنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري باسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يداين الناس فيسأع ويتجاوز عن العسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن العسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه واتقوا عليه من حديث حذيفة

بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكن وركون فيسلب الليل بالوصف الأعم جدوى الليل بالوصف الأخص وبصير بين للتصاحيب استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد ينفسد للريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بجنسية الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين

وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدسون صدوركم وتجأرون إلى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم (١)» وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحب من محبتي وحبيبي إلى خلقي فقال يارب كيف أحبيك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكريم ذلك فأنهم لا يعرفون مني إلا الجميل (٢)» ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك فقلت أردت أن أحبيك إلى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكرم بعد موته في النوم قليل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عنى فقلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبدى بن فيلظن بنى ماشاء وكنت أظن بك أن لاتعذبني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة فقلت يالها من فرحة . وفي الخبر «أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أوسعك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها (٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فائتني بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز وجل إلى أى شئ تلتفت فيقول لقد رجوت أن لاتعبدنى إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به إلى الجنة (٤)» فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلفظه وكرمه .

( بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغيب )

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواقفة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذا رجلان ماثلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما المعاصي للفرور للتمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتران المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب مموما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل للفرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضاهاها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل

وأبي هريرة بنحوه (١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه زيادة ولخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحب من محبتي الحديث لم أجده أصلا وكأنه من الاسرائيليات كالتى قبله (٣) حديث أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

حقيقة الصعبة لله  
فأكتسب من طريقهم  
الفتور في الطلب  
والتخلف عن بلوغ  
الأرب فليتببه الصادق  
لهذه الدقيقة ويأخذ  
من الصعبة أصنى  
الأقسام ويذر منها  
ما يسد في وجهه للرام  
قال بعضهم هل رأيت  
شرايط إلا من تعرف  
ولهذا المعنى أنكر  
طائفة من السلف  
الصعبة ورواها الفضيلة  
في العزلة والوحدة  
كأبراهيم بن أدهم  
وداود الطائي وفضل  
ابن عياض وسليمان  
الحواسب وحكى عنه  
أنه قيل له جاء إبراهيم  
ابن أدهم أما تلقاه قال  
لأن ألقى سبعا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها فإذا حاز الوسط إلى أحد الطرفين عوج بما رده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل اللباقة في التخوف أيضا تكاد أن لاتردم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعظ إلا استئالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد للمهكمون في طغيانهم تماديا قال على كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقيظ الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف للرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا ومحاسن حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينظم بفقده غرض مقصود وإنما كان يقوت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عبادته في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم الزايد والزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يذهب بعد الموت أبدا مثلاً أو لا يحشر أصلاً فليست كراهمتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجدها تبديلاً فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية للداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء قليل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار : فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالى إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعد لها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأذرتكم ناراً تلتظي لأصلاها

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب إلى من أن ألقى  
إبراهيم بن أدهم قال  
لأنني إذا رأيته أحسن له  
كلامي وأظهر نفسي  
بأظهار أحسن أحوالها  
وفي ذلك الفتنة وهذا  
كلام عالم بنفسه  
وأخلاقها وهذا واقع  
بين المتصالحين لإيمان  
عصمه الله تعالى . أخبرنا  
الشيخ الثقة أبو الفتح  
محمد بن عبد الباقي  
إجازة قال أنا الحافظ  
أبو بكر محمد بن أحمد  
قال أنا أبو القاسم  
اسماعيل بن مسعدة قال  
أنا أبو عمرو محمد بن  
عبد الله بن أحمد قال  
أنا أبو سليمان أحمد بن  
محمد الخطابي قال أنا  
محمد بن بكر بن  
عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأثقي الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم - <sup>(١)</sup> » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنهم أهل العراق يقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت تقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه عليه السلام أنه قال « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والقنات فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب قليل هذا فداؤك من النار <sup>(٢)</sup> » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فداؤك من النار فيلقى فيها <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار <sup>(٤)</sup> » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أتى أجعل حساب أمته إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم <sup>(٥)</sup> » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب أجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوهم غيري فأوحى الله تعالى إليهم هم أمته هم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري ثلاث تنظر إلى مساوهم أنت ولا غيرك <sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأحسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم <sup>(٧)</sup> »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والقنات الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أتى أجعل حساب أمته إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب أجعل حسابهم إلى الحديث لم أقف له على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجالهم رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي قد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسعود عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعبة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن القنات » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم - وأعزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربني - استظهر بالزلة على قومه . قيل : الزلة نوعان فريضة وفضيلة فالقريضة العزلة عن الشر وأهله



وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم العفو فقال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم العفو هو إن عفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» ومع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ما تمام النعمة؟ قال لا، قال دخول الجنة (٢)» قال العلماء قد آثم الله علينا نعمته برضاه الاسلام لنا إذ قال تعالى - وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً - وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فاعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له (٣)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجاني (٤)» وفي الخبر «لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٥)» وفي الحديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه وإلا كتبها سيئة (٦)» وفي لفظ آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه فقال أعرابي وإن تاب عنه قال محي عنه قال فإن عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فإن تاب قال محي من صحيفته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يمل من العفوة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا آثم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا آثم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل (٧)» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم العفو فقال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم العفو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فاعلم أن له رباً يغفر الذنوب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبداً أصاب ذنباً فقال أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذي من حديث أنس بن مالك قال لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركني شيئاً لقيته بمثلها مغفرة وللترمذي من حديث أنس الذي قبله يابن آدم لوقيتني الحديث (٦) حديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه فقال أعرابي فإن تاب عنه قال محي عنه قال فإن عاد الحديث وفيه إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلوة غير العزلة فالخلوة من الأغيار والعزلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما لم يلأمن جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصحة وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليأمن الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلزم

«يا رسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذ امت قتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم معي ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحق هاتين <sup>(١)</sup> » وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يا رسول الله من يلي حساب الخلق ؟ فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فتبسم الأعرابي فقال صلى الله عليه وسلم ضحكت يا أعرابي فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا جاسب سامح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي <sup>(٢)</sup> وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال للؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل - الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة <sup>(٣)</sup> » « والؤمن طيب طاهر <sup>(٤)</sup> » « والؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة <sup>(٥)</sup> » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة <sup>(٦)</sup> » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فانه أصل  
والكلام عارض ولا  
يتكلم إلا بحجة فخطر  
الصحة كثير يحتاج  
العبد فيه إلى مزيد  
علم والأخبار والآثار  
في التحذير عن  
الخلطة والصحة  
كثيرة والكتب بها  
مشحونة . وأجمع  
الأخبار في ذلك ما أخبرنا  
الشيخ الثقة أبو الفتح  
باسناده السابق إلى  
أبي سليمان قال حدثنا  
أحمد بن سليمان  
النجاد قال ثنا محمد  
ابن يونس الكرمي  
قال ثنا محمد  
ابن منصور الجشمي  
قال ثنا مسلم بن سالم  
قال ثنا السري  
ابن يحيى عن الحسن

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يا رسول الله : إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعاً . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتوب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يمل الله حتى تملوا وليس في الحديثين قوله في آخره فاذا هم العبد بحسنة الخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها فعلمها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم في رواية أو عاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة <sup>(١)</sup> حديث جاء رجل ، قال يا رسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم <sup>(٢)</sup> حديث أنس الطويل قال أعرابي يا رسول الله من يلي حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا <sup>(٣)</sup> حديث للؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفسى بيده حرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم <sup>(٤)</sup> حديث للؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس <sup>(٥)</sup> حديث للؤمن أكرم على الله من الملائكة ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ للصنف <sup>(٦)</sup> حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم (١) « وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه (٢) « وفي الخبر للشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن ربح حتى تغلب غضبي (٣) « وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) . « ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمته عليه النار (٦) . ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) « وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أبس من جنته أحد (٨) « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم فابست بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلس القوم وجعلوا يكون وتطاولوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم في الأمم أين تاويل وثاريت ومنسك وأجوج وما جوج أم لا يحصيها إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود كالرقعة في فراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويخفى عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الليزان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن ربح حتى تغلب غضبي متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ من حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم ومصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمته عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله في الجنة والنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبديؤ من بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن يضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحدين النار وإخراجهم بالشفاعة ، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه فمن وجدته في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أبس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص  
عن عبد الله بن مسعود  
قال : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
لأتين على الناس زمان  
لا يسلم لدى دين دينه  
إلا من فر بدنه من  
قرية إلى قرية ومن  
شاهق إلى شاهق ومن  
جحر إلى جحر كالتغلب  
الذي يروغ قالوا ومتى  
ذلك يا رسول الله قال  
إذا لم تنل للعبشة إلا  
بمعاصي الله فإذا كان  
ذلك الزمان حلت  
العزوبة قالوا وكيف  
ذلك يا رسول الله وقد  
أمرتنا بالنزوح قال إنه  
إذا كان ذلك الزمان  
كان هلاك الرجل على  
يد أبويه فان لم يكن له  
أبوان فعلى بد زوجته

الدابة (١) « فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس ذاواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والبصيرة والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول مآرأه سبيل الشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلفظ في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال العجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده للمؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « يغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لمارجاء أن تصيبه (٥) » وفي الخبر « إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجي من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكباير من أمتي آرونها للمطيعين المتقين بل هي للمتاوئين الخلطين (٩) »

وولده فان لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يبرونه بضيق العيشة فيسكلف مالا يطيق حتى يوردوه مولود المهلكة . وقد رغبت جمع من السلف في الصعبة والأخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا فقال سبحانه وتعالى « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا - وقال تعالى - هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أى يوم هذا الحديث الترمذي من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد (٢) حديث لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون ليغفر لهم ، وفي لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البرار وابن جبان في الضعفاء واليهيقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده للمؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله تقبل أيضا (٩) حديث إني اختبأت شفاعتي لأهل الكباير من أمتي الحديث الشيخان من حديث أبي هريرة لسكل في دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعتي لأمتي ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذي من حديث وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتي لأهل الكباير من أمتي ، وابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .

وقال عليه الصلاة والسلام «بعت بالخفيفة السمحة السهلة»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم وطى كل عبد مصطفى «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سباحة»<sup>(٢)</sup> ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا تحمل علينا إصرا - وقال تعالى - وبضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال جبريل وما الصفح الجميل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال جبريل فإله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعت الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما بقرتكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمي»<sup>(٣)</sup> . والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فإله تعالى أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فإله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري مأحِب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : لاؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبطار اللائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حبيت اللائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة ياربى قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدى قد علم عبدى أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى أشهدكم أني قد غفرت له . وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في اللزج عند الباب فقلت : ياربى اعصمني حتى لأعصيك أبدا فمتهف بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي للمؤمنين يطلبون مني ذلك فاذا عصمتهم فعلى من أفضل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول : لو لم يذنب للؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للسيتين بالحسين . ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له إلى كم تحدث الناس بالرخص فقال يا أبا يحيى إنى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من القرح . وفي حديث ربيع بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال لما مات أخى سجدى بشوبه وألقيناه على نيشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إنى لقيت ربي عز وجل لخيتاني بروح وريحان وربى غير غضبان وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفترؤا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكانت هناك حصة وقعت في طشت فحملناه ودفناه . وفي الحديث

بين قلوبهم لو ألفت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الصعبة والأخوة في الله تعالى سعيد ابن السبب وعبد الله ابن المبارك وغيرهما . وفائدة الصعبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات وينصب الباطن برزق العلم ويمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ويقع بطريق

(١) حديث بعت بالخفيفة السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله للطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الخفيفة السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالنعنة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سباحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال جبريل وما الصفح الجميل قال إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه الحديث ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

« أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه وزجره فكان يقول دعني وربّي أبعث على رقيباً حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت قد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت قد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته (١) » وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو زلت فكنت معهم ثالثاً قال فزّل بفعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيماً للحواري ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال وأحس الحواري به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجانبه فبقى اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأثرا العمل فقد أحبطت ماسلف من أعمالهما أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه . وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألق الحصى بمجبهته قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تعالى على في عبادي إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على الشركين ويلعنهم في صلاته فزّل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام (٢) » وروى في الآثار أن رجلين كانا من العابدین متساويين في العبادة قال فاذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعه على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل عبد سؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابهم وبين من يخدم ارتجاء لانعامهم وكرامته ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً (٣) » وقال « إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاطاه شيء (٤) » وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

الصحبة والأخوة  
التعاضد والتعاون  
وتتقوى جنود القلب  
وتستروح الأرواح  
بالتشام وتتفق في  
التوجه إلى الرفيق  
الأعلى ويصير مثالها  
في الشاهد كالأصوات  
إذا اجتمعت خرقت  
الأجرام وإذا تهددت  
قصرت عن بلوغ  
الرام . ورد في الخبر  
عن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم « المؤمن  
كثير بأخيه » وقال  
الله تعالى يخبراً عن  
لاصديق له - فما لنا من  
شاقين ولاصديق  
حميم والحميم في الأصل  
الهميم إلا أنه أبدلت  
الحاء بالحاء لقرئ  
مخرجهما إذ هما من

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث ابن عباس كان يقنت على الشركين ويلعنهم في صلاته فزّل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلاناً وفلاناً بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء . إلى قوله : فانهم ظالمون - ورواه الترمذي ومماهم أباسفان والحريث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد كتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً لم أجده بهذا اللفظ وللترمذي من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالخاف (٤) حديث إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطاه شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعاً أحدكم فلا يقل اللهم

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قتلنا يا أبا عبد الله كيف تجردك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتد في الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف. وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفك فمر المجوسي فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي فردّه وأضافه فقال له المجوسي ما السبب فيما بدالك فذكر له فقال له المجوسي أهكذا يعاملني ثم قال اعرض على الاسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذي نلت هذا فقال بحسن ظني بربي. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال لجأوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال قتلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال. وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من القوام كالمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقر شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور ما الذي تريد أن أدعوك فقال لي سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يخلف الله على دراهمي فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله على سيدي فدعاهم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لي وليسيدي ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت قصص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسى العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وأيش الثاني قال أن يخلف الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وأيش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال ثبت إلى الله تعالى قال وأيش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى قلبا بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان إليك أقرى أتى لأفعل ما إلى قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى القبرة وصلينا عليها ودفنا الليت فقلت للمرأة من كان هذا الليت منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت وأيش كان هذا قالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيها دراهم وخطة وثيابا قال رأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال الخنث الذي دفنتموني اليوم رحماني ربي باحتقار الناس إياي. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا ينادي بغير معروف الكرخي على دجلة إذ مر أحدث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا المعروف أما تراهم يصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا فرحهم في الآخرة فقال اغفر لي إن شئت ولكن لعزم ولعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطفه شيء أعطاه والبحارى من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فاذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

حروف الخلق والهميم  
مأخوذ من الاهتمام  
أى يهتم بأمر أخيه  
فلاهتمام بهم الصديق  
حقيقة الصداقة. وقال  
عمر إذا رأى أحدا  
ودا من أخيه  
فليتمسك به قلما  
يصيب ذلك وقد قال  
القائل :

وإذا صفاك من زمانك  
واحد

فهو للراد وأين ذاك  
الواحد

وأوحى الله تعالى إلى  
داود عليه السلام  
قال يا داود مالي أراك  
منتبذا وحدك قال  
إلهي قليت الخلق من  
أجلك فأوحى الله إليه  
يا داود كن يهظانا  
مرتادا لنفسك أخوانا

القوم إنما سألتك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول في دعائه يا ربّ وأى أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابعة ورزقك عليهم دارا سبعا حاك ما أحلك وعزتك إنك تصصى ثم تسبخ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لاتعصب فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحق للفرورون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبء السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

### ( الشطر الثاني من الكتاب في الخوف )

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

### ( بيان حقيقة الخوف )

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترائه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة للرجاء ولا خوف وبالجملة فالحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نصا في الشهود وإتمام دوام الشهود غاية للقامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل اللقائات فتقول : حال الخوف ينظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب للنفس إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب للنفسية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه مخفوقا بمن يحته على الانتقام خاليا عن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب بسبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعتن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كاللدى وقع في محال سبب فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبيلية للمخوف منه نخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الساء يخاف لأنه بطبعه محبوب على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للثبر لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة للعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغناؤه وأنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله (١) » وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كملت المعرفة

(١) حديث أنا أخوفكم البخارى من حديث أنس والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له وللشيخين

وكل خدن لا يوافق على مسرتى فلا تصحبه فانه عدو يقبى قلبك وياعدك منى . وقد ورد في الخبر « إن أحبك إلى الله الدين يألفون ويؤلفون فالؤمن ألف مألوف » وفي هذا دققة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله ينهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفاً فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجليل ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفرا الناس حظا



أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والنعثية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفيض إلى اللوت أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فبكتفها عن المعاصي وتقيدها بالطاعات تلافي لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من سيئ ويمنع عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى النون متى يكون العبد خائفا قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى مخافة طول السقام . وأما في الصفات فبأن يجمع الشهوات ويكدر الذات فصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشبهه إذا عرف أن فيه مما احترق الشهوات بالخوف وتآذ الجوارح ويحصل في القلب الدبول والحشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبير والحق والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطراته فلا يفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضئنة بالأنفاس والاحظاظ ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله من وقع في مغالب سبع ضار لا يدرى أنه يفعل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا تمتنع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعافان زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فكيف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فأنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه أعم لأنه كف عن كل محذور ، وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحذور والشبهة جميعا ووراء اسم الصديق والتقرب وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم فاذا ذكرت الأخص قد ذكرت الكل كما أنك تقول الانسان إما عربي وإما عجمي والعربي إما قرشي أو غيره والقرشي إما هاشمي أو غيره والهاشمي إما علوي أو غيره والعلوي إما حسني أو حسيني فاذا ذكرت أنه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للمعاني فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

من حديث عائشة والله إنني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء وأنتم الجميع في هذا نبينا صلوات الله عليه وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا وقال «تأكلوا نكثوا فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال - ولو كنت فظا غليظ القلب لا تقتضوا من حولك - وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه

( بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف )

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى اللواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهيمة أن لا تخاو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء ينحدر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها الماء برحاً فلا يسوقها إلى القصد ولا يصلح لها ضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء الترسمين برسوم العلماء والتسمين بأسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك بمخافة عز وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحرارة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما للمفرط فانه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل فانه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض للحدوث ولا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص آدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدره وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض واللوث فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى اللوث وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يعرضها أو يكسر عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها في العلاج به صدمة الخوف المفرط اللغضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يرد الأمر فالحمد ومنه ما يقضي إلى اللزاد القصور منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يهدح في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فقامت من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقاءه وطول عمره في طاعة الله وسلوكه سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يقتله سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما بطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو حسران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلو في أول أمره وكان يخلو في غار حراء ويتحنن الليالي ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه ألقاً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا في أول الباب إن في الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف

إلى أمور آخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مدونها لبالاضافة إلى درجة للتقين والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فإذا أثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عمامسى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما محمد منه وذلك منع بقاء الصحة والعقل فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدن للملازمين للجوع أيا ما كثيرة احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

( بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى ما يخاف منه )

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه وللكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه كما تكمرو للمعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره للمريض الفواكه للضرر لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من المكروهات المخدورة فالذين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لتغيره كالذين يخلب عليهم خوف اللوت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بآلام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استبداء العادة في اتباع الشهوات للألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طابعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحجانة والفسخ وإضمار السوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل اللوت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند اللوت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي صفت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الخذر عما يفضي إلى الخوف فمن يخاف استبداء العادة عليه فيو اظب على النظام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فإن الأمر فيه خطر وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يشرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما ذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر قبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزدادهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم فلما علم الخذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الليل بالوصف الأعم لترتقي المهم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح فإذا وفوا التصفية حقها اشترأت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولى وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجبلة من الألفة للكلمة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستنقذهم الله قبل اللوت ولو بفواق ناقة وليعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل اللوت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم (١) وهذا كاتقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنائه وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لآعالة فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الغرور والآن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف اللوحدين والصدّيقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسر أسباب المعصية لإبعاد ولم يسبق منه قبل للمعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسر له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا للطبيع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف بمن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا للنبي سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن فهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يداود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢) » فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا الجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيئته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالى فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يندح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته والله للثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي هؤلاء إلى النار ولا أبالي » ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم البالاة.

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يداود خفي كما تخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل للصف قصدا بإرادته أنه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة .

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل ألف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصحبة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يهشه الله

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يمثل في أنفسهم ماهو للكروه وذلك مثل سكرات اللوت وشدة أو سؤال منكرو ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلاع أو هية الوقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقيز والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لاحالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتوجب منه في نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولامنع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والإنباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها الهائم فأمالدة العارفين فلا يدركهم غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاله ومن كان أهلاله استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

#### ( بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه )

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار. أما الاعتبار فسيظهر أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الاضواء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا تحصيل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصيل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تيسر للواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك للشهوات إلا بقمع الشهوات ولا تقمع الشهوة بشيء كما تقمع بدار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - . وقال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم لحشيتهم وقال عز وجل - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفزدهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

لصادقين رقما من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والأنيس قد يكون مفيدا للمشايخ وقد يكون مستفيدا للمريدین فضحيح الخلوۃ والعزلة لا يترك من غير أنيس فان كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتم حاله به وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من الريدین وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعظم بل هو بالله ومن الله وفي الله. وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله «التجاربون في الله على عمود من ياقوته حمراء في رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى (١) فاذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجه وشرطه في الإيمان فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفة بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذام بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أذانهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إني أجمع أعمالكم ترد عليكم - أيها الناس إني قد جعلت نسباً وجعلت نسباً فوضعتم نسباً ورفعت نسبكم - قلت إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأيتهم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فالיום أضع نسبكم وأرفع نسباً أين للتقوى فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله (٣) » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى (٤) » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير - وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة مارأته قط - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كغلب بين أسدين - وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فانه لا يبقى أحد إلا نأشسته الحساب وقششت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فان خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسماء وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال - سيد كرم من يخشى - وقال تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزني

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله عز وجل فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ إني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول

(١) حديث لماخبر في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يغير فلما نزل به ورأسه في حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص يبصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلت أنه لا يخترنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أذانهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إني أجمع أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسباً الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والتعليق في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نسباً الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضاً (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فان أمتني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمتته يوم القيامة (١) « وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء » (٢) « وقال عليه السلام « أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً » (٣) « وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد له وجهه ووصح له ليه . وقال ذو النون أيضاً ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضريير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً فقال أشدكم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمه الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن يأبى سعيد كيف نصنع نجالس أقواماً يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فرق الخوف قلباً إلا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويؤذي قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » (٤) « والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف للضاد له بل يقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فان كل من رجا محبوباً فلا بد وأن يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لتفله عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ للعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده روح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجب القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه نعم أحد طرفي الشك قد يرجع على الآخر بمحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفاً وطعناً - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقاراً - أي لا تخافون وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسل (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بأسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً الحديث لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويؤذي قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة  
وجوههم كالقمر ليلة  
البدر يفرع الناس  
ولا يفرعون ويخاف  
الناس ولا يخافون وهم  
أولياء الله الذين لا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون  
قبيل من هؤلاء  
يا رسول الله ؟ قال  
المتحابون في الله عز  
وجل . وروى عبادة  
ابن الصامت عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
قال « يقول الله عز وجل  
حقن محبتي للمتحابين  
في الزواجر في  
والتبائسين في  
والتصادقين في »  
أخبرنا الشيخ  
أبو الفتح محمد بن  
عبد الباقي إجازة قال  
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - سيكون ويزيدهم خشوعا - وقال عز وجل - آمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون - وقال ﷺ « ما من عبد مؤمن تخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حروجه إلا حرمه الله على النار » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحات عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يابح النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود الابن في الضرع » (٣) وقال عقبة بن عامر « ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك ولا يسعك بيتك وابك على خطيئتك » (٤) وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى » (٦) وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطاليتين تشفيان [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمر » (٧) وقال ﷺ « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » (٨) وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتناك . وكان محمد بن النكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فان لم تبكوا فباكوا فوالذي نفسي بيده لو لم يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجهه صاحبها قرولا ذلة

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحات عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يابح النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى لم أقف له على أصل (٦) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عينين هطاليتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الاستيعاب وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين الروزي في زيادته على الزهد والرقائق لابن المبارك من زوايا سالم بن عبد الله مرسل دون ذكر الله وذكر الدار قطن في العلل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسل لا قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله الحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم الحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكافي وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فان الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإنما ذكروا له رواية عن سالم الحاربي والله أعلم ، نعم حكى ابن عساکر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروى عن سالم الحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ .

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الحاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحاربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن السيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فانها هي الخالقة » وبإسناد إبراهيم الحاربي عن عبيد الله بن عمر عن أبيه أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت



يوم القيامة فان سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأحبار رضي الله عنه والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعه على وجنتي أحب إلى من أن أتصدق ببجل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لأن أدمع دموعا من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فحدثت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي قد ناقضت حيث تحولت عنى ما كنت فيه من الخوف والركة فخرجت وجعلت أنادى نادى نافق حنظلة فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال كلاً لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلاً لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجأت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصاغتكم للملائكة في الطرق ولى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متملة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

( بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما )

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيعثر به شك في أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهى قول القائل الخبر أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبر أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فإن اجتماعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبر أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا أن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتذار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد العصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخوف أفضل من السكنجين إذ يعالج بالخبر مرض الجوع وبالسكنجين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبر أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصي والاعتذار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستندة الالتفات إلى الصفات التي تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة بمازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالفظ الأفضل فنقول : أكثر الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التتمى الذى ترك ظاهر الأثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافق حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا .

أبا مسلم يقول سمعت  
أبا هريرة يقول الخبر  
وفي الخبر تحذير عن  
البغضة وهو أن يحفو  
الختلى الناس مقتا لهم  
وسوء ظن بهم وهذا  
خطأ وإنما يريد أن  
يخلو مقتا لنفسه  
وعلا بما في نفسه من  
الآفات وحذرا على  
نفسه من نفسه وعلى  
الخلق أن يعود عليهم  
من شره فمن كانت  
خلوته بهذا الوصف  
لا يدخل تحت هذا  
الوعيد والاشارة  
بالحالة يعنى أن البغضة  
حالة للدين لأنه نظر  
إلى المؤمنين والمسلمين  
بعين اللقت . وأخبرنا  
الشيخ أبو القتح  
باسناده إلى إبراهيم

قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفاً ترى أنك لو أنيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وأرج الله رجاءاً ترى أنك لو أنيت به بسيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لحشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كمثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تهديها وجاءه بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه فكذلك ينبغي أن تكون أحوال التقيين . فاعلم أن من يأخذ للعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثلاً فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وثقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق للهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثال مسألتنا بذر لم يحرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعدها الزارع ولم يجربها وهي في بلاد ليس يدري أكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألته هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبئه وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يحرب مثله والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يحرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يحرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يبالي في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم للناقضين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وإن اعتقد ققاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتبليس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقاله على ذلك إلى تمام حسن الحاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» (٢) ، وفي رواية «إلا قدر فواق

الحربي قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعاك الله فكلما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ألف بين قلوب عبادك الصالحين وكيف لا تألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز يقاب قوسين في وقت لا يسهو فيه شيء لالطف حال الصالحين وجدتم في ذلك اللقائم العزيز

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم للناقضين مسلم من حديث حذيفة في أصحابي اثنا عشر مناقباً تماماً لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية إلا قدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبرار والطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن والشيخان في أثناء حديث لابن مسعود إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار» وقد فراق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلّة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفاً وطمعاً - وقال عز وجل - ويدعوننا رغباً ورهباً - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالحق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من الغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس اللوجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مغازاة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محبة الادكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حرورى ومن عبده بالرجاء فهو مرجى ومن عبده بالحبّة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والحبّة فهو موحد فاذن لا بد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضت وقت العمل فالشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فانه يهوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحالة تعالى ليكون محالاً لقاء الله تعالى فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تشر المعرفة المحبة فإن المصير إليه والقُدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محبته وعذابه فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموتته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلاقتها شاغلة له عن المحبوب فالله تعالى إذذن سبحانه لأن السجن عبارة عن البقعة اللانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فموتته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الإنكالات والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حبيب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل مانسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد» (١) والغرض

ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات .

وقال السلام علينا  
وطي عباد الله الصالحين  
فهم مجتمعون وإن  
كانوا متفرقين  
وصحبهم لازمة  
وعزيمتهم في التواصل  
في الدنيا والآخرة  
جازمة . وعن عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه  
لو أن رجلا صام النهار  
وقام الليل وتصدق  
وجاهد ولم يحب في  
الله ولم يبغض فيه  
مانعه ذلك . أخبرنا  
رضي الدين أحمد بن  
إسماعيل بن يوسف  
إجازة إن لم يكن مماعا  
قال أنا أبو الظفر عن  
والله أبي القاسم  
القشيري قال سمعت  
أبا عبد الرحمن السلمي  
يقول سمعت عبد الله

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمعجبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لهجة الدنيا عن القلب ولذلك قال عليه السلام « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه (١) » وقال تعالى « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابن أبي حذئ بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لا به عند الموت اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن حبيبي إلى عبادي فقال بماذا قال بأن تذكر لهم الآثي ونعمائي فاذن غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين آبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أقلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

( بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف )

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء بالجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والآنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد تظاهروا باطنوا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والآنس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذن في ما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكننا نقر بالخوف بكلام جلي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت قد دخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترعد فترعد نفسه ويختل في الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه في الحرب يخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية نومها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته. وأما خوف الابن فإيمانه بمجرّد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحنن المطلعين على سر قوله تعالى - ويحذركم الله نفسه - وقوله عز وجل - اتقوا الله حق تقاته - وأما الأول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونه مجازين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان وإيمانا تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال

ابن المعلم يقول سمعت أبا بكر التلمساني يقول أحبوا مع الله فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبتة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول سمعت أبا جعفر الحداد يقول سمعت على بن سهل يقول : الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل

(١) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالسهم ومشاهدة أحوالهم فان قامت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأعلى فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية ولكن هو مجرد التقليد أيضاً في خوف الصبي من الحية تقليداً لآبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف وزول على قرب حتى إن الصبي ربما يرى العزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لآبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للؤكد لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفاً في محالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة جلب في الخوف من السبع الضاري إلا المعرفة السبع ومعرفة الوقوع في محالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرباً لللائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جرعة سائلة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد المعاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بالضرورة فان كان أبعد لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لعلته من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله يده ونفخ فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائه وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاماً قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أقتلوني على أن عملت عملاً كتبته الله عليّ قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (١) » فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين للطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محال السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفتسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه معنى اتفاقاً وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقاً والواقع في محال السبع لو كانت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع اقترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد نبه القائل نظاماً على حقيقة جامعة لمعان الصبغة والخولة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله : وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قعود المرء وحده [ الباب الرابع والجلسون في أداء حقوق الصبغة والأخوة في الله تعالى قال الله تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى - وتواصوا بالحق - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سبع الآخرة مثل سبع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرع عن القضاء الجزم الأزل إلى ما خلق له خلق الجنة وخلق لها أهلا مسخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا مسخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن تعدبه القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيبيله أن يعالج نفسه بسبع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للغرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم القراغة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، ففى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفى رواية ثانية « أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضرب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بن إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا طى جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أركى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل طى ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره (٦) » وفى حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم طى بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا

رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد على الكفار رحما بينهم وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصلوة فمن اختار صفة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والتضرع ويسأل البركة في الصلوة فإنه يفتح طى نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - وقيل

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم ولا تخفر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بجمعة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم الله وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشد لهم خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف في إسناده فرواه فى الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيًا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضرب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفى صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فضض وقد تقدم (٥) حديث لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلا قال له أبشر بالجنة وقد تقدم فى ذم المال والبخل مع اختلاف.

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه التآلية طي الله تعالى فقال للريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويدخل بما لا يعنيه (١) « وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيتنى هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - ألا بعدا لعاد قوم هود - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود - مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قعها كاذبة ، خافضة رافعة - أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكرير أهوال يوم القيامة وانكشاف الحائمة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت - وفي عم يتساءلون - يوم ينظر المرء ما قدمت يداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق للنفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفجلين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم أيه الثقلان - وقوله عز وجل - أفأمنوا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا - الآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما تهمتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقد منّا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والعصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الحسران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمتكما قالا ومن يأمن مكر الله (٣) وكأنهما إذ علمتا أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد أمتكما ابتلاء وامتحان لهما ومكر بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتنا من المكر وما ويا بقولهما كأن ابن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذي وفى - أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له - لا تخف إنك أنت الأعلى - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتنى هود وأخواتها الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في التماثل من حديث أبي جيفة وقد تقدم في كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليه عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ورويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .

إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إني كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ليتني لم آخذ فلانا خليلا - وإن كانت الآية

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق طى وجه الأرض أحد يعبدك (١) » فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعده الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وقال - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية . فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكليّة من بين لعله بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حشد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسابان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الظامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك قد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ومرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد القلوب عليهم أبداً ثم يخبر عنه ويقول - ولو شئنا لأنينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ما حق من القول فى الأزل ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطعمة تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن سرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الخيرات كلها يسيرة والقلب بالكليّة عن الدنيا منقطعا وبظاھر وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقريبا من القدر فى غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطيف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا حترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب العقلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف النطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنى لأدري ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لا خرت الموت على الإسلام لأنى لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يخلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل

وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وثبتت فى أول الأمر شأن أرباب العقلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصحبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق طى وجه الأرض أحد يعبدك البخارى من حديث ابن عباس بلفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .



حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - . ولما اختضر سفيان جعل يبكي ويجزع قليل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكى ؟ لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرته الوفاة فاقعد عند رأسى ، فإن رأيتنى متاً على التوحيد فخذ جميع ما مملكت فاشتر به لوزا وسكرا واتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس للنفات ، وإن متّ على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحبّ على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والوز وفرقه . وكان سهل يقول : للريد يخاف أن يتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأنّ فى وسطى زناراً أخاف أن يذهب بى إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار فهذا لى فى كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يا معشر الحواريين أنتم تخافون للمعاصى ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى فى أخبار الأنبياء أن نبيا شكّا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبدى أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا فأخذ التراب فوضه على رأسه ، وقال بلى قد رضيت ياربّ فاعصمنى من الكفر ، فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، وسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على اللوث مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برئ من النفاق كان أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس وماعنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناققا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فقيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر (١) » وفى لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شئ منه إلا صدق إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذى يخلو عن هذه المعانى بل صارت هذه الأمور مألوفاً بين الناس معتادة ونسى كونها منكراً بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه : إن كان الرجل لينكم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها مناققا إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق فى أعينكم

وسؤال البركة والخيرة  
فى ذلك وتقديم صلاة  
الاستخارة . ثم إن  
اختيار الصحبة  
والأخوة عمل وكل  
عمل يحتاج إلى النية  
وإلى حسن الخاتمة  
وقد قال عليه الصلاة  
والسلام فى الخبر  
الطويل « سبعة  
يظلمهم الله تعالى فمنهم  
اثنتان تحابا فى الله  
فأشأ على ذلك وماتا  
عليه » إشارة إلى  
أن الأخوة والصحبة  
من شرطهما حسن  
الخاتمة حتى يكتب  
لهما ثواب المؤاخاة  
ومتى أفسد المؤاخاة  
بتضييع الحقوق فيها  
فسد العمل من  
الأول . قيل ما حسد

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو  
وقد تقدم فى قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل لينكم بالكلمة على عهد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فيصير بها مناققا أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم فى قواعد  
العقائد .

من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار (١). وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس مائتي مثله ، وأن تحبّ على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أنجيّه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا بهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وروى أنه سمع رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه ، فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . وأشد من ذلك ما روى أن قرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم للنفاقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يمتلئ بالآيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ويأتي عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي . ومنها النفاق ، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابعة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين محافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي بيده ما بعد الموت من مستعقب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٥) » ، والله المستعان .

#### ( بيان معنى سوء الحاتمة )

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتي : إحداها أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة المسائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبرار من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصححه إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث سمع ابن عمر رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه فقال رأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن قرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين محافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجوه ولده في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین  
على بر حسده  
متآخین فی الله  
متحابین فیہ فانه  
یحجد نفسه ويحث  
قبيله على إفساد  
ما بينهما . وكان  
الفضيل يقول : إذا  
وقعت الغيبة ارتفعت  
الأخوة ، والأخوة في الله  
تعالی مواجهة قال  
الله تعالى - إخوانا  
على سرر متقابلين -  
ومتى أضمر أحدهما  
للآخر سوءا أو كره  
منه شيئا ولم ينبهه  
عليه حتى يزيله أو  
يتسبب إلى إزالته منه  
فماواجه بل استدبره  
قال الجنيد رحمه الله  
ما تواخى اثنان في  
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبدا وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب الخلد . والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه فأما للمؤمن السلم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لمبى فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقوب موته لما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويعمل طول هذه المدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما صححت به الأخبار وهو «أن القبر إما محفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)» . «وأنه قد يفتح إلى قبر المذب سبعون بابا من الجحيم (٢)» كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الخاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكرو ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملاء من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتعمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المذب سبعون بابا من الجحيم لم أجده أصلا (٣) حديث سؤال منكرو ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملاء الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رؤوس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والنافق فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكرو وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا  
لعلة فى أحدهما فالموأخاة  
فى الله أصنى من اللاء  
الزلال وما كان لله فالله  
مطالب بالصفاء فيه وكل  
ما صفا دام والأصل فى  
دوام صفاته عدم المخالفة  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « لا تمار  
أخاك ولا تمازحه  
ولا تعده موعدا  
فتخلفه » . قال أبو سعيد  
الحراز : صحبت  
الصوفية خمسين سنة  
ما وقع بينى وبينهم  
خلاف قليل له وكيف  
ذلك ؟ قال لأنى كنت

معهم على نفسى .  
أخبرنا شيخنا  
أبو النجيب السهروردى  
إجازة قال أنا عمر بن  
أحمد الصفار قال أنا

فتجتمع الأجزاء للفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية . فان قلت فما السبب الذي يفضي إلى سوء الحاتمة . فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال كالابتدع الزاهد فان عاقبته مخرطة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا . فأقول إنه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ماهو عليه إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يفتقر وإما أخذا بالتقليد عن هذا حاله فاذا قرب للموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطما به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبقوله عز وجل - قل هل تنشك بالآخرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وكما أنه قد ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي النافذة للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع مافي اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق والبله بعزل عن هذا الخطر أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماننا مجملا راسخا كالأغراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا أضغوا إلى أصناف التكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمرهم الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثورة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتصببات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد للورثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البزار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف  
قال أنا أبو عبد الرحمن  
السلمى قال سمعت  
عبد الله الداراني قال  
سمعت أبا عمر والدمشقي  
الرازى يقول سمعت أبا  
عبد الله بن الجلاء يقول  
وقد سأله رجل على أي  
شرط أصبح الخلق  
قال إن لم تبرم فلا  
تؤذم وإن لم تسرم  
فلا تسؤم . وبهذا  
الاسناد قال أبو عبد الله  
لاضيع حق أخيك  
بما بينك وبينه من  
للودة والصدقة فان الله  
تعالى فرض لكل  
مؤمن حقوقا لم يضعها  
إلا من لم يراع حقوق الله  
عليه ومن حقوق  
الصحة أنه إذا وقع  
فرقة ومباينة لا يذكر

حُب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنفها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمقول مع تفاوت الناس في قرائعهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم فانسدت بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعثر ضواها وخارج عن حد طاقمهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن نبأه بعد حين - ويتبين أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تحف سوء ما يأتي به القدر

وسألتك الليالي فاعتربت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينة وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين بضاعة عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تعصباتهم أودون الأدلة فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واقفا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائف في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعتقد إلى نور للكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنى يتيسر وإتما يسل عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة . وأما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في محالة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يظلم ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعنا فاذا جاءت سكرات اللوت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من اللوت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولله حبا ضعيفا إذا أخذ ولله أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان انفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان للوجوب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترعتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمبصرون - فأتى الله بأمره فاذا ن كل من فارقه روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بيناله وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير . قيل  
كان لبعضهم زوجة  
وكان يعلم منها ما يكره  
فكان يقول له استخبرها  
عن حالها فيقول لا ينبغي  
لرجل أن يقول في أهله  
إلا خيرا فقارقتها وطلقها  
فاستخبر عن ذلك فقال  
امرأة بعدت عني  
وليست مني في شيء  
كيف أذكرها وهذا  
من التخلق بأخلاق الله  
تعالى أنه سبحانه يظهر  
الجميل ويستر القبيح  
وإذا وجد من أحدهما  
ما يوجب التقاطع فهل  
ينفضه أولا يختلف  
القول في ذلك . كان  
أبو ذر يقول إذا قلب  
عما كان عليه أنفضه  
من حيث أحببته وقال  
غيره لا يفيض الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد البغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعناء الأسفار طمعا في لقاءه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام وبدائع الانعام . وأما الحاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك لأن مقارنة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الآلف والعادة وجميع مآلئه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما عائل مشاهداته في اليقظة وحتى إن المراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الواقع ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكرا للألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب للرجعة لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجع وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جمالا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدره من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان وقد ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقلات الحواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الحياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويمل أصبعه التي لها عادة بالسكسبان ويأخذ الأزار من فوقه ويهدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى المقرض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا الجاهدة طول العمر في فطامه

بعض الصعبة ولكن يغض عمله قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم - فان عصوك قتل إني بريء مما تعملون - ولم يقل إني بريء منكم . وقيل . كان شاب يلزم مجالس أبي الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه قبيلا له لوأبعده وهجرتة فقال سبحان الله لا يترك صاحب شيء كان منه . قيل : الصداقة لحة كلحة النسب . وقيل لحكيم مرة أيما أحب إليك أخوك أو صديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول الواظبة على الخير وتخليه الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت الرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ولذلك قيل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلتي الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره تلاتاً نوراً فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذ من الحياء والخوف ما يجلب عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرقابة الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الحاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات للقتضية لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير فهذا عظم خوف العارفين من سوء الحاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الحيات لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيوخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فمجرني شهر ولم يكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجوز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غاب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما ستحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لا أعجب بمن هلك كيف هلك ولكني أعجب بمن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي قليل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم النطام من أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيحتم له بما سبق به الكتاب» (١) ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأنى أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا لو أسوء

(١) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم .

أحب أخى إذا كان  
صديقى وهذا الخلاف  
في المفارقة ظاهراً وباطناً  
وأما الملازمة باطنياً  
وقعت المباني ظاهراً  
فتختلف باختلاف  
الأشخاص ولا يطلق  
القول فيه إطلاقاً من  
غير تفصيل فمن الناس  
من كان تغيره رجوعاً  
عن الله وظهور حكم  
سوء السابقة فيجب  
بعضه وموافقة الحق  
فيه ومن الناس من  
كان تغيره عثرة  
حدثت وقيرة وقعت  
يرجى عوده فلا ينبغي  
أن يفيض ولكن  
يغض عمله في الحالة  
الحاضرة ويلحظ بعين  
الود منتظراً له الفرج  
والعود إلى أوطان

الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما اللوث فجأة فلا أنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكره أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلا أنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطننا نفسه على اللوث إلا حب الله وطلباً لمرضاته وبإتمامه بآخرته وراضياً بالبيع الذي يباعه الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - والبائع راغب عن البيع لاجل محالة ومخرج حبه عن القلب ويجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال بسبب لزوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كادلت عليه الأخبار <sup>(١)</sup> وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهديك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوق وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف في روحك فراقب قلبك في كل تطرife وإياك أن تهمله لحظة فلعن تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك واللوث والبعث شيه النوم واليقظة فكما لا ينم العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا أن اللوث والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تغفل عن الله طرفتين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا المحلصون والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك . طعم وملمس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعام ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكلاهما لا يكون قضاء الحاجتين همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك بقيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء

الصلح فقد ورد «أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي أتى بفاحشة قال له وزجرهم بقوله ولا تكونوا عونا للشيطان على أخيك» وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فإنه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئسه» وروى أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذلك أخو الشيطان قال له ما قال له إنه قارف

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقايل حمية ويقايل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .



حاجتك فعلامه ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من ما كولاك في وقت وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكفى في اليوم واليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقتنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مثونة الشهوات والذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأما ما بسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولوقنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويأزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تسكنف به في خسارة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يعلأ بطنه إلا التراب وكذلك للسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك البهاء سقفا والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فليكن بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمره هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائض سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد ريك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لحاجتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلكك فأقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوما بيوم في تسويقك أو غفلتلك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن قيا وصفناه من أمر الحاجة كفاية في تخوفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يجر ميتا إلى الأرض ولاغرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقى فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .

( بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف )

روت عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله (١) » وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق (٢) » وقال تعالى - وخر موسى صاعقا - ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق (٣) » وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الحاقة فصعق البروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرأ عنده - لدينا أنكالا وجحيا وطعاما إذا غصة وعذابا ليلا - فصعق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب رسلا وهكذا ذكره الصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البرار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع بك فدعا به فطلع عليه من قبل الشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صهق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا

الكبائر حتى وقع في الحرق قال إذا أردت الخروج فأذني قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر قتاد ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشما لفسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فأسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز للرمل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو  
يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس مظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام  
يكيان فأوحى الله إليهما مالكيتان كل هذا البكاء فقالا يا رب ما نؤمن مكرتك فقال الله تعالى هكذا  
كونا لا تأمنا مكرى . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أنفذة للملائكة من أمانها فلما  
خلق بنو آدم عادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالى لا أرى ميكائيل يضحك فقال جبريل  
ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحدهم منذ خلقت النار  
عجافا أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضي الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله  
عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل  
فقلت يا رسول الله لأشتهي فقال لكنى أشتهي وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت  
ربى لأعطاني ملكا قصيرا وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخشون رزق ستمهم ويضعف  
اليقين في قلوبهم قال فوالله ما برحنا ولا فئنا حتى نزلت سوكان من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقهم أواباكم  
وهو المسيح العليم - قال فقال رسول الله ﷺ إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا بتباع الشهوات، كنز  
دنانير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ألا وإنى لأأكثر دينار أولادهم وأولاءهم قال (٤)» وقال  
أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من  
مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما سجدا لا يرفع رأسه حتى  
نبت للرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودى يا داود أجائع أنت فطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى  
فنجب نجة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والغفرة فقال يا رب اجعل  
خطيئتي في كفى فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا  
رأها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاء فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض  
القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات جيا من الله عز  
وجل وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحها وإذا ذكرت رحمتك  
ارتدت إلى روحى سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليدواوا خطيئتي فكلمهم عليك يدنى فؤسا لاناظن  
من رحمتك : وقال الفضيل بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صار خاوا واضعاه يده على

كان مريضا عدته وإن  
كان يشغولا أعتته  
وكان يقول ابن عباس  
رضي الله عنهما  
ما اختلف رجل إلى  
مجلس ثلاثا من غير  
حاجة تكون له فعلت  
مامكافاته في الدنيا وكان  
يقول سعيد بن العاص  
لجليسى على ثلاث  
إذا دنا رجبت به وإذا  
حدث أقبلت عليه  
وإذا جلس أوسعت له  
وعلامة خلوص المحبة  
لله تعالى أن لا يكون  
فيها شائبة حظ عاجل  
من رفق أو إحسان  
فإن ما كان معلولا  
يزول بزوال علته ومن  
لا يستند في خلقه إلى  
علة يحكم بدوام خلقه  
ومن شرط الحب في الله

بلفظ فنتشى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى  
جبريل له ستائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة مع لصدره أزيز كأزيز للرمل أبو داود  
والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السماع (٢) حديث  
ما جاءني جبريل قط إلا هو ترتعد فرائضه من الجبار لم أجده هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب  
العظمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ثم رعد  
فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن ممالك الحنفى يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس  
أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لا أرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت  
النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ورواه ابن شاهين  
في السنة من حديث ثابت مرسل وورد ذلك أيضا في حق إسرائيل رواه البيهقي في الشعب وفي حق  
جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى  
دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث ابن مردويه في التفسير والبيهقي  
في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد صحيح والجرار بن مهنا ضعيف

رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي حج صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واعتد غمه فقال يارب أمّا ترحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف للساء الجارى عن جريه وسكن هبوب الريح وأظننى الطير على رأسى وأنست الوحوش إلى محرابي إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وخشة المعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقته يدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى وشكالى الوحدة فزوجه خواء أمي وأسكنته جنى عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اسمع مني والحق أقول أطعنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلك وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن يتوج مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج له للنبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبرارى والصوامع والبيع فينادى فيها أأمن أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرقى للنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه يأخذ في الشتاء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتמות الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النباحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا ابتاه قد مرقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بنى إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فينأى كذا ذلك إذ ناداه بعض عباد بنى إسرائيل يا داود عجبت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشياً عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادى أأمن كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتى بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتلته ذكر النار يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق باباً ويقول يا إله داود أنفضان أنت على داود ولا يزال يتأجج ربه فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا ابتاه تقو بهذا على ما تريد فإيا كل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشى خرج داود ذات يوم بالناس عظمهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً ومارجع إلى عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب تعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليه السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فظفر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهدهم قد خرجوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهال ذلك

إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - قوله تعالى - لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم وهذا الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انتزاع الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا والثاني الإيثار بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام لا للرم على دين خليله ولا خيره

فرجع إلى أبيه ثم بصبيان بلعون فقالوا له يا يحيى هلم بنا لنلعب فقال إني لم أخلق للعب قال فأتى  
أبيه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهرا ويصبح فيه ليلا  
حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيّر الشهاب فخرج أبواه في طلبه  
فأدركاه على بحيرة الأردن وقد ألقع رجله في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك  
لا أذوق بارد الشرب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يقطر على قرص كان معهما من شعير  
ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فملح بالبرفده أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام  
يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والدر ويسكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمر عليه فلم يزل يبكي  
حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه الناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن أخذلك  
شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فعمدت إلى قطعة لبودفألقصتها على خديه فكان  
إذا قام يصلّي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فمصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل  
على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا  
بوما يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لثغرتين بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام  
أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك . وقال  
المسيح عليه السلام : معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على الشقة  
وياعدان من الدنيا بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على الزابل مع الكلاب في طلب الفردوس  
قليل . وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب  
قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف  
خليله فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك  
والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين  
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

#### ( بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف )

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا . وقال أبوذر  
رضي الله عنه وددت لو أتى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة . وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا  
مت لم أبعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه  
كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن معشيا عليه فكان يعاد أياما وأخذ يوما قبنة من  
الأرض فقال ياليتني كنت هذه التينة ياليتني لم أك شيئا مذكورا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلدن  
أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من السموع . وقال رضي الله عنه من خاف الله  
لم يشف غيظه ومن انتهى الله لم يصنع ما يريد ولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه  
- إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خرمغشيا عليه ومروا يوما بدار إنسان  
وهو يصلّي ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع -  
نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعود الناس ولا يدرون ما مرضه  
وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب  
محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعنا صفر اغبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد  
باتوا لله سجدا وقياماتلون كتاب الله يراو حون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فنادوا  
بكميميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأن بالقوم باتوا غافلين

لك في صحبة من  
لا يرى لك مثل  
ما يرى لنفسه وكان  
يقول أبو معاوية  
الأسود إخواني كلهم  
خير مني قيل وكيف  
ذاك ؟ قال كلهم يرى  
لي الفضل عليه ومن  
فضلي على نفسه فهو خير  
منّي ولبعضهم نظما :  
تذلل لمن إن تذلل له  
يرى ذاك للفضل  
لألبه

وجانب صداقة من  
من لم يزل  
على الأصدقاء يرى  
الفضل له .

[ الباب الخامس  
والخمسون في آداب  
الصحة والأخوة ]  
مثل أبو حفص عن  
أدب الفقراء في الصحة

ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش فيذبني أهلى فيا كلون لحى ويحسون مرقى ، وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توشأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسعود كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القارىء يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فيكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لأعصيتك جهدى أبدا فأعنى بتوفيقك على طاعتك ، وكان للسور ابن محزمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فلما يعقل أياما حتى أتى عليه رجل من ختم ققرأ عليه - يوم نحشر للتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من المجرمين ولست من للتقين أعد على القول أيها القارىء فأعادها عليه فشقق شهقة فلحق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينا أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجورية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول يارب كم شهوة ذهبت لذهابها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وتبكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسى صارخا أقول شككت مالكا أمه ، وروى أن الفضيل رأى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تعرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأنا منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج واللوت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا موقفا . وروى الحسن بن شاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يافى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فمارؤى ذلك الفنى بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس مجلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو أطعنا أنت فيقول تلك جلسة الآمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت أمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربى كما ينطلق بالعبدا لبقى إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالى ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تعبه لقي مالى ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه . وقال السرى : إني لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد أسود وجهى ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسى أن الله ينظر إلى نظار السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إني اجترأت البارحة على الله سألتة الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظى لا يبنى إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيبا وكأنك أحدثت حدثا موبها لما أراك تصنع في ليلك ونهارك فقال يأماء ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمعتنى وقال وعزنى وجلالى لا غفرت لك ، وقال الفضيل إني لأعبط نبيامرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يبايئون يوم القيامة إنما أعبط من لم يخلق . وروى «أن فنى من الأنصار

قال حفظ حرمت للشايخ وحسن العشرة مع الاخوان والنصيحة للأصغر وترك صحبة من ليس في طبقتهم وملازمة الايثار ومجانبة الادخار والمعاونة في أمر الدين والدنيا فمن أدهم التغافل عن زلل الاخوان والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكنم عيب صاحبه وإطلاعه على عيب يعلم منه . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رحم الله امرا أهدي إلى عيوبى وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينهيه على عيوبه قال جعفر ابن برقان قال لى

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه غفر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار قتت كبده (١) وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول ياليت أُمي لم تلدني فقالت له أمه يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الإسلام قال أجل ولكن الله قدين لنا أنا وازدو النار ولم يبين لنا أنا صادر عنهما وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فماتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا وإنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما ففرع فسقط فافتق في بطنه فتق وكان عيس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال هذا من أجل يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله الطيعين وكيف أهان العصاة فينا هم يشون إذ مر أحدهم بمكان غر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله ليكون في يوم شديد البرد وجيئة برشح عرقا فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسأله عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من التبدين - يوم تغلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما فقرأت - كلما اردوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها - غر ميتا ، وروى أن زرار بن أبي أوفى صلى بالناس النداء فلما قرأ - فاذا قرأ في الناقور - خر مغشيا عليه فحمل ميتا - ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظمي يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة بموت فسبك ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فسبك ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لم وعدهم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر على شيء (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولد لها وهي تقول يا ابنه ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فمرض دليله على طبيب ذمى فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في الله الحنفية مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح لي بابا من الخوف ففتح ففتحت على عظمي فقلت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فإن لم تبكوا فتابوا فوالله نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٣) وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيتته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره فان الصادق يحب من يسدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا يحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر - ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين السفاو واللوة فقال له العباس قلعت ما كان

(١) حديث إن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث (١) ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر .  
(٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لم وعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أقف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فإني أراهم في قواعدهم العقائد

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة وبالحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤى الفضيل يوما وهو يمشي قليل له إلى أين؟ قال لأدرى وكان يمشي ولها من الخوف . وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد فاذنا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائحة الشكلى كالنائحة للسأجرة وحكي أن قوما وقفوا بعباد وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعطني . وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك مرة فقال أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا قمرات عليه - إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون - فشقق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه قمرات هذه الآفة فشقق شهقة وخر مغشيا عليه فاستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشاؤنا عن ربنا قمرات - ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد - فشقق شهقة فبدا الدم من منخره وجعل يتشطح في دمه حتى يبس قهركناه على حاله وخرجنا فأدبرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فاذا امرأة من داخل الحصن تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال إلا إن الخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فأعما فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل ممنا أبدا فمارى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل ممنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أي حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالي أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه قالت فجىء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فنامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فنامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسلیمان بن عبد الملك فنامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خرو مغشيا عليه فقامت إليه وجمعت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه يده فقال إذن لا يرد به إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه ومن أدبهم أن لا يرون أنفسهم ملكا يختصون به قال إبراهيم بن شيان كنا لأنصحب من يقول نمل . أخبرنا بذلك رضي الدين عن أبي الظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أبا حاتم الصوفي قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانسي دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرموني

ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسكى من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلب كما تتقلب الحبة في الملقى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتني كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك لحوفة من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيت قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تسكلم كأنه يمين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فإذا سكنت كأن النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض ما يكره فمقتنى فقال اذهب فلا عفرت لك فأنا أعمل في غير معتمل . وعن ابن السكك : قال وعظت يوما في مجلس قيام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسمع غيرها قلت وما هي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفى النار ثم غاب عني فقعدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد فأتيته أعوده فقلت يا أخى ما الذى أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال غفرلى ورحمنى وأدخلنى الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة والإفليس أمتنا لقلعة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرحيل ينهبنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزحجنا فسأل الله تعالى أن يتدارك فضله وجوده أحوالنا فيضاحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرنا وأجترنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقها وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهدنا في طلب أرزاقنا ولا نتق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم القيم قلنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى إلى المراجاؤنا وباعتزازنا ينادينا ويقول - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يفرنكم بالله الغرور . يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه إلا حنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويحيرنا فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فتكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وإن أفيض على القلب العاقل فلا ينفي . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت للقدس واقفا كهية المهزون من شدة الوه ما يكاد يرقأ قدمه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأته هالتي منظره قلت أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك فقال يا أخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والحوام فهو خائف حذر

ويعجلونى قهلت يوما لبعضهم أين إزارى فسقطت من أعينهم . وكان إبراهيم بن آدم إذا سمع إنسان شارطه على ثلاثة أشياء أن تكون الخدمة والأذان له وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه أنا لا أقدر على هذا فقال أعجبني صدقك . وكان إبراهيم ابن آدم ينظر البسائين ويعمل في الحصاد وينفق على أصحابه . وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله



يخاف أن يغفل فتقرسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في الخافة ليله وإن أمن للفترون وفي الحزن نهاره. وإن فرح البطالون ثم ولى وتركى قفلت لو زدتن شيئا عسى ينفعني فقال الظمآن يجزيه من الماء أسيره وقد صدق فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل للواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فأنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيتهم مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تقترب منك وتمسك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك غابتها وقد تمثأت لك بصورها وأشكالها المواقفة لمعانها ترى بعينك العقارب والحيات وقد أهدت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهرها بشرتك والسلام.

### كتاب الفقر والزهد

( وهو الكتاب الرابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتدكدك من هيئته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالعدو والأصالح ، ثم كل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضائته حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال ، واستنقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستئصال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهي متلفة بجلابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت جبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب السكر والاعتيال ، ثم لا تجترى معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقديم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبايهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد البعض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[ أما بعد ] فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل وبكرها زل من زل فخبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وضم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع للهلاكات ، ونحن الآن نذكر فضل البعض لها والزهد فيها فانه رأس النجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائهم عن العبد ويسمى ذلك فقرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودور جاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فنقول : [ الشطر الأول من الكتاب في الفقر ] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

( كتاب الفقر والزهد )

تعالى - وأمرهم شوري  
بينهم - أي مشاعهم فيه  
سواء ومن أدبهم أنهم  
إذا استقلوا صاحباً  
يتهمون أنفسهم  
ويتسبون في إزالة  
ذلك من بواطنهم لأن  
انطواء الضمير على  
مثل ذلك للمصاحب  
وليعة في الصفة. قال  
أبو بكر الصكتاني  
صحبني رجل وكان على  
قلبي ثقلاً فوهبت له  
شيئاً فبني أن يزول ثقلي  
من قلبي فلم يزول فخلوت  
به يوماً وقلت له ضع  
رجلك على خدي فأبى  
فقلت له لا بد من ذلك  
ففعل ذلك فزال  
ما كنت أجده في  
باطني قال الرقي قصدت  
من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغني المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله للوفيق للصواب بلطفه وكرمه .

( بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميهِ )

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما قدما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد من غير الله تعالى لا يصدق أن يكون مثل هذا الوجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غني واحد وكل من عداها فهم محتاجون إليه ليدوم وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى - والله الغني وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا ولكننا سنأخذ بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص وإلا فقير العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن بيانه فقط فنقول: كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك الفقد محتاجا إليه في حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحتزرا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن اقتصر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا إذ قنع نفسه بالوجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب العجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا . كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وقفده فأن وجد لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاهم مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادماتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما تطير عليه فقالت لو ذكرتني لعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائمه لم تنصره إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لا عن بقاءه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه وليس فاقدا له

حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والايثار بالموضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتد ذلك عليهم فأمر الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بدار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فبأشياء فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده فغناه إلى العموم أميل فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب وإعما  
قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولسكنا لانسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل  
مستغنيا ليقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا  
أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذي زين  
الله به قلبه فان القلب للتقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذي أعنته من هذا  
الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين  
أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا . واعلم أن  
الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من اللذين فلا جرم صار الزهد في حقه تقصانا إذ حسنات  
الأبرار سيئات اللذين وهذا لأن السكاره للدين مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل  
بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا بد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب  
إليك من جبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب  
بينك وبينه إلا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك  
وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول  
بغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع  
العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستغفاله وكرهه حضوره فهو في حال  
اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه المشق لغفل عن غير المعشوق  
ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المعشوق لجه عند حضور للمعشوق شرك في العشق ونقص فيه  
فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال  
في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوبة بغضا وحباً فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا  
يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها إلا أن  
المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في  
طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود الكمال له مرتقب لأن  
بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة  
وعلفها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما سيان بالاضافة إلى الحال  
في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى  
المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالاضافة إلى المستكف في الكعبة للالزام لها الذي لا يخرج  
منها حتى يفترق إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه  
بل الدنيا عائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله  
من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فيبين أن سلوك  
طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فاذن قد ظهر  
أن الزهد في الدنيا أن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في  
عدمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضى والقانع والحرى وتقصان بالاضافة إلى درجة المستغنى بل  
الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جواربك لا تؤذيك بأن تكون  
على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن للمال محتاج إليه كما أن للماء محتاج إليه  
فلا يكون قلبك مشغولا بالفراز عن جوار الماء الكثير ولا يغض للماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال  
بأى عذر فقال بأنك  
لقيت الجنيد وما لقيه  
ومن أدبهم ترك صحبة  
من هم شيء من  
فضول الدنيا قال الله  
تعالى - فأعرض عمن  
تولى عن ذكرنا ولم يرد  
إلا الحياة الدنيا -  
ومن أدبهم بذلك  
الانصاف للاخوان  
وترك مطالبة الانصاف  
قال أبو عثمان الحيرى  
حق الصفة أن توسع  
على أخيك من مالك  
ولا تطمع في ماله وتصفه  
من نفسك ولا تطلب  
منه الانصاف وتكون  
تبعاله ولا تطمع أن  
يكون تبعالك وتستكثر  
ما يصل اليك منه  
وتستقل ما يصل اليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغي أن يكون المال لأن الحزن والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووقتت بتدبيره الذي دبره العالم علمت أن قدر حاجتك من الحزن يأتيك لاحتالة ما دمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى قال أحمد بن أبي الخوارى قلت لأبي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت فخذ الركة التي أهديتها لي فإن العدو يونسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فينب أن كراهية كون الركة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان . فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال وقرعوا منه كل النفار . فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فقرعوا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عن من خاف أن لو أخذها أن يخذله المال ويقيده قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم بغض المال والمهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقعدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا كما يفر الرجل العزم بين يديه وأولاده من الحية لا تضعفه عن أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآوها فيه لم يكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء قد عرفت إذن أن للراتب ست وأغلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص ، وأما المضطر فينصوّر في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا فمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أمورهِ عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّبها فانه أحق باسم العبد من العاقلين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين للعينين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر (٢)»

(١) حديث إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكرم مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدمه الحديث ولهما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .

منك . ومن أدبهم في الصعبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قحة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أدبهم أن لا يجرى في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا فاتهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضا . ومن أدبهم في الصعبة حذر المفارقة والحرص على الملازمة . قيل محبب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وان كان

وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا »<sup>(١)</sup> لا يناقض قوله « أحب مسكينا وأمتى مسكينا »<sup>(٢)</sup> إذ فقر للضرر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

( بيان فضيلة الفقر مطلقا )

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض - ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن نحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أي الناس خير فقالوا موسى بن النبال يعطى حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده »<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا »<sup>(٤)</sup> وقال عليه السلام « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال »<sup>(٥)</sup> وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام »<sup>(٦)</sup> وفي حديث آخر « بأربعين خريفا »<sup>(٧)</sup> أي أربعين سنة فيكون للراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على التقى الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على التقى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقير يعرف بالضرورة تفاوتنا بين الفقراء في درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »<sup>(٨)</sup> فانه تقدير تحقيق لاحالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته واللائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحبني مسكينا وأمتي مسكينا الترمذي من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا موسى بن النبال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتضرا على الرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذي من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخاري من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصحبه لأنك محبتنا أو لا قال الرجل زال عن قلبي نية المفارقة . ومن أدبهم التعطف على الأصغر . قيل : كان إبراهيم بن آدم يعمل في الحصاد ويطمع الأصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل فقالوا ليله تعالونا كل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فأفطروا وناموا فارجع إبراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق فصجنه فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضحا

بل مخالفا له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها  
تم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تم الحركات للقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة  
وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بها يصير لللائكة ويشاهدونهم كأن  
البصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها للبصير. والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب  
إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم  
ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى  
خمسين وإلى ستين ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة  
جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن  
وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما العلوم مجامع الصفات  
التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء  
لهم درجات كما سبق فها لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد  
حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بمسماة عام فليس  
في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والغرض التنبيه على  
منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضعيف الايمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك. ولترجع إلى نقل الأخبار فقد  
قال صلى الله عليه وسلم أيضا « خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها (١) » وقال  
صلى الله عليه وسلم « إن لي حرفين اثنين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر  
والجهاد (٢) » وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ  
عليك السلام ويقول آتجب أن أجعل هذه الجبال ذهبا (٣) « وتكون معك أينما كنت فأطرق رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من  
لا عقل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت. وروى أن للسبح صلى الله عليه وسلم مرقى  
سياحته رجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذا ذكر الله تعالى فقال ما تريد مني ؟ إني  
قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حبيبي وموسى صلى الله عليه وسلم رجل نائم على التراب  
وتحت رأسه لبنه ووجهه ولحيته في التراب وهو متر بعباءة فقال يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع  
فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت آني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا  
كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه  
فأرسلني إلى رجل من يهودي خير وقال قل له يقول لك محمد أسلفني أو بعني دقيقا إلى هلال رجب  
قال فأنتيت فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله  
إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه اذهب بدرعي

عالمته على التراب فقالوا  
له في ذلك فقال قات  
لكم لم تجدوا فطورا  
فتمت فقالوا انظروا  
بأي شيء عاملناه  
وبأي شيء يعاملنا .  
ومن أدبهم لا يقولوا  
عند السقاء إلى أين ولم  
وبأي سبب قال بعض  
العلماء إذا قال الرجل  
لصاحب قم بنا فقال  
إلى أين فلا تصعبه .  
وقال آخر من قال  
لأخيه أعطني من  
مالك فقال كم تريد  
ماقم بحق الإخاء وقد  
قال الشاعر :  
لا يسألون أخام حين  
يندهم

للتائب على ما قال برهانا  
ومن أدبهم أن  
لا يتكفوا للأخوان

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها لم أجده أصلا (٢) حديث  
إن لي حرفين اثنين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال  
إن الله يقرأ عليك السلام ويقول آتجب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه إن الدنيا دار  
من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين أفروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي  
ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن  
ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم في ذم الدنيا .

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد القرس (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كعب الأحبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام ياموسى إذا رأيت الفقر مقبلا قل مرحبا بشعار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرني من الأتبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بأخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك يدك فقال الله تعالى للدلائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أبن الأغنياء قليل حبسهم الجدة» وفي حديث آخر «فأريت أكثر أهل النار النساء قللت ما شأنهن قليل شغلن الأحرار الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال للشيخ صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل للنبي الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا قل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا قل ذنب عجبت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يارب من أجاؤك من خلقك حتى أحبهم لأجل ذلك فقال: كل قعر قعر فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر وقال للمسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد القرس الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه الحديث الترمذي وقد تقدم (٤) حديث اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شريف الفقر وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت النبي عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا قل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا قل ذنب عجبت عقوبته أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي البرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ياموسى فذكره زيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب

قيل لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجيّد أنوانا من الأطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال صير أصحابي مثل الخائث يقدم لهم الألوان والقوة عندنا ترك التكلف وإحضار ما حضر فإن بالتكلف ربحا يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوي مقامه وفداؤه ومن أدبهم في الصعبة للداراة وترك اللداهنة ونشبهه للداراة بالمداهنة والفرق بينهما أن للداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما شكره

عليه وسلامه إني لأحب للسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا يجيئون ونجى إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برأئهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا قاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن القزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد قتل عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشرف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر الله تعالى - عبس وتولى أن جاء الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتفتحه الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فأنت له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي ﷺ أنه قال « يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة أخرج بإعبدى إلى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ يده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ يده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فان لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

الأخبار غير مرفوع بأسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشرف قريش ونزول - قوله تعالى - عبس وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بأسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي فيقول لللائكة ومن أحبواك فيقول قراء المسلمين فيدون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتم اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسيأتي في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فان لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة نادى مناد صيروا إلى الفقراء فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى

وللدهانة ما قصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه . ومن أدبهم في الصبح رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط ، قل غن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكان بين الانقباض والانبساط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نختره وننطيه فقال بل تكشفون عورته



وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت في أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقلت يا رب ماشأهم قال أما النساء فأضربهن الأحرار الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يكي فقلت ما خافك عني قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت للشيبات وظننت أنني لأراك ، فقلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي <sup>(١)</sup> » فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة <sup>(٢)</sup> وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا <sup>(٣)</sup> » ومع هذا فقد استضر بالفتى إلى هذا الحد «ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال :لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم «الأنبياء هم ملوك أهل الجنة قالوا يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أنفس على الله لأبره <sup>(٥)</sup> » وقال عمران ابن حصين «كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم يا بني أنت وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف ياب فاطمة قعرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بك بالحق نيا ما على الإعباء قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف يرأسى فالتقي إليها ملاة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابتناه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضربني الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا ابتناه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإني لأكرم على الله منك ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب يده على منكبا وقال لها أبشري فوالله إنك أسيدة نساء أهل الجنة قالت فآين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إن سكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعي بأبن عمك إلى أخيه في الدنيا <sup>[١]</sup> (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت إلى أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث إلا من قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده (٥) حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولوا ملوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبي العباس بخط بعض الفضلاء حديث اتخذوا مع الفقراء أيادي وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت في كلام له آخر .

قالوا سبحان الله  
من يفعل هذا قال  
أحكم يسمع في أخيه  
بالكلمة فيزيد عليها  
ويشيعها بأعظم منها  
ومن أدبهم الاستغفار  
للأخوان يظهر الغيب  
والاهتمام لهم مع الله  
تعالى في دفع الكاره  
عنهم . حكى أن أخوين  
ابتلى أحدهما بهوى  
فأظهر عليه أخاه فقال  
إني ابتليت بهوى فان  
شئت أن لا تعقد على  
محبي الله فاقبل فقال  
ما كنت لأحل عقد  
إخائك لأجل خطيئتك  
وعقد بينه وبين الله  
عقدا أن لا يأكل ولا  
يشرب حتى يماقيه الله  
تعالى من هواء وطوى  
أربعين يوما كلما يسأله

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١)» وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالخط من الزمان والجور من السلطان والحيانة من ولادة الأحكام والشوكة من الأعداء (٢)». وأما الآثار فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذوالدرهمين أشد حسبا أو قال أشد حسبا من ذى الدرهم، وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويسكن إلى العداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣)» وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربت منك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقييه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال للؤلؤ ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله. وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولورغب في الجنة كما يرغب في النفي لجاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالنعى وأهان بالفقر. وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحدا خلقان ثيابه فان ربك ورب واحد وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق الرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمتهك تنسقط من عينى فأصب الدنيا عليك صبا، ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما فطرين عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقيعه (٤)» وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لأفعل ذلك أبدا رضي الله عنه.

عن هواه يقول مازال  
بعد الأربعين أخبره  
أن الهوى قد زال  
فأكل وشرب. ومن  
أدبهم أن لا يحوجوا  
صاحبهم إلى المدارة  
ولا يلجئوه إلى الاعتذار  
ولا يتكلفوا للصاحب  
ما يشق عليه بل  
يكونوا للصاحب من  
حبث هو مؤثرين مراد  
الصاحب على مراد  
أنفسهم قال علي بن أبي  
طالب كرم الله وجهه  
شر الأصدقاء من  
خوئك إلى مدارة  
أولائك إلى اعتذار  
وتكلف له. وقال  
جعفر الصادق أقبل  
إخواني على من  
يتكلف لي وأحفظ  
منه وأخفهم على قلبي

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاءه فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام الحديث وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقين. (٤) حديث قال لعائشة إن أردت اللحق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والناعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تطفروا بثواب فقركم وإلا فلا <sup>(٢)</sup> » فالأول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بعفوه أنه الحرىص لأثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل للراى عدم الرضا والكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة <sup>(٣)</sup> » وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا <sup>(٥)</sup> » وقال « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا <sup>(٦)</sup> » وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه وسلم « لأحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا <sup>(٧)</sup> » وقال ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم ياربنا يقول فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون بقدرى أَدْخُلُوهم الجنة فيَدْخُلُونها ويأْكُلُون ويشربون والناس في الحساب يترددون <sup>(٨)</sup> » فهذا في القانع والراضى . وأما الزاهد فسندكر فضله في الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن الطمع قهر والياس غنى وإنه من يئس عمافى أيدى الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله تعالى عنه مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه مامن أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والتهارداً بان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما لا تخفى قال قللة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان فيبناهو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فجئني به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وانت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٢) حديث يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنى هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث (٣) حديث إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى في غرائب مالك وأبو بكر بن لال في مكالم الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر . (٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير المتعفف (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من حديث أنى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث مامن أحد غنى ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقى ؟ فتقول الملائكة ومن هم ياربنا ؟ فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس .

من أكون معه كما  
أكون وحدى فأدأب  
الصحة وحقوق  
الأخوة كثيرة  
والحكايات في ذلك  
يطول قلمها وقد رأيت  
في كتاب الشيخ أبى  
طالب المكي رحمه الله  
من الحكايات في هذا  
للغنى شيئا كثيرا قد  
أودع كتابه كل شىء  
حسن من ذلك وحاصل  
الجميع أن العبد ينبغي له  
أن يكون لمولاه ويريد  
كل ما يريد لمولاه  
لأنفسه وإذا صاحب  
شخصا تكون صحبته  
إياه لله تعالى وإذا صحبه  
الله تعالى يجتهد له في كل  
شىء يزيد عند الله  
زلفى وكل من قام  
بحقوق الله تعالى يرزقه

قال نعم قال فشبت قال نعم قال نعم طيبا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه لما صنع أنا بالدين والنفس تفنح بهذا القدر وممر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبلا فقال له يا عبد الله أَرْضَيْتَ مِنَ الدُّنْيَا بِهَذَا قَالَ أَلَا أَدْلَكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بِشَرِّ مَنْ هَذَا قَالَ بَلَى قَالَ مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا عَوَضًا عَنِ الْآخِرَةِ وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يُخْرِجُ خَبْزًا يَابِسًا فَيَلْهَ بِالماء وَيَأْكُلُهُ بِالمِلْحِ وَيَقُولُ مَنْ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِهَذَا لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى أَحَدٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَعَنَ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ لَمْ يَصْدُقُوهُ ثُمَّ قَرَأَ - وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ - الْآيَةَ . وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ لَهُ أَتَجْلِسُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَاللَّهِ مَا فِي الْبَيْتِ هَفَةٌ وَلَا سَفَةٌ فَقَالَ يَا هَذِهِ إِنْ بَيْنَ أَيْدِيْنَا عَقِبَةُ كَثُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ خَفَةٍ فَرَجَمَتْ وَهِيَ رَاضِيَةٌ وَقَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الْكُفْرِ ذَوُ الْفَاقَةِ لَا صَبْرَ لَهُ وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ مَا مَالُكَ فَقَالَ التَّجَمُّلُ فِي الظَّاهِرِ وَالْقَصْدُ فِي الْبَاطِنِ وَالْيَأْسُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَرَوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ الْمَرْثَلَةِ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَوْتُ فَاذْنَأْ أَنْ أُعْطِيَتْكَ مِنْهَا الْقَوْتُ وَجَعَلَتْ حَسَابَهَا عَلَى غَيْرِكَ فَأَنَا مَحْسَنُ إِلَيْكَ وَقَدْ قِيلَ فِي الْقِنَاعَةِ:

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس      واقنع بئأس فان العز في اليأس  
واستن عن كل ذي قربى وذى رحم      إن النغى من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا للنغى أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه      مقدرا أئى باب منه يغلقه  
مفكرا كيف تأتبه منيته      أغاديا أم بها يسرى فتطرقه  
جمعت ما لا يقل لى هل جمعت له      يا جامع المال أيا ما تفرقه  
للال عندك مخزون لوارثه      ما للال مالك إلا يوم تنفقه  
أرفه يال فنى يغدو على ثقة      أن الذى قسم الأرزاق يرزقه  
فالعرض منه مصون ما يدنس      والوجه منه جديد ليس يخلقه  
إن القناعة من يحلل بساحتها      لم يبق فى ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيّد والحواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيّد دعا على ابن عطاء لخالفته إياه في هذا فأصابته عنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا وجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : أما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس يحريص على الطلب بل هو قانع بأوراض بالإضافة إلى غنى منفق ماله في الخيرات ليس حريصا على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك وأن الغنى للنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فلم يسمعهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم يذلون بها فوق ما ناله الأغنياء فتعلم الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب وبوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تركتها وبقاء صفاتها عليه فان صحبت ظلمت بالافراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايات وللوعاظ والآداب ومما عاها لا يعمل في النفس

فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء <sup>(١)</sup> وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لأنه وصف الحق أمادليه الأول فقيه نظر لأن الخبر قدورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال «بث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال إني رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا تقدر عليه ويعتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا بشوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ غنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبي قدير أو شهيد قدير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا <sup>(٢)</sup> فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فاقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقراء أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغي أن يتنازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته <sup>(٣)</sup>» وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأهم من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لاتبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم وللعرفة فإنه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف للعبد وليس لأحد أن بفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست محدودة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوب للعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكم من فقر شغله الفقر وصرفه عن القصد وغاية القصد في الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه  
(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ غنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى قراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا أشركم أن قراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري تقدم في العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون  
كبير يقرب فيه الله  
من فوقه فلا يمكث فيه  
ولا ينفع به وإذا  
أخذت بالتقوى والزهد  
في الدنيا نبع منها ماء  
الحياة وثققت وعلمت  
وأدت الحقوق وقامت  
بواجب الآداب  
بتوفيق الله سبحانه  
وتعالى .

[ الباب السادس  
والخمسون في معرفة  
الانسان نفسه  
ومكاشفات الصوفية  
من ذلك ]

حدثنا شيخنا أبو  
النجيب السهروردي  
قال أنا الشريف نور  
الهدى أبو طالب الزيني  
قال أنا كريمة للروزية  
قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والمحبة للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذن إن فرضت فاريغين عن حب المال بحيث صار اللال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من فقدته إذ الجائع يسلك سبيل الموت لاسبيل المعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبونا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقه الآدميين كلهم إلا الشاذ القذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال السبيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : قلب الأموال يمص حلاوة الإيمان وفي الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم <sup>(١)</sup> » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأنبيا عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا « إليك غنى <sup>(٢)</sup> » إذ كانت تمثل له بزينةها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ويا بضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولأن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى للطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس <sup>(٣)</sup> » وإذا كان ذلك بعيدا فاذن الأصلح لكافة الخلق فقد للمال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لامحالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدها بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدها بقدر بعده من الآخر ومثلها مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدها يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدها هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوه عن الدنيا وأنسه بها فاذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبه بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا مزية قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك غنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الكشميني قال أخبرنا أبو عبد الله القريبي قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الأعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق للصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نقطة ثم يكون علة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشق أم سعيدته ينفخ فيه الروح وإن الرجل ليعمل بعمل

عن السال ويكون حبه دفتيا في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقد فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد قلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا فكمن رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في القواد استكنا النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدين أضعف ويقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيجانه وعبادته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كالتأثير في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من العمر بالسمك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضرتني العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فإن دعاءك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغني المتعبد مثل روضة على منزلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحساء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الدل عند النصف من نسي والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حاثوتا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأرجع كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس و فراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغني وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقاءه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له أي يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فليق به ، نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأمور

أهل النار حتى ما يكون  
بينه وبينها إلا ذراع  
فيسبق عليه الكتاب  
فيعمل بعمل أهل الجنة  
فيدخل الجنة وإن  
الرجل يعمل بعمل  
أهل الجنة حتى  
ما يكون بينه وبينها  
إلا ذراع فيسبق عليه  
الكتاب فيعمل بعمل  
أهل النار فيدخل النار  
وقال تعالى - ولقد  
خلقنا الإنسان من  
سلالة من طين ثم جعلناه  
نطفة في قرار مكين -  
أي حرير لا استقرارها  
فيه إلى بلوغ أمها ثم  
قال بعد ذلك قلبنا نهم  
أنشأناه خلقا آخر - قيل  
هذا الانشاء نفخ الروح  
فيه . واعلم أن الكلام  
في الروح صعب الرام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتليس فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والطيع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانس أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة لاشك فيها لكأن صفة التكبر حاصلة له ولا ثقة به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك موقوف على الحاجة وليس يدري الحاجة كيف تتكون وكيف تتفق فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يختم للكافر بالانسان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لا تقابله لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه من صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم قصانا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تصور في العبد من صفات الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذا نواستوى عنده وجود اللال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة أما الغنى بوجود اللال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

[المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص] ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب اللال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأى حالتيه أفضل فنقول: تنظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على التفكير والله كبر لا قدرة مدخولة يشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اللهم اجعل قوت آل محمد كقافا» وقال «كاد الفقر أن يكون كفرا» أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان للطلب فوق الحاجة وكان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح لأنهما استويا في الحرص وحب اللال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمصيبة بسبب الفقر والغنى ولكن اقرقا في أن الواحد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد يضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي ينبغي الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لاهماله إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنه بالدنيا وقد قال ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١)» وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به وأنس الواحد بالدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقدها وإن كان خريصا عليها فاذا نكشفت بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء وللساكين وجمع همهم والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خيره بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبق حياته ثم يستعين به قوته وحياته على الكفر والمعاصي ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجدهما يضطر إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على

والامساك عن ذلك  
سبيل ذوى الأحلام وقد  
عظم الله تعالى شأن  
الروح وأسجل على  
الخلق بقلة العلم حيث  
قال - وما أوتيتم من  
العلم إلا قليلا - وقد  
أخبرنا الله تعالى في كلامه  
عن إكرامه بنى آدم  
فقال ولقد كرمتنا بنى  
آدم - وروى «أنه لما  
خلق الله تعالى آدم  
وذريته قالت الملائكة  
يا رب خلقهم ياكلون  
ويشربون وينكحون  
فاجعل لهم الدنيا ولنا  
الآخرة فقال وعزنى  
وجلالى لأجل ذرية  
من خلقت يمدى كمن  
قلت له كن فكان» فمع  
هذه الكرامة واختياره  
سبحانه وتعالى إياهم على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .



طلب المال ليس له هم سواء وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تنجعه بفقد المال لوقته كتنجعه الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تنجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تنجعهما بفقد العلم عند الله تعالى فيه .

( بيان آداب الفقير في قهره )

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخاطبته وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أغنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله وإن كان كارهاً للفقر كالحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألم بها ولا يكون كارهاً فعل الحجامة ولا كارهاً للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقيضه حرام ومحبط ثواب الفقير وهو معنى قوله عليه السلام « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظهروا بثواب فقركم وإلا فلا » وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقير بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لئله بغوائل الغنى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقاه في قدر ضرورته أنه يأتيه لاحالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقير فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع بهر به ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويسعى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقير ويرضى لعلله بشعرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ منه ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب . وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستتر فقره ويستتر أنه يستتره في الحديث « إن الله تعالى يحب الفقير للتعفف بأبا العيال » وقال تعالى - يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف - وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند المحتنة وقال بعضهم ستر الفقير من كنوز البر . وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فيه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرءاء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مدهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتربسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك ما يفضل عنه فان ذلك جهد للقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فصدق بها وأخرج رجل درهماً من درهمن لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف (١) » وينبغي أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات إحداها أن لا يدخر إلا اليوم وليته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فان ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في الزكاة ولأصل له من رواية زيد بن أسلم مرسل .

للاشكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال - ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - الآية قال ابن عباس قالت اليهود للنبي عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإتمام الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شيء فلم يحجبهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بأذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة للتقين والثالثة أن يدخر لسنته وهي أقصى للراتب وهي رتبة الضالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فتفى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهن قوت أربعين يوما وبعضهن يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

( بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال )

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال وغرض العطي وغرضه في الأخذ أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض العطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو التذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزوجا بنية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فالأولى تركها فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه للمنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مئنة وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال « لقد هممت أن لا أتقبل إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي » (٤) وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح للوصلى صرة فيها خمسون درهما قال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من آتاه رزق من غير مسألة فرده فأنما يرد على الله » (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مئنة وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من مئنة وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وإيم الله لا قبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالنعنة (٤) حديث لقد هممت أن لا أتقبل إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسل من آتاه رزق من غير وسيلة فرده فأنما يرد على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا وأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خاله بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرد فأنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ الحديث .

الحوض فيه والاشارة  
إليه لاجرم لما تفاضت  
الأنفس الإنسانية  
للتطلع إلى الفضول  
للتشوق إلى العقول  
للتحركة بوضعها إلى  
كل ما أمره بالسكون  
فيه وللتسوية بحرصها  
إلى كل تحقيق وكل  
تمويه وأطلقت عنان  
النظر في مساح  
الفكر وخالصت غمرات  
معرفة ماهية الروح  
تاهت في التيه  
وتنوعت آراؤها فيه  
ولم يوجد الاختلاف  
بين أرباب النقل  
والعقل في شيء  
كالاختلاف في ماهية  
الروح ولولت النفوس  
حدها معترفة بعجزها  
كان ذلك أجدر بها

وأولى فأما أقاويل  
من ليس متمسكا  
بالشرائع فنزله  
الكتاب عن ذكرها  
لأنها أقوال أبرزتها  
العقول التي ضلت  
عن الرشاد وطبعت  
على الفساد ولم يصبا  
نور الاهتداء ببركة  
متابعة الأنبياء فهم كما  
قال الله تعالى - كانت  
أعينهم في غطاء عن  
ذكرى وكانوا  
لا يستطيعون سمعا - .  
وقالوا قلوبنا في  
أكفة مما تدعونا  
إليه وفي آذاننا وقر  
ومن بيننا وبينك  
حجاب - فلما حجبوا  
عن الأنبياء لم يسمعوا  
وحيث لم يسمعوا لم  
يهدوا فأصروا على

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم الثمن فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول أتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذته وإلا فلا ، وأما هذا أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى للنة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منه فأخذه مباح وليكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلا سرىا السقطى لأنه قد صح عندى زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب ، وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله تعالى وسأله أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه في الحل والبقل بل في الحلوات والطيبات قبل ذلك منه ، فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجرى وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمصيبة في السر يعلم أن للمعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ، ويقول : لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أردت صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما للمعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سري السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فردته مرة ، فقال له السري : يا أحمد احذرا فة الرد فانها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ما قلت فأعاده ، فقال أحمد ما رددت عليك إلا لأن عندى قوت شهر فأحبسه لى عندك فإذا كان بعد شهر فأعده إلى ، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والاتفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان أوداع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في الملاينة

(١) حديث ما للمعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا الطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فأنما هو رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يردته بعدما قبل هذا بحديث .

ويرد في السر أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمهما الله فأما كان لاستغناؤه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره فان في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعددتها للاتفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يامن يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت في نفسي لا أجد لدراهمي موصلا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مؤثرين ودرهم ألقه ثلاثا فلا حاجة بي إلى الباقي فردّه . قال فرأيت اللبلة الثانية وعليه مؤثران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ يدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخسّش تحت أقدامنا إلى السكبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأن هذه أثقال وقتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، والقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة بأتيك رقعا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب » (١) فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تنص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فان النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فان أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصالحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فان إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحل في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في الطعام والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاءه وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يفر للقرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .

الجهالات وحججوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه . وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح قهوم منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الامساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا

ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله - قيل معناه لبيع أحد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم إن الله تعالى عبادا يتفقون على قدر بضائهم والله عباد يتفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء والأستحياء والأغنياء فقيل من هؤلاء ؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأستحياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى فأذن متهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي العطي فليأخذه وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من العطي لأن المعطي واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر إليه بما سيطر عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات . وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قد قال لأصحابه إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وقدمته قطعامي عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم في الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغدوني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى نساء الله حسن التوفيق لما يرشاه .

( بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه )

اعلم أنه قد وردت منه كثيرة في السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس <sup>(١)</sup> » وفي الحديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق <sup>(٢)</sup> » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة للتمدى على عدوانه والعطاء إعانة فالكشف للعطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإعانة يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فإن كان عنها بد فهو حرام وإعانة قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشكوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار لل فقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما أن العبد للملوك لو سأل لكان سؤاله تشييعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشييع على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا للضرورة كما تحل لليتة . الثاني أن فيه إذلال السائل نفسه لعبر الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لعبر الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه فأما سائر الخلق فاتهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا للضرورة وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المشئول . الثالث أنه لا ينفك عن إيذاء للمشئول غالبا لأنه ربما لا تسمع نفسه بالذل عن طيب قلب منه فإن يذل حياء من السائل أورياه فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استجبا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء في البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الآول يعل بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده (٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي والآنظر له من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

تجاوز العبارة عنه  
بأكثر من موجود  
ولكن نجعل للصادقين  
محلا لأقوالهم وأفعالهم  
ويجوز أن يكون  
كلامهم في ذلك بمثابة  
التأويل لكلام  
الله تعالى والآيات  
المنزلة حيث حرم  
تفسيره وجوز تأويله  
إذ لا يوسع القول في  
التفسير إلا نقل وأما  
التأويل فتحت  
القول إليه بالباع  
الطويل وهو ذكر  
ما تحتمل الآية من  
المعنى من غير القطع  
بذلك وإذا كان الأمر  
كذلك فللقول فيه  
وجه ومحل . قال  
أبو عبد الله النجاشي  
الروح جسم يلفظ

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها»<sup>(١)</sup> فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم»<sup>(٢)</sup> «ومن سأل وله ما يفييه أجه يوم القيامة ووجهه عظم يتققع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه»<sup>(٣)</sup> وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبايح رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم ما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : ولا تسألوا الناس شيئا»<sup>(٤)</sup> وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا»<sup>(٥)</sup> وقال عليه السلام «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى»<sup>(٦)</sup> ومع عمر رضى الله عنه سأل يسأل بعد المغرب فقال لو أجد من قومه عشى الرجل فعشاه ثم معناه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عشى الرجل قال قد عشيت فظن عمر فإذا تحتم يده محلاة مملوكة خبزاً فقال لست سائلاً ولكنك تاجر ثم أخذ الخلالة وشرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدره وقال لا تعد ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربته ولا أخذ عجلاته ولعل الفقيه الضعيف للنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربته فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه فأين يظهر قبح الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أقرى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيئات فان ذلك أيضاً معصية بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم بقي ما لا مال لك له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعلفها من الصالح وينزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ العاوى بقوله إني عاوى وهو كاذب فإنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارفاً لمعصية لو عرفها للعطى لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الخطمية مقتضرا على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة ولمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فأنما يسأل جمرا الحديث والبراز والطبراني من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخاف وجهه وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفييه كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم في الزكاة (٤) حديث بايع قوم ما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البراز والطبراني من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله في حديث فتعففوا ولو بحزم الخطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ .

عن الحسن ويكبر عن اللبس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه . وقال ابن عطاء خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى ولقد خلقناكم - يعني الأرواح - ثم صورناكم - يعني الأجساد . وقال بعضهم الروح لطيف قائم في كفيف كالصبر جوهر لطيف قائم في كفيف وفي هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يحمل على معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قرئنا في مواضع ولا تستدل بفعلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال . أما الضرر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في السئول بكونه مباحا والسئول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعاً وهذا من طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكل مريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشيء بمشقة ، فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضاً حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جيبى قميص والبرد يؤذيني أذى أطيعه ولكن يشق على فأذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصاً يلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستريح الخروق من ثيابه عن الناس ولكن يسأل لأجل الأدم وهو واحد للخبز وكن يسأل الكراء لقرص في الطريق وهو واحد كراء الحمار أو يسأل كراء الحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غيره هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والدل وإيذاء للسئول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فان قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الدل فبأن يسأل أباه أو قريه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخي الذي قد أعبد ماله لئلا هذه للكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منته بقوله فيسقط عند الدل بذلك فان الدل لازم للجنة لا محالة . وأما الإيذاء فسييل الخلاص عنه أن لا يعين شخصاً بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضاً بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لولم يبدل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبدل كرها خوفاً من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصاً معيناً فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعرضاً يبق له سبيلاً إلى التغافل إن أراد فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغي أن يسأل من لا يستجيب منه لورده أو تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذي كأن الرياء مع غير السائل يؤذي . فان قلت فإذا أخذ مع العلم بأن باعث للعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولو لا ما ابتدأ به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والصادرة إذا لفرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسيات الحشيش أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكابة في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة  
الحبي كالتخليق صفة  
الخالق وقال قل الروح  
من أمر ربى - وأمره  
كلامه وكلامه ليس  
بمخلوق أى صار الحى  
حياً بقوله كن حياً  
وعلى هذا لا يكون  
الروح معنى في الجسد  
فن الأقوال ما يدل  
على أن قائله يعتقد قدم  
الروح ومن الأقوال  
ما يدل على أنه يعتقد  
حدوثه ثم إن الناس  
يختلفون في الروح الذي  
سئل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم عنه  
فقال قوم هو جبرائيل  
وقيل عن أمير المؤمنين  
على بن أبى طالب رضى  
الله عنه أنه قال هو  
ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قدرضى به وقد دل على الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »<sup>(١)</sup> فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكماء فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك فإن للفقير معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وبقتوهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن يقتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه ردّه إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يشبهه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن عهده فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فإن قلت فهذا أمر باطن يعسر الإطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فرجما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضا . فأقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرج بخروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا لأن الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يسطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الخنزير فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان وانما يصيرته في الإطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يطمئنه بضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبة طمعا في جاء أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحتزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والأخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستندان لأن أرباب القلوب علموا أن اللطوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وقعوا بأخواتهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن للسؤال بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا بد أنك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالجيل فلا يتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين أخوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الأثم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فإن قوى الحرص وضعفت القطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه »<sup>(٢)</sup>

سبعون ألف وجه  
ولكل وجه منه  
سبعون ألف لسان  
ولكل لسان منه  
سبعون ألف لغة يسبح  
الله تعالى بتلك اللغات  
كلها ويخلق من كل  
تسبيحة ملكا يطير مع  
اللائكة إلى يوم  
القيامة . وروى عن  
عبد الله بن عباس  
رضي الله عنهما أن  
الروح خلق من خلق  
الله صورهم على صورة  
بنى آدم وما نزل من  
السماء ملك إلا . ومعه  
واحد من الروح وقال  
أبو صالح الروح كهشة  
الإنسان وليسوا بناس  
وقال مجاهد الروح على  
صورة بنى آدم لهم أيد  
وأرجل ودموس

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلا وكذا قال الزى لما سئل عنه .

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .



وقد أوتي جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته فأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقبصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك فاذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يثبتنا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير .

### ( بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال )

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فأنما يسأل جمراف يستقل منه أو ليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس إلينا وضع القادير بل يستدرك ذلك بالثبوت ، وقد ورد في الحديث « استغنوا بغير الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة <sup>(١)</sup> » وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب قد سأل إلخافا <sup>(٢)</sup> » وورد في لفظ آخر « أربعون درهما » ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته ويبيت يكتنه فما زاد فهو حساب » فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للسافر إذا كان لا يقدر على الشيء وكذلك ما يجري مجراه من اللهمات ويلحق بنفسه عياله ولولده وكل من تحت كفاله كالدابة أيضا . وأما القادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بدوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكفي فيه الحرف فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقد رده في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية إضرار في طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأنه ما يجزى من حيث القدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكتنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداهما ما يحتاج إليه في غد . والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . والثالثة ما يحتاج إليه في السنة ، ولنقطع بأن من معه ما يكفي له ولعيله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فإن خمسة دنانير تكفى للمنفرد

- (١) حديث استغنوا بغير الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما ينبغي قال ما يغديه أو يعشيه وأحمد من حديث علي بن اسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب قد سأل إلخافا وفي لفظ آخر أربعون درهما تقدما في الزكاة .

يا ككون الطعام وليسوا  
بلائكة وقال سعيد  
ابن جبير لم يخلق الله  
خلقا أعظم من الروح  
غير العرش ولوشاء  
أن يبلغ السموات  
والأرضين السبع في  
لقمة لفعل صورة  
خلقه على صورة  
لللائكة وصورة  
وجهه على صورة  
الآدميين يقوم يوم  
القيامة عن بين العرش  
واللائكة معه في صف  
واحد وهو ممن يشفع  
لأهل التوحيد ولولا أن  
بينه وبين اللائكة  
سترا من نور لحرق  
أهل السموات من  
نوره فهذه الأقاويل  
لا تكون إلا أهلا ومما  
بلغهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما للعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادرا على السؤال ولا نفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج فيكفيه غدا يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان نفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيسأل له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يجنيه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مألجه السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يحل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد المعبود ونظرة لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفيق فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد أتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والاضعاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - والسؤال من الفحشاء التي أسيحت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة مترخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا واذخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

## ( بيان أحوال السائلين )

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في غلين وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب البين فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وطى أنه مع الفاقة لحط الرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا وظن أنه لما وصفهم ترك السؤال قد أتى عليهم غاية الثناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بليخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا قبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفتها أقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيتها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم ردد إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ومن لا يعز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وإنما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا اسحق النوري رحمه الله يعيده ويسأل الناس في بعض اللواضع قال فاستعظمت ذلك واستجبته له فأنيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد العطي هي العليا (١) » فقال بعضهم يد العطي هي يد الآخذ لئلا لأنه يعطي الثواب والقدر له

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح للستول عنه شيئا من هذا للنقول فهو غير الروح الذي في الجسد فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه الدل قبل فمن أى شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وحياتها بكلامه

(١) حديث يد العطي هي العليا مسلم من حديث أبي هريرة .

لما يأخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائدة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خطبه مجرولاً وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرّة إلى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ ما زاد على المائدة قال فزاد تعجبي فسأله فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الجبل بطرفيه وزن المائدة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال أخذ ماله ورد مالنا الله للسّمتان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والقبال على الله تعالى بكنه المهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال أجهاده حتى بذل كنهه مجوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للسّهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أهدر جليل إمارا جل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الدوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراشخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في الطعام والملبس والسكن والأثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد .

#### ( بيان حقيقة الزهد )

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن والإفليس القول مرادا لعينه وإن لم يكن صادرا عن حال مسمى إسلاما ولم يسم إيمانا والعلم هو السبب في حال يجري مجرى الثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلاً من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة ويبيع وغيره فأنما عدل عنه لرغبته عنه وإيمانا عدل إلى غيره لرغبته في غيره فحاله بالإضافة إلى العدول عنه يسمى زهدا بالإضافة إلى العدول إليه يسمى رغبة وحبا فإذا استدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زهدا إذا تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زهدا وإنما يسمى زهدا من ترك الدرهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من البيع فيكون حاله بالإضافة إلى البيع زهدا فيه وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا ولذلك قال الله تعالى - وشروه بشمن ثم تحسن درهمهم مدودة وكانوا فيه من الزاهدين - معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهي مستقمة من ذل كن  
وسئل أبو سعيد الخزاز  
عن الروح أغلوقة هي  
قال نعم ولولا ذلك  
ما أقرت بالروبيبة  
حيث قالت بلى والروح  
هي التي قام بها البدن  
وامتحن بها اسم الحياة  
وبالروح ثبت العقل  
وبالروح قامت الحجة  
ولو لم يكن الروح  
كان العقل معطلا  
لا حجة عليه ولا له  
وقيل إنها جوهر مخلوق  
ولكنها أطف  
المخلوقات وأصفي  
الجواهر وأتورها وبها  
تراءى الغيبات وبها  
يكون الكشف لأهل  
الحقائق وإذا حجب  
الروح عن مراعاة  
السيرة أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو الليل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد للطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك الباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض الباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللتعصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك الباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في الرغبة فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في الرغبة عنه أن يكون مقدورا عليه فان ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يقين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فقيماذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو ثمر لهذه الحال فهو العلم بكون للتروك حقيقا بالاضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من للبيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا للعلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يسر على مالك الثلج يبعه بالجواهر والآلئ فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج للوضوح في الشمس لا يزال في الثوبان إلى الاقراض والآخرة كالجواهر التي لا فناء له فبقدر قوة اليقين والعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والعاملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا : إما لضعف علمه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بعوايد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الموت وإلى تعريف خسارة الدنيا الاشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل - وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير - فنه على أن العلم بنفاسة الجواهر هو للرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . قال الرجل في دعائه « اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تحمل هكذا ولكن قل أرني

الأدب ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء وقيل الأرواح أقسام أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والآخرة وتسمع ما تحدث به في السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعي إلى الله أيام الحياة . وروى سعيد بن السيب عن سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب في برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردّها

الدنيا كما أرتبها الصالحين من عبادك (١) » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى السك في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله وإبراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك الزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلاقتها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجها من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم للبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشرى ببيع الذي يبيع به فإن الذي يابيه بهذا البيع وفي العهد فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام محسباً للدنيا لا يصح زهده أصلاً ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - يوسف وأخوه أحب إلى أئنا منا - وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فتركه ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه بل عند التسليم والبيع فعلمة الرغبة الإمساك وعلامة الزهد الإخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتلك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكمن من ظان بنفسه كراهة للمعاصي عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فأيالك أن تثق بوعدها في اللباحات واللوثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا وقت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعداء ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر فانها سريرة النقص للعهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أرتبها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصور ولم يخرج له (٢) حديث قال المسلمون إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم - الآية لم أقف له على أصل .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التسقوا وتحسبوا وتساءلوا ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهراً عنه فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء . والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفروحون بحسناتهم

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلك يحقرتها بالإضافة إلى نقاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور بمن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهنأ من المال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستغفالا لما في حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أتمه الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بهما من غير نقصان جاءه وتبع اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آتسا بغير الله ومحبالا سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة ترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الخور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك اللطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن ما في الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا فعمامات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

#### ( بيان فضيلة الزهد )

قال الله تعالى - غفر على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من ضييب - وقال تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستجيبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك ففهموه أن اللؤم هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربح للهلكات إذ حب الدنيا من للهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بعض الدنيا فانه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل قهره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتمه الدنيا وهي راغمة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صنعا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - الآية البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

وتزداد وجوههم يابضا وإشراقا » فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأفاد بكم من اللوى فإن كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتمهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والآقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بعمان وأعراض ، سئل الواسطي لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صفة التمكين والاستقرار ألا تراهم يقول « كنت

فانه يلقي الحكمة (١) وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال « قلنا يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال كل مؤمن يخوم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما يخوم القلب ؟ قال التقى النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره ؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة (٢) » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا (٣) » فجعل الزهد سبيلا للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا أن يحب الدنيا متعرض لبعض الله تعالى وفي خبز من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا (٤) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حبرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني برمي ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم ، عبد نور الله قلبه بالايمان (٥) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان « ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقيل له ما هذا الشرح ؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال نعم التجافي عن دار الغرور والإقامة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٦) » فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون (٧) » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى « ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم ؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهادة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تافسوا فيما عنه ترحلون (٨) » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم وقال جابر رضي الله عنه « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلد بسند فيه ضعف (٢) حديث قلنا يا رسول الله وما يخوم القلب ؟ قال التقى النقي الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الحارثي في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك الحديث البراء من حديث أسس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه - الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهم باسناد ضعيف من حديث جابر .

نباء وآدم بين الروح والجسد « أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي لطاقتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والختار عند أكثر متكلمي الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان وللنور يدمهما وأن الروح هي الحياة بعينها صار

قَالَ : مَنْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا إِلَهَ اللَّهِ لَا يَخْلُطُ بِهَا غَيْرُهَا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ قَعَامٌ إِلَيْهِ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهِهِ ، قَالَ  
بَأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَخْلُطُ بِهَا غَيْرُهَا ؟ صَفَهُ لَنَا فَسَرَهُ لَنَا ، قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا طَلْبُهَا  
وَاتِّبَاعُهَا ، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلَ الْجَبَّارَةِ ، فَمَنْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا إِلَهَ اللَّهِ لَيْسَ فِيهَا  
شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ <sup>(١)</sup> . وَفِي الْحَبْرِ «السَّخَاءُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَوْقِنٌ وَالبَخْلُ مِنَ  
الشُّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ شَكٍّ <sup>(٢)</sup> » . وَقَالَ أَيْضًا «السَّخَى قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ  
قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ <sup>(٣)</sup> » وَالبَخْلُ ثَمَرَةُ  
الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالسَّخَاءُ ثَمَرَةُ الزُّهْدِ وَالتَّوَّاءُ عَلَى الثَّمَرَةِ ثَمَاءٌ عَلَى الشَّعْرِ لَامِحَالَةٌ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ السَّيِّبِ  
عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ  
فَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَفَهُ دَاءُ الدُّنْيَا وَدَوَاءُهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ <sup>(٤)</sup> » وَرَوَى أَنَّهُ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ فِي أَصْحَابِهِ بَشَارٌ مِنَ التَّوَقُّ حُفْلٍ وَهِيَ الْحَوَامِلُ وَكَانَتْ مِنْ أَحَبِّ أَمْوَالِهِمْ  
إِلَيْهِمْ وَأَنْفُسُهَا عَنْدهُمْ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ الظُّهْرَ وَاللَّحْمَ وَاللِّينَ وَالْوَبَرَ ، وَلِعَظَمِهَا فِي قُلُوبِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى  
- وَإِذَا الْعُشَارُ عَطَلَتْ - قَالَ فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَضَّ بَصَرَهُ فَقِيلَ لَهُ  
يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَنْفُسُ أَمْوَالِنَا لَمْ لَا تَنْتَظِرْ إِلَيْهَا قَالَتْ قَدْ نَهَانِي اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى - وَلَا  
تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَامَتِنَا بِهِ - <sup>(٥)</sup> » الْآيَةَ وَرَوَى مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ «قُلْتُ  
يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَطِعُ اللَّهُ فَيُطْعِمَكَ قَالَتْ وَبَكَيْتُ لِمَا رَأَيْتُ بِهِ مِنَ الْجُوعِ ، قَالَ يَا عَائِشَةُ وَالَّذِي  
نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْزِيَ مَعِيَ جِبَالَ الدُّنْيَا ذَهَبًا لِأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنِّي  
اخْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شَبْعِهَا وَقَهْرَ الدُّنْيَا عَلَى غَنَاهَا وَحُزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِهَا ، يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا  
لَا تَنْبَغِي لِلْحَمْدِ وَلَا لَآلِ مُحَمَّدٍ ، يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ لِأَوَّلَى الْعِزِّ مِنَ الرِّسْلِ إِلَّا الصَّبْرَ عَلَى مَكْرُوهِ  
الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ مَحْبُوبِهَا ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَنِي مَا كَلَفَنِي ، قَالَ - فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا  
الْعِزِّ مِنَ الرِّسْلِ - وَاللَّهُ مَالِي بَدَنِي مِنْ طَاعَتِهِ وَإِنِّي وَاللَّهُ لِأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا بِمَجْدِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ <sup>(٦)</sup> »

(١) حَدِيثُ جَابِرٍ مَنْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا إِلَهَ اللَّهِ لَا يَخْلُطُ بِهَا شَيْءٌ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ لَمْ أَرَهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَقَدْ  
رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي التَّوَارِدِ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ نَحْوَهُ (٢) حَدِيثُ السَّخَاءِ  
مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَوْقِنٌ الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْقُرْدُوسِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَلَمْ يَخْرُجْ  
وَلَدَهُ فِي مَسْنَدِهِ (٣) حَدِيثُ السَّخَى قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ الْحَدِيثُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ  
(٤) حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ الْحَدِيثُ لَمْ أَرَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ  
وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ ذِمِّ الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ مَرْسَلًا وَابْنُ عَدَى فِي الْكَامِلِ  
مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَخْلَصَ فِيهَا الْعِبَادَةَ أَجْرَى اللَّهُ نِيَّاتِهِ  
الْحِكْمَةُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَقَالَ حَدِيثٌ مِنْكَرٌ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ بَاطِلٌ وَرَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي كِتَابِ الثَّوَابِ  
وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَةِ مَخْتَصَرًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ مِنْ أَخْلَصَ اللَّهُ وَكَلَّهَا ضَعِيفَةٌ (٥) حَدِيثُ مَرْفِيٍّ  
أَصْحَابِهِ بِبَشَارٍ مِنَ التَّوَقُّ حُفْلٍ الْحَدِيثُ وَفِيهِ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى - وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ - الْآيَةَ لَمْ أَجِدْ لَهُ أَصْلًا  
(٦) حَدِيثُ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَطِعُ رَبُّكَ فَيُطْعِمَكَ قَالَتْ وَبَكَيْتُ لِمَا رَأَيْتُ  
بِهِ مِنَ الْجُوعِ الْحَدِيثُ . وَفِيهِ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ لِأَوَّلَى الْعِزِّ مِنَ الرِّسْلِ إِلَّا الصَّبْرَ الْحَدِيثُ  
أَبُو مَنْصُورٍ الدِّبْلِيُّ فِي مَسْنَدِ الْقُرْدُوسِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ مِنْ رِوَايَةِ عِبَادِ  
ابْنِ عَبَّادٍ عَنْ مَجَالِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ مَخْتَصَرًا : يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ مِنْ أَوَّلَى الْعِزِّ

البدن بوجودها حيا  
وبالإعادة إليه في القيامة  
يصير حيا وذهب بعض  
متكلمي الاسلام إلى أنه  
جسم لطيف مشتبك  
بالأجسام الكثيفة  
اشتباك الماء بالسود  
الأخضر وهو اختيار  
أبي العالى الجويني  
وكثير منهم مال إلى  
أنه عرض إلا أنه رد  
عن ذلك الأخبار  
الدالة على أنه جسم  
لما ورد فيه من العروج  
والهبوط والتردد في  
البرزخ حيث وصف  
بأوصاف دل على أنه  
جسم لأن العرض لا  
يوصف بأوصاف إذ  
الموصف معنى والمعن  
لا يقوم بالمعنى واختار  
بعضهم أنه عرض .



سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لحما إذا مرضت . وقال بعض من يتهم بالعلوم الردودة للذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للعاني والمحسوسات لأن

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، وممر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرَّبتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فسق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرقت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فَنُتِبَ له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منحنوني قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فلما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فضلى كذلك فلما زال يقول حتى أبكها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى

من الرسل إلا الصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاليه مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكها وبكى الح لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدري متروك الحديث وللترمذي من حديث عائشة قالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديث ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخاري من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللترمذي في الثمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟ مسح ثنيه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين الحديث وتقدم في آداب المعيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا تعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة قد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد النظري في جزئه للشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة .

صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقهما وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعل أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبل يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليتلى بالعمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم <sup>(١)</sup> » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من المزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - قال صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدنيا ولدينا والدرهم قلنا يا رسول الله نهانا الله عن كثر الذهب والفضة فأى شيء ندخر فقال <sup>(٢)</sup> : ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته <sup>(٣)</sup> » وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاثا ما لا يفارق قلبه أبدا وقرأ لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا <sup>(٤)</sup> » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرة <sup>(٥)</sup> » وقال للشيخ <sup>(٦)</sup> الدنيا قطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يا نبي الله لو أمرت أن نبنى بيتا فبنيته فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأترضع إليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي <sup>(٧)</sup> يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كصف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفضطته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

تجردها من هيآت البدن عند الفارقة غير ممكن وهي عند الموت شاعرة بالموت وبعد الموت متخيلة بنفسها مقبورة وتصور جميع ما كانت تعتقد حال الحياة وتحس بالثواب والعقاب في القبر قال بعضهم أسلم للقاتلات أن يقال الروح شيء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن مادام متصلا به وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بفارقة الجسد كما أن الجسد بفارقه يذوق الموت فان السكينة والهامية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر في

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء قبل يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة الحديث باسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم ليتلى بالعمل (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة - الآية قال تبا للدنيا والدرهم الحديث وفيه فأى شيء ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبا للدنيا والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التباط منها ثلاث شقاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منهائه وفي آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرة لم أجده له امتدادا وذكره صاحب الفردوس من رواية طي بن طلحة مرسلا لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرة وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج له ولده في مسند الفردوس وطي بن أبي طلحة أخرجه له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله فالحديث إذن معضل .

القيامه أن تقوم قال لا ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرائيلي فقال إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فيعني بتفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فقلت وإن شئت نبييا ملكا وإن شئت نبييا عبدا فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال نبييا عبدا ثلاثا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه» (٢) وقال جبريل عليه السلام «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (٣) وقال صلى الله عليه وسلم «من أراد أن يؤتية الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه للصبيات» (٥) وروى عن نبيينا وعن المسيح عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادات والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء» (٦) وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا ليعرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: لا تزال إلى الله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم وفي لفظ آخر: ما لم يؤثر واصله في دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال تابعتنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفي به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتي أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إني لأشتي من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون على دين ولا على عظمي لحم فأعطي ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز قبلوها وأرسل إلى الفضيل بشرة آلاف فلم قبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال أتدرون ما مني ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرقون عليها فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلودها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث في نزول إسرائيلي وقوله إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد قهره في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتية الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب (٦) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت هو أول العبادات الحديث الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم.

شعاع الشمس ولما رأى التكلمون أنه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كذا ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فلما أحسن الإمساك عن القول فيها هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب الكي في كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب

أثم أردتم ذبحي على كبرسي موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان للسبيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والخطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بدّ ولكن لا بد لنا من اللوت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن لم لا تغسل ثيابك قال الأمر أن يحجل من ذلك . وقال إبراهيم بن أدهم قد حببت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سرت بالمدح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبد من المجتهدين إلى آخر الزهد أبدا سرمد . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه <sup>(١)</sup> » فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع للوذي إلى الصبغة أكبر منها في الاعطاء للوذي إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برحاء ولم يحزن على شقاء . وقال سهل لا يخلص العمل المتعبد حتى لا يفرغ من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدبر ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قبر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصناعة طعام قط فإذا كان الليل ققيام على أقدامهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك واثقوا بالله ماسلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

( بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى للرغوب عنه وإلى للرغوب فيه )  
اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى للزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والتمسك بالزهد يذيب أولانفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لافي الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لأحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع للبيع ويلتفت إليه فيسكاد يكون معجبا بنفسه وزهده ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أحسن من خزفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو السكال في الزهد وسببه كمال المعرفة

(١) حديث إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

يوه الملك فيلهم الحير  
عند ذلك وتحرك  
لشعر ومن حركتها  
تظهر ظلمة في القلب  
فيرى الشيطان الظلمة  
فيقبل بالاغواء وحيث  
وجدت أقوال الشايع  
تشير إلى الروح  
أقول : ما عندي في  
ذلك على معنى ما ذكرت  
من التأويل دون  
أن أقطع به إذ مبلى  
في ذلك إلى السكوت  
والامساك فأقول والله  
أعلم : الروح الانساني  
العلوي السماوي من  
عالم الأمر والروح  
الحيواني البشري من  
عالم الخلق والروح  
الحيواني البشري  
عمل الروح العلوي  
ومنوره والروح

ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في أى شئ تسكلم ؟ قال في الزهد قال في أى شئ ؟ قال في الدنيا فنفذ يده وقال ظننت أنه يتكلم في شئ \* والدنيا لا شئ \* إيش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب للعمورة بالمجاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أفتد أمره في جميع مملكته أقرى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال اللغز وتنقض على القرب بالابتلاع ثم يبق ثقلها في المعدة ثم تنتهى إلى التأن والقدر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمره مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتأه إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتعدي ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدر غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذه تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات إذ تصير للزهد مختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة للعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده . وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى الرغبة فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات : الدرجة السفلى أن يكون للرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كغالب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكأثمهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم . الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمداً لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق في المحبة بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو مومه ثم واحد وهو الواحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يجب على الجمع بينهما لم يجب إلا الدينار فكذلك من عرف الديار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يجب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالحور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إني حبست بعدك محبسا فظيما كرها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيوانى جسمانى لطيف  
حامل لقوة الحس  
والحركة ينبعث من  
القلب أعنى بالقلب  
ههنا المضغة اللحمية  
للعروفة الشكل للودعة  
في الجانب الأيسر  
من الجسد وينتشر  
في تجاويف العروق  
الضواري وهذه  
الروح لسائر الحيوانات  
ومنه تفيض قوى  
الحواس وهو الذى  
قوامه بأجراء سنة الله  
بالغذاء غالباً ويتصرف  
بسلم الطب فيه  
باعتدال مزاج الأخلاط  
ولورود الروح الانسانية  
العالى على هذا  
الروح تجنس الروح  
الحيوانى وبابن  
أرواح الحيوانات

والنظر إلى نفس القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يحجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل العرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أظلم وألذ لمن الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى الرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل اللذ كورفيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل . فنقول: للرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل وتفصيله مراتب بعضها أشرف لأحاد الأقسام وبعضها أجل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، وإذا أوال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفرقه في الشرح مرة والإجمال أخرى . فالخلاصة أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أملة لا محالة لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئا أراد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فإذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال الناقصين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوصوا وانتظروا إحدى الحسينين وكالوا إذا دعوا إلى القتال يستشفقون رائحة الجنة ويبادرون إليه بمبادرة الظمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نبيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصغوف طمعة في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عدت على جسده ثمانية ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى  
فصار تقاسمًا للنطق  
والإلهام قال الله تعالى  
- ونفس وما سواها  
فألهمها فجورها  
وقواها - فتسويتها  
بورود الروح الانساني  
عليها واقطاعها عن  
جنس أرواح الحيوانات  
فكوت النفس  
بتكوين الله تعالى من  
الروح العلوي وصار  
تكون النفس التي  
هي الروح الحيواني من  
الآدمي من الروح  
العلوي في عالم الأمر  
كتكون حواء من  
آدم في عالم الخلق وصار  
بينهما من التألف  
والتماسك كما بين آدم  
وحواء وصار كل واحد  
منهما ينوق للوت

بمفارقة صاحبه قال الله تعالى وجعل منها زوجها ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانساني العاوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعني بهذا القلب اللطيفة التي يحياها المصنعة الاحمية فالمصنعة الاحمية من عالم الخلق وهنـه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأبر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا النساء كنن الزوجين الذين أحدهما النفس ماتكون القلب فمن

وأما الناقصون فقروا من الزحف خوفا من الموت قليل لهم - إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم - فاشارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فخاربت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به فهذا بيان للزهد فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشير وابه إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم مראה غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحم الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي الهبة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضاً الزهد هو ترك الطلب للضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمقول والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض مآلها من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّلوها حتى ينقضى عمر الانسان في الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أو له مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والسبب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأن هذا بمن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأدنى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل ورأى ما قلناه فلم نرى قلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رأها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لتصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لتصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكره عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الزهنة التي هي مقام السبذ في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب للعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضداً للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله قلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان أقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهد وفيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض وهل وسلامة كما قاله إبراهيم بن أدهم فالعرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات والالحظات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدالك قال وما الذي تجد قال توسدك الحجر . أي تتمعت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ماركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس اللبس حتى تعب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حسن اللبس فسأته أمه أن يلبس مكان اللبس جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أثرت على الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهد أويس بلغ من العري أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أقتنى أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحذور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحذور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكر ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا بقاء إلا بضروريات النفس فمهما اقتضت من الدنيا على دفع للمهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه المشتغل بما في طريقه وبسببه في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ذلك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك بالذات بل غرضك مقصور على دفع للمهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش للمهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد للمهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد وأن أتلهذ بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلهذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسيم الأسحار وصوت الأطيار ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا وقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه مأوى فكان لا يرفقه من الشمس ويشرب للماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد رشق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف الخناطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فشدته قريبة والاحتفاء مدة يسيرة للتنعم على التأيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنهم بسباسة الشرع للعصمين بعروة اليقين في معرفة الصادقة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

( بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة )

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالحيل السوسة مثلا إذ غالب الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى مبال إليه وهو القلب للوئيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان وثفاق فذلك الإيمان فيه مثل البقلة يمددها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كئيل القرحة يمددها القيح والصدبد فأى للمادتين



إنما يقتنيها لترفه بركوبها وهو قادر على الشيء وللهم كالأكل والشرب ولنا قدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر للمهم الضروري واللهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور : المظن والملبس والسكن وأثاثه والنكح والمال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع الهلكات ونحن الآن تقتصر على بيان هذه المهمات الستة [ الأول المظن ] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم عليه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فإذا استقبل بماتوله لم يدخر من غذائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضمفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلامه واحد وهو ما قدره الله تعالى في إ طعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغاله به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الحن من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلاه خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التمتع وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الأدم فأقله الملح أو البقل والحل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أى دهن كان وأعلاه اللحم أى لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ليلة ولا يشرب وأعلاه أن يتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع الهلكات ولنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في اللطاعم وتركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالأسودين التمر والماء <sup>(١)</sup> » وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويتعل الخوص ويلقى أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد <sup>(٢)</sup> » وقال لليسع عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس نجى الشعر له والنوم على الزابل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعين ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولا أحد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

غلبت عليه حكمه  
بها والقلب للنكوس  
مبال إلى الأم التي هي  
النفس الأمارة بالسوء  
ومن القلوب قلب  
مرتد في ميله إليها  
وبحسب غلبة ميل  
القلب يكون حكمه  
من السعادة والشقاوة  
والعقل جوهر الروح  
العلى ولسانه والدال  
عليه وتديره للقلب  
لؤيد والنفس الزكية  
للطمشة تدير الوالد  
للولد البار والزوج  
للزوجة الصالحة  
وتديره للقلب  
للكوس والنفس  
الأمارة بالسوء تدير  
الوالد للولد العاق  
والزوج للزوجة السيئة  
فتنبكوس من وجه

ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر<sup>(١)</sup>. وكان للمسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في الطعام والشرب في ربيع المهلكات فلانعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال «أما إني لست أحرمه ولكن آركه تواضعاً لله تعالى<sup>(٢)</sup>» وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والله كره رقيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمة والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفه والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [ اللهم الثاني ] لللبس وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يغطي به وأوسطه قميص وقنسوة ونملان وأعلى أن يكون معه منديل وسراويل وماجاوز هذا من حيث للقادر فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت ، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين قد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث للقادر ، أما الجنس فأقله المسوح الخشن وأوسطه الصوف الحشن وأعلى القطن الغليظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوماً حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتعاسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فإن أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محباً للدنيا ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً قالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس<sup>(٤)</sup>» وقال عمرو بن الأسود العنسي لا لبس مشهوراً أبداً ولا أنام ليل طي دثار أبداً ولا أركب طي مأثور أبداً ولا أملأ جوفى من طعام أبداً قال عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود<sup>(٥)</sup> وفي الخبر «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يزرعه وإن كان عنده حبيبا<sup>(٦)</sup>» واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم<sup>(٧)</sup>.

الحديث تقدم دون قوله إنما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً قالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس لم أجده أصلاً (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود رواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبيبا (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال

ومنجذب إلى تديرها من وجه إذ لا بد له منها وقول القائلين واختلافهم في عمل العقل فمن قائل إن عمله الدماغ ومن قائل إن عمله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البارتارة وإلى العاق أخرى والقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق فإذا روى في تدير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى بهم بالارتفاع إلى مولاه شوقاً وحنوا وتنزهاً

عن الأكواف ومن  
الأكوان القلب  
والنفس فإذا ارتقى  
الروح يغزو القلب إليه  
حنو الولد الحنين  
البار إلى والدو نحن  
النفس إلى القلب الذي  
هو الولد حنين الوالدة  
الحنينة إلى ولها وإذا  
حننت النفس ارتفعت  
من الأرض وانتزعت  
عروفتها الضاربة في  
العالم السفلى وانطوى  
هواها وانغمست  
مادته وزهدت في الدنيا  
وتجافت عن دار  
الغرور وأثابت إلى دار  
الخلود وقد تخلت النفس  
التي هي الأم إلى  
الأرض بوضعها الجبلي  
لتسكنها من الروح  
الحسوانى الجنس

وكانت قبة ثوبه عشرة (١). وكان إزاره أربعة أذرع ونصف (٢). واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣). وكان يلبس ثملتين يضاوين من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥). ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم (٦) فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهدها إليه القوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباغ وكأنه إنما لبسه أولا فأكد التحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزع (٧) فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشتطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته سعد عليه السلام للبر فخرمه وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميسة لها علم فلما سلم قال شغلني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهنم واتنوني بأنجانيتها (١٠) يعني كساءه فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شر الكثرة قد أخلق فأبدل بسير جديد ففعل فيه فلما سلم قال أعيدوا الثوب الخلق وانزعوا هذا الجديد فأنى نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قبة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حيث كان إزاره أربعة أذرع ونصف أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للعروف أنه اشترى بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس ثملتين يضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والخبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الضرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال رأيته على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب المعيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغفر به الترمذي وللبراز من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة خبزة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم أهدها له القوقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشتطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خميسة لها علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة.

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يتكلم عليه الشارح فلينظر اهـ .

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على اللبر فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم»<sup>(١)</sup>. «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال : أعجبنى حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يفتنى ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه»<sup>(٢)</sup> وعن سنان بن سعد قال حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أثمار وجعلت خاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما أليها قال فقالوا إليه أعراني فقال يا رسول الله هيا لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم ييحل به قال فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكاة»<sup>(٣)</sup> وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعى مرارة الدنيا لنعم الأبد فأزل الله عليه ولسوف يعطيك ربك فترضى»<sup>(٤)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني اللأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤثمتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش»<sup>(٥)</sup> فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللباس «وقد أوصى أمتة عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستن بسنقي»<sup>(٦)</sup> وقال «عليكم بسنقي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ»<sup>(٧)</sup> وقال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - «وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال إن أردت اللجوء بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى ترقعه»<sup>(٨)</sup> وعنه على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كفيه من الرسخين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه . وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ولا يحترك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليربى وأنا أصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرة فأمقته ولأدعه يجوز . وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دنانق . وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته . وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما استر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه . وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على اللبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أثمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني اللأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسنقي تقدم في النكاح (٧) حديث عليكم بسنقي وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العراء بن ساريه (٨) حديث قل لعائشة إن أردت اللجوء بي فإياك ومجالسة الأغنياء

ومستندها في ركونها إلى الطباع التي هي أركان العالم السفلى . قال الله تعالى - ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتباع هواه - فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب النكوس انجذاب الولد لليال إلى الوالدة للموجة الناقصة ذون الوالد الكامل للستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فمعد ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة

وكان جمهور العلماء من التابعين قبة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول النسك الزى وفي الخبر « البذاذة من الايمان » وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في تخات الباقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأولياي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رفاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في برته فجعل يتكلم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضطرب به فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البرة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقبض بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقبض به السلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعم وقال « إن الله تعالى عابدا ليسوا بالمتنعين (١) » ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا قفيل له أنت الأمير وتفضل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإفراه وأمرنا أن نحتفي أحيانا (٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الإزار واخسف النعل وكل دون الشعب وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقصر . وقال على كرم الله وجهه من زيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمي الذين غنوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة للؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين السكبين وما أسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا (٤) » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمي إلا مرأ أو أحرق (٥) » وقال الأوزاعي لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتية بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتية مادعاك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تحييني فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي وأقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التعم وقال إن الله عابدا ليسوا بالمتنعين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإفراه [١] وأمرنا أن نحتفي أحيانا أبو داود باسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمي الذين غنوا بالنعيم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف سيكون رجال من أمي يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمي وقد تقدم (٤) حديث أزرة للؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمي إلا مرأ أو أحرق لم أجده له إسنادا .

[١] الإفراه بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بقاء : التدهن والترجيل كل يوم . وقيل التوسع في اللطم والمشرط برهان اه .

- ذلك تقدير العزيز  
العليم . - وقد ورد  
في أخبار داود عليه  
السلام أنه سأل ابنه  
سليمان أين موضع العقل  
منك قال القلب لأنه  
قالب الروح والروح  
قالب الحياة . وقال  
أبو سعيد القرشي  
الروح روحان روح  
الحياة وروح المات فاذا  
اجتمعا عقل الجسم  
وروح المات هي التي إذا  
خرجت من الجسد  
يصير الحي ميتا وروح  
الحياة ما به مجاري  
الأنفاس وقوة الأكل  
والشرب وغيرها ،  
وقال بعضهم : الروح  
نسيم طيب يكون به  
الحياة والنفس ريح  
حارة تكون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلطان الفارسي رضي الله عنه مالك تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق قلبه والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي ، وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلغني أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الحرق من الزايل ويفسها ويلفقا ويلبسها فقلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ماضهم مأصاهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويكي [ اللهم الثالث ] للسكن وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خض أو ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو بإجارة فإن كان قدر سعة للسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج به هذا القدر عن آخر درجات الزهد فإن طلب التشديد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع قد جاوز بالكلية حد الزهد في السكن فاختلف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر واختلف قدره بالسعة والضيق واختلف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من السكن دفع للطر والبرد ودفع الأعين والأذى وأقل الدرجات فيه معام ومأزاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشديد يعني بالتدريز كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلا والتشديد هو البنيان بالجص والآجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (١) وقد جاء في الخبر « يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود الجمانية » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها (٢) « ومروا عليه السلام بجنيذة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير (٣) » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ولا قصبه على قصبه (٤) »

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء في الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبله للمسجد وجعلوا عضادته الحجارة الحديث ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوق كف للمسجد (٢) حديث أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بجنيذة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والجنيذة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة الحديث ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسل الطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عن أسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لينة على لينة الحديث وإسناده ضعيف .

الحركات للذمومة  
والنشوات ويقال  
فلان حار الرأس وفي  
الفصل الذي ذكرناه  
يقع التنبيه بماهية  
النفس وإشارة للشايع  
بماهية النفس إلى  
ما يظهر من آثارها  
من الأفعال للذمومة  
والأخلاق للذمومة  
وهي التي تعالج بحسن  
الرياضة وإزالتها  
وتبديلها والأفعال  
الردية تزال والأخلاق  
الردية تبدل . أخبرنا  
الشيخ العالم رضي الدين  
أحمد بن اسمعيل  
القزويني قال أنا إجازة  
أبو سعيد محمد بن أبي  
العباس الحلبي قال أنا  
القاضي محمد بن سعيد  
الفرخزادي قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين»<sup>(١)</sup> وقال عبد الله ابن عمر «مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا قلنا خص لنا قديمي فقال أرى الأمر أعجل من ذلك»<sup>(٢)</sup> واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب قليل له لو نبت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قصب قد مال عليه قليل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة»<sup>(٣)</sup> وفي الخبر «كل ثقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفق في الماء والطين»<sup>(٤)</sup> وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم «كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر» أورد<sup>(٥)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله «اتسع في السماء»<sup>(٦)</sup> أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص وأجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هاما من لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هاما من طي الطين - يعني به الآجرو يقال إن فرعون هو أول من بنى له بالجص والآجر وأول من عمله هاما من ثم تبعها الجبارة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا للسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأته مبنيا من رهص ثم رأته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مزارا في مدة عمره لضعف بناءه وقصر أمه وزهده في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده وكانت يوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن يملد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف، وقال عمرو ابن دينار إذا أطل العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك إلى ابن آفاسق الفاسقين، وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه . وقال الفضيل إنى لا أعجب ممن بنى وترك ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين يصلون إلى قبلتك ويموتون على غير دينكم . [ اللهم الرابع ] أثاث البيت والزهد فيه أيضا درجات أعلاها حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه فرمى بالمشط

(١) حديث إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد بخبره في الطين واللبن حتى يبني (٢) حديث عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا قد وهي الحديث أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه (٣) حديث من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله الطيراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع (٤) حديث كل ثقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفق في الماء والطين ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ إلا في التراب أو قال في البناء (٥) حديث كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أورد أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظه إلا ما لا يعني مالا بد منه . (٦) حديث قال للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله اتسع في السماء قال المصنف أي في الجنة أبو داود في المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال شكاه خالد بن الوليد فذكره وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد إلا أنه قال أرفع إلى السماء واسأل الله السعة وفي إسناده لين .

أبو اسحق أحمد بن محمد  
ابن إبراهيم قال أنا  
الحسين بن محمد بن  
عبد الله السفياي  
قال حدثنا محمد  
ابن الحسن القيطبي  
قال حدثنا أحمد بن  
عبد الله بن يزيد  
القيطي قال حدثنا  
صفوان بن صالح قال  
حدثنا الوليد بن مسلم  
عن ابن لهيعة عن  
خالد بن يزيد عن  
سعيد بن أبي هلال  
أن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم كان إذا قرأ  
هذه الآية - قد أفلح  
من زكاه - وقف ثم  
قال : اللهم آت نفسي  
تقواها أنت وليها  
ومولاه وزكها أنت  
خير من زكاه، وقيل

ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إما يراى المقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكتفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ للتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف وأعلها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فان زاد في العدد أوفى قناعة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف<sup>(١)</sup> . وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنىة وسادة من آدم حشوها ليف ، وروى «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشرط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمعت عيناه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من الملك وذكرت وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك<sup>(٢)</sup> » ودخل رجل على أبي ذر فجعل قلب بصره في بيته فقال يا أباذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معى عصا أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ومعى قصعة أكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبتي ومعى مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهورى للصلاة فما كان . بعد هذا من الدنيا فهو تبع للماعى فقال عمر صدقت رحمك الله «وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفي يديها قلبي من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبي بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبي أنت قد أحسنت<sup>(٤)</sup> »

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنىة وسادة من آدم حشوها ليف الترمذي في الثمائل من حديث حفصة بقصة العبادة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشرط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبي من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولا في داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلنا نظر فارجه الحديث والنسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب الحديث

النفس لطيفة مودعة في القالب منها الأخلاق والصفات للذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات الحمودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والفم محل التقوى وهكذا النفس محل الأوصاف للذمومة والروح محل الأوصاف الحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثاني الشره وطيشها من جهلها وشرها من حرصها وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس



مصوب لا تزال متحركة  
بجملتها ووضعها وشبهت  
في حرصها بالفراش  
الذي يلقي نفسه على  
ضوء المصباح ولا يتنح  
بالضوء اليسير دون  
المهجوم على جرم الضوء  
الذي فيه هلاكه فمن  
الطيش توجد العجلة  
وقلة الصبر والصبر  
جوهر العقل والطيش  
صفة النفس وهواها  
وروحها لا يغلب إلا  
الصبر إذ العقل يطمع  
الهوى ومن الشر  
يظهر الطمع والحرص  
وهما اللذان ظهرا في  
آدم حيث طمع في  
الخلود فحرص على أكل  
الشجرة وصفات النفس  
لها أصول من أصل  
تكونها لأنها مخلوقة

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترًا فتهتكه وقال « كبر أيتها ذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان (١) » وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عبادة مثنية فإزال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدي العبادة الحلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة (٢) وكذلك أته دنائير خمسة أوسنة ليلا فيتها فسهل ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيظه ثم قال « ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده (٣) » وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار مالا أحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم يامر الأرض بحسبه وجعل ثوبه فوقه [ اللهم الخامس ] للسكع وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرتة وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حجب إلى سيد الزهادين النساء فكيف زهدين وواقه على هذا القول ابن عينة وقال كان أزهد الصحابة على بن أبي طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبيع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سلمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغول وللرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه ففي تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلىهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله ترك ذلك من الزهد فإن علم أن للرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بشمها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار (١) حديث رأى على باب عائشة سترًا فتهتكه الحديث الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها (٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عبادة مثنية الحديث ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة مثنية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش حشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه بحاله بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة التتقم ذكره من الشائل (٣) حديث أته دنائير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهل ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة باسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد ألقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنائير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام [ ١ ] الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع قللت يا بني الله مالك شام الوجه فقال من أجل الدنائير البسعة التي أتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش وفي رواية أمسينا ولم تنفقا .

[ ١ ] شام بالمعجمة متغير يقال شهم تغير عن حاله لعارض اهـ .

نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لفته من غير خوف آفة أخرى وهذا ما اعتاده سهل لاهل  
ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله  
كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والافتقار عليهن (١) فلامعنى زهده فيهن حذر من مجرد لذة  
الوقوع والنظر ولكن أتى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان  
فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهم أو جمال  
للرأة فلينكح واحدة غير جميلة ويراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان : الزهد في النساء أن يختار للرأة الدون  
أو اليتيمة على للرأة الجميلة والشريفة . وقال الجنيد رحمه الله أحب للمرید للبتدى أن لا يشغل قلبه ثلاث  
والإتغير حاله : التكسب وطلب الحديث والتزويج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع  
لهمه فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا [ اللهم السادس ]  
ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو اللال والجاء : أما الجاء فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها يتوصل  
به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته واقتصر إلى  
من يخدمه افتقر إلى جاه لاهل في قلب خادمه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام  
القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتعاضد به إلى هاية لا عمق لها ومن حام  
حول الحمى يوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لطلب نفع أول دفع ضرر أو لخلاص  
من ظلم فأما النفع فينبغي عنه اللال فان من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده المستأجر قدر وإنما  
يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل  
فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له  
عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا يضبط لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض  
في طلب الجاه بهالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فان اشتغاله  
بالدين والعبادة يمهله من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين  
المسلمين فأما التوهمات والتفديرات التي تتجوز إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام  
كاذبة إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أبلى من  
علاجه بطلب الجاه ، فاذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته  
أشد من ضراوة الحجر فليحترز من قليله وكثيره . وأما اللال فهو ضروري في المعيشة أغنى القليل منه  
فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم إذا اكتسب حيتين  
رفع سنفطه وقام . هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك إلى ما يفقه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء  
الزهاد وأقويائهم جميعا وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي  
ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته  
ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله فلا يكون هذا  
من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نفي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من اللقائمات  
المحمودة لا يناله إلا قاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر للتفرد في  
جميع ذلك أخف من أمر للعيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه  
فان أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء معناه أن التضيق للشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل  
ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضا بما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والافتقار عليهن تقدم في النكاح .

من تراب ولها بحسبه  
وصف وقيل وصف  
الضعف في آدمي من  
التراب ووصف البخل  
فيه من الطين ووصف  
الشهوة فيه من الجأ  
للسنون ووصف الجهل  
فيه من الصلصال  
وقيل قوله كالفخار فهذا  
الوصف فيه شيء من  
الشيطنة لدخول النار  
في الفخار فمن ذلك  
الحداق والحيل والحسد  
فمن عرف أصول  
النفس وجبلاتها عرف  
أن لا قدرة له عليها  
إلا بالاستعانة بيارها  
وفاطرها فلا يتحقق  
المبد بالانسانية  
إلا بعد أن يدبر  
دواعي الحيوانية فيه  
بالعلم والعدل وهو

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة ثم قاتل والقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سها قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسهم محذور شره والدواء فرض تناوله وما بينهما مشتببه أمره فمن احتاط فأنما يحتاط لنفسه ومن تساهل فأنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا محالة ، والقتصر على قدر الضرورة والله لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ، ويدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا خفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذن قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال النذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فإيا كلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على العصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القمل لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد خلاصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فأنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده للمال والجاه والأهل والولد وشهامة الأعداء ومراعاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه قصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولوترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك اللوت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومخالب ملك اللوت قد علت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند اللوت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل للؤلؤ ييدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما ظنك بأنم يتمكن أولا من صميم القلب خصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقيه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محبوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لجوابون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، فتنسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما ثبت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحب من أحببت فأنك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من اللثال قول الشاعر :

رعاية طرفي الافراط  
والتفريط ثم بذلك  
تقوى إنسانيته  
ومعناه ويدرك صفات  
الشيطنة فيه والأخلاق  
للمذمومة وكال  
إنسانيته ويتقاضاه  
أن لا يرضى لنفسه  
بذلك ثم تكشف له  
الأخلاق التي تنازع  
بها الربوبية من  
الكبر والعز ورؤية  
النفس والعجب وغير  
ذلك فيرى أن صرف  
العبودية في ترك  
للتنازع للربوبية  
والله تعالى ذكر النفس  
في كلامه القديم  
بثلاثة أوصاف :  
بالطمأنينة قال  
- يا أيها النفس  
للطمئنة - وسهاها لومة

كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غما وسط ماهو ناسجه  
ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز  
نفسه رفضوا الدنيا بالسكينة حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد  
منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالحسب والرخاء لو  
رأيتهم قاتم مجانين ، ولورأوا خياركم قالوا ما هؤلاء من خلاق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن  
هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له للمال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على  
قلبي ، فمن كان له قلب فهو لاهلحة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله  
عنهم إذ قال تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز  
وجل - ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وانبغ هواه وكان أمره فرطاً - . وقال تعالى  
- فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فأحال ذلك كله  
على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احمني معك في سياحتك ، فقال أخرج  
مالك والحقني . فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغنى الجنة أوقال بشدة .  
وقال بعضهم : مامن يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان  
بالمشرق وملكبان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق : يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ، ويقول  
الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وابنوا  
للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

## ( بيان علامات الزهد )

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الحشونة سهل على  
من أحب اللذخ بالزهد فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام  
ولازموا ديرا لا باب له وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل  
على الزهد دلالة قاطعة بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ  
النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصفاف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال  
الخواص في وصف للدين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يوهون بذلك  
على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا  
فيعطوا كما تعطى للساكنين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة  
إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى الضايق  
وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم  
صفاتهم فقلبتهم فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص  
رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول  
في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى  
- لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالصد من ذلك وهو أن  
يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة  
الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه  
حلاوة الطاعة إذ لا يغلو القلب عن حلاوة المحبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كالماء والهواء  
في القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره

قال - لأنفس يوم  
القيامة ولا أنفس  
بالنفس اللوامة -  
وسماها أمارة ، فقال  
- إن النفس لأمارة  
بالسوء - وهي نفس  
واحدة . ولها صفات  
متنيرة ، فاذا امتلأ  
القلب سكينة خلع  
على النفس خلع  
الطمأنينة لأن السكينة  
مزيد الإيمان وفيها  
ارتقاء القلب إلى مقام  
الروح لما منح من  
حظ اليقين وعند  
توجه القلب إلى محل  
الروح تتوجه النفس  
إلى محل القلب ، وفي  
ذلك طمأنينتها وإذا  
ازعجت من مقام  
جبلاتها ودواعي  
طبيعتها متطلعة إلى

ولذلك قيل لبعضهم إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال إلى الأنس بالله . فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا  
يجمعان وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل  
لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ولهذا  
ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان من شغل نفسه  
شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد  
لا بد وأن يكون في أحد هذين للقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى  
عنده للدخ والتم والوجود والعدم ولا يستدل بماسكه قليلا من السال على فقد زهده أصلا .  
قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغت أنه ورث  
عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ، فقال أردت  
منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا  
يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى  
دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله  
السيح عليه السلام ، ففسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل فإن أمثالا لا يستجري  
على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم  
الله تعالى علينا علنا أن الله تعالى لا يتعاطفه شيء فلا بعد في أن نعلم السؤال اعتمادا على الجود  
المجاوز لكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والدل والدخ والتم وذلك لغلبة  
الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لاحالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من  
أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى  
ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من  
الملك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف علم  
من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد  
ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد  
إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصارى باذى : الزاهد  
غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة  
وقول بلا طمع وعز بلا رياسة . وقال أيضا الزاهد الله يسعطك الحبل والحردل والعارف يشمك للسك  
والعزير وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأصدمع الزاهدين ، فقال إذا  
صرت من رياضتك لنفسك في السرا إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك . فأما  
ما لم يبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تقتضح . وقال أيضا :  
الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها ويتنف شعرها ويحرق ثوبها ،  
والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري ما رست كل شيء من أمر الزهد فلت منه  
ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطلقه . وقال الفضيل رحمه الله جل الله الشكر كله في بيت  
وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا  
أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيان إن شاء  
الله تعالى .

مقار الطمانينة فهي  
لوامة لأنها تعود  
باللأمة على نفسها  
لنظرها وعدها بمحل  
الطمانينة ثم انجذابها  
إلى عملها التي كانت  
فيه أمانة بالسوء ،  
وإذا أقامت في عملها  
لا ينشأها نور العلم  
والعرفة فهي على  
ظلمتها أمانة بالسوء  
فالنفس والروح  
يتطاردان ، فتارة  
يملك القلب دواعي  
الروح ، وتارة يملكه  
دواعي النفس . وأما  
السري فقد أشار  
القوم إليه ووجدت  
في كلام القوم أن  
منهم من جعله بعد  
القلب وقبل الروح ،  
ومنهم من جعله بعد

## ﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

( وهو الكتاب الخامس من ربيع للنجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله مدبر الملك والملكوت والفرد بالعزة والجبروت الرافع للساء بغير عماد القدر فيها أرزاق العباد الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعداه والاعتماد على مدبر سوا فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا ينتغي عندهم الرزق وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ومامن دابة إلا إلى الله رزقها فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد فامع الأباطيل المهادى إلى سواء السبيل وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات اللوقين بل هو من معالي درجات المقرين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتشاغل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تتغير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والصعوبة لا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء لإمامسة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

( بيان فضيلة التوكل )

أما من الآيات فقد قال تعالى - وعلى الله فليتوكل المتوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب المتوكلين - وأعظم بمقام موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملاسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه وعجبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى - أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو للكذب لهذه الآية فانه سؤال في معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا - وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم - أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجناحه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتك فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابغضوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - ولله خزائن السموات والأرض ولكن للناقضين لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

الروح وأطى منها وألطف وقالوا السرّ محلّ للشاهدة والروح محلّ المحبة . والقلب محلّ المعرفة والسرّ الذي وقت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله وإنما للذكر في كلام الله الروح والنفس وتوعد صفاتها والقلب والفؤاد والعقل وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ورأينا الاختلاف في القول فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح وقوم إلى أنه ألطف من الروح فتقول والله أعلم : الذي سموه سرا ليس هو شيء مستقل بنفسه

صلى الله عليه وسلم فما رواه ابن مسعود «أريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهياتهم فقيل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بنير حساب قيل : من هم يا رسول الله؟ قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة<sup>(١)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافاً وتروح بطاناً<sup>(٢)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها<sup>(٣)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه<sup>(٤)</sup>» ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها -<sup>(٥)</sup>» الآية وقال عليه السلام «لم يتوكل من استرقى واكتوى<sup>(٦)</sup>» وروى أنه لما قال جبريل لأبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق أنك حاجة قال أما إليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ يرمى فأنزله الله تعالى وإبراهيم الذي وفى - وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود مامن عبد يتصم في دون خلق فتكيد السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً . وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين فتأولت الرائي بدى التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى ستوكل على الحي الذي لا يموت - إلى آخرها فقال ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك للضمون لك من الرزق عن الفروض عليك من العمل فضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطاب العبد . وقال إبراهيم بن آدم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني . وقال هرم ابن حيان لأويس القرني أين تأمرني أن أكون فأوماً إلى الشام قال هرم كيف للعيشة قال أوبس أف

(١) حديث ابن مسعود أريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذي والحاكم وصحاحه من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه الحديث في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي قال تعالى - وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها - الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيعدهم جماعة من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث للغيرة بن شعبة وقال الترمذي من اكتوى أو استرقى قد برئ من التوكل وقال النسائي مات توكل من اكتوى أو استرقى .

له وجود ذات كالروح  
والنفس وإنما لما  
صفت النفس وتزكت  
انطلق الروح من وثاق  
ظلمة النفس فأخذ في  
المروج إلى أوطان  
القرب واترج القلب  
عند ذلك عن مستقره  
متطعاً إلى الروح  
فأكتسب صفاتاً  
على وصفه فأنجم على  
الواجدين ذلك الوصف  
حيث رأوه أصنى من  
القلب قسموه سرا  
ولما صار للقلب وصف  
زائد على وصفه بتطلعه  
إلى الروح اكتسب  
الروح وصفاتاً  
في عروجه وأنجم  
على الواجدين قسموه  
سرا والذي زعموا أنه  
الطيف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفجها للوعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

( بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل )

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى مسمى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي ترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالله وحده لا شريك له للملك والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ثم له الإيمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والأفان والتوحيد هو البحر الحضم الذي لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر ولنبين ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المناقبين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام للقرين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحدا وهي مشاهدة الصديقين وتسميته الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم يرق نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انتقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه اشراج واتساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقده ولهذا العقدة حيل يقصدها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلم وهو في مقابلة للبتدع ومقصده دفع البتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص للتكلم باسم للوحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذ لم يفارق التكلم العامي في الاعتقاد بل في صفة تلفيق الكلام الذي به حيل للبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر الذائق وإن نظر إلى باطنه فهو كره للنظر وإن أخذ

متصفة بوصف أخص  
بمعهده والذي سموه  
قبل الروح سرا هو قلب  
اتصف بوصف زائد  
غير ماعهده وفي مثل  
هذا الترقى من الروح  
والقلب تترقى النفس  
إلى محل القلب وتتخذ  
من وصفها قصير نفسا  
مطمئنة ترتد كثيرا  
من مردات القلب من  
قبل اذ صار القلب يريد  
ما يريد مولاه متبرئا  
عن الحصول والقوة  
والارادة والاختيار  
وعندها ذاق طعم  
حرف العبودية حيث  
صار حرا عن إرادته  
واختياراته وأما العقل  
فهو لسان الروح  
وترجمان البصيرة  
والبصيرة للروح بمثابة



حطبا أطفأ النارا وكثر الدخان وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد النفاق يصون بدنه عن سيف العزة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن يتنفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف وللشاهدة التي تحصل بانسراح الصدر وانساحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك التشرح هو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وكما أن اللب تقيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكله للقصود ولكنه لا يغلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يغلو عن شوب ملاحظة الغير والالفتات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا. فاعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم للعامة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك بمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من الشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفث إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ يقول إنه إنسان واحد فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخرى سواء كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم الشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه الشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكر والدام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فيها ذات فقال أدور في الأسفار لأصح حالتي في التوكل وقد كان من التوكلين فقال الحسين قد أنقيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فسكان الخواص كان في تصحيح اللقائم الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات للوحدين في التوحيد على سبيل الاجمال. فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه. فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيان التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والعقل بمثابة  
اللسان. وقد ورد في  
الحبر عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أنه  
قال « أول ما خلق  
الله العقل فقال له أقبل  
فأقبل ثم قال له أدبر  
فأدبر ثم قال له أقعد  
فأعد ثم قال له انطق  
فانطق ثم قال له اصمت  
فصمت فقال وعزني  
وجلالتي وعظمي  
وكبريائي وسلطاني  
وجبروتي ما خلقت  
خلقا أحب إلي منك  
ولا أكرم علي منك  
بك أعرف وبك  
أحمد وبك أطاع  
وبك آخذ وبك  
أعطى وإياك أعاتب  
ولك الثواب وعليك  
العقاب وما أكرمك

البتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر اللهم منه . وأما الثالث : فهو الذى يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذى يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذى لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لافاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقير إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الملتزم بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره ومساواه مسخرون لاستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا افتتحت لك أبواب للكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا آتيا من المشاهدة بالبصر وإنما يصدر الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسبيين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على الطرفى خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى القيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع القيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجاونا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن يتبين إلى المحرك الأول الذى لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لحز رقبة فكاتب الملك توقيا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فبرى نجاته من القلم لامن محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر للملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والقيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيسر عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأتاك في الهلكة الثانية وهى الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى السكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا ، نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو السخر له وعند هذا زل أقدام الأكبرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان . اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط المثلثة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو للسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصر بصيره عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء السكل فوقف في الطريق

بشيء أفضل من الصبر » وقال عليه السلام « لا يجيبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقده عقله » وسألت عائشة رضى الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت قلت « يا رسول الله بأي شيء يتفاضلون الناس ؟ قال بالعقل في الدنيا والآخرة قالت قلت أليس يحزى الناس بأعمالهم ؟ قال يا عائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجزون » وقال عليه السلام « إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته

لا تعدل جناح بهوضة  
وإن الرجل يأتي  
للسجد فيصلي وصلاته  
تعدل جبل أحد إذا  
كان أحسنهما عقلا  
فيل وكيف يكون  
أحسنهما عقلا ؟ قال  
أورعهما عن محارم  
الله وأحرصهما على  
أسباب الخير وإن  
كان دونه في العمل  
والتطوع . وقال :  
عليه الصلاة والسلام  
« إن الله تعالى قسم  
العقل بين عباده  
أشتاتا فان الرجلين  
يستوى علمهما  
وبرهما وصومهما  
وصلاتهما وليكنهما  
يتفاوتان في العقل  
كالقرد في جنب أحد »  
وروي عن وهب بن

علي الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في  
السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى معوا تقديسها وتسيبها الله تعالى وشهادتها على  
نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعتني  
به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهايم وإنما أريد  
به معما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فان قلت فهذا أعجوبة لا يقبلها  
العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت ووقدت وكيف شهدت  
على نفسها بالعجز . فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك  
كما لا ينحصر وله يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له قل لو كان البحر مدادا  
لكلمات ربي لنفد البحر - الآية ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لئلا يصدور  
الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوحى بخباياه فنادى بصره على ملا من  
الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم  
كثيرا (١) » بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء السر القدر (٢) . ولما  
قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا (٣) » ولما خص  
حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب  
أرباب للشاهدات ما نعان : أحدهما استحالة إفشاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية قولنا  
في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الأجمال كيفية ابتداء  
التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفها وأصواتها ولكن هي ضرورة  
التفهم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالجير  
مابال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال  
الكاغد ما أنصفتني في هذه المقالة فاني ماسودت وجهي بنفسى ولكن سل الجبر فانه كان مجموعا  
في الحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلاما وعدوانا فقال صدقت فسأل  
الجبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فاني كنت في الحبرة وادعا ساكننا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى  
على القلم بطمعه القامد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كاترى على ساحة  
يضاء فالسؤال عليه لاهل فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الجبر  
من أوطانه فقال سل اليد والأصابع فاني كنت قسبا نابتا على شط الأنهار متمزها بين خضرة الأشجار  
فجاءتني اليد بسكين ففتحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلى وفصلت بين أنا وبين  
ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الجبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشي على فقه رأسي  
ولقد ثرت للبح على جرحى بسؤالك وعتابك فتفتح عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سأل اليد  
عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم  
أوجسا يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبي فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي تردني

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث التهي عن إفشاء  
سر القدر ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفسدوا الله عز وجل سره لفظ  
أبي نعيم وقال ابن عدى لا تسكروا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف وقد تقدم (٣) حديث  
إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم  
في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

وتجول بي في نواحي الأرض أما ترى للدر والحجر والشجر لا يتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي اللوتى تساوين في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فاني مركب أزعجني من ركبتي فقال صدقت ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمرى وكيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبته وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني ميتة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أتحرك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا هو كل يسمى الإرادة ولا عرفه إلا باسمه وهجومه ووصاله إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خالني ورأيي فقال صدقت ثم سألت الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم يجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تنجل على فعلك لتاعذرا وأنت تلوم فاني ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بعثته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطراب فاني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكي أدري أنني في دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه فأنا ساكنة ولكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجز حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عنى عتابك فاني كما قال القائل :

مقى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاز الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فإفوخ ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقش في يياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند ذلك تتعج السائل ولم يقنع جواب وقال قد طال تعجى في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكني كنت أطيع نفسي بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في القواد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطني قلم فلست أفهمه فاني لأعلم قلما إلامن القصب والالوح إلامن الحديد والالحشب ولا خطا إلا بالحبر ولا سراجا إلا من النار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا أسمع جعجة ولا أرى طحنا فقال له القلم إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن للهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تتصرف وتندع ما أنت فيه فما هذا بعشك قادر على فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى القصد فألق صمك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد تجاوزت

منه أنه قال إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهية رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا فقال قوم : العقل من العلوم فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من

شرط ابتداء النظر  
تقدم كمال العقل فهم  
إذن من العلوم  
الضرورية وليس هو  
جميعها فان صاحب  
الحواس المختلة عاقل  
وقد عدم بعض  
مدارك العلوم  
الضرورية. وقال بعضهم  
العقل ليس من أقسام  
العلوم لأنه لو كان منها  
لوجب الحكم بأن  
الناهل عن ذكر  
الاستحالة والجواز  
لا يتصف بكونه عاقلا  
ونحن نرى العاقل في  
كثير من أوقاته ذاهلا  
وقالوا هذا العقل صفة  
يتبأ بها درك العلوم .  
وقل عن الحرث بن  
أسد المحاسبي وهو من  
أجل الشايع أنه قال

تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورأى فإذا جاوزتني انتهت إلى منزله وفيه المهامه  
وانفجح والخيال الشاهقة والبحار للفرقة ولا أدري كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو  
بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم  
وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر  
منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين  
الأرض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكن الأرض وثباتها وكل من يمشي  
على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان  
كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت  
من غير تنعنع فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة  
ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب  
وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه  
السلام «لوازداد يقينا لمشي على الهواء» (١) لما قيل له إنه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد  
تغيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيع قطع هذه  
المهامه التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه  
نحوي فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فان كل  
من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم  
في أول أمره كوشف بالقلم إذ نزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم -  
فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما إلا كذلك فقال  
العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه  
ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه  
سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان  
بخلاف غيره ولا يده ظم وعظم ودم بخلاف الأيدي ولا قلبه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه  
بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا جبره زاج وعقص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك  
إلا مختثا بين حقولة التنزيه وأثوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف  
نزعت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ونزعت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت  
تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله  
خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فيمكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا  
صرفا وإلا فلا تلعب بالثورة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فيمكن  
منزها صرفا ومقدسا فلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى  
فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودى به موسى - إني أنا ربك -  
فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه  
نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد  
يضى ولولم تسمه نار فلما فزع فيه العلم بمحدثه اشتعل زيتته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم  
الآن هذه الفرصة واقف بصرك لعلك تجد على النار هدى فتفتح بصره فانكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى يمشي على الماء قال لوازداد يقينا لمشي على الهواء تقدم .

فأذا هو كوصفه العلم في التزييه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عن خير إذا الآن ظهر لي صدق أنباءه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا كالأقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتبع به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابى مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فصل عن غائى القلب يمين الملك فاني في قبضته وهو الذى يردنى وأنما مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم آدمى في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن عين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسموات مطويات بيمينه - قال نعم قال والإقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذى يرددها فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شئ من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمن ويد لا كالأيدي وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عند القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى رأيتها في عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة إذ لا يد لا حكم لها فى نفسها وإعساحر كها القدرة لا محالة فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - فغشيت هبة الحضرة غر صغفا يضرب في غشيتها فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وأمنت بأنك للملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرصاك من سخطك ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأتبهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأتقن عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فإنا ناك نخفه ومناهك عنه فانتع عنه وما قاله لك قله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) » فقال إلهى إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فارجع إلى الصديق الأكبر فاقنديه فان أصحاب سيد الأنبياء كالجحوم بأبهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراكك فيك كيف نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها أقبلوا عذرى فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة فلما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبح عندي عذركم وانكشف لى أن للنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فمأتمت بالإسخرين تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الأول والآخرو الظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الأول والآخروها وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الأول بالإضافة إلى الوجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر

العقل غريزة يتبأ بها  
درك العلوم وعلى هذا  
يقرر ما ذكرناه في  
أول ذكر العقل : أنه  
لسان الروح لأن  
الروح من أمر الله  
وهى التحمة للأمانة  
التي أبت السموات  
والأرضون أن يحملنها  
ومنها يفيض نور  
العقل وفي نور العقل  
تشكل العلوم فالعقل  
لعلوم بمثابة الروح  
للكنوب وهو بصفته  
منكوس متطلع إلى  
النفس تارة ومنتصب  
مستقيم تارة فمن كان  
العقل فيه منكوسا  
إلى النفس فرقه في  
أجزاء الكون وعدم  
حسن الاعتدال  
بذلك وأخطأ طريق

(١) حديث سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقبين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في الشاهدة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العالمين في عالم الشهادة الطالبيين لا دراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل : أعني من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه انتهى على الإيمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجده فطريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فأنى لأهتدى إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا شق به فلعلنا نراه في المنام ، فان قال وأنا من جملتهم فأنى شاك أيضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود قبل الإزالة والتقية اشتغلوا بتقنيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك ولللكوت شهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان عالم الشهادة أيضا توحيدا إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حد عقله إله العالم واحد والدبر واحد إذ لو كان فيهما آلهة لإلا الله لفسدنا فيكون ذلك على ذوق مارآه في عالم الشهادة فيغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاورة . فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يصف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ومماثل الكاشفين والمعتقدين إلا كسجرة فرعون مع أصحاب السامري فان سجرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من بينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التغيير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلما نظروا إلى عجل السامري وصموا خواره تغيروا وصموا قوله - هذا إلهكم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتداء ومن اتصب  
العقل فيه واستقام  
تأيد العقل بالبصيرة  
التي هي لروح بمثابة  
القلب واهتدى إلى  
المكون ثم عرف  
المكون بالمكون  
مستوفيا أقسام المعرفة  
بالمكون والمكون  
فيكون هذا العقل  
عقل الهداية فكما  
أحب الله إقباله في أمر  
دله على إقباله عليه  
وما كرهه الله في أمر  
دله على الادبار عنه  
فلا يزال يتبع محاباة  
تعالى ويحتجب مساخته  
وكما استقام العقل  
وتأيد بالبصيرة كانت  
دلالتة على الرشد  
ونبيه عن التمي . قال  
بعضهم : العقل على

إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فذلك لا نجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت منذ كرت من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الانسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لو كان مع هذا إيشاء إن إراد أن يشاء ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لسكان هذا مزلقة القدم وموقع الغلط ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشاء أم لم يشأ فليست المشيئة إليه إذ لو كانت إليه لافقت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن للمشيئة إليه فهمما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للبعد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى التدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بحث للمشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا . فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان للتكلمين شرحا وجيزا يلبي بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به إلا علم العامة ، ولكني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالزئمة والخنجرة ويحرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطراب والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمى تنفسه فعلا إراديا ونسمى كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنهم ما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انحرق الهواء لا محالة فيكون الحرق بعد التخطي ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الخنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انحراق الماء إلى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانحراق بعده وليس الثقل إليه وكذلك الإرادة ليست إليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بارة طبق الأجفان اضطرابا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الأجفان اضطرابا فإفعل إرادى ولكنه إذا تمثل صورة الأبرة في مشاهدته بالاذراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، ويانه أن الإرادة تبغ للعلم الذى يحكم بأن الشئ موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد وإلى ما قد ترد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بارة أو بدتك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبثق الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتحصل حركة الأجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتبين أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل الفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية فكر فانبثقت الإرادة ههنا كما تنبثت لدفع السيف والسنان فإذا انبثقت لفعل ما ظهر للعقل

ضربين ضرب يصير به أمر دنياه وضرب يصير به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح والعقل الثانى من نور الهداية فالعقل الأول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثانى موجود في اللوحدين مفقود من الشركيين . وقيل إنما سمى العقل عقلا لأن الجمل ظلة فاذا غلب النور بصره في تلك الظلة زالت الظلة فأبصر فصار عقلا للجهل ، وقيل عقل الإيمان مسكنه في القلب ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد والذى ذكرناه من كون العقل لسان



أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى مظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البدئية وهذا اقتصر إلى الروبة فلاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل محتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لالعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لقد الإرادة الداعية للشخصية للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبث بحكم العقل أو الحس يكون الفعل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردده بين شر الشرين فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فأما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكل ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فاذن هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنهم كانوا فائلاً واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحييز وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من للتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله تعالى وإن آيات ذلك فاما معنى ترتيب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حواله جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض القديرات مترتب على البعض في الحدوث ترتيباً للشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكلاهما يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق والإفلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والالتزم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضع وهذا العقل هو العقل للستوى بنور الشرع لأن انتصابه واعتداله هداية إلى الاستقامة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل والتي

لا عين . م خافناها إلا بالحق - فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كالحادث وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخراً إلا لا تتطابق شروطها والشروط قبل الشرط محال والحال لا يوصف بكونه مقدوراً فلا يتأخر العلم عن النطقة إلا لفقد شرط الحياة ولا تأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتديروهم ذلك عسير ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلاً لا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن تقدر إنساناً محدثاً قد انغمس في الماء إلى رقبته فالحادث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرفع وهو ملاقيه فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحادث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحادث فربما يظن الجاهل أن الحادث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبها إذ يقول كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحادث عن اليدين عند غسل الوجه، فاذن غسل الوجه هو الرفع للحادث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحادث عن الوجه ارتفع الحادث عن اليد بالماء للالاق لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر نعالج من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم تقدر على أن تذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فان كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول بين فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجمل مردداً بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخرع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلول بالعلل وارتبطت بالمتحرف بالمتحرف وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلاً كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً لأن القتل ارتباط بقدرة لها ولكن على وجهين مختلفين فلهذا سمى فعلهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بينهما مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل يتوفاكم ملك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها - وقال تعالى - أفرايتم ما تحرثون - أضاف إليهم قال تعالى - أنا صبينا الماء صبائهم شققنا الأرض شققاً فنبثنا فيها حبا وعنباً - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم البهار وحنافتم لها بشراسوا - ثم قال تعالى - فنفضنا فيها من روحنا وكان النافخ جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التي يفقد البحر دون نقادها والعقل ترجمان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطراً كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الاستئناء بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي من الملك والمملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والمملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فإذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى - قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه البيان - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - أفرايتم ما تدعون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام «إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك (١)» وفي لفظ آخر «ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة» . وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يوجع الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصايرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الحي والميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين في الخبر «أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحى الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا للميت والحي لا يميت ولا يحيى سواي (٢)» فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة «خذها لولم تأتها لأنتك (٣)» أضاف الاتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال التائب أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم «عرف الحق لأهله (٤)»

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا الحديث البراء وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فممن شيء إلا هو يخلق منه في الرحم وفي سنده جهالة وقال ابن عدى إنه منكره وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحى الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لولم تأتها لأنتك ابن خبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجال الصريح (٤) حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والعقول دون الجامدين  
على مجرد العقول دون  
البصائر وقد قال بعضهم  
إن العقل عقلان عقل  
للهداية مسكنه في القلب  
وذلك للمؤمنين للمؤمنين  
ومتعمله في الصدرين  
عيني الفؤاد والعقل  
الآخر مسكنه في السماغ  
ومتعمله في الصدرين  
عيني الفؤاد فبالأول  
يدبر أمر الآخرة ،  
وبالثاني يدبر أمر  
الدنيا والذي ذكرناه  
أنه عقل واحد إذا  
تأيد بالبصيرة دبر  
الأمرين وإذا تفرد  
دبر أمرا واحدا وهو  
أوضح وأبين ، وقد  
ذكرنا في أول الباب  
من تديره للنفس  
المطمئنة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو للتجوز والاستعير في كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجهها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فهما فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبته إلى الجلال فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعه أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تتجاوز به عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة اللغوي على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: \* ألا كل شيء ما خلا الله باطل \*» (١) أي كل ما لا قوام له بنفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لا حق بالحقيقة إلا الحق القيوم الذي ليس له مثله شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر فثم معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على نعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق للكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتمده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كله على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تختمه شوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار اللسكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرم أمرهم أن يدبروا لللك ولللكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيا دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولأن ينقص منها جناح بعوضة ولأن يرفع منها ذرة ولأن ينقص منها ذرة ولأن يدفع مرض أوعيب أو نقص أو ضرر عمن يلى به ولأن يزال صحة أو كمال أو غنى أو وقع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي والقدر الذي ينبغي وليس في الامكان أصلا أحسن منه ولا أنم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولولم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالهية بل كل قدر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تيم الأوصاء بالصحة ولولا النار

ما يتنبه الانسان به إلى كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله للملهم للصواب .

[ الباب السابع ]  
والحمسون في معرفة الخواطر وتفصيلها وتميزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أخبرنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياق قال أنا أبو محمد الجراحي قال - أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد: \* ألا كل شيء ما خلا الله باطل \* متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكان فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تصديق الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل التيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خالق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره للكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه المرامز من علوم للكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولنرجع إلى علم العاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعين وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع المضار وبيان التوكل في إزالة الضرر بالداوى وغيره والله الموفق برحمته .

#### بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل عمرته وقد أكثر الخائفون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى للوكول إليه وكلا ويسمى للفوض إليه متوكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمانت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتقاد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكّل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلا وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستجى ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف الضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الانصاح عن كل ما استجراً القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تنفى دون العناية به إذا كان لا يهيم أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه لمطمئن نفسه إلى وكيله بل يبقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذر من قصور

رضي الله عنه قال قال  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم «إن للشيطان لمة  
بأن آدم والملك لمة  
فألمة الشيطان فأبعاد  
بالشر وتكذيب بالحق  
وألمة للملك فأبعاد  
بالخير وتصديق بالحق  
فمن وجد ذلك فليعلم  
أنه من الله فليحمد الله  
ومن وجد الأخرى  
فليتعوذ بالله من  
الشيطان ثم قرأ  
الشيطان بعدكم الفقر  
ويأمركم بالفحشاء - »  
وإنما يتطلع إلى معرفة  
المتين وتميز الخواطر  
طالب مرديتشوف إلى  
ذلك تشوق العطشان  
إلى الماء لما يعلم من  
وقع ذلك وخطره  
وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوت لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوت لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدالوك وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقواهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيبه أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأهواء الغالبة عليه فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً فتشبه بين يديه بالعنبرة ربما نفرطبعه وتغدر عليه تناوله ولو كلف العاقل أن يبيت مع الليث في قبر أو فراش أو بيت نفرطبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جمد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحيه وإن كان قادراً عليه كما أنها مطردة بأن لا قلب القلم الذي في يده حية ولا قلب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الليث في فراش أو ليث معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يغلو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الليث بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس للطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب اللل والذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني لا يقين لهم أصلاً وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذا جبن والجراءة غرأز ولا ينفع اليقين معناه في أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كما أن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة لمعون من ثقته إنسان مثله وقد قال ﷺ «من استعز بالعبيد أذله الله تعالى (١)» وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكل فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

(١) حديث من اعتر بالعبيد أذله الله العقبلى في الضمفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر أورده العقبلى في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن جبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالخطوة بصفو اليقين ومنح للوقنين وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخفى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

الدرجة الأولى : مادكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكلماته وعنايته كحالته في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلعها وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يأمنه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فأنها مفرغه فأنه قد وثق بكلماتها وكفائتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوبل بتفصيل هذه الحصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا لم يتوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لتغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والسكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشعور به وذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الليث بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا يخرج كمال القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذي قوى يقينه بأنه يجري للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون باثنا عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فان الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعود خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تفتاحه ونسقيه وهذا اللقائم في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فكمن نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق واللقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت فهذه الأحوال هل تصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر واللقام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون للقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجه فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجه عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تمتحى عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فإن البشرة ستر رقيق تراءى من وراءه حمرة الدم وانقباضه بوجوب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالسكينة عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما اللقائم الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوما ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فإن قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن اللقائم الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالميت واللقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والانهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط واللقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا لتوكله عليه إذ ليس هو فزعاً عنه

عصيت الله وهذا حال  
عبد استقام قلبه  
واستقامة القلب  
لطمانينة النفس وفي  
طمأنينة النفس يأمن  
الشیطان لأن النفس  
كلما تحركت كدرت  
صفو القلب وإذا  
تكدر طمع الشيطان  
وقرب منه لأن صفاء  
القلب محفوف بالذكر  
والرعاية ولذا ذكر نور  
يتقيه الشيطان كاتقاء  
أحدنا النار . وقد  
ورد في الخبر «إن  
الشیطان جاثم على  
قلب ابن آدم فإذا  
ذكر الله تعالى تولى  
وخنس وإذا غفل  
التقم قلبه فحدثه ومناه»  
وقال الله تعالى «وس  
يش عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضى ق قوله وأما المعلوم من عادته واطرادسته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحتاج الخصم إلا من السجل قيام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون معولا على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاطبته فاذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولو ترك شيئاً من ذلك كان قصفاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه ، نعم بعد أن حضروا فاء بأشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظراً إلى حاجته فقد انتهى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يتيق كالموت المنتظر لا يفرغ إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعاً إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بأشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على التقسام وسيأتى تفصيله في الأعمال فإذا فزع للتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه لا يفتقر إلى لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى فاذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله معتمداً لمحتاجته وعرفه بذلك بأشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإتمامه صدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لمسيخاقه من بعدهما من القوائد والمقاصد فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقا فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله (١) وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بفهم لفظها وهيئات فأنما ذلك جزء على هذه الشهادة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولين فكذا ذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر أطلق قيدا بالقشرين وما طرقتوا إلى اللين وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة» (٢) وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاخلص أراد بالمطلق هذا اللقيد كما أضاف للجنة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع وللرأى به اللقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحدوث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث قس وإنما الصدق والاخلص ورأىهما ولا ينصب سرير الملك إلا للقريين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك أماترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القريين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الرحمن قيس له  
شيطانا فهو له قرين -  
وقال الله تعالى - إن  
الذين اتقوا إذا مسهم  
طائف من الشيطان  
تذكروا فإذا هم  
مبصرون - فالتقوى  
وجود خالص الذكر  
وبها يفتح باب ولا  
يزال العبد يتقى حتى  
يحمى الجوارح من  
اللكاره ثم يحميها من  
الفضول وما لا ينيبه  
قصير أقواله وأفعاله  
ضرورة ثم تنتقل  
تقواه إلى باطنه ويظهر  
الباطن ويقيه عن  
اللكاره ثم من الفضول  
حتى يتقى حديث النفس  
قال سهل بن عبد الله  
أسوأ للعاصي حديث  
النفس ويرى الإصغاء



سرر موضونة متكئين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر اللاء والظلم والقوا كدوا الأشجار والخور العين وكل ذلك من لذات المنظور والشروب والآن كولد والنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لها وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة للملائكة أفتري أن أحوال البهائم وهي مسبية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف لنا كولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى وأندواشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى السكال مغبوظة من أحوال للملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيئات هيئات ما بعد عن التحصيل من إذاخير بين أن يكون حمار أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأسماك كفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهو بالأسماك كفة أشبه في جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات للملائكة فهو بالبهايم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة للملائكة فتركها الطالب للعجز ، وأما الإنسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل السكال أخرى بالنم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكال. وإذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائل بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل . فان قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله فلو قال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول . لا لأن الثواب على قدر درجة الثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوز أفليست الأمور بمظم الأشخاص بل كل عاى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة آدميين بل هما من خلق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرها على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمقول حتى يشق الشعر بمحدة نظره فهي مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذا العقبة بتوفيق الله تعالى إياه قد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان. إحداها: النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات. والثانية: النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها ويقطعها كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجحها فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيبضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيء منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الدبلى قلت لأبي يزيد ما التوكل؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن عينك وبسارك ما تحرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتسعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تميز بين أهل النار

إلى ما تحدث به النفس  
ذبا فيتقيه ويتقصد  
القلب عند هذا الانقاء  
بالذكر انقاد الكواكب  
في كبد السماء ويصير  
القلب سماء محفوظا بزينه  
كواكب الله كذا فاذ  
صار كذلك بسد  
الشیطان ومثل هذا  
العبد يندر في حقه  
الخواطر الشيطانية  
ولماته ويكون له  
خواطر النفس ويحتاج  
الى أن يتقيها ويميزها  
بالعلم لأن منها خواطر  
لا يضر إمضاؤها  
كطالبات النفس  
بمخاطباتها وحاجاتها  
تقسم إلى الحقوق  
والحظوظ ويتمين  
التمييز عند ذلك واتهام  
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر وأبو يزيد قلمتكم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في اللقائ الأول من التوكل فقد احتراز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سد منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لافي حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغيير لأمر يرجع إلى نفسه وللنظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فإن احتراز لم يكن اتكاله على تديره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذواتون للصري عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب غلغ الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه قليل له زدنا فقال إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دائق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عتقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن ترك لها وفاء لاتبأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة وأن في القدرات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولي لذلك فالأول عام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قاله جبريل عليه السلام أنك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخزاز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه واجتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعده والسلم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلان طول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا ما يتعلق بحال التوكل والله الموفق برحمته وإطفاه .

#### بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم برب الحلال والحال يشمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضوء وهذا ظن الجاهل فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أنهى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل تكشف الغطاء عنه وتقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضرر لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضرر قد نزل به

(١) حديث إن أبا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

الحظوظ قال الله تعالى  
- يا أيها الذين آمنوا  
إن جاءكم فاسق بنبأ  
فثبتوا - أي فثبتوا  
وسبب نزول الآية  
الوليد بن عقبة حيث  
بشه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم إلى بني  
المصطلق فكذب عليهم  
ونفسهم إلى الكفر  
والعصيان حتى هم  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بقتالهم ثم  
بعث خالداً إليهم فسمع  
أذان المغرب والعشاء  
ورأى ما يدل على  
كذب الوليد بن عقبة  
فأنزل الله تعالى الآية  
في ذلك فظاهر الآية  
وسبب نزولها ظاهر  
وصار ذلك تنبيهاً من  
الله عباده على التثبت

كالتداوى من المرض فمقصود حركات العبد لاتعدو هذه القنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

[ الفن الأول : في جلب النافع ] فنقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه . الدرجة الأولى : للقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت للسبب بها بتقدير الله ومشيتته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعى ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وإبتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فأنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيئا دون الخبز أو يخلق في الخبز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تله زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال . فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاملئ اليد والطعام وكيف تعتمد على محبة يدك وربما تجحف في الحال وتفلج ، وكيف تعمل على قدرتك وربما بطراً عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزحجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرج وعليه فلتعمل فإذا كان هذا حاله وعلمه فليعد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن السببيات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطررها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاملئ الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت : فهذا سعى في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق من الأشياء الحسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو يتسنى إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لا تفرقه الإبرة واللقراض والحبل والركوة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر غير دلو ولا جمل ولا ينضب وجود الحبل والدلو في البوادي كما ينضب وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في هذه الآية القاسق الكذاب والكذب صفة النفس لأنها تملى أشياء وتسول أشياء حتى غير حقائقها فتعين الثبوت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب الثبوت ولا يستغفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إزلال الخاطر بحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد للقراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الحياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه فيبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لاء ولا حشيش ولا يطرقة طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كإروى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لأسمأل أحد أسيثا حتى يأتي ربي برزقي فبعد سبعا فكاد يموت ولم يأتيه رزق فقال يارب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزني لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتعددين الناس فدخل للصر وقد فجاء هذا بطعام وهذا شراب فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي زهدك في الدنيا أما علمت أنني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي فاذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب . فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البداية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا يترقب لأحد إليه فعله ذلك حرام وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت فند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا وقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لا رازق ولا ميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال» (١) وقال عيسى عليه السلام : انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم . فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الحق للرزق . وقال أبو يعقوب السوسى للتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم المبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فانه إذا أتى بهذا الأدب يفاث ويعان ويتبين له هل الخطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان للحق أمضاء وإن كان للحظ نفاء وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخطر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسه في صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ بصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من اللغو ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويعصى خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدمنا قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لوعرقم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب الليثي مرسلًا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع .

بذل كالسؤال وبعضهم تعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعزك الصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوسطة . الدرجة الثالثة : ملازمة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى للسبب من غير تمة ظاهرة كالذي يستصفي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والانتكال على الأسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضار فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في السبب مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجبهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهمي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج عن التوكل ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الانتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملازمة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرته وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو شئته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا فذلك يمكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده . للقام الثاني : أن يبعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار وهذا أضف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن ذلك من الأسباب الجالية إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخر له سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى سكان البلد إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم . للقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعي لا يخرج عنه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك للوقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يعمل وبهم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو لغيره على السالكين فهو يبدنه مكتسب وقلبه عنه منقطع فقال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا يتنافى مع التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح أخذًا الأبواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أتمت خلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لعبد مأذون له في السعة عالم بالأذن فيمضي خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته وتقصاته عالم بحاله يحكم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص لعبد خاص وإذا كان شأن العبد تميز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمسات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الأربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادّخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارتق السوق كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ولا أبيت منه دافقاً ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرة وكان يقول أستحي أن أنسلكم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجالوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمد إليهم فهذا أقوى في توكلهم ولكنه بعد اشتهار القوم بذلك قد صار لهم سوقاً فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت فما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى فالعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشرف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئاً فضلاً عما كان استأجره عليه فردّه فلما ولي قال له أحمد الحق وأعطه فانه يقبل فلقحه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج اقتطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئاً . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الحضر ورضى بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون قصا في توكلتي فاذن للكاتب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلاً . فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو تعوق أمر من أموره كان راضياً به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقده شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون ديناراً يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الدين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسروقت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض ومن ضائق النفس على التميز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرا له دخول الإبتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقرّين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سماوا يترقى ويرجع بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تضاعف النفس للطمئة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

بعروج باطنه كما كان  
ذلك لرسول الله صلى  
الله عليه وسلم بظاهرة  
وقلبه فإذا استكمل  
العروج تنقطع عنه  
خواطر النفس لتستره  
بأنوار القرب وبعد  
النفس عنه وعند ذلك  
تنقطع عنه خواطر  
الحق أيضاً لأن الخاطر  
رسول والرسالة إلى من  
بعد وهذا قريب وهذا  
الذي وصفناه نازل  
ينزل به ولا يدوم بل  
يعود في هبوطه إلى  
منازل مطالبات النفس  
وخواطره فتعود إليه  
خواطر الحق وخواطر  
الملك وذلك أن الخواطر  
تستدعي وجوداً وما  
أشرنا إليه حال الفناء  
ولا خاطر فيه وخطر

أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه فإن أهلك بضاعته فهو خير له فله لو تركه كان سبباً لفساد دينه  
وقد لطف الله تعالى به وفاقته أن يموت جوعاً فينبغي أن يعتد أن اللوت جوعاً خيراً له في الآخرة مهما  
قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فإذا اعتد جميع ذلك استوى عنده وجود  
البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه  
هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كشيء حزيناً ينطير بجاره وابن عمه  
من سبقني من دهاني وماهي إلا رحمة رحمه الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا بألي أصبحت  
غنياً أوقيراً فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل  
ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل  
البارك فاني ما شئمت منه راحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من اللقائات للممكنة ولكنه  
قال ما أدركته ولعله أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الايمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن  
كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتعمده العبد لم يكمل حال التوكل  
فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال  
تتبنى على أصولها من الايمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين  
ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد  
طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب  
الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تفسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن  
تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء  
والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً - فان الانسان بطبعه مشغوف بسعائمه يخوف الشيطان ولذلك قيل  
الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة التكاليف على الأسباب  
الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب  
الخفية أيضاً تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام  
لوا كتبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد  
قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا  
لولم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك إذ فضلت  
وعند يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المسلمين من أين تأكل؟ فقال يا شيخ  
اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل  
الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول  
الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعاً كما روى  
عن حذيفة الرعشى وقد كان خدم إبراهيم بن آدم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في  
طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم وقال  
يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فحُثت به إليه فكتب :  
بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعراً :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة بما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله  
إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف  
جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائح أنا ضائع أنا عارى  
هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكُن الضمين لنصفها يا بارى  
مدحى لغيرك لطلب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقيني كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو في المسجد الفلاني فدفع إلى صرة فيها ستائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن ركب البغلة فقال هذا نصراني فحُثت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجيى الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جئت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثني نفسى بالخروج فخرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئا يسكن ضعفى فرأيت ساجمة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة وكأن قائلا يقول لى جئت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت للمسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتنى بها قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فندرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيت فقلت اقتحها ففتحها فاذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كهاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ثم قلت في نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى : وقال عمشاد الدينوى : كان على دين فاشتغل قلبي بسببه فرأيت في النوم كأن قائلا يقول يا بخيل أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا تصابا ولا غيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت في طريق مكة أجيى من مصر ومعى زاد فبجأتى امرأة وقالت لى يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم أكل فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في نفسى أحمله حتى يجيى صاحبه فربما يعطينى شيئا فأرده عليه فاذا أنا بتلك المرأة فقالت لى أنت تاجر تقول عسى يجيى صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت ألقها فاكفيت بها إلى قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له منها وقالوا هو ذا يجيى النغير فنشترى ما يوافق فلما ورد النغير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألقوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند فحملت إلى بنان وذكرته له القصة ، وقيل كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتى فاقة فرأيت للرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسى أتى سكنت وانسكنت على غيره وآليت أن لأدخل للرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا يا أهل الرحلة إن لله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية . وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فاذا هو بقائل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيخنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتسنى لمكان  
القرب وخطر النفس  
بعد عنه لبعد النفس  
وخطر الملك تخلف عنه  
كتخلف جبريل في ليلة  
للعراج عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
حيث قال . لودنوت  
أئمة لا حترقت . قال  
محمد بن على الترمذى  
المحدث والمكلم إذا  
تحققا في درجتهم لم يخافا  
من حديث النفس  
فكما أن النبوة  
محفوظة من إلقاء  
الشیطان كذلك عمل  
المكلمة والمحادثة  
محفوظ من إلقاء النفس  
وفتنها ومخروس بالحق  
والسكينة لأن السكينة  
حجاب المكلم والمحدث  
مع نفسه . وصححت



واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني فقال إني قرأت القرآن فأعنائني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما الذي وجدت فيه فقال وجدت فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون - فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الحراساني حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر جلان فقال أحدهم للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لكي لا يقع فيه أحد فأتوا بهصب وبارية وطموارأس البئر فهممت أن أصبح فقلت في نفسي إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فبينما أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلقني في هممة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فرّ وهتف بي هاتفي يا أحمزة أليس هذا أحسن نجيتك من التلف بالتلف فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى وأغيتني بالهمم منك عن الكشف  
تلفت في أمرى فأبدت شاهدي إلى غائي واللطف يدرك باللطف  
تراويت لي بالغيث حتى كآئما تبشرني بالغيث أنك في الكف  
أراك وبني من هيت لك وحشة فتؤنسني باللطف منك وباللطف  
وتحيي محبا أنت في الحب حشفه وذا عجب كون الحياة مع الخنف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوى الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه ، تم التوكل بهذه الأحوال وللشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

#### بيان توكل للعيل

اعلم أن من له عيال فكيف يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الإيمان ذكرناها من جعلتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأت رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان قصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو للرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فبهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الإيمان فاذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل للكسب وهو للقيام الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكل في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكل في حقهم فهذا خرام وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة على الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روى أن أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو علي الروذباري إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فأزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبا محمد بن  
عبد الله البصري  
بالصرة يقول الخواطر  
أربعة : خاطر من  
النفس وخطر من  
الحق وخطر من  
الشیطان وخطر من  
الملك فأما الذي من  
النفس فيحس به من  
أرض القلب والذي  
من الحق من فوق  
القلب والذي من الملك  
عن يمين القلب والذي  
من الشيطان عن يسار  
القلب والذي ذكره  
إنما يصح لعباد أذاب  
نفسه بالقوى والزهد  
وتصفى وجوده واستقام  
ظاهره وباطنه  
فيكون قلبه كالمرآة  
المجولة لا يأتيه  
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بأساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنهى إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتسكن به شامت أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يعض به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى الضغ ولأنه لرخواة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواجه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسره لأسباب التعلم وسلاسل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما قصت أسباب معيشته يبلوغه بل زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان للشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم والأب وكانت شفقتهم مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة واللودة والرفقة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان للشفق عليه واحدا والآن للشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ولو رأوه يتما لسقط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في سنى الحصب يقيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان للشفق واحدا وللشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعف فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكيف من يقيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبتك التتم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جربى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون  
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فان قلت الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثلنا فليجته لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فان التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطل والتوكل وإن كان مشغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويصبره فإذا اسود القلب وعلاه الرين لا يصبر الشيطان . روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فان هو نزع واستغفر وتاب صقل وإن عاد زيد فيه حتى تملأ قلبه قال الله تعالى - كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - » سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال الحديث في باطن الانسان والخيال الذي تراه لباطنه وتخيّل بين القلب وصفاء الله كـ

هو من القلب وليس  
هو من النفس وهذا  
بخلاف ما تقرر فسأته  
عن ذلك فذكر أن  
بين القلب والنفس  
مناخاة ومخادئات  
وتألفا وتوددا وكلا  
انطلقت النفس في شيء  
بها من القول  
والفعل تأثر القلب  
بذلك وتكدر فإذا  
عاد العبد من مواطن  
مطالبات النفس  
وأقبل على ذكره  
ومحل مناجاته وخدمته  
له تعالى أقبل القلب  
بالمعابة للنفس  
وذكر النفس شيئا  
من فعلها وقولها  
كاللأم للنفس والمعابة  
لها على ذلك فإذا كان  
الخاطر أول الفعل

في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يخلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين  
الناس وما روى إلى الآن عالم أوعا به استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعا ولا يرى قط  
بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد ر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن  
اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله  
تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمديروا اشتغل  
به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم مديرة تدبيره يصل إلى المشتغل به الخلو والطيور  
السمان والثياب الرقيقة والحيل الفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن  
دبره تديرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناول له لا محالة  
والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا الرغبة  
النفس في التمتع على الدوام وليس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق  
الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل  
نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من اقتنحت بصيرته  
فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تديرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه  
وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فإذا انكشفت هذه الأمور وكان  
معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة  
في عيالي وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت  
برزقي لظننت أنني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن  
الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإيمانه أنكره عن جهل فإياك أن  
تجمع بين الإفلاسين الإفلاس عن وجود اللقاه ذوقا والإفلاس عن الإيمان بعلماء ، فاذن عليك بالفتنة  
بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يعث إليك  
رزقك على يدي من لا تحتسب فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى  
- ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه  
لحم الطير ولذات الأطعمة فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا للضمون مبذول لكل  
من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فان الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم  
مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض  
وسيه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما تعدون - وأسرار السماء لا يطلع عليها  
ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو  
فاطلبوه قالوا نسأل الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه فقالوا ندخل البيت ونوكل وننظر  
ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى  
الحراز كنت في البادية فتألى جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا  
من أفعال التوكلين فطالبته أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نضيع من أنانا

ويسألنا على الاقتار جهدا فكأننا لا نراه ولا يرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله  
تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتقا بالله عز وجل فان أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من

ليس مطمئناً فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد بتحقيق ما يبرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب بل بسبب الأسباب كالاتكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم والحركة الأولى واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلازاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه أضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فإن اشتغاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق يسيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للعطى على نيل الثواب ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحق الرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافة علموا أن الرازق غيرهم ولما تهمة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلك من جملهم البهائم

( بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال )

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في يدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا ورغيفا ويحتدوا في أن لا ينفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب اليدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعة ما معلوم عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فاني أختصه بخلة سنة في العباد للذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلة له ومن أخطأ غلمانى فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قتلا ليه أوصل إلى رغيفا فاني غدا أستوزره وأفرض ملكي إليه فاقسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فأذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في العباد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لقلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلة وقسم قالوا إنا نجلس بمراى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نموز بالخلة ففازوا بالخلة وقسم رابع اختلفوا في زوايا اليدان وانحرفوا عن مراى أعين الغلمان وقالوا إن اتبعونا وأعطينا رغيفا واحدا وإن

ومفتحه فمعرفة من  
أهم شأن العبد لأن  
الأفعال من الخواطر  
تنشأ حتى ذهب بعض  
العلماء إلى أن العلم  
الافتراض طلبه يقول  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « طلب  
العلم فريضة على  
كل مسلم » هو علم  
الخواطر قال لأنها أول  
الفعل وبفسادها فساد  
الفعل وهذا لعمري  
لا يتوجه لأن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
أوجب ذلك على كل  
مسلم وليس كل المسلمين  
عندهم من القرينة  
والعرفة ما يعرفون به  
ذلك ولكن يعلم  
الطالب أن الخواطر  
بنشأة البذر فمنها ما هو

أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا تقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما تفهم ذلك إذ اتبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد غيافا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى انفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليقنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعاما فلنسنا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والليدان هو الحياة في الدنيا وباب الليدان اللوت والعباد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وللتعلق بالغلمان هو المعتدى في الأسباب والغلمان للسحرون هم الأسباب والجالس في ظاهر الليدان يرى الغلمان هم القيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والخفقون في الروايا هم السامعون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تنعمهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الدور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعاقب بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتبارهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد وله كان كذلك في الأعصار السالفة وأما الآن فالناركة للأسباب لا يتهى إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل كل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية للقبالة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والتملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من اللقائم المحمود للوعد في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجوز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلامعنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالمتمتع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فمادونه من الساعات وأقصاء ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود بمن يؤمل سنة وتقيد بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ملخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى ليل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا» (١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ما وراء

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بذر السعادة ومنها  
ما هو بذر الشقاوة .  
وسبب . اشتباه  
الحوادث أحد أربعة  
أشياء لا خامس لها إما  
ضعف اليقين أو قلة العلم  
بمعرفة صفات النفس  
وأخلاقها أو متابعة  
الهوى بختم قواعد  
التقوى أو محبة الدنيا  
جاهها ومالها وطلب  
الرفعة والثروة عند  
الناس فمن عصم  
عن هذه الأربعة  
يفرق بين لمة للملك  
ولمة الشيطان ومن  
ابتلى بها لا يعلمها  
ولا يطلبها وانكشف  
بعض الحواطر دون  
البعض لوجود بعض  
هذه الأربعة دون  
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فان أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن آخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أملة ومن كان أملة شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو بينهما في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقدرى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامه أن يغسله فغسله وكفناه بيردته فلما دفعه قال لأصحابه « إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية . قلنا وما هي يا رسول الله ؟ قال كان صوامقا وما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أو تقيم اليقين وعزيمة الصبر <sup>(١)</sup> الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فان ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا يزعم قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فان كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخله واقيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينا غير محذورة لوجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا المزارع لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كأن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، فأما الليل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكين قلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالتوكل عبارة عن موخدقوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة <sup>(٢)</sup> ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لقد <sup>(٣)</sup> ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخارها ليفطر عليها فقال <sup>(٤)</sup> « أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا » <sup>(٥)</sup>

ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جدا وهو باطل <sup>(١)</sup> حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه بيردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أو تقيم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا . <sup>(٢)</sup> حديث ادخر لعياله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة <sup>(٣)</sup> حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لقد تقدم نهى أم أيمن وغيرها <sup>(٤)</sup> حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

بتميز الخواطر وأقومهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة للنال لا تكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى . واثق للشايع على أن من كان أكمله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وقال أبو طي الدقاق من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعباده من سبق إليه في الأخذ منه والتقوى به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تميز الخواطر إنما ذلك

يقال في حق من دخل  
في معلوم باختيار منه  
ويثار لأنه ينحجب  
لموضع اختياره والذي  
أشرفنا إليه منسلخ  
من إرادته فلا يحجب  
للمسلم وفرقوا بين  
هواجس النفس  
ووسوسة الشيطان  
وقالوا إن النفس  
تطالب وتلح فلا تزال  
كذلك حتى تصل  
إلى مرادها والشيطان  
إذا دعا إلى زلة ولم  
يجب يوسوس بأخرى  
إذا لا غرض له في  
تخصيص بل مراده  
الاغواء كيفما أمكنه  
وتكلم الشيوخ في  
الخاطرين إذا كانا من  
الحق أيهما يتبع قال  
الجنيد الخاطر الأول

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تنجأ » (١) « اقتداء بسيد للتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لعل لأبلغه » (٢) وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذا كان لا يتق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلقاً للأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة لا تضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٣) « تطيبوا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون لليسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي فمأجده كفن فقال عليه السلام فقتلوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان » (٤) وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا محتمل وجهين لأن حاله محتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى - تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلييس . والثاني أن لا يكون ذلك عن تلييس فيكون المعنى به التقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون عن تلييس فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدرة من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن الدُّخْر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن بشر قال الحسين الغزالي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أصغر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيت قام لأحد غيره قال ودفع إلي كفاً من دراهم وقال اشتري من أطيب ما تقدّر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال جئت بالطعام فوضعت فأكمل معه وما رأيت أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فأخذ الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف فجيبت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح للوصلي زارنا اليوم من الموصل فأنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر مع الادخار [ الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف ] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكالنوم في الأرض المسببة أوفى مجارى السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، فم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السك والرقية

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تنجأ الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة . حديث القى الله فقيراً [ ١ ] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال ويتيم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لأبلغه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمرو وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[ ١ ] قول العراقي حديث القى الله فقيراً الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فلمله بنسخته تأمل .

ينهى النفس وبنور  
الاسلام يرد على العدو  
ومن قصر عن درك  
حقائق الزهد وتطلع  
إلى تميز الخواطر يزن  
الخطر أولا يميزان  
الشرع فما كان من  
ذلك تفلأوفر ضاعية  
وما كان من ذلك محرما  
أو مكروها ينبغي فان  
استوى الخاطر ان في  
نظر العلم نفذ أقربهما  
إلى مخالفة هوى  
النفس فان النفس قد  
يكون لها هوى كما من  
في أحدهما والغالب من  
شأن النفس الاعوجاج  
والركون إلى الدون  
وقد يلم الخاطر بنشاط  
النفس والعبد يظن أنه  
بهوض القلب وقد  
يكون من القلب تفاق

أو يغلب فلا يتشكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب كاضر بنا للثل في الوكيل في الحوصمة  
فانه إن حضر وأحضر السجل فلا يتشكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو  
أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على ما في البيت من  
يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فاني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة  
فستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزقي غيري وكيفما قضيت فأنا راض  
به وما أغلقت الباب تحصنا من قضاائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب فلا  
ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل  
بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده  
نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجد بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه فان وجده راضيا وأفرح بذلك  
علما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة قد صبح مقامه في التوكل وظهر له صدقه.  
وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر قد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد  
الزهد ولا يصح الزهد إلا لمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس  
منه فكيف يصح له التوكل، نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في  
الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى قلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب  
بيده قد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع اللقائم وكذبه في  
جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحيل غرورها فانها  
خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير. فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول للتوكل  
لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا  
يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات العيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو بمسكه ليجد  
محتاجا فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطالا لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج  
السكر الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في الماء كونه وفي كل مال زائد على قدر  
الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء للتوكلين في زوايا الساجد وما جرت السنة بتفرقة  
السكران والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل  
ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الجبل والركوة والقرص والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى  
جارية بالفرق بين الأمرين. فان قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه  
ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي حاجته  
إليه فكيف لا تأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين  
به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى  
ولما أعطاه إياه فاستبدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين  
له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يتلى بقدره ذلك  
حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط  
اللعن تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة  
كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني قبيل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه  
الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرجه بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرهما مسبب الأسباب  
عتاية وتلطفا وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى عما يفعله فان قدم إليه النداء فرح وقال لولا أنه



ينهى النفس وبنور  
الاسلام يرد على العدو  
ومن قصر عن درك  
حقائق الزهد وتطلع  
إلى تميز الخواطر يزن  
الخطر أولا يميزان  
الشرع فما كان من  
ذلك قفلاً أو فريضة  
وما كان من ذلك محرماً  
أو مكروهاً ينبغي أن  
استوى الخاطران في  
نظر العلم نفذ أقربهما  
إلى مخالفة هوى  
النفس فان النفس قد  
يكون لها هوى كما من  
في أحدهما والغالب من  
شأن النفس الاعوجاج  
والركون إلى الدون  
وقد يلم الخاطر بنشاط  
النفس والعبد يظن أنه  
بهوض القلب وقد  
يكون من القلب ثقاق

أو يغلب فلا يتشكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب كاضر بنائش في الوكيل في الحسومة  
فانه إن حضر وأحضر السجل فلا يتشكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو  
أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على ما في البيت من  
يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فاني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة  
فستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزقي غيري وكيفما قضيت فأنا راض  
به وما أغلقت الباب تحصناً من قضاائك وتسخطا له بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب فلا  
ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل  
بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده  
نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجد بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه فإن وجده راضياً أو فريضة بذلك  
علماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة قد صبح مقامه في التوكل وظهر له صدقه.  
وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد  
الزهد ولا يصح الزهد إلا لمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس  
منه فكيف يصح له التوكل، نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في  
الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى قلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب  
بيده فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع اللقائات وكذبه في  
جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحيل غرورها فانها  
خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير. فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول للتوكل  
لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإنه يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا  
يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات العيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو بمسكه ليجد  
محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج  
السكر الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في المال كقول وفي كل مال زائد على قدر  
الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء للتوكلين في زوايا الساجد وما جرت السنة بتفرقة  
السكران والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطاً في التوكل  
ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الجبل والركوة والقرص والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى  
جارية بالفرق بين الأمرين. فان قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ من متاعه الذي هو محتاج إليه  
ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي حاجته  
إليه فكيف لا تأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين  
به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى  
ولما أعطاه إياه فاستبدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين  
له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن تكون خيرة في أن يتلى بقدره ذلك  
حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط  
اللعن تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة  
كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه  
الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرجه بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرهما مسبب الأسباب  
عتاية وتلطفاً وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى عما يفعله فان قدم إليه النداء فرح وقال لولا أنه

يعرف أن الغذاء يشبعى وقد قويت على احتماله لما قرب به إلى وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغذاء يضرنى ويسوقنى إلى الموت لما حال بينى وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الوالد للشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أى الأسباب خير له كما قال عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لأدري أيهما خير لى فكذلك ينبغي أن لا يبالى للتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكمن من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتنى كنت فقيرا .

### ( بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم )

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يفاق الباب ولا يستقصى في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الخلق وبجملته أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يعلق بابيه ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شدته أيضا . الثانى : أن لا يترك في البيت متاعا يحرض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إماما كه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى للغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لاحاجة لى إليها قال لم ؟ قال يوسوس إلى العدو أن الاصل أخذها فكأنه احترز من أن يعصى السارق ؛ ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو فى سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : أحدهما أن يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما نوى حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينو دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما <sup>(١)</sup> » ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلى ولكن يتحقق بالزهد نية فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش قتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له <sup>(٢)</sup> لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغى أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الخير كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفى إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجده أصلا .

يسكوته إلى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ماسكن قلبي إلى نفسى ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك نفاق القلب والخواطر للتولمة منه إلا العلماء الراسخون . وأكثر ما يدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القليل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغي أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقى عليه أثر

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ناقته فطلبها حتى أعيا ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إني كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازل فيها فرأيتهما قال وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم إني لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إني لما رأيته منازل في الجنة رفعت لي مقامات في عشرين ما رأيته مثلها فيما رأيته فقرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل ، فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيت لك . وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فأتته الرجل فقعد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانه فذكر له عمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذوه حللا طيبا فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبحث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ففكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كأن يكبره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر (١) » . وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ولم يزعج لطلبه فجاءه قوم يعزونه ، فقال أما إني قد كنت رأيته وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلي من ذلك يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فاني قد جعلتها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قيل أرأيت لورد عليك قال لا أخذه ولا أنظر إليه لأنني كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمني أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه للسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال لا تغرق في شتمه فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن اتهمك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودنه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم للظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من الظلوم (٢) » . السادس أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا في دنياه لا نقصا في دينه فقد شكك بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم للظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

من الهوى وإن دق  
وقل يبق عليه بحسبه  
بقية من اشتباه  
الخواطر ثم قد يخط  
في تميز الخواطر من  
هو قليل العلم ولا  
يؤاخذ بذلك ما لم يكن  
عليه من الشرع  
مطالبة وقد لا يسامح  
بذلك بعض الغالطين لما  
كوشفوا به من دقيق  
الخفاء في التميز ثم  
استعجلهم مع علمهم  
وقلة الثبوت . وذكر  
بعض العلماء أن لمه  
للك ولمه الشيطان  
وجدتا لحركة النفس  
والروح وأن النفس  
إذا تحركت اهدح من  
جوهرها ظلمة تنكث  
في القلب همه سوء  
فينظر الشيطان إلى

فقال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن فقال أعلى الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن على السكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع على من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كدواوة الأرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب الزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء الزيل لضرر العطش والحبز الزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتفصد والحجامة وشرب الدواء السهل وسائر أبواب الطب أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكي والرقية . أما للقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف اللوث. وأما للوهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكي ويليها الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة للتوسطة وهي للظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء فعلة ليس مناقضا للتوكل بخلاف الوهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا له دواء عرفة من عرفة وجهله من جهله إلا السام (١) » يعنى الموت وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء (٢) » . « وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله (٣) » وفي الخبر المشهور « مامرت ببلأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة (٤) » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتببخ بك الدم فيقتلكم (٥) » فذكر أن تبخخ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج المقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفة من عرفة وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفة إلى آخره وإسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الهرم والطبراني في الأوسط والبراز من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تداووا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث مامرت ببلأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البراز من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفع الترمذي بلفظ إن خير ما تحتجون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيخ وقال حسن غريب وقال البراز إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر الحديث.

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمانة وهى عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أو سكون وهى آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة مجهول أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب فيه قاتها ترد بخلاف مأمور أو على وفق منهى ومنها ما يكون فيها فضيلة إذا وردت بمباحات . وذكر أن الروح إذا تحركت اتحدت من جوهرها نور ساطع يظهر من

هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحمية (٢) وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لعلي رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين «لأنك كل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك (٥)» يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرًا وأنت أرمد فقل إني آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم (٦)» . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنن للمكي . وتداوى ﷺ غير مرة من العقرب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فكان يغلفه بالخناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها خناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن المحصر وقد صنف في ذلك كتاب ومسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلّة فدخل غلبه بنو إسرائيل فعرفوا علته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على روايته في الصحابي وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه تداؤوا الحديث وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال روى سعد في أحسنه فصدحه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لعلي وكان رمداً لأنك كل من هذا ، الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر (٦) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدي من حديث عائشة وقال إنه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ما شتكى تقمّع كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فيغلفه بالخناء البزار وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها خناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابة بالأرض ثم رفعها وقال بسم الله تراباً أرضنا وريقة بعضنا يشفي سقيمنا .

ذلك النور في القلب همة  
عالية بأحد معان ثلاثة  
إما بفرض أمر به  
أو بفضل نذب إليه  
وإما بمباح يعود  
صلاحه إليه وهذا  
الكلام يدل على أن  
حركة الروح والنفس  
هما للوجبتان للمتين .  
وعندى والله أعلم أن  
المتين يتقدمان على  
حركة الروح والنفس  
فحركة الروح من لمة  
للك والهمة العالية من  
حركة الروح وهذه  
الحركة من الروح يركب  
للملك وحركة النفس  
من لمة الشيطان ومن  
حركة النفس الهمة  
الدينية وهي من شؤم لمة  
الشيطان فإذا وردت  
اللمتان ظهرت الحركتان

فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا تداوى حتى يماضي هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف مجرب وإنما تداوى به فنبأ فقال لا تداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه وعزى وجلالى لأبرأتك حتى تداوى بما ذكره لك فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ فأوحى في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري . وروى في خبر آخر أني نيا من الأنبياء عليهم السلام شكاعة يجدها فأوحى الله تعالى إليه كل البيض . وشكا في آخر الضعف . فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة قليل هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فانه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع إذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحلبى السفرجل والنفساء الرطب فهذا بين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط للسيئات بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب فكما أن الحزن دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحزن جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الطفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول : والثاني أن الدواء يسهل والسكنجيين يسكن الصفراء بشروط أخرى الباطن وأسباب في الزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى للماء شروط كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشئين وإلا فالسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكيمته وكما قدرته فلا يضر للتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء قد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الماء والدواء؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء؟ قال يا كلون أرزاقهم ويطيون نفوس عبادى حتى يأتى شفاؤى أو قضائى فاذن معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه . فان قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب الظاهرة مثل القصد والحجامة وشرب المسهل وسقى للبردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثلما في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يمتد السكى في أكثر البلاد وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب فهذا من الأسباب للوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فانه مامن وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء يغنى عنه ليس فيه إحراق فالاحتراق بالنار جرح مخرب للبنية مخذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف القصد والحجامة فان سرايتهما بعيدة ولا يسد مسددها غيرهما ولذلك «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى» <sup>(١)</sup> وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على اللائكة فلما كثبت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس وأنهى أمى عن السكى ، وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من كل ذى حمة .

وظهر سرّ العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم وقد تكون هاتان اللتان متداركتين ويتمحى أثر إحداها بالأخرى ولتغطين للتقظ بفتح عليه بمطالمة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ويقي أبدامتها حاله مطالما آثار اللحتين . وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التميز وإنبات الحجة على العبد ليدخل العبد في الشئ بوجود عقل إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب وقد

فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة وقال لطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرم في الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بفقدها فاذن السكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثم هو مذموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم .

( بيان أن ترك التدأوى قد يحمدر في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل )

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم )

اعلم أن الذين تدأوا من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التدأوى أيضا جماعة من الأكابر فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كالتارك لترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله ، وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له لو دعونا لك طبيا فقال الطبيب قد نظر إلى وقال إني فعالم أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبي قيل فمأنتهى قال مغفرة ربى قالوا ألا ندعوك طبيا قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه لودأويتها قال إني عنهما مشغول قليل لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال أسأله فيا هو أتم على منهما . وكان الريح ابن خيثم أصابه فالج فليل له لو تدأويت فقال قد همت ثم ذكرت عادا وعمود وأصحاب الرس وقرنابين ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك للدأوى والدأوى ولم تكن الرقى شيئا . وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التدأوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر للتطبب بها أيضا إذا سأله . وقيل لسهل متى يصبح للعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه فاذا منهم من ترك التدأوى وراءه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله لا يحضر الصوارف عن التدأوى . فنقول إن ترك التدأوى أسبابا . السبب الأول : أن يكون المريض من للكشافين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التدأوى من هذا السبب فانه كان من الكشافين فانه قال لعائشة رضى الله عنها في أمر للبراث إنعاهن أخنك وإنعاهن كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأننى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله وإلا فلا يظن به إنكار التدأوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تدأوى وأمر به . السبب الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبه وإطلاع الله تعالى عليه فينسى ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتدأوى شغلا بحاله وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال إني عنهما مشغول . وكلام أبي الدرداء إذ قال إنعاهن تشكى ذنوبي فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالحائف الذى يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل ناقصا من الجوع ولا طمنا فيمن أكل ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت فقال هو ذكرا الحى القيوم قليل إنعاهن سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك عن الغذاء قال الغذاء هو الله كر قليل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك والجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخر إذا دخل عليه علة فرده إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانعها حتى يصاحبها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى السكى والرقية فيتركه للتوكل وإليه يشير قول الريح بن خيثم إذ قال ذكرت عادا

يكون مع الملك والروح  
ليوقع الفعل مختارا  
ويستوجب به  
الثواب . وذكر  
خاطر سادس وهو خاطر  
اليقين وهو روح  
الإيمان ومزيد العلم  
ولا يبعد أن يقال الخاطر  
السادس وهو خاطر  
اليقين حاصله راجع  
إلى ما يرد من خاطر  
الحق وخاطر العقل  
أصله تارة من خاطر  
الملك وتارة من خاطر  
النفس وليس من  
العقل خاطر على  
الاستقلال لأن العقل  
كما ذكرنا غريزة يتبها  
بإدراك العلوم ويتبها  
بها الانجذاب إلى  
دواعى النفس تارة  
وإلى دواعى الملك تارة

ونمود وفيهم الأطباء فهلك للتداوى والتداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرقى فيتركه توكلًا . السبب الرابع . أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء (١) » وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز لا يريدونهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا (٢) » وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فإن صبر اجتبه فإن رضى اصطفاه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تعرضون ولا تسقون (٤) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصبح شئ قلبا وأمرضه جسما وتجد للنفاق أصبح شئ جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم للرض واغتمموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله للرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلامع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في وثاق إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتي (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس (٦) » فقل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب . وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان إذا رأى العبد يصلى من

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم ومجمل على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث طي ولم يخرج له ولده في مسنده والطبراني من حديث أبي عتبة إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تعرضون ولا تسقون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في وثاق الحديث الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

وإلى دواعي الروح تارة وإلى دواعي الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللتين وهاتان اللتان هما الأصل والخواطران الآخران فرع عليهما لأن لمة الملك إذا حركت الروح اهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظا القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما ذكرناه قبل لموضع قرينه فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة



قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتدأوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التدأوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل فى شئ من الدواء قائما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف ومن لم يدخل فى شئ فهو أفضل لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو للماء البارد يستل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدحشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة . السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فبرى للرض إذا طال تكفيرا فيترك التدأوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام «لا تزال الحمى والمليحة بالعبد حتى يئسى على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة» (١) وفى الخبر «حمى يوم كفارة سنة» (٢) فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم (٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم «من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوبا دون الجنة» (٤) قال فلقد كان من الأنصار من يتعمى العمى وقال عيسى عليه السلام : لا يكون عالما من لم يفرح بدخول اللصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أكره ذنوبه وأزيد فى درجاته . السبب السادس أن يستشعر العبد فى نفسه مبادئ البطر والطغيان تطول مدة الصحة فيترك التدأوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعوده الغفلة والبطر والطغيان أو طول الأمل والتسوف فى تدارك القاتل وتأخير الحيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى الله صلى وأقلها أن تدعو إلى التسم فى اللباحت ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للريح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبيه بالأمراض واللصائب ولذلك قيل لا يخلو

(١) حديث لا تزال الحمى والمليحة بالعبد حتى يئسى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أنى هريرة والطبرانى من حديث أبى الدرداء نحوه وقال الصداق بدل الحمى والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفاتها ولونها وأسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمدوا أبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بأسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض تصيينا ما لنا فيها قال كفارات قال أبى وان قلت قال فان شوكه فما فوقها قال فدعا أبى أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قلم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعنى خروجا فى سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله على بن الدين (٤) حديث من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوبا دون الجنة تهتم للرفوع منه دون قوله فلقد كان فى الأنصار من يتعمى العمى .

الشیطان اذا حركت النفس هوت بجلبتها الى مركزها من التمريزة والطبع فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لتفريزتها وطبيعتها وهواها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فأصلها لثمان ويتنجان آخرين وخواطر اليقين والعقل مندرج قبيها والله أعلم

[ الباب الثامن ]  
والحمسون فى شرح الحال واللقام والفرق بينهما ]

قد كثر الاشتباه بين الحال واللقام واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك وجود الاشتباه لمكان تشابههما

للمؤمن من علة أوقلة أوزلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصى قد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بعدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من العصية ما عوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة البطح بالمراق في يوم عيد ما هذا الذى أظهروه؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدهم فقال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم متعجبون - قيل العوافى - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنار بكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربع مائة سنة لم يصدح له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فنسلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثرنا من ذكر هاذم اللذات (١)» وقيل الحمى رائد اللوث فهو مذكر له ودافع للتسوية ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك اللوث يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلة حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فظلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها مامرضة قط ، فقال لا حاجة لى فيها (٢)» . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عني من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٣)» لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار (٤)» . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٥)» وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فتحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أن تقسم مزيدا فيها لا من حيث رأوا التدأوى نقصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

(١) حديث أكثرنا ذكر هاذم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرضة قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال إليك عني الحديث أبوداود من حديث عامر البرام أخى الحضر [١] بنحوه وفي إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟

[١] الحضر : بطن من محارب بن خصفة .

في نفسهما وقد اخلهما قترأى للبعض الثنى حالا وتراوى للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال صمى حالتهن واللقام مقاما لتبوته واستقراره وقد يكون الثنى بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بقلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

( بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال )

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجابة والقصد عند تبخيل الدم . فان قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلهغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه ، إذ الدم يلغ الباطن والعقرب تلهغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لا يزال لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالحية وهذا لا قائل به ، ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ، ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى الهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نهر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أقرر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر نعم نقر من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، قال : أرايتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخضبة ، والأخرى مجذبة أليس إن رعى المخضبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يأتمر المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه <sup>(١)</sup> » فبرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس ، فاذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى اللقائات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل . فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر ، والهواء هو للضر فلم يرخص فيه ؟ . فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهى عنه ، إذ الحجابة والقصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على القصد ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحکم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس اللوهومات كالرقى والطيرة وغيرها ، ولو تجرد هذا للعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منيا عنه ولكن صار منيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا الرضى الذين أقصدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وقعدوا للتعبد ولم يبق في البلد من يستقيم للناء ويطعمهم الطعام وهم يمجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا وخلاصهم منتظر

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناده (١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى .

إلى أن تتداركه  
المعونة من الله الكريم  
ويغلب حال المحاسبة  
وتستقهر النفس  
وتتضبط وتمسكها  
المحاسبة فخير المحاسبة  
وطنه ومستقره ومقامه  
فيصير في مقام المحاسبة  
بعد أن كان له حال  
المحاسبة ، ثم ينزله  
حال المراقبة ، فمن  
كانت المحاسبة مقامه  
يصير له من المراقبة  
حال ، ثم يحول حال  
المراقبة لتتوابع السهو  
والغفلة في باطن العبد  
إلى أن ينقشع ضباب  
السهو والغفلة ويتدارك  
الله عبده بالمعونة  
فخير للمراقبة مقاما  
بعد أن كانت حالا ولا  
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأصحاء منتظر فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلّاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا ولؤمّنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو الذى يتقدح عندنا في تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافترقوا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان يتقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وهذا شبه القرار من الطاعون في بعض الأخبار بالقرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيا في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر مما سمع وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ فتقول فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لقلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين وللتوكاين أو تصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف للنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع فألى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق وتقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وقد هذا فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة في المال تقص والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهى أيضا تقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكل من الحرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعلم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تفره الدنيا، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأتمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك يعظم ضرره، نعم التداوى لا بضرا لا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سبيلا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

(١) حديث تشبيه القرار من الطاعون بالقرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تقدم ولفظه عرضت عليه مقاييس خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

قراره إلا بنازل حال  
المراقبة ولا يستقر مقام  
المراقبة قراره إلا بنازل  
حال المشاهدة فاذا  
منح العبد بنازل حال  
المشاهدة استقرت  
مراقبته وصارت مقامه  
ونازل المشاهدة أيضا  
يكون حاله يحول  
بالاستتار ويظهر  
بالتجلى ثم يصير مقامه  
وتخلص شمس عن  
كسوف الاستتار ثم  
مقام المشاهدة أحوال  
وزيادات وترقيات من  
حال إلى حال أعلى  
منه كالتحقق بالقضاء  
والتخلص إلى البقاء  
والترقى من عين  
اليقين إلى حق اليقين  
وحق اليقين نازل  
يخرق شفاف القلب  
وذلك أعلى فروع

والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك اللوهمات كالسكى والرقى فان ذلك تعمق في التدبيرات لا يلىق بالتوكلين .

( بيان أحوال للتوكلين في إظهار المرض وكتابه )

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وآتواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أعلى اللقائات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمان أسلم عن الآفات ومع هذا فلاظهار لا بأس به إذا صححت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لافى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يحدها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى فى . الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى وذلك يحسن ممن تلىق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فبشر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجهد على الله ؟ فأجاب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضاوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العاقبة (١) » فهذه النيات يرخس فى ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كاذ كرت فى تحريم السؤال على انقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لعل الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه فى حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الافشاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل فى معنى قوله -صبر جميل - لا شكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذى أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحزان فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواى إلى عبادى فقال يارب آتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه فى مرضه وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من آتوب عليه السلام إلا أنينه فى مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفى الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعوده فان حمد الله وأثنى بخير دعواه وإن شكا وذكرا قالَا كذلك تكون (٢) » وإنما كره بعض العباد العبادة خشية الشكاية وخوف الزيادة فى الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يرا فىخرج إليهم منهم فضيل وهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهى أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنه أجمعين .

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العاقبة تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعوده الحديث تقدم .

للمشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانا يماثر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب تجوفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجوف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم بالملومات وهذه الحالة التى خرفت شغاف

كامل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفيق .

### ﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

( وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سيجات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلالة حتى تاهت في يدهاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنهه الجلال غشيتها من الدهش ما غبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلامهم بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومخرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكامل نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[ أما بعد ] فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من اللقائات والدروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر اللقائات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بهلحق أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا الإلواظية على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة المحبة فحال الإلماع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة النجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدماء وكرهه للمعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكمالات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

( بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى )

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل لا يحبهم ويحبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أشد حبا لله - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن يكون

القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق اليقين هي أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم أجرا فالمشاهدة هي الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع . ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا لأنها غير مقدورة

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

الله ورسوله أحب إليك مما سواها (١) وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها (٢) وفي حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣) وفي رواية « ومن نفسه » كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحبة فقال « أحبوا الله لا يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي (٤) » وروى « أن رجلا قل يارسول الله إنني أحبك فقال ﷺ : استعد للفقير فقال إني أحب الله تعالى فقال استعد للبلاء (٥) » وعن عمر رضي الله عنه قال « نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل الذي نوره قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدهاه حب الله ورسوله إلى ما ترون (٦) » وفي الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال للملك اللوت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يبعث خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك اللوت الآن فاقبض (٧) » وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن اللوت سبب اللقاء أنزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الساء البارد (٨) » وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أتى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم للزم مع من أحب (٩) » قال أنس لما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عز جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ولؤلؤ من لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزين العقيلي أنه قال يارسول الله ما الإيمان ؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواها أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنك أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك فقال استعد للفقير الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقير تجافا دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية باستناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال للملك اللوت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يبعث خليله الحديث لم أجده أصلا (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوخ أن اللقائات مكاسب والأحوال مواهب وطى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب واللواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد واللقائات طرق الواجيد ولكن في اللقائات ظهر الكسب وبطنت اللواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت اللواهب فالأحوال مواهب علوية سماوية واللقائات طرقها وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا . وروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم للرأى من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أتمم القربون أتمم القربون أتمم القربون . وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الحاج فقلت أمتجد البود فقال من شغله حب الله لم يجد البود . وعن سرى السقطي تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تتخلع فرحا . وقال هرم ابن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ عفو يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف ودهوده ينسى مادونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب عبدى أنا وحقك لك محب فبحق عليك كن لى محبا . وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ إلهى إني مقيم بفنائك مشغول بفنائك صغيرا أخذتني إليك وسر بلنتي بمعرفتك وأمكننتني من لطفك وثقاتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقىني من حياضك وتهلني في رياضك ملازما لأمرك ومشغولا بقولك ولما طرّ شاربي ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلى ما بقيت حولك ددنه وبالضراعة إليك هممة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به .

( بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى )

اعلم أن للطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماديل هومن خاصية الحى للمدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلبثه وإلى ما ينافيه وينافره وبؤله وإلى ما لا يؤثر فيه بإبلاهم وإلذاذ فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذا كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميل إلى ذلك وقوى سمى عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمى مقتافهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثانى : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلهذا العين في الابصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة والأذن في النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللس في اللين والنعومة

السموات فاني أعرف بها من طرق الأرض إشارة إلى اللقائات والأحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من اللقائات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق السموات ومتمثل بالبركات وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب ساوى . قال بعضهم الحال هو ذلك الحقى وهذا إشارة إلى شئ مما ذكرناه وصعدت للشايخ بالعراق يقولون الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الاكساب والأعمال يقولون هذا ما من العبد فاذا لاح للمريد



ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملئة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبيب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرعة عيني في الصلاة»<sup>(١)</sup> فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلا للبصر والشم دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرعة عين وجعلها بلوغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب فاذن قد بطلت خاصية الإنسان وما يتميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيات فالصورة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال للعاني للدراسة العقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الليل إلى ما في إدراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا ينبغي أن يحب نفسه ولا ينبغي أن يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى الحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأنسابها ويانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفوره عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو اللاتم للحب وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه بعد الموت ولا مجرد الخذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لئلا يأسا ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم محموت ودوام الوجود محبوب وكأن دوام الوجود محبوب فكأن الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر للفقود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم محموت في الصفات وكأن الوجود كما أنه محموت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى . ولن تجد لسنة الله تبديلا . فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ولئلا محبوبة لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكمال وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لألغائها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكمالها بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل للشاق لأجله لأنه يخلقه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له فلنفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه المعجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتدائه أثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حبيب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله

ثلاث وقد تقدم .

شيء من اللواهب  
وللواجب قالوا هذا  
ما من الله وموهه حالا  
إشارة منهم إلى أن  
الحال موهبة . وقال  
بعض مشايخ خراسان  
الأحوال موارث  
الأعمال . وقال بعضهم  
الأحوال كالبروق  
فان يقي فحديث النفس  
وهذا لا يكاد يستقيم على  
الاطلاق وإنما يكون  
ذلك في بعض الأحوال  
فانها تسطرق ثم تستلبها  
النفس فأما على الإطلاق  
فلا والأحوال لا تتمزج  
بالنفس كالماء  
لا يتمزج بالماء .  
وذهب بعضهم إلى  
أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك جبه لأقاربهم وعشيرته يرجع إلى جبه  
لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكاملهم فان العشرة والمال والأسباب  
الخارجة كالجنح الكمال للانسان وكال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة فاذن المحبوب الأول عند  
كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب. السبب الثاني:  
الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها  
وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيجبه قلبي»<sup>(١)</sup> إشارة إلى أن حب القلب للحسن  
اضطرار لا استطاع دفعه وهو جبله وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي  
الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال  
واللعونة وسائر الأسباب للوصول إلى دوام الوجود وكال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتبها الوجود  
إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن  
فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة  
الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها  
والطبيب محبوب لآلذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم  
محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير  
محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذن يرجع الفرق إلى  
تفاوت الرتبة وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فأحب  
ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص  
الحب ولو زاد زاد ويتطرق إليه الريادة والتقصان بحسب زيادة الاحسان وتقصانه. السبب الثالث أن  
يحب الشيء لذاته لا لآلذاته بل لآلذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ  
الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك  
لعين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لتغيرها ولا لتظن أن حب  
الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة  
لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذينة فيجوز أن يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة  
والماء الجاري محبوب لا لشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة ولناء الجاري<sup>(٢)</sup> والطباع السليمة قاضية باستلذاذ  
النظر إلى الأنوار والأزهار والأطياف المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن  
الانسان لتتفرج عنه العموم والمعموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملأه  
وكل لذينة محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أخذ ينكر كون الجمال محبوبا  
بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال»<sup>(٣)</sup>.

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المحبوس في مضيق الحيات والمحبوسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيجبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث  
معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في  
الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء  
الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

إلا إذا دامت فأما إذا  
لم تدم فهي لوائح  
وطوالع وبوادروهي  
مقدمات الأحوال  
وليست بأحوال .  
واختلف للشيخ في أن  
العبد هل يجوز له أن  
ينتقل إلى مقام غير  
مقامه الذي هو فيه  
قبل إحكام حكم مقامه .  
قال بعضهم : لا ينبغي  
أن ينتقل عن الذي هو  
فيه دون أن يحكم حكم  
مقامه . وقال بعضهم :  
لا بكل اللقاع الذي هو  
فيه إلا بعد ترقية إلى  
مقام فوقه فينظر من  
مقامه العالي إلى مادونه  
من اللقاع فيحكم أمر  
مقامه. والأولى أن يقال  
والله أعلم : الشخص في  
مقامه يعطى خلا من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الحلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوّناً مقدر فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لئنه فلم يكن محبوباً وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الحلقة وامتزاج البياض بالحمرة فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من اللذات إلا وهو منقسم إلى حسن وقيح فبمعنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم العاملة الاطباء فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء عجماله وحسنه في أن يحضر كماله الاثني به الممكن له فإذا كان جميع كالاته للممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرك وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فإن قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فاتها لا تفك عن إدراك الحواس له فهي محسوسات وليس يشكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بأدراك حسنها وإنما يشكر ذلك في غير الإدراك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم واللزوم وسائر خلال الخير وشئ من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والتب عنه ويخطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه فكيف من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يجبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسنه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب وإنما يجبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمعارك الدين وانتهاضه لأفادة علم الشرع ولتشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبابكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يجهم إلا لاستحسان صورته الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقاً وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة فكان الحب باقياً

مقامه الأعلى الذي سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشئ إلى العبد أنه يرتقى أولاً يرتقى فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات والأحوال مواهب ترقى إلى المقامات التي يخرج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب رقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزيادة الأحوال فعلي ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته لجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلها من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي الخليل وطبعه إذا أردنا أن نحب إليه غائبا أو حاضرا حيا أوميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فلهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن والقابح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتمًا بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحببتهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله الحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعده للزار ونأى الديار ، فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط لإحسانه إلى الحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : للناسبة الحفية بين الحب والمحسوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »<sup>(١)</sup> وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصجبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من محائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الانسان وجود نفسه وكاله وبقائه وجهه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقاءه ودفع للمهلكات عنه وجهه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وجهه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وجهه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لعمالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لعمالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتباع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فان كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الحيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة فاذا تيقظ أصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث فما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصجبة .

( بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده )

وأن من أحب غير الله لامن حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحب  
الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن  
محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب  
الأصل فلا يتجاوز به إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق  
للمحبة سواه . وإيضاحه بأن يرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله  
تعالى بجملة ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره  
وهم وتخييل ، وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله  
ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً وبيان أن التحقيق يقتضى أن لا يحب  
أحد غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكاله ودوام وجوده وبغضه  
لهلاكه وعدمه وتقصانه وقواطع كاله فهذه جلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى  
غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما  
وجود ذاته ودوام وجوده وكاله وجوده من الله وإلى الله والله فهو المخترع للوجود له وهو للبقى له  
وهو الكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال  
الأسباب وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله  
تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود  
لولا فضل الله عليه بالتكامل لخلقته . وبالجملة فليس في الوجود شئ له بنفسه قوام إلا القيوم الملى  
الذى هو قائم بذاته وكل ماسواه قائم به فان أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ،  
فبالضرورة يجب للفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالفاً موجداً ومختزاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً  
لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد بانعدامها وتضعف بضعفها  
وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الله نيازها  
فيها وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر  
الشمس لما كان يجب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل وكل ما في الوجود بالاضافة  
إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة إلى الشجر والنور بالاضافة إلى الشمس فان الكل من آثار  
قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا  
لشأن صحيح بالاضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها وهو  
خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من  
قدرة الله تعالى احتراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها  
وشكائها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق  
فاذن إن كان حب الانسان نفسه ضرورياً فيجب له به قوامه أولاً ولا دوامه ثانياً في أصله وصفاته وظواهره وباطنه  
وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا أنه اشتغل بنفسه وشهواته  
وذهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى  
يشاركه البهائم في التمتع به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطاق أرضه إلا من يقرب إلى شبه من  
الملائكة فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة ويقتصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم : الزجر  
ضياء في القلب يصير  
به خطأ قصد الزجر  
في مقدمة التوبة على  
ثلاثة أوجه زجر من  
طريق العلم وزجر  
من طريق العقل  
وزجر من طريق  
الايان فينازل التائب  
حال الزجر وهى  
موهبة من الله تعالى  
تقوده إلى التوبة ولا  
يزال بالعبد ظهور  
هوى النفس يحويه  
آثار حال التوبة  
والزجر حتى تستقر  
وتصير مقاماً وهكذا في  
الزهد لا يزال يتزهد  
بنازلة حال توبه لئلا  
ترك الاشتغال بالدنيا  
وتتبع له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته واتدب  
لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في  
نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فانه  
لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فليست  
أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد  
أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير  
متصور إلا بالجواز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنهم عليك بجميع خزائنه وممكنك  
منها لتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به  
وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذي أنعم بخلقك وخلق  
ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه  
أن صلاح دينه أودنيه في الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلب الله  
عليه الدواعي وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودنيه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً  
في التسليم لا يستطيع مخالفته فالحسن هو الذي اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة  
للرهقة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرار  
مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من  
حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما  
الاحسان إلى غيره فحال من الخلقين لأنه لا يبدل ماله إلا لغرض له في البذل إما آجل وهو الثواب  
وإما عاجل وهو اللذة والاستسحار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق  
إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان  
إلا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فليست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض  
حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك للمال فقد استسخر في القبض  
للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده  
من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر  
والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرته على المخالفة فهو جار مجرى  
خازن الأمير فانه لا يرى محسناً بتسليم خلة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة  
والامتثال لما يرميه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن  
لو خلاه الله ونفسه لم يبدل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أن حظه دينا  
ودنياً في بذله فبذله لذلك . والثاني أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما  
لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب  
أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها  
أعراض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من  
غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً  
إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فانه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والاحسان في حق  
غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد  
بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله

فتمحو أثر حاله بدلالة  
شره لنفسه وحرصها  
على الدنيا ورؤية العاجلة  
حتى تداركه المعونة  
من الله الكريم فيزهد  
ويستقر زهده ويصير  
الزهد مقامه ولا تزال  
منازلة حال التوكل تفرغ  
باب قلبه حتى يتوكل  
وهكذا حال الرضا حتى  
يطمئن على الرضا ويصير  
ذلك مقامه وههنا  
لطيفة وذلك أن مقام  
الرضا والتوكل يثبت  
ويحكم يبقائه مع وجود  
داعية الطبع ولا يحكم  
بقاء حال الرضا مع  
وجود داعية الطبع  
وذلك مثل كراهة  
مجدها الراضى بحكم  
الطبع ولكن علمه  
بمقام الرضا يغير حكم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو للمستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الانسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آيس من خبر الأول وآمن من شر الثاني لاقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادها فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن إلى السكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثا بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الرتبة استقواس الحاجيين وحرمة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الانسان للسوء والغذاء ومثال الحاجة الدواء والرحم والقواكه ومثال اللزايا والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ القواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى القرش فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لاحظ ينال منه وراء إدراك الجمال قد بينا أن ذلك مجبول في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة للدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة للدركة بعين القلب وتور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركون فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في مشاهدة حب الأنبياء والعلماء وقوى الكارم السنية والأخلاق للرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه ومئات الأعضاء وهو للراد محسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك محسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأجبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن مظهره منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف الصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان للعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجل وكذا للتدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا وأجل للعلوم هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهور حكم  
الطبع في وجود  
الكراهية للمغمورة  
بالعلم لا يخرجها عن  
مقام الرضا ولكن يفقد  
حال الرضا لأن الحال لما  
تجردت موهبة أحرقت  
داعية الطبع فيقال  
كيف يكون صاحب  
مقام الرضا ولا يكون  
صاحب حال فيموالحال  
مقدمة المقام والمقام  
أثبتت تقول : لأن المقام  
لما كان مشوبا بكسب  
العبد احتمل وجود  
الطبع فيه والحال لما  
كانت موهبة من الله  
زهت عن مزج الطبع  
فحال الرضا أصلف ومقام  
الرضا ممكن ولا بد  
للمقامات من زائد  
الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور : أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة . والثالث تزهدهم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يخطط بالسلك إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خاق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى - خلق الإنسان علمه البيان - فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلم العلماء جهل بالاضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك العلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتفاضل معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لأن العلم لا يفضل الأجهل إلا بعلم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخلق متناهية . وأما صفة القدرة: فهي أيضاً كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لذيذ حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزاز وفرحاً وإرتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن الشاهدة ويورث ذلك جفاً في القلب ضرورياً للمتصف به فانه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوامهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عد ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والمكن له من ذلك ولو سلط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إنا ملكنا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدرة بالاضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك اللدرة ثم تلك العبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى بقدرة وسياسة وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا  
تفرد للمقامات دون  
سابقة الأحوال . وأما  
الأحوال فبها ما يصير  
مقاماً ومنها ما لا يصير  
مقاماً والسر فيه  
ما ذكرناه أن الكسب  
في القام ظهر والوهبة  
بطنت وفي الحال ظهرت  
للوهبة والكسب  
بطن فلما كان في  
الأحوال للوهبة غالبية  
لم تنفد وصارت  
الأحوال إلى مالا نهاية  
لها ولطف سنى  
الأحوال أن يصير مقاماً  
ومقدورات الحق غير  
متناهية ومواهبه غير  
متناهية ولهذا قال  
بعضهم لو أعطيت  
روحانية عيسى وكمال  
موسى وخلة إبراهيم



عليه السلام طلبت  
ماوراء ذلك لأن  
مواهب الله لا تنجصر  
وهذه أحوال الأنبياء  
ولا تعطى الأولياء  
ولكن هذه إشارة  
من القائل إلى دوام  
تطلع العبد وتطلبه  
وعدم قناعته بما هو  
فيه من أمر الحق تعالى  
لأن سيد الرسل  
صلوات الله عليه  
وسلامه نه على عدم  
القناعة وقصر باب  
الطلب واستئزال بركة  
للزيد بقوله عليه  
السلام «كل يوم لم أزد  
فيه علما فلا يورك لي  
في صبيحة ذلك اليوم»  
وفي دعائه صلى الله  
عليه وسلم «اللهم ما قصر  
عنه رأبي وضعف فيه

القاهر والعاليم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع  
المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق  
أمثالهم ألف مرة لم يعب بخلقها ولا يعبه لغوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من  
آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر  
لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التنزه عن العيون والنقائص  
والتقدس عن الرذائل والحجائب فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة  
والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والحجائب فلا يتصور كمال التقديس والتنزه  
إلا بالواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص  
بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال  
إلا بقدر ما أعطاه الله وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته  
أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره فأعما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو للمنفرد بالكمال للتنزه عن  
النقص للقدس عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار  
علوم للكاشفات فلا ينطوّل بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له  
وكال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا كما أن للفرس كالا بالاضافة  
إلى الجمار وللإنسان كالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شامل لكل وإنما يتفاوتون في درجات  
النقص ؛ فاذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي  
لا منازع له الغنى الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه  
العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته  
أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأرزلى الذي لا أول لوجوده الأبدى  
الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه  
ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحيوان والنبات للنفرد بالعزة والجبروت  
للتوحد بالملك واللكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تتجبر في معرفة  
جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة الذي كمال معرفة المعارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى  
نبوة الأنبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين «لا أحصى  
ثناء عليك أنت كما أثبتت على نفسك» (١) وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك  
الادراك إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، فليت شعري  
من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا وبجمله مجازا أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال  
والمحامد ونعوت الكمال والحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال  
والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بصائر العيان غيرة على  
جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك  
الحاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا  
من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى  
من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن  
أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن يعطى الربوية حقها ، وفي الزبور : من أظلم ممن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عبدني لجنة أوتار لو لم أخلق جنة ولا نارا لم أكن أهلا أن أطاع ، ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نخلوا فقالوا تخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم مخلوقا ختمتم ومخلوقا رجوتهم ، ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال أتم أولياء الله حقامعكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفي الخبر «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل»<sup>(١)</sup> وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمتعرف وأنس التجار بالتجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصبغة فيطلب منه وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجنونة فما تعارفت منها ائتلف وماتت أكر منها اختلف» فالتعارف هو التناصب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السالك فالتدبير يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أوفىها بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان واللفظ وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يوصي إليها قوله تعالى - ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فاذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته وبشيره إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته»<sup>(٢)</sup> حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله عن ما يقول الجاهلون علوا كبيرا وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعدني» فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدته عنده»<sup>(٣)</sup> وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفريض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»<sup>(٤)</sup> وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث أني هريرة وقد تقدم .

عملى ولم تبلغه نيق وأمنيق من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا أراغب إليك وأسألك إياه» فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي يفد السجود دون تقادها وتتفد أعداد الرمال دون أعدادها والله النعم للعطي .

[الباب التاسع والخمسون في الاشارات إلى اللقائات على الاختصار والابحار] أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو منصور بن

تخرب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدَّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وصل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو إلا أنه وقال آخرون منهم تدبر الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشليل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون ، ولعل أبا الحسن النوري عن هذا اللقاع كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لازلت أنزل من وداك منزلا تتحير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجدته على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشققت قدماءه وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا ، فهذه هي المعلومات من أسباب الحب وجملة ذلك مظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجزأ وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان للعقول القبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن العقول للممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذا الأصل المحبة والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

( بيان أن أجل الذات وأعلها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم )

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة )

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبيعتها الذي خلقت له فان هذه الغرائز ما ركبت في الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبيعتها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبيعتها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى - أفنشرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسامي فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب للمعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفته ما يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كما درأ كه خلق العالم وأفقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة وللناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تنضم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها لمقتضى طبيعتها للمعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس ينبغي أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتدح به في الأشياء الحقيقية فالعالم باللعب بالشرط على خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لمرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا  
أبو محمد الحسن بن  
علي بن محمد الجوهري  
إجازة قال أنا أبو عمرو  
محمد بن العباس بن  
محمد قال أنا أبو محمد  
يحيى بن صاعد قال أنا  
الحسين بن الحسن  
للروزي قال أنا عبد الله  
ابن المبارك قال أنا  
الميثم بن جميل قال أنا  
كثير بن سليم المدائني  
قال سمعت أنس بن  
مالك رضى الله عنه  
قال أتى النبي صلى الله  
عليه وسلم رجل فقال  
«يا رسول الله إنى رجل  
ذرب الانسان وأكثر  
ذلك على أهلى فقال له  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أين أنت من  
الاستغفار فأتى استغفر الله

من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح "طبع إذا أتى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحرارة والحياة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الخلق وللا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوته السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف العلوم حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره فى رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس فان كان خير اياطن أحوال للملك والسلطان الذى هو للمستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد للمعارف أشرفها وشرفها بحسب شرف العلوم فان كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لامحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل فى الوجود شئ أجلى وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومديرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغي أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الالهية المحيطة بكل الوجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذى وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الواقع لذة السماع ولذة المعرفة لذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغنم من الجماع لذة الفاتر للشهوة ومخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل للفائق الجمال لذة النظر إلى مادونه فى الجمال وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان الخيرين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فتعود قول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للمعين ولا الأنف ولا الأذن ولا للمس ولا للذوق والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان الخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على الهمة كمال العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أيا ما كثيرة فاخياره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من المطعومات الطيبة نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز هوان الصبا والته قلبة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

فى اليوم واللييلة  
مائة مرة « وروى  
أبو هريرة رضى الله عنه  
فى حديث آخر « فأنى  
لأستغفر الله وأتوب  
إليه فى كل يوم مائة  
مرة » وروى أبو بريدة  
قال قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم « إنه  
ليغان على قلبى فأستغفر  
الله فى اليوم مائة مرة »  
وقال الله تعالى - وتوبوا  
إلى الله جميعا أيه  
للؤمنون لعلمكم  
تفلحون - وقال الله  
عز وجل - إن الله يحب  
التوابين - وقال الله  
تعالى - يا أيها الذين  
آمنوا توبوا إلى الله  
توبة نصوحا - التوبة  
أصل كل مقام وقول  
كل مقام ومفتاح كل

أسرار الأمور الإلهية أنه من الرياسة التي هي أعلى الذات الغالبة على الخلق غاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً فإنه لا محالة يؤثر التبدل والتفرد والفكر والله كرم وينغمس في محار المعرفة ويترك الرياسة ويستحق الخلق الذين برأسهم لعله ببناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من ابتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن الزاحمات والكدورات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتفع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا بمنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها اللوث إذ اللوث لا يهزم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني معامى وإنما اللوث يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدها فلا ولا تحسب الذين تقلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية - ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يردّ إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتعنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء <sup>(١)</sup> » فإذا جمع أنظار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة متزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبهمة ولا لصبي ولا لعمه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار مملكته أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفة من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الواقع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية قد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف للشكالات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف للعلوم الإلهية فأما من طالع فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحسنة فيه قليلة الجدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتحنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم وليس فيه وإن الشهداء تحنون أن يكونوا علماء الحديث .

حاله وهي أول القامات  
وهي بمثابة الأرض  
البناء فمن لا أرض له  
لا بناء له ومن لا توبة  
له لا حال له ولا مقام له  
وإني بمبلغ على وقد  
وسعى وجهدي اعتبرت  
للقامات والأحوال  
ومررتها فآيتها يجمعها  
ثلاثة أشياء بعد صحة  
الإيمان وعقوده  
وشروطه فصارت مع  
الإيمان أربعة ثم آيتها  
في إفادة الولادة العنوية  
الحقيقية بمثابة الطابع  
الأربع التي جعلها الله  
تعالى بأجراء سنته  
مفيدة للولادة  
الطبيعية ومن تحقق  
بحقائق هذه الأربع  
يلج ملكوت السموات

القدر ينهك. على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لآلة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن الله عبادة ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني يا أبا عوف أي شيء هاجك إلى العبادة والاعتقاد عن الخلق فسكت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفالك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتي مشغولا يطلب الرب تعالى فقد ثلما ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر الثمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشران قلت فأنتم قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن اللوفق قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقيان من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص بصره ينظر إلى الله تعالى لا يطفرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لاخوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لراية ماحققة إيمانك قالت ما عبديته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبديته حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى      وجبا لأنك أهل لداكا  
فأما الذي هو حبّ الهوى      فشغلي بذكري عن سواكا  
وأما الذي أنت أهل له      فكشفك لي الحجب حتى أراكا  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي      ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بمحظوظ العاجلة ومحبته لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحين وأقواها ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١) وقد تعجل بعض هذه الذات في الدنيا لما انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقولون جنونا أو كفرا فمقصود العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها وإذا حصلت المحقق المصوم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لسكال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بالله النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لو عدا الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن الذات للفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى للزلات ويحظى بجميع الأحوال والقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيأت وتأنى كنت فأحد الثلاث بعد الإيمان التسوية النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالية من غير قنور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تناسها وقوامها وهي

كانت لقي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأيتك العين أهوائ  
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوري مذ صرت مولائي  
تركت للناس دينهم ودينهم شغلا بذكرك ياديني ودنيائي  
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إثارة لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فان  
الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره  
وهو أن الصبي في أول حركته وتميزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده  
آلة من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وبركوب الدواب فيستحقر معها لذة  
اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة  
الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلووا أئمة الحياة  
الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها  
لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو  
الآخر إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد  
العشرين وحب العلوم بقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضجك على من يترك اللعب  
ويشتغل بعلاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضجكون على من يترك الرياسة  
ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون  
فسوف تعلمون - .

#### ( بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا )

اعلم أن الإدراكات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور والتخيلة والأجسام اللونية والمتشكلة من  
أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة  
والإرادة وغيرها ومن رأي إنسانا ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها  
ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين  
لأن الصورة للرؤية تكون موافقة للتخيلة وإنما الاتفاق بزيادة الوضوح والكشف فان صورة  
الرؤى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا وهو كمشخص يرى في وقت الأسفار قبل انتشار ضوء  
النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف، فاذن  
الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه  
غاية الكشف لا لأنه في العين بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل للكشف في الجهة أو الصدر  
مثلا استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضا  
في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من  
التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين التخيل والرؤى فيسمى الثاني أيضا بالإضافة إلى الأول  
مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة  
الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر  
والرؤى ، ولا بد من ارتفاع الحجب للحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل  
فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام  
وقلة للنم والاعتزال  
عن الناس . وافق  
العلماء الزاهدون  
والشايخ على أن هذه  
الأربع بها تستقر  
القامات وتستقيم  
الأحوال وبها صار  
الأبدان أبدالا بتأييد  
الله تعالى وحسن  
توفيقه ونيل بالبيان  
الواضح أن سائر  
القامات تدرج في  
صحة هذه ومن ظفر  
بها فقد ظفر بالقامات  
كلها أولها بعد الإيمان  
التوبة وهي في مبدل  
صحتها تنقصر إلى أحوال  
وإذا صحت تشتمل  
على مقامات وأحوال  
ولا بد في ابتدائها  
من وجود زاجر

وما غلب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن تراني - وقال تعالى - لا تدركه الأبصار - أى في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة العراج (١) . فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ماثمة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الحث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الحث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبداً الآباد نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقع منه الحث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فإذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفاته وتقائه عن الكدورات حيث لا يبرق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ماعله كانكشاف تجلي للرآة بالإضافة إلى ما تخيله ، وهذه للمشاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة قتره في الآخرة كذلك ، بل أقول للمعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية ، فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكراً . وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر رأيت نوراً إني أراه ورجال إسنادها رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبار من أمي الحديث وفيه وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافي مالى أراك مهموماً . قال لأنى ضالاً ومطلوب ظلت الطريق وللقصد وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعي : رأيت أعرايا بالبصرة يشتكي عيني وهما يسيل منهما الماء فقلت له ألا



الكشف أيضا جهة وصورة لأنها بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كما أن الصورة للرؤية هي التخيّل بعينها إلا في زيادة الكشف وإليه الإشارة بقوله تعالى - يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آتّم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي يتقلب في الآخرة مشاهدة كما تتقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لأحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة<sup>(١)</sup>» فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هودوته يجد من لذة النظر والشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشر عشره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لأحالة بتجلّي انفراد به وكأنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على الطعوم والنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى النكوح والطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمهم إلى الطعوم والنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إشار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة النكوح والطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتولين في الجنة فقالت الجارثم الدار فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر للمرء إلا على ما مات عليه ولا يموت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط إلا أنه يتقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتضعف اللذة به كما تضعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان. فان قلت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا يمتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها . فاعلم أن هذا الاستحقاق لذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لوعرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والشاهدة كما لانسبة لذة خيال المعشوق إلى رؤيته ولذا استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ولذا اللذة اللس باليد إلى لذة الوقاع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فتقول

(١) حديث إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفي الميزان للذهبي أن لدار قطنى رواه عن المحاملى عن طى بن عبدة وقال الدارقطنى إن طى بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزى في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تمسح عينيك فقال لا  
لأن الطبيب زجرني  
ولاخير فيمن لا يزرع  
فالزجر في الباطن حال  
يهبها الله تعالى ولا بد  
من وجودها للتائب  
ثم بعد الانزعاج يجد  
السبح حال الانتباه . قال  
بعضهم : من لزم مطالعة  
الطوارق انتبه . وقال  
أبو يزيد : علامة  
الانتباه خمس إذا ذكر  
نفسه افتقر وإذا ذكر  
ذنبه استغفر وإذا  
ذكر الدنيا اعتبر  
وإذا ذكر الآخرة  
استبشر وإذا ذكر  
المولى اقشعر . وقال  
بعضهم : الانتباه أوائل  
دلالات الخير إذا انتبه  
العبد من رقدة غفلته  
أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المعشوق وتقصانه فان اللذة في النظر إلى الأجل أكل لا محالة . والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذامن اشتد عشقه كالتذامن ضعف شهوته وجهه . والثالث كمال الإدراك فليس التذامن رؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذامن الإدراك على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك اللذة للضاجة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذامن الصحيح الفارغ للتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذامن الخائف للذغور أو الرريض التآلم أو للشغول قلبه بهم من الهمامات فقد عايشا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذيه رتلده وتشتغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انتهكت بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى النايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزناير مثال الشهوات للتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والتم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا وتقصانها عن الشوق إلى اللأ الأعلى والتفتاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل لقصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والتفتاتها إلى اللعب بالصفور والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يهت العقل وتعلم لذته بحيث يكاد القلب ينظر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلم يدوم بل يمرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى اللوت وإنما الحياة الطيبة بعد اللوت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيجب اللوت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبنذر وبهر المعرفة لا ساحل له فلا حاطة بكنهه جلال الله محال فكلمنا كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البنذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البنذر إلا في الدنيا ولا يزرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله (١)» لأن المعرفة إنما تكمل وتكثّر وتنفع في العمر الطويل بمدوامة الفسك والمواظبة على المجاهدة والانتقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للمطلب ويستدعي ذلك زمانا لا محالة فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالتعا إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وجهه عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا وإن اتسعت

التيقظ فاذا تيقظ  
أثره تيقظه الطلب  
لطريق الرشديطلب  
وإذا طلب عرف  
أنه على غير سبيل الحق  
فيطلب الحق ويرجع  
إلى باب توبته ثم يعطى  
بإتباعه حال التيقظ.  
قال فارس : أوفى  
الأحوال التيقظ  
والاعتبار . وقيل :  
التيقظ تبيان خط  
للسلك بعد مشاهدة  
سبيل النجاة . وقيل :  
إذا صحت اليقظة كان  
صاحبها في أوائل  
طريق التوبة . وقيل :  
اليقظة خردة من  
جهة المولى لقلوب  
الخائفين تدلهم على  
طلب التوبة فاذا تمت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحارثي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في محبته ولأحمد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الانابة والترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال لرسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا اللوت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة للفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها لذة من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كالم تكن الرئاسة لذة من اللطومات عند الصبيان . فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن اللبقة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عاينها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع<sup>(١)</sup> والحق مظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر بالضرورة والله تعالى أعلم .

( بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى )

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقاءه وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منقص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . وكما الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومادام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ويقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - وبقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أى لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيّد والمعبود هو المقيّد به وكل محب فهو مقيّد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرايت من اتخذ إلهه هواه - وقال ﷺ « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة<sup>(٢)</sup> » ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه نخل من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبدأ بأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقارب والدواب والبساتين والمنزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة تقدم .

يقظته قل بذلك إلى  
مقام التوبة فهذه  
أحوال ثلاثة تقدم  
التوبة ثم التوبة في  
استقامتها تحتاج إلى  
الحاسبة ولا تستقيم  
التوبة إلا بالحاسبة .  
قل عن أمير  
المؤمنين على رضى  
الله عنه أنه قال :  
حاسبوا أنفسكم قبل  
أن تحاسبوا وزونها  
قبل أن توزنوا  
وتزينوا للعرض  
الأكبر على الله يومئذ  
تعرضون لا تخفى  
منكم خافية - فالحاسبة  
بحفظ الأنفاس وضبط  
الحواس ورعاية  
الأوقات وإشارة المهمات  
وعلم العبد أن

حتى إن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأشجار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لتقصا  
حب الله تعالى بسببه فقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص  
بقدره من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويسعد بالضرورة من المغرب بقدره  
ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضررتها فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالشرق والمغرب وقد  
انكشف ذلك لدوى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب  
سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والاعتقاد إليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من اللقائات  
كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية  
القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء  
ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ  
الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لزول معرفة الله وجهه فيه  
فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « الطهور  
شطر الإيمان (١) » كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله  
تعالى واتساعها واستيلائها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها  
يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا  
البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله مثلاً كلمة  
طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم  
الطيب - أي المعرفة - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالحادم وإتمام العمل  
الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة وأما  
العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإنما الأول علم للعامة وغرضه العمل  
وغرض العامة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم للكاشفة  
ومهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعدي المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه  
بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع  
المعرفة بالضرورة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالسكر الصافي  
والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته  
وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى  
ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول  
الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وقوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو -  
ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي وربى ولولا ربي لما عرفت ربي وإلى  
الثاني الإشارة بقوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية وقوله عز  
وجل - أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - وقوله تعالى - قل انظروا ماذا في السموات  
والأرض - وقوله تعالى - الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع  
البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير - وهذا الطريق  
هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر  
والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما

الله تعالى أوجب عليه  
هذه الصلوات الخمس  
في اليوم واليلة رحمة  
منه لعله سبحانه  
بعده واستيلاء الغفلة  
عليه كي لا يستعبده  
المولى وتسترقه الدنيا  
فالصلوات الخمس سلسلة  
تجذب النفوس إلى  
مواطن العبودية لأداء  
حق الربوبية ويراقب  
العبد نفسه بحسن  
الحاسبة من كل صلاة  
إلى صلاة أخرى ويسد  
مدخل الشيطان  
بحسن الحاسبة والرعاية  
ولا يدخل في الصلاة  
إلا بعد حل العقد عن  
القلب بحسن التوبة  
والاستغفار لأن كل كلمة  
وحركة على خلاف  
الشرع تسكت في

(١) حديث الطهور شطر الإيمان مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .

ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإعاقصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس والمنازع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في بحار علوم الكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم للعامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتسكلم فيها ولترك الأمل ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعنى بالإضافة إلى اللانكسة وملكوت السموات فأنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه فانه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرمى كحفة في فلاة والكرسى في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث القادر وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار قد قال رسول الله ﷺ «الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض<sup>(١)</sup>» ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى آدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للليل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغازية والجاذبة والدافعة والماسكة والمضامة ماركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أثبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يعرض فيه الخرطوم وكيف علمه اللص والتجرج للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفًا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتنهي إلى بطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بيده منه فيترك اللص ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والتعباء خلق للبعوض والذباب يدين قنظنر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض لم أجده أصلا .

القلب نكتة سوداء  
وتعقد عليه عقدة  
ولتفقد المحاسب هي  
الباطن للصلاة بضبط  
الجوارح وبحقق مقام  
المحاسبة فيكون عند  
ذلك لصلاته نور يشرق  
على أجزاء وقته إلى  
الصلاة الأخرى فلا تزال  
صلاته منورة تامة بنور  
وقته ووقته منورا  
معمورا بنور صلاته .  
وكان بعض المحاسبين  
يكتب الصلوات في  
قرطاس ويدع بين كل  
صلتين يابسا وكلما  
ارتكب خطيئة من  
كلمة غيبة أو أمر آخر  
خط خطأ وكلما تسكلم  
أو تحرك فيما لا ينبغي  
تقط نقطة ليعتبر  
ذنوبه وحركاته فيما

فتراه على الدوام يمسح حدقته يديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقته الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى السكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ويرمى نفسه إليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب السكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصاتها وجهلها فاعلم أن جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الاكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً فليت كان جهل الآدمي بجهل الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش» (١) فهذه لمعة عجبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاطاعة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدها ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقول على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاته إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بناءها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل السدس فلاتبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا خمسا بل مسدسا لخاصية في الشكل السدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستديرة وما يقرب منها فإن للربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك للربع حتى لاتضيع الزوايا فبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة ل بقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافته قده

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة ؓ مثل ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتلون من يدي .

لا يعبه لتضييق الحاسبة  
مجارى الشيطان  
والنفس الأمارة بالسوء  
لموضع صدقه في حسن  
الاقتقاد وحرصه على  
تحقيق مقام العباد وهذا  
مقام المحاسبة والرعاية  
يقع من ضرورة صحة  
التوبة. قال الجنيد: من  
حسن رعايته دامت  
ولايته . وسئل  
الواسطي: أى الأعمال  
أفضل قال مراعاة السر  
والمحاسبة في الظاهر  
والمراقبة في الباطن  
ويكمل أحدهما بالآخر  
وبهما تستقيم التوبة  
والمراقبة والرعاية حالان  
شريفان ويصيران  
مقامين شرفيين  
يصحان بصحة مقام  
التوبة وتستقيم التوبة

لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتنأ بعيشه فسبحانه أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللذة اليسيرة من محنرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات فإنّ القدر الذي بلغه فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه بل كل ما عرفه الخالق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فمسالك تحطى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملسكا عظيما لا آخر له .

#### ( بيان السبب في تفاوت الناس في الحب )

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا اشتراكهم في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت معهم فتلقفوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليقين والتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم القريبون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من القريبين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثال فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول أصحاب الشافعي مثالا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامي يعرف علمه مجملا والفقهاء يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقهاء به أتم وإعجابه به وجه له أشد فأن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاهياله ومال إليه قلبه فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاهياله حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعة ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير إذا قش عن التصنيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاهياله لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بمجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثالا من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ويتحير فيه له ويزداد بسببه لاهياله عظمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة قوله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته إذ تنمير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنماء وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - ولاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا -

على الكمال بهما  
فصارت المحاسبة  
والرأفة والرعاية من  
ضرورة مقام التوبة .  
أخبرنا أبو زرعة بإجازة  
عن ابن خلف أبي بكر  
الشيرازي قال سمعت  
أبا عبد الرحمن السلمي  
يقول سمعت الحسن  
الفارسي يقول سمعت  
الجريري يقول أمرنا  
هذا مبنى على فضلين  
وهو أن تلزم نفسك  
لرأفة الله تعالى ويكون  
العلم على ظاهره قائما .  
وقال المرتضى : للرأفة  
مراعاة السر للاجتهاد  
الحق في كل لحظة  
ولقطة قال الله تعالى  
- أفمن هو قائم على  
كل نفس بما كسبت -  
وهذا هو علم القيام

( بيان السبب في تصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه )

اعلم أنَّ أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أوّل للعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسناها على العقول وترى الأمر بالفسد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإنما قلنا إنه أظهر للموجودات وأجلها لمعنى لانفهمه إلا بعثال وهو أننا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر للموجودات بحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخيطة أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمحياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فان هذه الصفات لاتحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفة فإساعليه لإدليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما شاهدته ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالقل والبصرة وكل واحد من هذه للمدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهدنا طاعة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته وللوجودات المدركة لاحصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله إذ كل ذرة فانها تتادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائها واتتلاف عظامها ولحومها وأعصابها ومنابت شعورها وتشكل أطرافها وسائر أجزائها الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانتهرت العقول ودهشت عن إدراكه فان ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما ينتهي وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يهره نور الشمس إذا أشرق فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراف والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه فسيحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الأشياء تستبان بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس الشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويحول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائما لاشراف لا غروب لها لكانت نظن أنها لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والتقصان وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الحاضر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الحواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الحواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لأن من حصر الحواطر كفى مؤنة الجوارح لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة للكاره من



فأنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت الواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ففرقنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذامع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهاام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده قاله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهتد السموات والأرض وبطل الملك ولللكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيتين في الدلالة ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافة فلا جرم أورت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تضغف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة ودونه وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأجبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا لله وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا فقينا عنا فقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضغف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها ببارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعينهم فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن للدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند قدق العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألقها فسقط وقمها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ولو فرض أنه بلغ عاقلا ثم انقضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب الخالقها فهذا أو أمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة فالناس في طلبهم معرفة الله كالدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا للجماره وهو يطلب حماره والجلبيات إذا صارت مطلوبة صارت معتاحة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكنه لا يعرف القمر  
لكن بطن بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالمحاسة  
استدراك ما انفلت  
من المراقبة . أخبرنا  
أبو زرعة عن ابن  
خلف عن السلى قال  
سمعت أبا عثمان للعربي  
يقول أفضل ما يلزم  
الإنسان في هذا  
الطريق المحاسبة  
والمراقبة وسياسة  
العمل بالعلم وإذ أصبحت  
التوبة صحت الانابة  
قال إبراهيم بن آدم  
إذا صدق العبد في  
توبته صار منيا لأن  
الانابة ثانی درجة  
التوبة وقال أبو سعيد  
القرشى المنيب الراجع  
عن كل شيء يشغله  
عن الله إلى الله وقال  
بعضهم الانابة الرجوع  
منه إليه لا من شيء

## ( بيان معنى الشوق إلى الله تعالى )

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن ثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيكون في إثباته ماسبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فان الشوق طلب وتشوف إلى أمر والوجود لا يطلب ولكن يانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه فأما لا يدرك أصلا فلا يشاق إليه فان من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكأله لا يشاق إليه وكال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثل من المشاهدات . فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو أتجنى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حتى نسيه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمضى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته وتتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فان ما اتضح للعارفين من الأمور الالهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا فأما كمال الوضوح بالمشاهدة وتتمام إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين فهذا نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح انضاحاً ما الثاني أن الأمور الالهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطيت ذلك فقد أضر بي القلق قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن للمشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في جبك فلم أدرك ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول فقال قل اللهم رضني بقضاءك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فان هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبهه أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والحلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة الا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجع من غيره إليه ضيق أحد طرق الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحاً لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة لتحقيق تحقيق الرعاية والراقبة . قال أبو سليمان ما استحسن من نفسي عملاً فاحسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

الى ابتدائه فيروض  
نفسه ثانيا ومن لم يكن  
نفسه بميزان الصدق  
فياله وعليه لا يبلغ  
مبلغ الرجال ورؤية  
عيوب الأفعال من  
ضرورة صحة الانابة  
وهو في تحقيق مقام  
التوبة ولا تستقيم  
التوبة الا بصدق  
المجاهدة ولا بصدق  
العبد في المجاهدة الا  
بوجود الصبر. وروى  
فضالة بن عبيد قال  
سمعت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يقول  
المجاهد من جاهد نفسه  
ولا يتم ذلك الا بالصبر  
وأفضل الصبر الصبر  
على الله بعكوف الهم  
عليه وصدق المراقبة  
له بالقلب وجسم مواد

ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبدا لا ياد وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا فن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقعا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آت لنا نورا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأعنام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى - انظرونا نتقبس من نوركم - قيل ارجعوا وراءكم كما قالتمسوا نورا - يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزاد في الآخرة إشراقا فاما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعدما يوثق به فتسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف للحقائق الشوق ومعانيه. وأما مشاهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وشفقة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك <sup>(١)</sup> » وقال أبو الدرداء لكعب أخبرني عن أخى آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طل شوق الأبرار إلى لقاءى وإنى إلى لقاءهم لأشد شوقا قال ومكتوب إلى جانبها من طلبى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء أشهد أنى سمعت رسول الله <sup>ﷺ</sup> يقول هذا وفى أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبني وجلس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فارفضوا يا أهل الأرض ما أتم عليه من غرورها واهلوا إلى كرامتى ومصاحبى ومجالسنى وائسوا بى أو انسكم وأسارع إلى محبتكم فأتى خلقت طينة أحيائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نبيى ومحمد صفى وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادة من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرونى وينظرون إلى وأنظر إليهم فان حدوث طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب فاذا جهنم الليل واختلط الظلام وفرشت القروش ونصبت الأسرّة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتعلقوا إلى بانعامى فبين صارخ وبكاء وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه يادود الى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق الى قال يارب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الى الدين صفيتهم من كل كدر ونهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى آخرها ينظرون الى وانى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ثم أدعو نجباء ملائكتى فاذا اجتمعوا

(١) حديث أنه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

سجدوا لى فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى  
وأباهى بكم أهل الشوق إلى فان قلوبهم لتضى في سبأى الملائكى كما تضى الشمس لأهل الأرض.  
يادود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فأخذتهم لنفسى محبتي ،  
وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون في  
كل يوم شوقا . قال داود يارب أرني أهل محبتك ، فقال يادود ائت جبل لبنان فان فيه أربعة  
عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فأقرهم منى السلام وقل لهم إن ربكم  
يقربكم السلام ويقول لكم ألاسالون حاجة فانكم أجابى وأصفيانى وأوليائى أفرح لفرحكم  
وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة  
الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إني رسول الله  
إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماهم نحوه قوله وألقوا أبصارهم إلى  
الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقربكم السلام ويقول لكم ألاسالون حاجة ألاتأدونى  
أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أجابى وأصفيانى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر  
إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة . قال فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم  
سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من  
أعمارنا . وقال الآخر . سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر  
فما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفيجترى على  
الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شئ من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأنهم بذلك للنة  
علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من  
نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أفيجترى على الكلام من هو مشغل بعظمتك  
متفكر في جلالك وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لظلم شأنك  
وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك  
وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا قصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي  
النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترى العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب  
لنا نورا نهتدى به في الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا  
وتدبىع عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وفضلت به علينا . وقال  
الآخر : لا حاجة لنا في شئ من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر :  
أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال  
الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شئ  
دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق  
كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري  
وجلالى . فقال داود يارب بهم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي  
ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشغل بشئ من ذكرها وفرغ قلبه لى  
واختارنى على جميع خلق فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى  
ينظر إلى نظر الناظر بعينه إلى الشئ وأريه كرامتى في كل ساعة وأقربه من نور وجهى ، إن

الخواطر والصبر  
ينقسم إلى فرض  
وفضل فالفضل كالصبر  
على أداء المفترضات،  
والصبر عن المحرمات  
ومن الصبر الذى هو  
فضل الصبر على الفقر  
والصبر عند الصدمة  
الأولى وكتان  
للسائب والأوجاع  
وترك الشكوى  
والصبر على إخفاء  
الفقر، والصبر على كتم  
النسج والكرامات  
ورؤية العبر والآيات  
ووجوه الصبر فرضا  
وفضلا كثيرة وكثير  
من الناس من يقوم  
بهذه الأقسام من  
الصبر ويضيق عن  
الصبر على الله بلزوم  
صحبة المراقبة والرعاية

مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشقيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا ضللت ذلك به يداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحبها إليه لا يفر عن الاشتغال بي . يستعجلنى القوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيت يداود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع يذكر أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزى وجلالى يداود لأقعدته فى الفردوس ولأغفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضاً : قل لعبادى للتوجهين إلى محبى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بعبون قلوبكم وما ضرركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التستم رضائى . وفى أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه نزع أنك تحبى ، فإن كنت تحبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبى وجهها لا يجتمعان فى قلب . يداود خالص حبيبى مخالطة أهل الدنيا مخالطة ودينك ققلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك ققلدنيه حقاً على أنى أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعينك على الشدائد وإنى قد حلفت على نفسى أنى لا أثيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كفه بين يدى وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزعته الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فأنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها أضف الأشياء إلى لاضداد عملك فتكون متغنياً ولا ينفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حداً فليس لها غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة منى حداً ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندى أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى يصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطاع ثوابى عنها فأنى حلفت بعزى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويق تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المردين ، فلو علم أهل محبى منزلة المردين عندى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يداود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى الخلقين . يداود : تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتيت منها فأحجب عنك محبى لا تؤيس عبادى من رحمتى اقطع شهوتك لى قائما أبحت الشهوات لضعفة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات قائما تنقص حلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول أدنى ما يصل اليهم أن أحجب عقولهم عنى فأنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزته عنها . يداود : لا تجعل بينى وبينك عالماً يحجبك بسكره عن محبى . أولئك قطاع الطريق على عبادى المردين استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإظهار فإن محبى للصوم إيمانه . يداود تحب إلى بمعاذة نفسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتى . وأوحى الله تعالى إلى داود يداود لعلهم لا يدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما اتوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبى

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كاشمة فى التوبة كينونة للراقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات اللواتين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شىء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسمين موضعا وما ذكر تبتاً بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يصرقها فى معصية الله تعالى وهذا أيضاً داخل فى صحة التوبة

يادود هذه إرادتي في الدبرين عنى فكيف إرادتي في القلبين على يادود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما تكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

### ( بيان محبة الله للعبد ومعناها )

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - يحبهم ويحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال - قل فلم يعذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٤) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء للوافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود للتبوع ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه ، وهذا التباعد في سائر الأسماء

(١) حديث أنس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولله في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصححه اسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبي سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضرأ فصبروا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحول والتواضع والذل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وتركيتها بالتوبة

أظهر كالعالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضح اللغة إنما وضع هذه الأسماء أولاً للخلق فان الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائمتها وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتما ما يوافقها فتستفيد بنيله كالأقارب فتلتذ بنيله وهذا حال على الله تعالى فان كل كمال وجهه وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً ولا يتصور تجدد ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الليثي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه السكوت وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأفعاله نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحوث السبب للمتقضى له كما قال تعالى «لا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى للوافق للملائمة له وقد يقرب عبداً ولا يمنع من الدخول عليه لالانتفاع به ولا لاستجداد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق الرضية والحاصل الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافرأه من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحاصل الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحجب نفسه إلى الملك فحجب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني أو الأول وإنما يصح تشبيه بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً اذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ لا تغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال ولا يتكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضاً كذلك فان التليذ يطلب القرب من درجة أستاذ في كمال العلم وجهاله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالزوال إلى درجة تليذه والتليذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم فلا يزال دائماً في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب فكذلك صاراً لكل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت  
بالتوبة النصوح زالت  
عنها الشراسة الطبيعية  
وقلة الصبر من وجود  
الشراسة للنفس وإبائها  
واستعصائها والتوبة  
النصوح تلين النفس  
وتخرجها من طبيعتها  
وشراستها إلى اللين  
لأن النفس بالحاسبة  
والمراقبة تصفو وتطهر  
نيرانها التلأججة  
بتأبئة الهوى وتبلغ  
بطمأنينتها محل الرضا  
ومقامه وتطمئن في  
مجارى الأقدار قال  
أبو عبد الله النجاشي  
«الله عباد يستحيون  
من الصبر ويتلقفون  
مواضع أقداره بالرضا  
تلقفاً وكان عمر بن  
عبد العزيز يقول

الرضا صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فإنه لا نهاية لكمالته وسلك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود فلا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فإذا نجا العبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشاق إلى مافاته وإذا أدرك منه شيئاً يلتذبه والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالاً» (١) فعلمة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشتري حماراً فتركه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار، وفى الخبر «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتبه فان رضى اصطفاه» (٢) وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد يصفيك ، وقال بعض الريدن لأستاذهم قد طولعت بشئ من المحبة فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فأثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيكها عبداً حتى يلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهى» (٣) وقد قال «إذا أراد الله بعبده خيراً أبصره بعبوب نفسه» (٤) فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الشير عليه والدبر لأمره وللزينة لأخلاقه وللمستعمل لجوارحه وللمسدد لظواهره وباطنه والجاعل همومه هما واحداً والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره وللؤنس له بللة الناجاة في خاواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فانها أيضاً علامات حب الله للعبد .

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد ومأسهل الدعوى ومأعز المعنى فلا ينبغي أن ينتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وتمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار القاضية منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقته بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوه

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم .
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتبه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث طى بن أبى طالب ولم يخرج له ولله فى مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة باسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً أبصره بعبوب نفسه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه باسناد ضعيف .

أصبحت ومالى سرور  
إلى مواقع القضاء قال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم لابن عباس  
حين وصاه «اعمل لله  
باليقين فى الرضا فان لم  
يكن فان فى الصبر  
خيراً كثيراً» وفى الخبر  
عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم «من خير  
ما أعطى الرجل الرضا  
بما قسم الله تعالى له»  
فالأخبار والآثار  
والحكايات فى فضيلة  
الرضا وشرفه أكثر  
من أن تحصى والرضا  
ثمرة التوبة النصوح  
وما تخلف عبد عن  
الرضا إلا بتخلفه عن  
التوبة النصوح فاذا  
تجمع التوبة النصوح  
حال الصبر ومقام الصبر  
وحال الرضا ومقام



الرضا والخوف والرجاء  
مقامان شريهان من  
مقامات أهل اليقين  
وهما كائنان في صلب  
التوبة النصوح لأن  
خوفه حمله على التوبة  
ولولا خوفه ما تاب  
ولولا رجاءه ما خاف  
فالرجاء والخوف  
يتلازمان في قلب المؤمن  
ويتبدل الخوف  
والرجاء للتائب المستقيم  
في التوبة. دخل رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
على رجل وهو في  
سياق اللوت فقال  
« كيف تجدك قال  
أجدني أخاف ذنوبي  
وأرجو رحمة ربّي فقال  
ما اجتماع في قلب عبد  
في هذا الوطن إلا أعطاه  
الله ما رجا وآمنه بما

ليتم بمشاهدته واللوت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى الشهادة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه <sup>(١)</sup> » وقال حذيفة عند اللوت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من اللوت وهو مدركك وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من اللوت ولني تعجزه ، وروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله غفلا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجذب أنفي وأذني ويقر بطني فاذا القيتك غدا قلت يا عبد الله من جدد أهلك وأذنتك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيت آخر النهار وإن أسفه وأذنه لم يلتقي في خيط <sup>(٢)</sup> قال سعيد بن المسيب أرجو أن يرى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره اللوت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد آجب اللوت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحييته وتلا قوله تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - فقال الرجل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يتمنين أحدكم الموت <sup>(٣)</sup> » فقال إني أقسم أنه لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت بمن لا يحب اللوت فهل تصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة للوت قد تكون لحب الله والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا كيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم <sup>(٤)</sup> » فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله غفلا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجذب أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية واسناده جيد (٣) حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو يعين في الحلية للرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة.

بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .  
وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس بكرة الموت وإنما يكره  
عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الخبر بقدوم  
حبيه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب  
عن الشواغل خفيف الظاهر عن العوائق فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته  
الدعوى في العمل واستغراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه  
في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويحتجب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال  
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب  
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالایشاء فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم  
حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى  
فحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بنير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها  
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه  
نهارا فتدافعه إلى الليل فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل  
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل  
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولد بن وجاعلها نبيين فقالت أما إذا كان الله تعالى  
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فعندها سكنت إليه ؛ فاذن من أحب الله  
لا يصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعل بديع  
لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى  
وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إيشاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل  
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب المناهى وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال  
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاها ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا  
يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وكفى  
بالله نصيرا - فان قلت فالعصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم  
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على  
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى  
« أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في معصية يرتكبها إلى أن  
أتى به يوما فحده فلعله رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه  
وسلم لا تلغنه فإنه يحب الله رسوله (١) » فلم يخرج به بالمعصية عن المحبة، نعم تخرجه بالمعصية عن كمال الحب

(١) حديث آتى نعيمان يوما فحده فلعله رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلغنه فإنه يحب الله  
ورسوله البخارى وقد تقدم .

يخاف « وجاء في تفسير  
قوله تعالى - ولا تلقوا  
بأيديكم إلى التهلكة -  
هو العبد يذنب  
الكبائر ثم يقول قد  
هلك لا ينفعني عمل  
فالتائب خاف قتال  
ورجا للعفرة ولا يكون  
التائب تائبا إلا وهواراج  
خائف ثم إن التائب  
حيث قيد الجوارح عن  
الكاره واستعان بنعم  
الله على طاعة الله فقد  
شكر النعم لأن كل  
جارية من الجوارح  
نعمة وشكرها قيدها  
عن المعصية واستعمالها  
في الطاعة وأي شاكر  
للنعمة أكبر من التائب  
المستقيم فإذا جمع مقام  
التوبة هذه للقامات  
كلها فقد جمع مقام

التوبة حال الزجر  
وحال الانتباه وحال  
التيقظ ومخالفة النفس  
والتقوى والمجاهدة  
ورؤية عيوب الأفعال  
والانابة والصبر والرضا  
والحساسية والمراقبة  
والرعاية والشكر  
والخوف والرجاء وإذا  
صحت التوبة النصوح  
وتزكت النفس انجحت  
مرآة القلب وبان قبح  
الدنيا فيها فيحصل  
الزهد والزهد يتحقق  
فيه التوكل لأنه لا يزهد  
في الوجود إلا لاعتماده  
على اللودود والسكون  
إلى وعد الله تعالى هو  
عين التوكل وكلما بقي  
على العبدية في تحقق  
القامات كلها بعد  
توبته يستدرکه

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حباً متوسطاً فاذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك للعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قيل لك أحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف الحزين فاحذر اللقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك . ومنها أن يكون مستهتراً يذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلمة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنساناً يحب كلب محله فالحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتشف بالمحسوب ومحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى»<sup>(١)</sup> وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة للناجاة في سنن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلاً ونهاراً ثم لحقتني فترة فاقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلاً يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فصاودت إلى حالي . وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغه إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويتنعم هده الليل وصفاء الوقت باقظاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاة فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الله عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلقي فاني إنما أقطع عني رجلين رجلاً استبطاً ثوابي فاقطع ورجلاً نسيبي ففرض بحاله وعلامة ذلك أن أكمله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشاً من الله تعالى ساقطاً عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخاً نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيباً قال يارب وما عيبه قال يعجبه نسيم الأسفار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلى شيء . وروي أن عابداً عبد الله تعالى في غيضة دهر طويلاً فظفر إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوى إليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر

(١) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة الحديث تقدم .

قال ففعل فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً ، فأذن علامة المحبة كمال الأنس بمنجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلاوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلاوة ويعوق عن لذة النجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذّة النجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب غلة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلاوة وللنجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تسكر على سمعه مزاراً مثل العاشق الوطمان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر الحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي إذا جنة الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فما أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام: يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أنقض نفسه . وقال أيضاً من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما فوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعفاف والاستغتاب والتوبة . قال بعض العارفين إن الله عبادة أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملكاً مليكهم تاماً وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل إليهم ومافاتهم فيحسن تديبره لهم وحق الحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأيّ ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسى وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ويذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم - ومنها أن ينتم بالطاعة ولا يستغفلها ويسقط عنه تعيها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة الحب دوام النشاط والدعوى بشهوة تفتت بدنه ولا تفتت قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ما اشتغى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في للشاهدات فإن العاشق لا يستقل السعى في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فإن كل حب صار غالباً قهر لأمحالة ماهو دونه فمن كان محبوبة أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوماً محباً وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أجيبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فأبش تنفق على قال يا سيدي أملكك ما أملك

يزهده في الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبيد الله بن المبارك قال حدثنا المهيم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ فاطمة رضي الله عنها فآهأهأ أحدثت في البيت سترًا وزوائد في يديها فلما رأى

ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقلت هذا خلق لحلق وعبد أعبد فكيف يعبد لمعبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أشداء على الكفار رحماء بينهم - ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكلفون بحج كايكلف الصبي بالشيء ويأوون إلى ذكري كما يأوى النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فانه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فان الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فان نام أخذه معه في ثيابه فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات قد تمت محبته وخلص حبه فصفى في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب اللقرين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لني نعيم - ثم قال - يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجهم من تسنيم عينا يشرب بها اللقربون - فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصريف الذي هو للقرين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لني عليين - ثم قال - يشهدهم اللقربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهدهم اللقربون وكان الأبرار يجدون للزبد في حالمهم ومعرفهم بقرينهم من اللقرين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالمهم في الآخرة - ما خلقكم ولا يشكم إلا كنفس واحدة - كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقاً - أى وافق الجزاء أعمالهم تقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل للشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب في حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه في الدنيا رجاءاً لنعيم الجنة والحدود العينية والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فليعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته في الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغب عاياه إلا حبه بالاخلاص والصدق أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحدود العينية والولدان واللقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون والمجالسة أقوام آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الألباب (١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون في حبه خائفاً متضاثلاً تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين يخافون في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الإبعاد وهذا للنعى في سورة هود هو الذي شيب سيد

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الألباب البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصراً على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الخوارى ولعله أدرج فيه .

ذلك رجع ولم يدخل  
ثم جلس فجعل ينكت  
في الأرض ويقول  
مالى والدنيا مالى  
والدنيا فرأت فاطمة  
أنه إنما رجع من أجل  
ذلك السر فأخذت  
الستر والزوائد  
وأرسلت بهما مع بلال  
وقالت له اذهب إلى  
النبي صلى الله عليه وسلم  
قل له قد تصدقت به  
فضعه حيث شئت فأنى  
بلال إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فقال قالت  
فاطمة قد تصدقت به  
فضعه حيث شئت فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم  
بأبى وأمى قد فعلت  
بأبى وأمى قد فعلت  
اذهب فبه « وقيل  
في قوله تعالى - إنا  
جعلنا ما على الأرض  
زينة لها لنبلوهم أيهم

الحسين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لثمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود - وإنما أعظم هيبته البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ولا يحسن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لا نهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون (٢) » وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي في اليوم واليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة (٣) » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أضع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فأما الخصوص فيحبهم عن الزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف وذلك هو للكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخين ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته . سمع إبراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا  
قد وهبنا لك ما فاتت فهب ما فات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان الحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب الزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجوعه والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية مماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله للسكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود اللاتسكة من العلم والعقل والله كروا البيان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحكمة فمن أوصافها ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والمزة والاستغناء وذلك من مقدمات للسكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو اللقت والسلو عنه مقدمة هذا اللقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبرواقباضه عن دوام الله كروا ملاه لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام اللقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لامحالة فقدته فلا يخلو الحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلمه فالحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

(١) حديث شيبتي هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أحسن عملا - قيل  
الزهد في الدنيا . سئل  
أمير المؤمنين على بن  
أبي طالب رضي الله  
عنه عن الزهد فقال  
هو أن لا تبالي بمن  
أكل الدنيا مؤمن أو  
كافر . وسئل الشبلي  
عن الزهد فقال ويلكم  
أى مقصد الجناح  
بعوضة أن زهد فيها .  
وقال أبو بكر الواسطي  
إلى متى تصول بترك  
كنيف وإلى متى تصول  
بإعراضك عما لا تزن  
عند الله جناح بعوضة  
فاذا صح زهد العبد  
صح توكله أيضا لأن  
صدق توكله مكنه من  
زهده في الوجود فمن  
استقام في التوبة  
وزهد في الدنيا وحقق

حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم ثبت لذلك طاقة البشر فأنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يا رب انقصه من الذرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفقت أنت لهذا فلما أجبتهك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتهم ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانه يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيتهم فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوف وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والعبيد  
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد  
لقد عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للشهيد  
يرى الأعياد في الأوقات تجري له في كل يوم ألف عيد  
وللا حجاب أفرح بعيد ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهى هذه الأيات :

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم خلوا بقرب الماجد للفضل  
عراسا بقرب الله في ظل قدسه تجسول بها أرواحهم وتنقل  
مواردهم فيها على العز والنهي ومصدرهم عنها لما هو أكمل  
تروح بمن مفرد من صفاته وفي حلل التوحيد تسمى وترقل  
ومن بعد هذا ما تدق صفاته وما كتمه أولى لديه وأعدل  
مأكم من علمي به ما يصونه وأبذل منه ما أرى الحق يبذل  
وأعطي عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى للنعم يفضل  
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه للعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخرت الدنيا بالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخرت الدنيا زهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعيش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفقت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن الله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسرارا وحكما ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرة . ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الاقتراء وتعظم العقوبة عليه في المعنى وتبجل عليه البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون للحب سكرة في جبه حتى يدب فيه وتضطرب أحواله

هذين اللامين استوفى  
سائر القامات وتكون  
فيها وتحقق بها ترتيب  
التوبة مع الرقابة  
وارتباط إحداها  
بالأخرى أن يتوب  
العبد ثم يستقيم في  
التوبة حتى لا يكتب  
عليه صاحب الشمال  
شيئا ثم يرتقى من  
تطهير الجوارح عن  
للمعاصي إلى تطهير  
الجوارح عما لا يعنى  
فلا يسمح بكلمة فضوله  
ولا حركة فضول ثم  
ينتقل للرعاية والمحاسبة  
من الظاهر إلى  
الباطن وتستولى  
للرقابة على الباطن  
وهو التحقق بعلم  
القيام بحجج خواطر  
المعصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على السكبان يقول:  
وقالوا قريب قلت ماأنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري  
فألى منسه غير ذكر بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدرى  
والعاجز عنه يقول :

يخفى فيسدى الدمع أسرارہ ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكم  
وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به  
في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل  
ودخل ذو النون للصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاد فقال لا يحب من وجد  
ألم ضره فقال الرجل لكى أقول لا يحب من لم يتم بضره فقال ذو النون ولكى أقول لا يحب من شهر  
نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة منتهى اللقائات وإظهارها إظهار للخير  
فلماذا يستنكر . فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإنما اللذوم التظاهر بها لما يدخل فيها  
من الدعوى والاستكبار وحق الحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغى  
أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون  
قصد الحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فمشارك في الحب وقادح فيه كما ورد في الانجيل  
إذا تصدقت فصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات بحريك علانية وإذا صمت  
فاغسل وجهك وادهن رأسك لتلايعم بذلك غير ربك فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب  
سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض  
المجانين ما استجبه له فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فقبس ثم قال يا أخى له محبوب صغار  
وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيت من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان  
عارفا وعرف أحوال اللائكة في جهنم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترقون  
ولا يصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكاف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه  
من أخس المحبين في مملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله قال بعض المكشفين من المحبين  
عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت  
أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها بلغت صفا  
من اللائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء فقلت من أنتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا  
منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره قال فاستجيت من أعمالي فوهبتها  
لن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فاذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيامه حق الحياء  
خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته  
كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا  
فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه  
بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدي ثم رجعت إلى السرى فأخبرته  
فقبس ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت يا أستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول  
فاذا تمكن من  
رعاية الخطرات عصم  
عن مخالفة الأركان  
والجوارح وتستقيم  
توبته قال الله تعالى  
لنبيه صلى الله عليه  
وسلم - فاستقم كما  
أمرت ومن تاب  
معك - أمره الله  
تعالى بالاستقامة فى  
التوبة أمر الله لولا تبايعه  
وأتمه وقيل لا يكون  
للريد مريدا حتى  
لا يكتب عليه صاحب  
العمل شيئا عشرين  
سنة ولا يلزم من  
هذا وجود العصمة  
ولكن الصادق الثائب  
فى النادر إذا ابتلى  
بذنوب يمحى أثر الذنب  
من باطنه فى



لو شئت أقول ما ليس جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق ، نعم قد يجب لله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام قالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان فأما الخاصة فقالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يجب هواه وعدو الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى قدمت فيه هذه العلامات أو يلبس بها ثقافا ورياء ومهمة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ككلماء السوء وقرءاء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال يادوست أى يا حبيب قليل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال فى أذن القائل سرا: لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخشي في علامات المحبة آياتا :

لا تتحد عن قلحبيب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل  
\* منها تنعمه بحر بلائه وسروره فى كل ما هو فاعل  
فالتنع منه عطية مقبولة والفقير إكرام وبر عاجل  
ومن الدلائل أن ترى من عزمه طوع الحبيب وإن ألح العاذل  
ومن الدلائل أن يرى متبسما والقلب فيه من الحبيب بلايل  
ومن الدلائل أن يرى متفهما لكلام من يحظى لديه السائل  
ومن الدلائل أن يرى متشفعا متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا فى خرتين على شطوط الساحل  
ومن الدلائل حزنه ونحيبه جوف الظلام فما له من عاذل  
ومن الدلائل أن تراه مسافرا نحو الجهاد وكل فصل فاضل  
ومن الدلائل زهده فيما يرى من دار ذل والتعيم الزائل  
ومن الدلائل أن تراه باحيا أن قد رآه على قبيح فعاثل  
ومن الدلائل أن تراه مسلما كل الأمور إلى للمليك العادل  
ومن الدلائل أن تراه راضيا بملكه فى كل حكم نازل  
ومن الدلائل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الثا كل

( بيان معنى الأنس بالله تعالى )

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

ألطف ساعة لوجود  
الندم فى باطنه  
على ذلك والندم توبة  
فلا يكتب عليه  
صاحب الشمال شيئا  
فاذا تاب توبة نصوحا  
ثم زهد فى الدنيا  
حتى لا يهتم فى غذائه  
لشائه ولا فى عشاءه  
لغذائه ولا يرى الادخار  
ولا يكون له تعلق  
بمفسد قد جمع  
فى هذا الزهد  
والفقر والزهد أفضل  
من الفقر وهو فقر  
وزيادة لأن الفقير  
عادم للشيء اضطرارا  
والزاهد تارك للشيء  
اختيارا وزهده  
يحقق توكله وتوكله  
يحقق رضاه ورضاه  
يحقق الصبر وصبره

في الازعاج شوقا وهو بالاضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشيره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم اللبالة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تأله خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقى في الامكان من مزاي الألفاف ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت؟ فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبني مستأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرباعية ثم نلت هذه للترلة قالت بركي ملا يعنيق وأنسى عن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مرت يراهب ققلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العباد ققلت ياراهب ما أقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت للعامة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع لهم فصارها واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور ومخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستأنوا ما استوعر للترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالحل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد وقد ذهب بعض التكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال الدركات بالبصائر أكمل من جمال البصرات ولذا معرقها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بعلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

بحقق حبس النفس  
وصدق المجاهدة  
وحبس النفس لله  
يحقق خوفه وخوفه  
يحقق رجاءه ويجمع  
بالتوبة والزهد كل  
للقامات والزهد  
والتوبة إذا اجتمع  
صحة الإيمان وعقوده  
وشروطه يعوز هذه  
الثلاثة رابع بهتمامها  
وهو دوام العمل لأن  
الأحوال السنية  
يتكشف بعضها بهذه  
الثلاثة وتيسر بعضها  
متوقف على وجود  
الرابع وهو دوام  
العمل وكثير من  
الزهاد للتحققين بالزهد  
للتقنين في التوبة  
تخلفوا عن كثير من  
سنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطل وليس يدركه بلحول محتال  
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صنفوة لله عمال  
( بيان معنى الانبساط والادل الذي ثمره غلبة الأنس )

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينقصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر  
نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه  
من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقيم في ذلك للقام ويتشبه بهم  
في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كلمه موسى  
عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل بعد أن قطعوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام  
ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم دنوبهم  
سراهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له  
يخرج حتى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشى في طريق  
إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فصرفه موسى  
عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمي برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين  
اخرج فاستسقى لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حملك وما الذي بدالك أتقصت  
عليك عيونك أم عانت الرياح عن طاعتك أم فقد ما عندك أم اشتد غضبك على اللذنين ألسنت كنت  
غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنك تمنع أم تخشى القوت فتعجل  
بالعقوبة قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ  
الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفتني  
فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن  
قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر  
بذلك فبعث إلى صاحب الحص قال فأني بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال إني أقسمت على  
ربى عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضى الله عنه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول  
« يكون في أمي قوم شعثة رءوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبره » (١) قال ووقع حريق بالبصرة  
فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على  
ربى عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ قال فزمت عليها فطفئت وكان أبو حفص  
يمشى ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حفص ما أصابك فقال ضل حماري ولا أملك غيره  
قال فوقف أبو حفص وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره قال فظهر حماره في الوقت ومر  
أبو حفص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجري لدى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله  
أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة لومعها  
العموم لكفروهم وهم يجدون للزبد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولا  
ناهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما ناهوا  
ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلفت مقامهما في القرآن تنبيهات على

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعثة رءوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبره ، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

عن هذا الرابع ولا  
يراد الزهد في الدنيا  
إلا لكمال الفراغ  
للاستعانة به على إدامة  
العمل لله تعالى والعمل  
لله أن يكون العبد  
لا زال ذا كرا أو تاليا  
أو مصليا أو مراقبا  
لا يشغله عن هذه إلا  
واجب شرعى أو مهم  
لا بد منه طبعى فاذا  
استولى العمل القلبي  
على القلب مع وجود  
الشغل الذى أداه إليه  
حكم الشرع لا يفتقر  
باطنه عن العمل  
فاذا كان مع الزهد  
والتقوى متمسكا  
بدوام العمل فقد  
أكمل الفضل وما إلى  
جهدا في العبودية

هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار فأنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس أمتارها كيف اشتركا في اسم للعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة . أما إبليس فأبليس عن رحمته . وقيل إنه من المبغدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه - وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباء ربه فتاب عليه وهدى - وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الأعراض عن عبد والاقبال على عبد وهما في العبودية سياتن ولكن في الحال مختلفان ، فقال - وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى - وقال في الآخر - أما من استغنى فأنت له تصدى - وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، فقال عز وجل - وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم - وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال - وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم - حتى قال - فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - وقال تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام - إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتمهدى من تشاء - وقوله في التعليل والاعتذار لما قيل له - اذهب إلى فرعون - فقال - ولهم على ذنب - وقوله - إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى - وقوله - إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى - وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهية فوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة - لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم - . قال الحسن العراء هو القيامة ، ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له - فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم - وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى - ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض - وقد قال - منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات - فكان عيسى عليه السلام من الفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال - والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا - وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم مقام الهية والحياة فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال - وسلام عليه - وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه يوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى - إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع فففر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل محي من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من السرفين وكانت معصيته في الجوارح ففعا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام يارأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصيني ابن خالك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لئن أخذته عصفه من عصفائى عليه لأتركته مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :  
من خرج من قالب  
العبودية صنع به ما  
يصنع بالآبق . وسئل  
سهل بن عبد الله  
القسري : أى منزلة إذا  
قام العبد بها مقام  
العبودية قال إذا ترك  
التدبير والاختيار فاذا  
تحقق العبد بالتوبة  
والزهد ودوام العمل  
لله يشغله وقته الحاضر  
عن وقته الآتى ويصل  
إلى مقام ترك التدبير  
والاختيار ثم يصل إلى  
أن يملك الاختيار ،  
فيكون اختياره من  
اختيار الله تعالى لئوال  
هواه ووفور علمه  
واقطاع مادة الجهل  
عن باطنه . قال يحيى  
ابن معاذ الرازى مادام

كثيما من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تنب علي وكيف أستعصم إن لم تعصمني لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفي الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على الملكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلك في دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به للشبهة الأذلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يعرف إليهم بالتقديس فيقول - قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وتارة يعرف إليهم بصفات جلاله فيقول - الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر - وتارة يعرف إليهم في أفعاله المخوفة والرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول - ألم تركبوا ربك بعد إرم ذات العماد - ألم تركبوا ربك بأصحاب القيل - ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه وأمعرفة صفاته وأسمائه وأمعرفة أفعاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث القرآن فقال « من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن (١) » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور : لا يكون حاصلًا منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد - ولا يكون حاصلًا من هو مثله ودل عليه قوله - ولم يكن له كفوا أحد - ويجمع جميع ذلك قوله تعالى - قل هو الله أحد - ووجلت تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تنتهي أمثال هذه الأسرار في القرآن - ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه نوروا القرآن واتمسوا غرائب فيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرف إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفًا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار فكن حريصًا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحق معه العلوم للزخرفة الخارجية عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

( القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته )

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات القربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقفه في الدين فقد أنكر منكرين تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وأنخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالعبور والسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشف هذه الأسرار لمن انتصر على صماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم قهقه في الدين وعلمه التأويل (٢) »

(١) حديث من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه (٢) حديث دعاه لابن عباس اللهم قهقه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

العبد يعرف يقال له لا تختار ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفاً يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختار لأنك إن اخترت فاختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فاختيارنا تركت الاختيار فإنا في ترك الاختيار والعباد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها لأن ترك التدبير فناء وعليك التدبير

فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدماء والسكوت على المعاصي .

( بيان فضيلة الرضا )

أما من الآيات فقوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى - ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والنكروا لذكر الله أكبر - فكما أن مشاهدة للذكر في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » (١) فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقة وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقة إذ تنصير أقسام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستغل بأدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فأنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمان لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلوهم أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولدينا مزيد - قال بعض المفسرين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزبد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى - سلام قولاً من رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أنتم قائلوا مؤمنون فقال ماعلماة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة » (٢) وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء » (٣) وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به » (٤) وقال عليه السلام « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » (٥) وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فان صبر اجتبه فان رضى اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أتيت الله تعالى لطائفة من أمي أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم

(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك البراري في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقكم وعدى وآتممت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو يعلى بلفظه ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أنتم قائلوا مؤمنون فقال ماعلماة إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضاً (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظه وقع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل ورواه في أمالي المحاملى بأسناد ضعيف من حديث طي بن أبي طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس .

والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره وباطنه في العبودية وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تنكلى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع اكلا ثنى كلاءة

للائسكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول اللائسكة من أمة من أتم؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه النزلة بفضل رحمة الله فيقولون وماها؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول اللائسكة يحق لكم هذا<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا<sup>(٢)</sup>». وفي أخبار موسى عليه السلام إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم، ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ماله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه<sup>(٣)</sup>» وفي أخبار داود عليه السلام مالأوليائي والمهم بالدنيا إن المهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم. يا داود إن محبي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يفتنمون. وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلي على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه: إن رضائي في كرهك وأنت لا تصبر على ماتكره. قال يارب دلي عليه، قال فإن رضائي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه المحبوب سألني قال فأبى خلقك أنت عليه ساخط. قال من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي. وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي<sup>(٤)</sup>» ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت للقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا مني حتى يلقاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني<sup>(٥)</sup>» وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف<sup>(٦)</sup>» وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكى إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكوا هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفه من أمتي أجنحة فيطفرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن طي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قهركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماله عنده الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ منزلته ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت للقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجده بهذا اللفظ والطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عني.  
[ الباب الستون :  
في ذكر إشارات  
الشايع في اللقائات  
على الترتيب ]  
قولهم في التوبة قال  
روى معنى التوبة أن  
يتوب من التوبة قيل  
معناه قول رابعة  
أستغفر الله العظيم  
من قلة صدقي في قولي  
أستغفر الله . وسئل  
الحسن للغازلي عن  
التوبة ، فقال تسألني  
عن توبة الانابة أو  
عن توبة الاستجابة  
فقال السائل ماتوبة  
الانابة ؟ فقال : أن  
تخاف من الله عز  
وجل من أجل  
قدرته عليك . قال  
فما توبة الاستجابة .

قال أن تستحي من  
الله لقربه منك  
وهذا الذي ذكره  
من توبة الاستجابة  
إذا تحقق العبد بها  
ربما تاب في صلاته  
من كل خاطر يلعب به  
سوى الله تعالى  
ويستغفر الله منه  
وهذه توبة الاستجابة  
لازمة لبواطن أهل  
القرب كما قيل  
وجودك ذنب لا يقاس  
به ذنب . قال ذوالنون  
توبة العوام من  
الذنوب ، وتوبة  
الخواص من الغفلة ،  
وتوبة الأنبياء من  
رؤية مجزئ عن  
بلوغ مآله غيرهم .  
سئل أبو محمد  
سهل عن الرجل



قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن حجة قهمن عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) » .

( بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى )

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فأعني من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفصال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجري عليه اللؤم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الهم استدلل به على الجراحة بل الذي يحدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ الزين والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ماعده فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يقيم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة للدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة للدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه قد يهره بحيث يدهش ويتشئ عليه فلا يحس بما يجري عليه . فقد روى أن امرأة فتحت للوصلى عثرت فاقطع ظفرها فضحكته فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لثة ثوبه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك قال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راعياً فيه مريداً له أعنى بعقله وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتبس من القصاد القصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقنه من القصاد به منة بفعله فهنا حال الراضى بما يجري عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمره سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا لغنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد توأفها للتوأفون في نظمهم وشرهم ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بدايته من نقطة مذنرة ونهايته جيفة قدره وهو فيما بين ذلك يحمل المذرة وإن نظر إلى للدرك

(١) حديث إن الله يحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا والفرح في الرضا الحديث الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بقسطه وقد تقدم .

يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله أن ينسبه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته قال وإن غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فإنه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقيح جيلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزل الأبدي الذي لا ينتهي لكأله المدرك بعين البصيرة التي لا يعثرها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي الخرج منها . وقال الجنيد سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مرت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فنبهته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأني عاشق فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأن معشوق كان يجذاني ينظر إلى قفلي فلو نظرت إلى العشوق الأكبر قال فزعت زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعتي إربا إربا ما زددت له إلا حبا . قال بشر فما رأيت بعد ذلك قفلة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا انظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستنهارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسنن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والهاس حوله وهو يقول:

يوم الفراق من القيامة أطول وللموت من ألم الفراق أجمل

قالوا الرحيل قفلة لست براحل لكن مهجتي التي ترحل

ثم بقر بالمدينة بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لي أنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلي على أعبد أهل الأرض فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب بصره فسمعه وهو يقول : إلهي متعتني بهما ماشئت أنت وسلبتني ماشئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضيينا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فآخذ اليك يوقظهم للصلاة والجمار يتقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فخرنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فخرنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقواهم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

إلى قاله سهل كاف  
بالغ لكل طالب صادق  
يريد صحة توبته .  
والعارف القوى الحال  
يتمكن من إزالة  
الحلاوة عن باطنه  
ويسهل عليه ذلك .  
وأسباب سهولة ذلك  
متنوعة للعارف ومن  
يمكن من قلبه حلاوة  
حب الله الخاص عن  
صفاء مشاهدة وصرف  
يقين فأى حلاوة تبقى  
في قلبه وإنما حلاوة  
الهوى لعدم حلاوة حب  
الله . وسئل السوسي  
عن التوبة فقال التوبة  
من كل شيء ذمه العلم  
إلى مامدحه العلم وهذا  
وصف يعم الظاهر  
والباطن لمن كوشف  
بصره العلم لأنه لا بقاء

والحمير والديكة فكانت الحيرة لمؤلا في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفي  
 لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . وروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد  
 مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا  
 من خلقه فقال له عيسى يا هذا أى شئ من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله أنا خير من لم يجعل  
 الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناول به يده فاذا هو أحسن الناس وجها  
 وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير  
 رجله من ركبتة من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وإعك لأن كنت أخذت  
 لقد أقيت ولئن كنت ابتليت لقد عاقبت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقروالتقى  
 مطيتان ما أنالى أيتهما ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الثنى فإن فيه البذل . وقال  
 أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فإلى منه إلا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل  
 الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا ، وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال  
 أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لوجعني جسرا على جهنم يعبر الخلائق على إلى الجنة ثم ملائي  
 جهنم تحلة لقسمه وبدلا من خليفته لأحييت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم  
 أن الحب قد استغرق همه حتى منه الاحساس بألم النار فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في  
 استشعاره حصول رضا محبوبه بالقائه إياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان  
 بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن  
 ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي قول فلان  
 وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامعناه فقال يا هذا إن كان هذا من  
 طريق التعظيم والجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال  
 ثم غشى عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم  
 ولا يقعد قد قُب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العام  
 فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ قال لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فإن أحبه  
 إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحدثك شيئا لعل الله أن ينفكك به وإكتم على حتى أموت إن لللائكة  
 تزورني فأتس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه  
 النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن منبة  
 نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقال له امرأته أهلى فداؤك ما نطعمك  
 ما نسقيك فقال طالت الضجة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسقي شربا منذ كذا  
 فذكر أياما وما يسرني أنى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة وقد  
 كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعوه لهذا ولهذا وكان مجاب  
 الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فرفني وقال أنت قارى أهل مكة؟  
 قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها فقلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك  
 بصرك فتبسم وقال يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير  
 ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراض عليه فيما قضى أشد  
 على من ذهاب ولدى ، وعن بعض العباد أنه قال إني أذنب ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة  
 وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو ؟ قال قلت مرة لشيء كان ليته

للجهل مع العلم كما لا بقاء  
 لليل مع طلوع الشمس  
 وهذا يستوعب جميع  
 أقسام التوبة بالوصف  
 الخاص والعام وهذا  
 العلم يكون علم الظاهر  
 والباطن بتطهير الظاهر  
 والباطن بأخص  
 أوصاف التوبة وأعم  
 أوصافها . وقال  
 أبو الحسن النورى  
 التوبة أن تتوب عن  
 كل شئ سوى الله  
 تعالى . قولهم في الورع  
 قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم « ملاك  
 دينكم الورع » أخبرنا  
 أبو زرعة إجازة عن  
 أبي بكر بن خلف عن  
 أبي عبد الرحمن السلى  
 إجازة قال أنا أبو سعيد  
 الحلال قال حدثني

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد هبنا رجل قد تعبد خمسين سنة تقصده فقال له يا حيبي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فأتبما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتكم خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتتقي إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تعد في طبقات أصحاب اليقين لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال من أتم ؟ فقالوا محبوبك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريها فقال ما بالكم ادعيت محبة إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلسم يلقي الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصعب من ذهب ظل بشير بها ولو كان بها شلل ظل يوارى بها يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسري احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين قاتل من التجارة وترك الحانوت بقة عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستجيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يغلب الحب بحيث ينغم مراد الحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه وثبوت إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل \* فلأجرح إذا أرضاكم ألم \* وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من قدده من نفسه لأنه إنما قدده لفقده سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف عجائبه فالمتعجبين عجائب أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولاسما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت فقالت مت رايدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق ثوبه وغمض عينيه فمات . وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى هذا النفاق الذي تظهر لي فقال قد علم الله أنني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال إن كنت صادقا فمت قال فتحنى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال سمنون الحب كان في جيراننا رجلا وله جاريتة يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فيينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت للعقل من يده وجعل يحرك مافي القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن

عثمان قال حدثنا بقة عن

أبي بكر بن أبي مريم

عن جبيب بن عبيد

عن أبي الدرداء رضى

الله عنه « أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم

نوصا على نهر فلما فرغ

من وضوئه أفرغ فضله في

النهر وقال يبلغه الله

عز وجل قوما يتفهم

قال عمر بن الخطاب

لا ينبغي لمن أخذ بالقوى

ووزن بالورع أن يذل

لصاحب دنيا قال

معروف السرخي احفظ

لسانك من اللدح كما

تحفظه من الدم . نقل

عن الحرث بن أسد

المحاسبي أنه كان على

طرف أصبعه الوسطى

عرق إذا مديده إلى

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فخلوه ميتا فهذا أو أمثاله قد يصدق به في حب الخلق والتصدق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال، نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور والذي قد السمع ينكر لذة الألحان والنفحات الموزونة فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق . سئل الشبلي عن الورع فقال الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين . وقال أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا . وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل . سئل الخواص عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلمي قال سمعت الحسن بن أحمد

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى اللقائات من الرضا وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله سيد عودنا رغابا ورهبا وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عبادته وضمهم على الرضا به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا نوا بها - وقال تعالى - رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع على قلوبهم - وفي الخبر المشهور - من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد فعله » وفي الحديث «الدال على الشر كفاعله» (١) وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر «لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله» (٢) وقد أمر الله تعالى بالחסد وللنفاقة في الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يثبها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق » (٣) وفي لفظ آخر «ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتاني هذا لفعلت مثل ما يفعل » . وأما بعض الكفار والفجار والانسكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - وقال تعالى - يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - وقال تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا - وفي الخبر «إن الله تعالى أخذ لليثاق على كل مؤمن أن ينفذ كل منافق وعلى كل منافق أن ينفذ كل مؤمن» (٤) وقال عليه السلام «لراء مع من أحب» (٥) وقال «من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة» (٦) وقال عليه السلام «أوتق

(١) حديث الدال على الشر كفاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا (٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله لم أجده أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدي من حديث أبي هريرة من حضر معصية فكرها فسكرأنا غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فسكرأنا حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا حسد إلا في اثنتين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ لليثاق على كل مؤمن أن ينفذ كل منافق الحديث لم أجده أصلا (٥) حديث للراء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرة من زاد ابن عدي يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف .

عري الايمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلانبيده. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت للعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا ومموه حسن الخلق وهو جهل محض بل يقول الرضا والكراهة بتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك للصبي لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه متمموتا عند الله وبغضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد وللتفت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي عبيدني إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لي حتى إذا شتمني أنبغضته وأتخذته عدوا لي فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوي وكل من أنبغضه أعلم أنه صديقي وعبيي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشرط المحبة أن يقول أما تديرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا محب له وراض به فانه رأيك وتديرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم للوجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتديرك الذي دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لك ذلك نقصانا في تديرك وتعويضا في مرادك وأنا كاره لمرادك ولكنه من حيث إنه ووصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تديرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحبه له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا وأما بغضه لك فاني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أنبغضه من حيث إنه وصف ذلك البغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو متمموت عندى لمقته إياك وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الهينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاء بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا. وقال الخواص: الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة قولهم في الزهد: قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التبع. وسئل الشبلي عن الزهد فقال لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد أو يزهد فيما هو له

(١) حديث أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة (٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله يقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدري الخير حيث كان ثم رضني به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لاتخصى فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب للعصية ويجره الحب إلى فعل للعصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثالا يجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي العصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقتته فواجب على كل عبد محب لله أن يفيض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويبغض من أبغضه الله عن حضرته وإن اضطره بهرته وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره وللبعد عن درجات القرب ينزهي أن يكون مقبلا بغضا إلى جميع المحبين موافقة للمحجوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من بغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سرّ القدر الذي لا رخصة في إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير اقتراف في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تشوهه»<sup>(١)</sup> وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت للعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من العاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصائه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومثقة كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والمملكة للمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا بألى أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لأدري أيهما خير لي .

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تشوهه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

فكيف يزهد فيه وهو  
معه وعندة فليس  
إلا ظلف النفس وبئله  
مواساة ، يشير إلى  
الأقسام التي سبقت بها  
الأقلام وهذا لو اطرده  
هدم قاعدة الاجتهاد  
والكسب ولكن  
مقصود الشيل أن يقلل  
الزهد في عين للعد  
بالزهد لئلا يقترب به .  
قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «إذا  
رأيتم الرجل قد أوتي  
زهدي في الدنيا ومنطقا  
فأقربوا منه فإنه يلقي  
الحكمة» وقد سمى الله  
عز وجل الزاهدين  
عساء في قصة قارون  
فقال تعالى - وقال  
الذين أوتوا العلم ويلكم  
نواب الله خير - قيل

( بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يندفع في الرضا )

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلده ظهر به الطاعون <sup>(١)</sup> يدل على النهي عن الخروج من بلده ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو قسح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه الرضى مهملين لا تمتهد لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف <sup>(٢)</sup> ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان للمعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة للواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها أجل التنفير عن العصية ليست مذمومة فإزالة السلف الصالح يعتادون ذلك حتى انفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد ظفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستغفر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها إلا شريطا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه بغداد يقرب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأجبار . وقال ابن عمر رضى الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فأتصنع به بلغنى أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قرينا من البلاد وذكر كعب الأجبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر و فيه الداء المضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فثلاثة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرب بعبادة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أخدم في زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثاله للتعبد بغداد مثال التعبد في الحش وكان يقول لا تهتدوا بي في المقام بهما من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسى قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريهم شرير فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فان منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون منزعا عن القلب منها قائلا على الدوام - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل للطبعين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - فاذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق بالإمن حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل اللقائات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا أختار شيئا بل أَرْضَى

(١) حديث النهي عن الخروج من بلده الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلده الطاعون بالفرار من الزحف تقدم فيه .

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا ، وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم آئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر « العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم » وجاء في الأثر لا تزال لاله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا ما قص من دنياهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .



بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلمهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري كنت أكره موت القبأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما أخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقبل لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب السكبة .

( بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم )

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحبة متعوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من السبعة فقال أنا كل السبعة وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قليل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمعت على فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . وحكي عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخضيه مع عقبه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قد قال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم الشيء على الماء والشيء في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذمتي أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في اللسكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتهما إلى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفضلن بك ولأفضلن فذكر أشياء ، قال يحيى فهالني ذلك وامتلات به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لاسألتك للعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويالك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه . وحكي أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض الريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والريد مشغول بعبادته ومواجهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكره عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد للريد فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغنانني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويالك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فهبت الفتى من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويالك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ للمالية والجاهية وحب للزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء وسئل الشبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في

عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت فقال احملني إليه فذكر قصة قال في آخرها فوقنا على تل ننظره  
ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوى إلى غيضة فيها سبع قال فمر بنا وقد قلب فزوة على ظهره فقلت  
لأبي يزيد فأنظر إليه فنظر إليه الفتى فصعق فخر كناه فإذا هوميت فتعاونوا على دفنه فقلت  
لأبي يزيد ياسيدي نظره إليك قتله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف  
له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريرين فقتله ذلك.  
ولما دخل الزنج البصرة قتلوا أنفسهم ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى  
دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم  
إلا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله  
أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال لو سألوهم أن لا يقيم الساعة لم يقيمها وهذه أمور ممكنة في أنفسهم  
فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل  
عميم وعجب لملك وللكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لانهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى  
لا غاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب  
ما وراء ذلك فان عنده فوق ذلك أضعاقا مضاعفة فان سكنت إلى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم  
ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء  
رأيتن يتسعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت  
إليهن نظرة فوقت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال،  
وقيل لي انظر إليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لثلاث أنظر إليهن وقلت أعوذ بك  
مما سواك لاحاجة لي بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني . فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي  
أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه  
القاسي لضاق بحال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد تجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة  
أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم  
مكاشفة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخلق فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم  
وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق فيفيض  
عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري  
مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت وتقيت وصقلت وصورت  
بصورة المرأة فنظر للنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو  
لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف للرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك  
غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك  
وقصور من رآه وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يشم روائح المكاشفة من  
سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأى شيء بلغت هذه المراتبة قال كنت أكرم الله  
تعالى حالي معناه أسأله أن يكتم على ويغني أمرى . وروى أنه رأى الحضرة عليه السلام ، فقال له  
ادع الله تعالى لي ، فقال يسر الله عليك طاعته . قلت : زدني قال وسترها عليك ، فقيل معناه  
سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال ألقني  
الشوق إلى الحضرة عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئا كان أهم الأشياء  
علي . قال فرأيت ما غلب على همي ولا همي إلا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئا إذا قلته حجت عن  
قلوب الخليفة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل : اللهم أسبل على كفيف

زهدهم في الدنيا  
لهوانها عندهم وعندي  
أن الزهد في الزهد  
غير هذا وإنما الزهد  
في الزهد بالخروج من  
الاختيار في الزهد لأن  
الزاهد اختار الزهد  
وأرادته وإرادته تستند  
إلى علمه وعلمه قاصر  
فاذا أقيم في مقام ترك  
الارادة وانسلخ من  
اختياره كاشفه الله  
تعالى بمراة فيترك  
الدنيا بمراة الحق لا بمراة  
نفسه فيكون زهده  
بالله تعالى حينئذ أو  
يعلم أن مراد الله منه  
التلبس بشيء من  
الدنيا فما يدخل بالله  
في شيء من الدنيا  
لا ينقص عليه زهده  
فيكون دخوله في

سترك وحط على سرادقات حبيبك واجعلني في مكنون غيبك واحببني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أراه ولم أشتق إليه بعد ذلك فمازلت أقول هذه الكامحات في كل يوم فكي أنه صار بحيث كان يستدل ويمتن حتى كان أهل القمة يستخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذله وخموله فكذا حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا للعز والفرورون إنما يطلبونهم تحت الرقعات والطياسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأتي إلا إخفاءهم كما قال تعالى يا أوليائي تحت قباني لا يعرفهم غيري ، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشاهد هذه العاني القلوب المتكبرة العجبة بأنفسها للمستبشرة بعلمها وعلمها وأقرب القلوب إليها القلوب للنكسرة للمستشعرة ذلت نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح فان قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الايمان بإمكان ذلك لأنه فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فمسي أن يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحسكة إلا في قلب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بأذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة حتى روى أن ابن الكربي وهو أستاذ الجنيدي دعا رجلا إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر دمه يدعى فيرمى له عظم فيعود ولوردتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة فمرت فيها بالصالح فتشقت على قلبي فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها لم يست مرقتي فوقها وخرجت وجملت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فزغوا مرقتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا قصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان للفتت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ، ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لأفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأجبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء ؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لا تقبله ، قال فاذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى اللزير فاحلق رأسك ولحيتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك حذاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعتني صفعة أعطيتني جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند اليهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسيحها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الشيء من الدنيا بالله  
وباذن منه زهدا  
في الزهد والزاهد  
في الزهد استوى عنده  
وجود الدنيا وعدمها  
إن تركها تركها بالله  
وإن أخذها أخذها  
بالله وهذا هو الزهد في  
الوهد وقد رأينا من  
العارفين من أقيم في  
هذا المقام . وفوق هذا  
مقام آخر في الزهد وهو  
لمن يرد الحق إليه  
اختياره لسعة علمه  
وطهارة نفسه في مقام  
البقاء فيزهد زهدا  
ثالثا ويترك الدنيا بعد  
أن مكن من ناصيتها  
وأعيدت عليه  
موهوبة ويكون تركه  
الدنيا في هذا المقام  
باختياره واختياره

وما سبحت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتني على غيره فقال ابتدء بهذا قبل كل شيء فقال لا أطيعه قال قد قلت لك إنك لا تقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظرة إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا يتجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطبق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يعرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات الصحة الإيمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال عليه السلام «لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف» (١) وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا» (٢) وقال عليه السلام «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاء في باطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له» (٣) وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية» (٤) فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يحمد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراء الإيمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إيماناً اتخذ لخلق من لا يفر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيء من خلقه وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجما وإن قطع بالمشير لم يجد لمس الحديد ألماً . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والكشفات وكل ذلك وراء الحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم» (٥) وفي حديث آخر «إن الله تعالى ثلثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يارسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأجبها إلى الله السخاء» (٦) وقال عليه السلام

من اختيار الحق قد  
يختار تركها حيناً تأسياً  
بالأنبياء والصالحين  
ويرى أن أخذها في  
مقام الزهد رفق أدخل  
عليه لموضع ضعفه عن  
درك شأو الأقوياء من  
الأنبياء والصديقين  
فترك الرفق من الحق  
بالحق للحق وقد يتناولوه  
باختياره رقاً بالنفس  
بتدبير يسوسه فيه  
صرح العلم وهذا  
مقام التصرف لأقوياء  
العارفين زهدوا ثالثاً  
بالله كما رغبوا ثانياً بالله  
كما زهدوا أولاً لله .  
[ قولهم في الصبر ]  
قال سهل: الصبر انتظار  
الفرج من الله وهو  
أفضل الخدمة وأعلاها  
وقال بعضهم: الصبر

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وطى هذا فهو معضل فعلى ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم الراوى ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات قد كرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى ثلثاً خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقت بضعة عشر وثلثاً خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلثاً شريعة وثلاث عشرة شريعة

« رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمي فوضعت في كفة فرجح بهم (١) » ومع هذا كله فقد كن استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

( خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالحبية ينتفع بها )

قال سفيان : الحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الذكر وقال غيره إظهار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات الحبة فأما نفس الحبة فلم يتعرضوا لها ، وقال بعضهم الحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتع الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى الحبة على صاحب العلاقة وقال كل حبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت الحبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحبة فقال العارف إن تنكلم هلك والمحبة إن سكنت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم  
يارافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم  
ولغيره : عجب لمن يقول ذكرت إلي وهل أنسى فأذكر ما نسيت  
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييت  
فأحيا بالمي وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت  
شربت الحب كأسا بعد كأس فما نهد الشراب وما رويت  
قلت خياله نصب لعيني فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدنا على حبيتنا فقالت خادمة لها حبيتنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إن إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم ممنون يوما في الحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات وقال إبراهيم بن أدهم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأنستني بذكرك وفرغني للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحقق يندو وزوج في لاش والعاقل عن عيوبه فناش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إنني لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق دخلني عن حب الخلق وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحبة لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاة مولاة وقال الشبلي المحبة دهن في لذة وحيرة في تعظيم وقيل المحبة أن تمدحو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحترق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الإيمان وللبراز من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمي في كفة فرجحت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً الحديث متفق عليه وقد تقدم.

أن تصبر في الصبر  
أي لا تطالع فيه  
الفرج . قال الله تعالى  
والصابرين في البأساء  
والضراء وحين البأس  
أولئك الذين صدقوا  
وأولئك هم المتقون .  
وقيل : لكل شيء  
جوهر وجوهر الانسان  
العقل وجوهر العقل  
الصبر فالصبر عرك  
النفس وبالعرك تلين  
والصبر جار في الصابر  
يجري الأنفاس لأنه  
يحتاج إلى الصبر عن  
كل منهي ومكروه  
ومذموم ظاهر وباطن  
والعلم يدل والصبر  
يقبل ولا ترفع دلالة العلم  
بغير قبول الصبر ومن  
كان العلم سائس في  
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب على أربع منازل على المحبة والمهنية والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرها وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من التبعيدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت اللوت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وجبال القائه قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عمالك قالت لا ولكن لحي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم الدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لما تروا شوقا إلىّ وتقطعت أوصالهم من محبتي يا داود هذه إرادتي في الدبرين عنى فكيف إرادتي في القليلين علىّ يا داود أحوج ما يكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلىّ وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسا معشر الأنبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلي رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكركم للذاكرين وحنى للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق إليه جد في مسيره وكان الخواص رحمهم الله يضرب على صدره ويقول واشوقه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى أنحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا منى إليك وعن طي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال « سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال للعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز غفري والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حبي والجهاد خلقى وقرة عيني فى الصلاة (١) » وقال ذوالنون سبحة من جعل الأرواح جنودا مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الغافلين هوائية فذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ رأيت فى جبل اللكام رجلا أعمى اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

### ﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

( وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان المؤمنين ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث طي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال للعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني الحديث ذكره القاضى عياض من حديث طي بن أبي طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقرا ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرها العزيمة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتحمل على النفس وبالعلم ترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل ومحة الاعتدال وبانفصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح ويان ذلك يبدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القربان أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فإله إلا الدين الخالص التين . فانه أغنى الأغنياء عن شركة للشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[ أما بعد ] فقد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعمل والعبادة فالناس يكلمهم هلكت إلا العالمون والعالمون كلهم هلكت إلا العاملون والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عتاء والنية بغير إخلاص رياء وهول لتناق كفاء ومع العصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً - وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - وليت شعري كيف يصح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحيح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتصل للعروة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [ الباب الأول في النية ] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيراً من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

#### ( بيان فضيلة النية )

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - وللرء بتلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينسكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب القروش ورب قليل بين الصنفين الله أعلم بنية <sup>(٢)</sup> » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم <sup>(٣)</sup> » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد للملائكة في صحن ممتلئ فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادى للملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون ياربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلومه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء <sup>(٥)</sup> » ألا ترى كيف شركة بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب القروش ورب قليل بين الصنفين الله أعلم بنية أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها للملائكة الحديث الدار قطن من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علماً ومالاً الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر غير أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنيه : - واصبر وما صبرك إلا بالله - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبلى فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبلى وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تلتف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا خصاصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معانقال حبسهم العذر فشركووا بحسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر بيتن شيئا فهو له هاجر رجل قزوح امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا يأخذ سلبه وحماره قتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا يزومعي فقال لاحق تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مر بكبان من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فصدقته به ، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله قفره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهى ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم اليباء قتل يارسول الله يكون فيهم للكره والأجير فقال يحشرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل المقتلون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت لللائكة تكتب الحلق على مراتبهم فلان يقاتل للدين فلان يقاتل حية فلان يقاتل عصية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس بن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصرا وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر بيتن شيئا فهو له هاجر رجل قزوح امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لم أجده أصلا في الموصولات وأما رواه أبو اسحق الفراء في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى النسائي من حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلا يزومعي فقال لاحق تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو ومضى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي مضى (٦) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله قفره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهى ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل المقتلون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما يعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يعث المسلمون على النيات ولا بن ماجه من حديث أبي هريرة إنما يعث الناس على نياتهم وفيه لث بن أبي سليم مختلف فيه .

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات للشهادة يرجع العبد عن الله استحياء وإجبالا وتطابق بصيرته خج وذوبانا ويتغيب في مفاوز استكاته وتخفيه لإحساسه بعظم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لأنه بوجد استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تودأن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجلال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر



هي العليا فهو في سبيل الله (١) وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على مامات عليه (٢) » وفي حديث الأحنف عن أبي بكره « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتاقل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه (٣) » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدائه فهو زان ومن آذَنَ ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنق من الجيفة (٥) » . وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف . رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالله لردته نيته يوماً إلى نية سالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لا أحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله قليل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا قوت أو تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كما مله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توايين وأمسوا توايين بفقر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن نامت ولا تهم بمصيبة وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ أوليبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأ أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بولوتنا فضحتنا وحتكت أستاذنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي قليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فبالخبر أن يصلح ما دون ذلك ، فاذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بماتق .

( بيان حقيقة النية )

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها

(١) حديث إذا التقى الصفان نزلت لللائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه رواء مسلم (٣) حديث الأحنف عن أبي بكره إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتاقل والمقتول في النار متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدائه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين دون ذكر الصداق (٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى لذلك .  
وقال أبو الحسن بن  
سالم هم ثلاثة متصبر  
وصابر وصبار فالمتصبر  
من صبر في الله فمرة  
يصبر ومرة يجزع  
والصابر من يصبر في  
الله وقه ولا يجزع  
ولكن تتوقع منه  
الشكوى وقد يمكن  
منه الجزع وأما الصابر  
فذاك الذي صبره في  
الله وقه وبالله فهذا لو  
وقع عليه جميع البلايا  
لا يجزع ولا يتغير من  
جهة الوجود والحقيقة  
لامن جهة الرسم  
والحلقة وإشارته في  
هذا ظهور حكم العلم  
فيه مع ظهور صفة  
الطبيعة . وكان  
الشبلي يتمثل بهذين  
البيتين :

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في اللآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق به بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب اللآل للوافق إلى نفسه ودفع الضار للنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك الشيء للضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يصبر الغداء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يصبر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغداء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغداء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والليل ولقد الداعية المحركة إليه فخلق الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زما غفلت له القدرة والأعضاء للتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فإذا جازمت العرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الليل فإذا انبعثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالتنية عبارة عن الصفة للتوسط وهي الإرادة وانبعثت النفس بحكم الرغبة والليل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في اللآل فالحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد للنوى والانبعث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعا في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاوناً فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفته ضارا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه فاتمهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعث فيقال نيته الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها الفقير وقرباته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرباته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غنى فيرغب في قضاء حاجته وقيصر أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مراقبة للبواعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الحب من  
ألم الشو  
ق وخوف الفراق  
يورث ضرا  
صابر الصبر فاستغاث  
به الصبر  
ر فصاح الحب للصبر  
صبرا  
قال جعفر الصادق  
رحمه الله أمر الله تعالى  
أنبياءه بالصبر وجعل  
الحظ الأعلى للرسول  
صلى الله عليه وسلم  
حيث جعل صبره بالله  
لا بنفسه فقال  
- وما صبرك إلا بالله -  
وسئل السري عن  
الصبر فتكلم فيه فذب  
على رجله عقرب فجعل  
يضربه بإبرته قفيل لم  
لا تدفعه ؟ قال أستحي  
من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إتهاض القدرة ومثالا في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا يتفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغنى فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطالب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيه طيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقير وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لتعرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لاثواب في التصديق عليه لكان لا يعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاغانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فانفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم أن عمله لرلم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكام لها في نفسها وإنما الحكم للاتبوع .

( بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله » (١) )

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لاتدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لاتدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلانية أو على الغفلة لاخير فيه أصلا والنية بمجرد خيرا من عمله وظاهر الترجيح للشركيين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خيرا من العمل أى لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خيرا من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن لا يعد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرا فهما فلهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومرتجة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخير خيرا من الفاكهة فاعلم يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن الغذاء مقصودا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث التواس ابن مسمان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف  
ما أتاكم فيه . أخبرنا  
أبو زرعة بإجازة عن  
أبي بكر بن خلف بإجازة  
عن أبي عبد الرحمن  
قال سمعت محمد بن خالد  
يقول سمعت الفرغاني  
يقول سمعت الجنيدي  
رحمه الله يقول إن الله  
تعالى أكرم للمؤمنين  
بالإيمان وأكرم بالإيمان  
بالعقل وأكرم العقل  
بالصبر فالإيمان زين  
للمؤمن والعقل زين  
للايمان والصبر زين  
للعقل وأنشد عن  
إبراهيم الخواص  
رحمه الله :  
صبرت على بعض  
الأذى خوف كله  
ودافعت عن نفسي  
لنفسى ففزت

فلطاعات غذاء للقلوب ، والقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى . فالقصد لذة السعادة بقاء الله فقط ولن يتنعم ببقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والعرفه تحصل بدوام الفكر ؛ والحجة تتبع للعرفه بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطه بها كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعله بأن سلامته فيها ، وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فان للمواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء لإضعفا ، فان اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال للمواظبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه التزوع وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانحرق بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمخاطبة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على التزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الليل ويكون ذلك زبرا ودفعا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه ويتقعر وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشروع كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل للتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو للقصود والأعضاء آلات موصلة إلى للقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد» (١) وقال عليه الصلاة والسلام «اللهم أصلح الراعي والرعية» (٢) وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لاحتمال أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر بالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن للعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى للعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية تقدم ولم أجده .

وجرعتها للكره

حتى تدربت

ولولم أجرعها إذن

لاشمازت

ألارب ذلساق للنفس

عزة

وبارب نفس بالتذلل

عزت

إذا مامددت الكف

أتمس النفي

إلى غير من قال

اسألوني فشلت

سأصبر جهدى إن في

الصبر عزة

وأرضى بديناي وإن

هي قلت

قال عمر بن عبدالعزيز

رحمه الله : ما أنعم الله

على عبد من نعمة ثم

اتزعه فعاذه مما

اتزعه منه الصبر

إلا كان ما عاذه خيرا

إلى العدة ، فما يلاقى عين العدة فهو خير وأضع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه يحكم المادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيده الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب فتحها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاعمال بالعمل يزيد بها تأكيدها فليس المقصود من إرافة دم القربان الدم والتألم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إثارة لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى ههنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شربوا نافي جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فرقهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أو ردها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة.

## ( بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية )

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحر كد وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات. القسم الأول: للمعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يفتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشرع على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل للروح لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاهل واسمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما انتزعه منه وأنشد  
لسمنون :

تجمرت من حاله  
نعمى وأبوسا  
زمانا إذا أجرى عزاليه  
احتسى

فكم غمرة قد جرعني  
كؤوسها

فجرعتها من بحر صبري  
أكؤوسا

تدرعت صبري  
والتحفت صروقه

وقلت لنفسي الصبر أو  
فاهلكي أسي

خطوب لوان الشم  
زاحن خطبها

لساخت ولم تدرك لها  
الكف ملسا

[ قولهم في الفقر ] قال  
ابن الجلاء : الفقر أن

لا يكون لك فاذا كان  
لك لا يكون لك حتى

فمن من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكلب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمصيبة عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم ، وقد قال الله سبحانه - فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه (١) » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار للشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على ممارسة العلماء ومباراة السفهاء واستالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والسالكين فان هؤلاء إذا تعلموا كانوا قاطع طريق الله وانهض كل واحد منهم في بلده نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى العلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع للمعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعماله هو في الفساد فالمصيبة منه لافئ وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الحيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء (٢) » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم يجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عاداته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمد به غيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدنياء على دينه وهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيراً في ثقل من التواكل أنكره وتركوا إكرامه وإذاراً وأمانته فجورا واستحلال حرام هجره ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه لهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل . حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم انفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

تؤثر . وقال الكتاني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر . وقال النوري : نعت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند للوجود . وقال الدراج فتشت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتجريت ، فلما جاء قلت له : إني وجدت في كنفك هذه القطعة . قال قد رأيتهأ ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئاً ففقت : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال ما رزقتي

الله تعالى من الدنيا  
صفراء ولا يضاء  
غيرها فأردت أن  
أوصي أن تشد في كفي  
فأردها إلى الله وقال  
إبراهيم الخواص الفقر  
رداء الشرف ولباس  
المسلمين وجلباب  
الصالحين . وسئل  
سهل بن عبد الله عن  
الفقر الصادق فقال  
لا يسأل ولا يرد ولا  
يجس . وقال أبو طي  
الروذباري رحمه الله  
سألتني الزقاق فقال  
يا أبا طي لم ترك الفقراء  
أخذ البلعة في وقت  
الحاجة قال قلت لأنهم  
مستغنون بالمعطي عن  
العطايا قال نعم ولكن  
وقع لي شيء آخر فقلت  
هات أفدني ما وقع لك

لا يذكره حتى قال بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو  
أتملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فكذلك كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا  
وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالة والأحكام الواسعة وأصحاب  
الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا  
والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع  
الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يختص  
من الأقسام الثلاثة بالطاعات والباحات دون المعاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب  
معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً ، نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف  
إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة . القسم الثاني الطاعات  
وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى  
لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة  
يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل  
حسنة عشر أمثالها (١) كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات  
كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال للتقين ويبلغ به درجات المقربين أو لها أن يعتقد أنه بيت الله  
وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال  
«من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره» (٢) وثانيها أن ينتظر الصلاة  
بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى - وربطوا - . وثالثها الترهيب  
بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فإن الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو  
نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمي القعود في المساجد» (٣) ورابعها  
عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد  
وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به كما روي في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر  
الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» (٤) وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف  
ونهي عن منكر إذ المسجد لا يخلو عن من يرى في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده  
إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراؤه . وسابعها أن يستفيد أخا  
في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشأ أهل الدين المحبين لله وفي الله وثامنها  
أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمه ،  
وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدام الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع  
خصال أخا مستفاداً في الله أو رحمة مستنزلة أو علماً مستظرفاً أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى  
وحق على المزور إكرام زائره ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من  
رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدم ما في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمي القعود  
في المساجد لم أجده أصلاً (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله ويذكر به كان كالمجاهد في سبيل  
الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث  
أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حج تاماً حجة وإسناده جيد  
وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كما غدا أو راح

عن ردىء أو يترك الذنوب خشية أوحياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ مامن طاعة إلا ومحتمل نيات كثيرة وإتمامها في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير ونشمره له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] ومامن شئ من المباحات إلا ومحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فمما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم للهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات والحفظات فكل ذلك يستل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده بهذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب»<sup>(١)</sup> وفى حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كل عينيه وعن فئات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه»<sup>(٢)</sup> وفى خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من السك ومن تطيب لغيره الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أثنى من الجيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية . فان قلت فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاء في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلا للنظر إليهن ولأموار أخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أثنى من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية إلا أنه يستل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يغنى ويخسر زيادة نعيم لا يغنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة<sup>(٣)</sup> وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة وأن يقصده ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدى إلى إيذاء محاطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المعتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا أو أمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالب على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعم الدنيا لم تحضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ بن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كل عينيه وعن فئات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجده له إسنادا (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبى سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ماعلى أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته وفى إسناده اختلاف وفى الصحيحين أن عمر رأى حلة سيرة عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يرم الجمعة الحديث .

قال لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ الله فاقهم ولا تضرهم الفاقة إذ الله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال السوحي الفقير الذى لا تخيه النعم ولا تفقره الحن . وقال يحيى بن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله ورسمه عدم الأسباب كلها وقال أبو بكر الطوسى بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء فلم يجبني أحد بجواب يقنعنى حتى سألت نصر بن الحماص فقال لى لأنه أول منزل من منازل



وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء والباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف إنني لأستحجب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلى وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان طيعا بأكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير محتج من غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله وإذا بلغه اغتيال غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستقل إلى ديوانه حسنة ولينو ذلك بسكوته عن الجواب في الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ماعلمتها قط فيقال هذه أعمال الدين اغتابوك وآذوك وظلموك <sup>(١)</sup> » وفي الخبر « إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسنة ولهذا من حسنة حتى لا يبقى له حسنة فتقول لللائكة قد فئت حسنة وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكا إلى النار <sup>(٢)</sup> » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشروها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتريه من حائط جار لي فتخرجت ثم قلت تراب وما تراب قبرته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقي غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال إنني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت لبننة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبي فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فإن كنت من أولى العزم والنهي ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك من الآخرة وبما إذا ترجع الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدله من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون الداعى هوى خفى لا يطلع عليه ولا يفرك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراض قد دروى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجيرا لقوم قدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الدين اغتابوك الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوى مختصرا إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعلمها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتى قد ظلم هذا وشم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد فقنعت بذلك  
وسئل ابن الجلاء عن  
الفقر فسكت حتى صلى  
ثم ذهب ورجع ثم قال  
إنى لم أسكت إلا لدرهم  
كان عندي فذهبت  
فأخرجته واستحييت  
من الله تعالى أن أتكلم  
في الفقر وعندي ذلك  
ثم جلس وتكلم .  
قال أبو بكر بن  
طاهر عن حكم الفقير  
أن لا يكون له رغبة  
فإن كان ولا بد لا تجاوز  
رغبته كفايته . قال  
فارس قلت لبعض  
الفقراء مرة وعليه أثر  
الجوع والضر لم لا تسأل  
فقطعموك ؟ فقال إنى  
أخاف أن أسألهم  
فيمنعوني فلا يفلحون  
وأشد لبعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لأتقوى به على عملهم فلما كلمهم لم يكفهم ولم يكفني وضمفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فإن ضمه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع القرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال لولائي أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار .

### ( بيان أن النية غير داخلية تحت الاختيار )

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إمّا الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمنزلة من جميع ذلك وإمّا النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا ولليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبان نويت أن أشتى الطعام وأميل إليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإمّا تنبث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث للوافق للنفس للملازم لها ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد قائما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يستقر غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنغرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فإذا فعل ذلك ربما انبثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركة تلك الرغبة وتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فإذا انتهض القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان نوايا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات اللدري فقالت أجبى بالمرأة فسكت ساعت ثم قال نعم قليل له في ذلك فقال كان لي في اللدري نية

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

قالوا غدا العيد ماذا

أنت لا بأسه

قللت خلعة ساق

عبد الجرجا

قرر وصبرها ثوبان

تحتهما

قلب يرى ربه الأعياد

والجمعا

أحرى للملابس أن تلقى

الحبيب به

يوم التزاور في الثوب

الذي خلعا

الدهر لي مآثم إن غبت

يا أملى

والعيد مادمت لي

مرأى ومستمعا .

[ قولهم في الشكر ]

قال بعضهم الشكر

هو النية عن النعمة

برؤية النعم . وقال

يحيى بن معاذ الرازي

لست بشاكر مادمت

تشكر وغاية الشكر

التعير وذلك أن  
الشكر نعمة من  
الله يجب الشكر  
عليها. وفي أخبار داود  
عليه السلام إلهي  
كيف أشكرك وأنا  
لا أستطيع أن  
أشكرك إلا بنعمة  
ثانية من نعمك فأوحى  
الله إليه إذا عرفت  
هذا فقد شكرتني  
ومعنى الشكر في اللغة  
هو الكشف والظهار  
يقال شكر وكشر  
إذا كشف عن ثغره  
وأظهره فشر النعم  
وذكرها وتعدادها  
باللسان من الشكر  
وباطن الشكر أن  
تستعين بالنعم على  
الطاعة ولا تستعين بها  
على العصية فهو شكر

ولم تحضرني في المراجعة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة قليل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عما من أعمال البر يقول إن رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبذريه قليل له في ذلك قال أفتجبون أن أحدث بغير نية إذا حضرته نية فعلت. وحكى أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحد صفحا وورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرج على الأسانيد فأنظر فيه بعين الحبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فردته على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية. وقال بعضهم أنا في طلب نية لقيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد. وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكاف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في القرض إلا بمجهود جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فرما تنبعت له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للارغاب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بساط الأرض من يفهمها فضلا عما يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر مواء فهو من جملة أنيات الصالحة لأنه ميل إلى اللعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا كثرت أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فأنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جبالها وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى الكسوح والطمع في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يقتنعون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون من يلتفت إلى وجهه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين مما يقتنع بالنظر إلى وجه الصور للصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور للصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسن وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإقهاها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعلى أكثر القلوب عن إبطار جمال الله وجلاله يضاهي عمو الخنفساء عن إدراك جمال النساء فانها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكر لها لاستحسن عقل من يلتفت إليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون - والله لك خلقهم -

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فان يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلي . ورؤى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطلبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه تقيصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفس ساعة بلمه وحدث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشيء من الله فيكون ذلك عوناً لي على الحق وقال علي كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا كرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا ممارسة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطلب وإنما يتغنى به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالصد والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الحجير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويؤليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيسكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومع الوجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمن إنكاره على ما يراه من شيخه ولا للمعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالها ما سلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يباغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

( الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته )

#### ( فضيلة الاخلاص )

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - أלה الدين الخالص - وقال تعالى - إلا الدين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - وقال تعالى - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً - نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمده عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله <sup>(١)</sup> » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم <sup>(٢)</sup> » وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

#### ( الباب الثاني في الاخلاص )

(١) حديث ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

النعمة . وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :  
أوليتني نعماً أبوح  
بشكرها  
وكفيتني كل الأمور  
بأسرها  
فلا أشكرناك ما حيت  
وإن أمت  
فلتشكرناك أعظمي  
في قبرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصر وأعطى فشكر وظلم ففقر وظلم فاستغفر » قيل فما باله قال « أولئك

أحببت من عبادي <sup>(١)</sup>» وقال طي بن أبي طالب كرم الله وجهه لاهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل مجزك منه القليل <sup>(٢)</sup>» وقال عليه السلام «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت يتابع الحسكة من قلبه على لسانه <sup>(٣)</sup>» وقال عليه السلام «أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فباعلت فيقول يارب كنت أقوم به آتاء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فذا صنعت فيقول يارب كنت أنصدق به آتاء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله ﷺ على غنذى وقال يا بأهريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة <sup>(٤)</sup>» فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تهرق ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآيات وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال ابن تريد حرك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك أن تقطعها فقال له فآخذ العابد فطرحة إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يرضه عليك وماتعبد لها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فذا بذله لقاتل فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فججز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأتبع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لاشئ لك إنما أنت كل طي الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل طي إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك طي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدق طي إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك للمؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواة سأل فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء المهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل مجزك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

لهم الأمن وهم مهتدون . وقال الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان . وفي الحديث «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» . وقال بعضهم في قوله تعالى - وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - قال الظاهرة العوافي والغنى والباطنة البلاوى والفقر فان هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء . وحقبة الشكر أن يرى جميع التقضى له به نعمًا غير ما يضره في دينه لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئا إلا وهو نعمة في حقه فإما عاجلة

وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هربا فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال لتتهين عن هذا الأمر أولا ذبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني غفلة غنى وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أولا مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدينا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تنخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعري : من خلصت نيته كفافه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل . وقال أبواب السخنياني : تخلص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . وروى بعضهم في المنام قفيل له كيف وجدت أعمالك ؟ فقال كل شيء عملته لله ووجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيت في كفة السيئات وكان قد شق حماري قيمته مائة دينار فمأريت له ثوبا قفيل موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها قفيل لي إنه قد وجه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فيطل أجرك فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لا طي ولا لي . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفث والدم ، وقيل كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه جمع للنساء فسرقته درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال إن نجوت من هذه الفضيحة لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدال فساره بشيء فقال أبو عبيد لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك ؟ فقال سألتني أن أحج معه قلت لا قلت فهلا فعلت ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتم هذه الأرض العسية فأخاف إن حجبت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنى أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . ويروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فعرض بعضنا غللة فقلت اشتريها فأتفتع بها في غزوى فاذا دخلت مدينة كذا بعثا فربحت فيها فاشتريتها فمأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب النزاة فأملى عليه خرج فلان منزها وفلان مراثيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت

يعرفها ويفهمها وإما آجلة بما يقضى له من الكارها فلما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر .

[ قولهم في الخوف ] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة مخافة الله» وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «كان داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه» قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من

الله في أمرى ما خرجت أتجر وما معى تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو فقال يا شيخ قد اشتريت أمس غلالة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبوني تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه غلالة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أنقض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلاق الاخلاص فقط . وقال الجنيد : إن لله عبدا عاقلا فلما عاقلا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد للروزي : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له قرضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين وفزت في الدارين .

### ( بيان حقيقة الاخلاص )

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل الصفي المخلص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فوئد ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين - فاما خالص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفوئد ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص بضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات فالاخلاص في التوحيد بضاده التشريك في الإلهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصد والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد مسمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى النوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو محاص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الاتحاد عبارة عن الليل ولكن خصصته العادة بالليل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولنا تنكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات وأقل أموره ماورد في الخبر من « إن للرأى يدعى يوم القيامة بأربع أسام يامرأى يا مخادع يا مشرك يا كافر (١) » وإنما تنكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحلمة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوه في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو لينزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهينة العساكر وجرها أو يصلى بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيا بين العشيرة أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بمن العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج ببلغة الحديث أو تسكف بمخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمة وافة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقا في الدنيا

(١) حديث إن للرأى يدعى يوم القيامة يا مخادع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والاخلاص وقد تقدم .

نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان . وقال بعضهم ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه . وقيل الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل أى لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة . وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أننى أى منهما تولد حقائق الإيمان . قال الله تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - . قيل هذه الآية قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفا لجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو تواضعا  
ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلو الاسناد أو اعتكف في المسجد  
ليخف كراء السكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله  
الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إمرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضا ليعاد إذ مرض  
أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويدكر به وينظر إليه بعين  
الصلاح والوقار فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه  
الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج  
عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»  
وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق  
إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منعس في شهواته قلما  
يفتك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك  
قل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب  
عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ  
إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيها إذا كان القصد  
الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة للواقعة أو في  
رتبة للمشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث  
الديني أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سذكركه وإنما الاخلاص تخلص العمل  
عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا  
لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق فيهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى  
لا يحب الأكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرهه في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجلبة  
فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج  
إلى الأكل فلا يبق في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا بعنده  
لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان  
خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يرج نفسه ليتقوى على العبادة بعده  
كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود  
عليه إلا على الدور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاستسببت حركاته الاعتيادية صفة همه  
وصارت إخلاصا فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله قد استسببت جميع  
حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإذا نزل علاج الاخلاص كسر  
حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا ذاك يتيسر  
الاخلاص وكما من أعمال يتبع الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى  
وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول  
لأنني تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني  
فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر وهذا دقيق  
غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى والتأفلون عنه يرون حسناتهم كلها في  
الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبالله من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبالله سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .  
وقيل إن الله تعالى جمع  
للخائفين ما فرقه على  
الؤمنين وهو الهدى  
والرحمة والعلم  
والرضوان فقال تعالى  
- هدى ورحمة للذين  
هم لربهم يرهبون -  
وقال - إنما يخشى الله  
من عباده العلماء -  
وقال - رضى الله عنهم  
ورضوا عنه ذلك لمن  
خشى ربه - . وقال  
سهل: كمال الإيمان بالعلم  
وكمال العلم بالخوف .  
وقال أيضا: العلم كسب  
الإيمان والخوف  
كسب للمعرفة . وقال  
ذوالنون: لا يسقى الحب  
كأس الحجة إلا من بعد  
أن ينضج الخوف قلبه .  
وقال فضيل بن عياض



إذا قيل لك تخاف الله  
اسكت فانك ان قلت لا  
كفرت وان قلت نعم  
كذبت فليس وصفك  
وصف من يخاف .  
[قولهم في الرجاء] قال  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول الله  
عز وجل أخرجوا من  
النار من كان في قلبه  
مثقال حبة من خردل  
من إيمان ثم يقول  
وعزني وجلالي  
لأجعل من آمن بي  
من ساعة من ليل  
أو نهار كن لا يؤمن  
بي . قيل « جاء أعرابي  
إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال من يلى  
حساب الخلق ؟ قال  
الله تبارك وتعالى قال  
هو بنفسه ؟ قال نعم

وبهولة تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم  
يحسنون صنعا - وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة  
الاستيلاء والفرح بالاستبصار والاستبشار بالحمد والثناء والسيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم  
نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على  
الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه  
يفرح بما يسره من نصرة الدين ولوظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه  
وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا اللهم بغيره  
ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك  
إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقواك لكنت أنت الثابت واعتماكت لقوات الثواب محمود ولا يدري للسكين أن  
انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراد ، وليت شعري  
لو اغتمّ عمر رضى الله عنه بتصدع أبي بكر رضى الله تعالى عنه للامامة أكان غمه محمودا أو مذموما  
ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو  
أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر  
رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد  
ينخدع بعض أهل العلم بفرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به  
وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القيادة  
في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه  
إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحناتها ، ففرقة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر  
عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد القذ وهو اللبثي في قوله تعالى - الإعبادك منهم  
المخلصين - فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

#### ( بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص )

قال السوسى : الإخلاص قد رويّة الاخلاص ، فان من شاهد في إخلاصه الاخلاص فقد احتاج  
إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات إلى  
الاخلاص والنظر إليه عجب ؟ وهو من جملة الآفات . والحال : ماصفا عن جميع الآفات فهذا  
تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله  
تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالغرض وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق  
النية مع الله تعالى . وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الاخلاص إذ ليس لها فيه  
نصيب . وقال رويم : الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا  
إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والمابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول  
بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص  
للطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة والإلا  
فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما للطوبى الحق لدوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو  
القائل لا يتحرك الانسان إلا لحظ والبراءة من الخطوط صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر .  
وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الخطوط وقال هذا من صفات

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يبعده الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذّة الطاعة والناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرّا وجهرّا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الخوازيون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا ترمض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب للشوشة للاخلاص . وقال الجنيد : الاخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام للرابعة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقوال في هذا كثيرة . ولافائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الاخلاص فقال : أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

( بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص )

اعلم أن الآفات للشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلي مهما كان مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أودخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على اللبثيين من المريدين . الدرجة الثانية يكون للريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسي بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه ففساء يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللتزمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعصم به قال قل ربّي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فتبسم الأعرجي فقال النبي صلى الله عليه وسلم م ضحككت يا أعرجي ؟ قال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح . وقال شاه الكرماني : علامة الرجاء حسن الطاعة . وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجلال . وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب . قال أبو طي الرودباري : الخوف والرجاء يجتأحي الطائر اذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه . قال أبو عبد الله بن خفيف : للرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم اللرجو . قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم يرض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعزأليه من نفسه فهذا محض التلبس بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستدار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به . الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة وللشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في اللأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرضيه في اللأ ويصلي في اللأ أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في اللأ فلا يكون قد فرق بينها فالتفاتة في الخلوة وللأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بأساء الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلوة وللأ وللأوهيات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا وللأ جميعا وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق في اللأ وللأ جميعا وهذا من الكايد الخفية للشيطان . الدرجة الرابعة هي أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في اللأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا لما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب التهمة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لا يرتباط نظر الخلق بها ولا استئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة بأنس إليه الطبع فالشيطان يرغب فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأناس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد للوضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشوائب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب التهمة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف المؤمنين  
ورجاؤه لا اعتدلا .  
والخوف والرجاء  
للإيمان كالجناحين  
ولا يكون خائفا إلا  
وهو راج ولا راجيا  
إلا وهو خائف لأن  
موجب الخوف الإيمان  
وبالإيمان رجاء  
وموجب الرجاء الإيمان  
ومن الإيمان خوف  
ولهذا للنبي روى  
عن لقمان أنه قال  
لابنه خف الله تعالى  
خوفا لا تأمن فيه  
مكره وارجه أشد من  
خوفك ، قال فكيف  
أستطيع ذلك وإيمانا  
لي قلب واحد ؟ قال  
أما علمت أن المؤمن  
لنوا قليلين يخاف  
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمرى العشى الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فترا ما يغلب ومنها ما يميل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى إلى حمرة الديار الموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه ويحاط من الخالص الذى يرضيه اننا قد البصير خير من دينار يرضيه الغر النقي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم وداخل الآفات التطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليتنفع بما ذكرناه مثالا والقطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

( بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به )

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب للعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في الشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه والذى يتقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من للهالكات وإنما غذاء هذا الهالك وقوته العمل على وقعه وداعية الخير من النجيات وإنما قوتها بالعمل على وقفها فاداءت جمع الصفات في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستنصر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكلما لا يضيع مثقال ذرة

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل للشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغى الجهاد في سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن أرأيت رجلا غزا يبتغى الأجر والدكر ماله فقال لا شيء له فأعاده ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه ولترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجرين أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان . [ قولهم في التوكل ] قال السرى : التوكل الانحلال من الحول والقوة . وقال الجنيد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فانه وجه بلا قفا قال بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جمل التوكل مقرونا بالإيمان فقال - وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال لنبية - وتوكل على الحى الذى لا يموت - وقال

من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إثارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء ما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه بشبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أنبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة وإشهاد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتنع به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب . وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها وبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة محبط بالسكية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي وللزعج القوي هو إغلاء كلمة الله تعالى وإتمام الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة . فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ قد دروي طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع للعروف أوقال يتصدق فيجب أن يحمده ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى زلت - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - (٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره بمن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغني الأغنياء عن الشرك من عمل على عملا فاشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريك» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته وورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له» (٦) فقول هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أنبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعده من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع للعروف أوقال يتصدق فيجب أن يحمده ويؤجر فقلت فمن كان يرجو لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسل وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة قال لمن أشرك في عمله خذ أجره بمن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في اللوطا فهو له كله (٥) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

ذوالنون: التوكل ترك تدبير النفس والانحلال من الحول والقوة . وقال أبو بكر الرقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد . وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يشارك التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره . وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله . وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشر كـ حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى اقتصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم إن الإنسان عند الشر كـ أبدا في خطر فانه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالوالدك قال تعالى - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أي لا يرجى اللقاء مع الشر كـ التي أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص في الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزججه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزوطا فثمين من الكفار إحداها غنية والأخرى قفرة فمال إلى جهة الأغنياء لا إلاء كـ الله وللغنيمة لا ثواب له على غزوه ألبته ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب فأما أن يكون في إحباطه فلاء نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط فذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لأعتد بما ظهر من عملى وقال عبد العزيز بن أبى رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحجبت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولا على ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسعيد الخراز ويخف في أعماله فكلم أبو سعيد في الاخلاص يوما يزيد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطلبه بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بطلابته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع للعامة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فلما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

( الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته )

( فضيلة الصدق )

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» (١) ويكفى في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال - واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا - وقال - واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق

( الباب الثالث في الصدق )

(١) حديث إن الصدق يهدي إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير وقال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله . وقال سهل أيضا : اعلم كله باب من التبعيد والتعبد كله باب من الورع والورع كله باب من الزهد والزهد كله باب من التسوكل . وقال : التقوى واليقين مثل كفى لليزان والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ومن كمل توكله غاب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله ثم إن

قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة وإن الأقسام نصبت بأزاء القسوم لهم عدلا وموازنة فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل مأحس بشئ يقدح في توكله يراه من منبع النفس فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس وكاله بثبت بغية النفس وليس للأقوياء اعتداد بتصحیح توكلهم وإعما شغلهم في تغيب النفس بتقوية مواد القلب فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر إليه وكلما تحرك من

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصورا الدينوري في المنام قلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل قلت له حسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال الصدق وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل للحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي الكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقول الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا حجة الله تعالى ولم يكونوا با صادقين، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يادود من صدقي في سريره صدقته عند الخلقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فإله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فإله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب الطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها لا كنز أنفع من العلم ولا مال أربع من الحلم ولا حسب أو وضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أطي من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قهر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة يذك حتى تبصر كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لئى التون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعواى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا تهيل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة قليل زدنا فقال التقي والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق<sup>(١)</sup>» وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

( بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه )

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن انصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شئ من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أوفيا يتضمن الإخبار وينبه عليه والخبر إيمان يتعلق بالماضى أو بالمستقبل

<sup>(١)</sup> حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبس أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن المعارض فقد قيل في المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتفضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجرام وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار تلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويتفضيه الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد لهاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفورتي بغيره (١) وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا» (٢) ورخص في النطق على وفق للمصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق هنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا الصدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو هنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي ينجى بها ربه كقوله - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله - إياك نعبد وإياك نستعين - فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طوّل يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبده كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تس عبد الدينار تس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخيصة» (٣) فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وإعما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبه وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل بفتح بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبدا عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفعودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي العاقل وهذا منتهى الصدق في العبودية

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تس عبد الدينار الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

النفس بقية برد على ضميرهم سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا للتوكل ما يقصد في توكل الضملاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط لأنه يرى الأسباب مواتا لا حياة لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة. [قولهم في الرضا] قال الحارث الرضا مكنون



لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لالته نفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثاني : في النية والارادة ويرجع ذلك إلى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كإروينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) فانه لم يكذب ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذب في إرادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقدا ما يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا . الصدق الثالث : صدق العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعه أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قديصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال فلان شهوة صادقة ويقال هذا الرئض شهوة كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم الصميم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضى الله عنه أو كذلك بما ذكره من القتل . ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا يتبهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم يتقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق . الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفية فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتحقق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس « أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرامع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرائى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما صنعت قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو إلى أين فقال واهلنا لرجل الجنة إنى أجدر ريحها دون أحد قاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون مايين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا بيناته ، فترلت هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (٢) . » ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

القلب تحت جريان  
الحكم وقال ذوالنون  
الرضا سرور القلب بحر  
القضاء . وقال سفیان  
عند رابعة اللهم ارض  
عنا فقالت له أما  
تستحي أن تطلب رضا  
من لست عنه براض  
فسألها بعض الحاضرين  
مق يكون البدر ارضيا  
عن الله تعالى فقالت  
إذا كان سروره  
بالمصيبة كسروره  
بالتعنة . وقال سهل إذا  
اتصل الرضا بالرضا  
اتصلت الطمأنينة  
- فطوبى لهم وحسن  
مآب - وقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« ذاق طعم الايمان من  
رضى بالله ربا » وقال  
عليه السلام « إن الله

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلأدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملاء من الناس فعادوا لربنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فخرت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو شئ نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله خلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صداقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسح عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التحمك وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يثقل عليا ذلك فتغير عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخراز رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا لى السماء . الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به إلا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرأى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يعيش الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرأيا لياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والمالنية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسل (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أذاه إلى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحة » (١) وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب التنا  
فان خالف الإعلان سرا فما له طي سعيه فضل سوى الكد والعنا  
فما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه الرلود لا يقتضى لنا

للدنيا في قلبه مقدار .  
وقال السري : خمس  
من أخلاق القربين  
الرضا عن الله فيما يحب  
النفس وتكبره  
والحب له بالتحجب  
إليه والحياء من الله  
والأنس به والوحشة  
مما سواه . وقال الفضيل  
الراضي لا يتمنى فوق  
مزلته شيئا وقال ابن  
ثيمون الرضا بالحق  
والرضا له والرضا عنه  
فالرضا به مدبر أو مختار  
والرضا عنه قاسما  
ومعطيا والرضا له إلها  
وربا . سئل أبو سعيد  
هل يجوز أن يكون  
العبد راضيا ساخطا قال  
نعم يجوز أن يكون  
راضيا عن ربه ساخطا  
على نفسه وعلى كل قاطع

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا واقفت سريرة المؤمن علانيته بهى الله به اللاتككة يقول هذا عبيدي  
حقا . وقال معاوية بن قرة من يدلني على بكاء بالليل باسم النهار ، وقل عبد الواحد بن زيد كان الحسن  
إذا أمر بشيء كان من أئمن الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط  
أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة  
وعاملتك فيما بيني وبينك بالحيانة ويكي ، وقال أبو يعقوب التهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر  
والعلانية فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات  
وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهو والرضا والتوكل والحب  
وسائر هذه الأمور فان هذه الأمور لها مبادي ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق  
من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته مسمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ،  
ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى - إنما المؤمنون الذين آمنوا  
بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن  
بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان قرأ هذه الآية (٢) ولنضرب  
سألك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قرأ هذه الآية (٢) ولنضرب  
للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه  
خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف  
يصفر لونه وترتعد فرئسه ويتنصص عليه عيشه ويتعذر عليه آكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى  
لا يتنقع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض  
للأخطار كل ذلك خوفا من درك المحدث ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان  
معصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالها (٣) »  
فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه  
حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى فإذا قوى مسمى صادقا فيه فعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه  
لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي  
هي صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله  
عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي ﷺ مغشيا عليه فأفاق وقد عاد

(١) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألته  
عن الإيمان قرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين  
صدقوا - رواه محمد بن نصر الروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده إسنادا .  
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم .

جبريل لصورة. الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعل كاهله وإن رجله قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع (١) « يعني كالصفر الصغير، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر اللاتسكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالجلس البالي من خشية الله تعالى (٢) يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظروا الناس كلهم حمقى في دين الله. وقال مطرف ما من الناس أحد إلا وهو أحقق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمقى أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير (٣) » فالصادق إذن في جميع هذه اللقائات عزيز ثم درجات الصدق لانهايتها لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقاها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق فقال ابن السيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكل قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجناز ولم يبلغوا هذا البلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات للأئمة عن الشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تعرض إلا لأحد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام. وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختَر عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتباكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنني إذا أحببت عبدا ابتليته بآياتي لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وإن وجدته جزوعا يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها. ثم كتاب الصدق والاخلاص، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والمحمد لله.

يقطعه عن الله. وقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحمه الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكّل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال علي رضي الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال. وقال يحيى رجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فعل منه بك وفعل

- (١) حديث قال جبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا الذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (٢) حديث مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالجلس البالي من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل (٣) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجده أصلا في حديث مرفوع.

## ﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

( وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارية بما اجتاحت للطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على النقيير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت للتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت للتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما محاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقت في صعيد القيامة وهلك وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها للزجاة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فينفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصيره انقطعت مكابد الشيطان واندفعت وباطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبقيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والاباء والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

[ أما بعد ] قد قال الله تعالى - ونضع للوازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب قترى المجزمين مشفقين بما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا معاملا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - وقال تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بثاقيل الذر من الخطرات والاحظاظ وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأتقاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات والاحظاظ فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي في القيامة حسابا به تحضر عند السؤال جوابه وحسن متقلبه وما به ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والقت سياته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر وللرابطه فقال عز من قائل - يا أيها الذين آمنوا صبروا وصابروا وراابطوا - فربطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في الرابطة مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وقضيتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الحصران للمعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

( اللقار الأول من الرابطة للشارطة )

اعلم أن مطلب للتعااملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكان التاجر

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

منك له قرضي بما  
عمل وتخلص فيما تعمل  
وقال بعضهم الراضى  
من لم يندم على فائت  
من الدنيا ولم يتأسف  
عليها . وقيل ليجي  
ابن معاذ حتى يبلغ العبد  
إلى مقام الرضا قال إذا  
أقام نفسه على أربعة  
أصول فيما يعامل به يقول  
إن أعطيتني قبلت  
وإن منعتني رضيت  
وإن تركتني عديت  
وإن دعوتني أجبت  
وقال الشبلى رحمه الله  
بين يدي الجنيد لا حول  
ولا قوة إلا بالله . قال  
الجنيد قولك ذاصيق  
صدر فقال صدقت قال  
فضيق الصدر ترك  
الرضا بالقضاء وهذا  
إنما قاله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما  
مطلبه وربحه تركية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أفلح من زكاها وقد خاب من  
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستسخرها  
فيما يزكها كما يستعين التاجر بشريكه وغلظه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا  
بجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويقابله أو يعاتبه رابعا فكذلك  
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى  
طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يرمها  
إلا الحيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن  
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدره المنتهى  
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها  
محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فصيرها إلى التصرم والاقتضاء ولا خير في خير لا يدوم بل  
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح باق طاعة دائما وقد انقضى  
الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقلا

فخم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها  
وسكناتها وخطراتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها يمكن أن  
يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فاقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى  
ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسبح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة  
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك  
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا العمر ومهما فى فقد فى رأس المال  
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أهملنى الله فيه وأنسى أجلى وأهم على  
به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسب أنك قد توفيت  
ثم قدر دت فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهره لا قيمة لها واعلى يا نفس  
أن اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم ويلة أربع  
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة  
فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار مالووزع  
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة  
بفرح تنهت وبغشاء ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فينال من الهول والفرع ما لوقسم على أهل  
الجنة لتنعص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه <sup>(١)</sup> وهى الساعة  
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال  
القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا  
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها  
فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميل إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم ويلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها  
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

الله تنبيهها منه على  
أصل الرضا وذلك أن  
الرضا يحصل لانسراح  
القلب وانفساحه  
وانسراح القلب من  
نور اليقين قال الله تعالى  
- أفمن شرح الله صدره  
للإسلام فهو على نور  
من ربه - فإذا تمكن  
النور من الباطن اتسع  
الصدر وانفتحت عين  
البصيرة وعان حسن  
تدبير الله تعالى فينتزع  
السخط والضجر لأن  
اتساع الصدر يتضمن  
حلاوة الحب وفعل  
المحبوب بموقع الرضا  
عن المحب الصادق لأن  
المحب يرى أن الفعل  
من المحبوب مراده  
واختياره فيفنى في لذة  
رؤية اختيار المحبوب

درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لاتفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرتك لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن للسوء قد عفى عنه أليس قد فاتته ثواب المحسنين أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى - يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن - فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فاتها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارء وبها تتم أعمال هذه التجارة وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تنفع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للامتناع والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولها اللسان والبطن أما اللسان فلا أنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجناته عظيمة بالقيء والكذب والنجاسة وتركيز النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللحم والدعاء على الأعداء والمباراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراتة فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبدة وصنمته فكرة وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشهوات ويمتنع من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما ناله بشهواتها وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك بطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفترق إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن للشارطة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد للشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ووقع عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتفاف للحق في مجاريها ويحذر ما يغلبه الإهمال ويعظمها كما يوعظ العبد الآبق للمترد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام للرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - وهذا المستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فبينوا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما  
قيل :  
وكل ما يفعل المحبوب  
محسوب .  
[ الباب الحادى  
والستون في ذكر  
الأحوال وشرحها ]  
حدثنا شيخنا شيخ  
الاسلام أبو النجيب  
السهروردى رحمه الله  
قال أنا أبو طالب الزينى  
قال أخبرتنا كريمة  
للروزية قالت أنا  
أبو الهيثم الكشميرى  
قال أنا أبو عبد الله  
الفربرى قال أنا  
أبو عبد الله البخارى  
قال ثنا سليمان بن حرب  
قال حدثنا شعبة عن  
قتادة عن أنس بن  
مالك رضى الله عنه  
عن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال « ثلاث من

ولقد خلقنا الانسان وتعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فاته عنه <sup>(١)</sup>» . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله <sup>(٢)</sup>» دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أثنا لمدينون - أي لحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تمسكوا بزناها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال لإلأمن حاسب نفسه فقال كعب يأمر المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف لإلأمن حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى الحاسبة للمستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها . [ الرابطة الثانية للراقية ] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا للراقية لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائنة فانها إن تركت طغت وفسدت . ولندكر فضيلة الراقية ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سألهم جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال «أن تعبد الله كأنك تراه <sup>(٣)</sup>» وقال عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك <sup>(٤)</sup>» وقد قال تعالى - أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قانعون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان اللخمي : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة الحاسبة والراقية وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصلين أن تلزم نفسك الراقية لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره قائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكي أنه كان لبعض الشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب وعن شيوخ فدما بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان فاستحسنوا بمنه هذه الراقية وقالوا حق لك أن تكرم .

- (١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

كن فيه وجد حلوة  
الايمن : من كان الله  
ورسوله أحب إليهما  
سواهما ومن أحب عبدا  
لا يحبه إلا الله ومن يكره  
أن يعود في الكفر بعد  
إذ أنه الله منه كما  
يكره أن يلقى في النار .  
وأخبرنا شيخنا  
أبو زريعة طاهرين  
أبي الفضل قال أنا  
أبو بكر بن خلف قال  
أنا أبو عبد الرحمن قال  
أنا أبو عمر بن حيوة  
قال حدثني أبو عبيد بن  
مؤمل عن أبيه قال  
حدثني بشر بن محمد  
قال حدثنا عبد الملك  
ابن وهب عن إبراهيم  
ابن أبي عبيدة عن  
الرياض بن سارية  
قال «كان رسول الله



وحكى أن زليخا لما خلت يوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف مالك أئستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال ممن أستحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب قالت فأين مكوكها . وقال رجل للجنيذ بم أستعين على غض البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيذ : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني والذين اثنت أصلاهم من خشيتي وعزتي وجلالي إني لأهم ببذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للرئيش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولقطة . ويروي أن الله تعالى قال للملائكة أتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يترن القلب بشئ أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذوالنون بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل لم ألق رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب  
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظمى فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحدز ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي : إن للنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فرسنا في بعض الطريق فأنحدر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بنى شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك فقال قل لسيدك أكلها الذئب قال فأين الله قال فيكبي عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى الملوكة فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

( بيان حقيقة الرقابة ودرجاتها )

اعلم أن حقيقة الرقابة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه الرقابة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتشمر تلك الحالة أفعالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واعتقاله به والتفاتة إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تشمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشيرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم  
يدعو « اللهم اجعل  
جيك أحب إلى من  
نفسى وصمى وبصرى  
وأهلى ومالى ومن  
الماء البارد » فكأن  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم طلب  
خالص الحب وخالص  
الحب هو أن يحب الله  
تعالى بكليته وذلك  
أن العبد قد يكون في  
حال قائما بشروط  
حاله بحكم العلم والجيلة  
تفاضاه بصد العلم مثل  
أن يكون راضيا  
والجيلة قد تذكره  
ويكون النظر إلى  
الانقياد بالعلم لا إلى  
الاستعصاء بالجيلة  
قد يحب الله تعالى  
ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربّ علم لاشك فيه لا يغلب على القلب كالعالم بالموت فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والوقوف بهذه المعرفة هم للقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب الميّن ، فمراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة للقربين من الصديقين ، وهى مراقبة التعظيم والاحلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فاتها مقصورة على القلب . أما الجوارح فاتها تعطل عن الالتفات إلى اللباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمتعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحدا فكفاه الله سائر المهوم ، ومن قال هذه الدرجة قد يغفل عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو فاجع عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لاصمم به وقد يمرّ على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، قال لمن عاتبه إذا مرتت بي فخركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب العظيمة للوكة الأرض حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس اللوكة لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز للوضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لمبد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ، قال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعا حتى دخل غيبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا غيبة ، قال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت فى الطريق فقال ما رأيت أحدا . وبرى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكله فقال ذكر الله تعالى أشهى فقلت أنت وحدك فقال معى ربى وملسكى فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومشى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فاتها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبى الحسن النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس للصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقه وليس على كتفى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدتين مستقبلتي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا اردتما على السلام فرفع الشاب رأسه من امرقته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكلىتى ثم طأطأ رأسه فى السكان فبقيت عندهما حتى صلبنا الظاهر والمصر

ويحب الأهل والولد  
بحكم الطبع . وللمحبة  
وجوه وبواعث المحبة  
فى الانسان متنوعة  
فمنها محبة الروح  
ومحبة القلب ومحبة  
النفس ومحبة العقل  
فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
وقد ذكر الأهل  
والمال والماء البارد  
معناه استئصال عروق  
المحبة بمحبة الله تعالى  
حتى يكون حب الله  
تعالى غالبا فيجب الله  
تعالى بقلبه وروحه  
وكلية حتى يكون  
حب الله تعالى أغلب  
فى الطبع أيضا والجلبة  
من حب الماء البارد  
وهذا يكون حبا  
صافيا لحواص تغمر

به وبوره نار الطبع  
والجيلة وهذا يكون  
حب الذات عن  
مشاهدة بكوف  
الروح وخلوصه إلى  
مواطن القرب . قال  
الواسطي في قوله تعالى  
- يحبه ويحبونه -  
كما أنه بذاته محبه  
كذلك يحبون ذاته  
فالهاء راجعة إلى  
الذات دون التعوت  
والصفات . وقال بعضهم  
الحب شرطه أن تلحقه  
سكرات المحبة فإذا لم  
يكن ذلك لم يكن حبه  
فيه حقيقة فإذا نال الحب  
جنان حب عام وحسب  
خاص فالحب العام  
مفسر بامثال الأمور  
وربما كان حبا من  
معدن العلم بالآلاء

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عطشى فرفعت رأسه إلى وقال : يا ابن  
خفيف نحن أصحاب الصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا  
أنام ولا رأيتهما إلا كلا شيئا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى أحلفهما أن يعطاني لعل  
أن أنفع بهنهما فرفعت الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكر الله رؤيته  
وتقع هيته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة الراقبين  
الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة  
الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن  
لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتفت إلى الأحوال والأعمال  
إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن الرقابة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا  
يخجمون إلا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفضحون به في القيامة فانهم يرون الله في الدنيا  
مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك في خلوتك  
قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك  
وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك  
فإنها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم  
حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لاحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى ومن  
كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع  
اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل . أما قبل العمل فليحذر أن مظهره  
وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت  
حتى يكشف له ذلك نور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاء وإن كان لغير الله استجيا من الله  
وانكشف عنه ثم لم نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها  
وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب  
محتوم لا محيص لأحد عنه فان في الخبر « إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة  
دواوين : الديوان الأول لم . والثاني كيف . والثالث لمن <sup>(١)</sup> » ومعنى لم أى لم فعلت هذا أكان  
عليك أن تفعله لمولاك أو لمت إليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه  
سئل عن الديوان الثاني فقيل له كيف فعلت هذا فان الله في كل عمل شرط وحكما لا يدرك قدره ووقته  
وصفته إلا بعلم فيقال له كيف فعلت أبعلم محقق أم يحهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث  
وهو للمطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت ألوجه الله خالصا وبقولك لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله  
أولما آت خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته  
بسهر وغفلة قد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقى وعقابي  
إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيري أما سمعتنى أقول - إن الدين تدعون من دون الله  
عباد أمثالكم - إن الدين تمبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه -  
ويحك أما سمعتنى أقول - ألا الله الدين الخالص - فإذا عرف العبد أنه بصددهم للطالبات والتوبيخات طالب  
نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا فلا يبدى ولا يبعد إلا بعد التثبت

(١) حديث ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثاني  
كيف . والثالث لمن . لم أفد له على أصل .

ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم له «إن الرجل ليستل عن كحل عينيه وعن قته الطين بأصبعيه، وغن لمسه ثوب أخيه» (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان «اتق الله عند همك إذا هممت» (٢) وقال محمد بن علي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم للتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهيمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا نظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيئات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع العرور فيتقن ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في تب والشيطان منه في فرح وشماعة فعوذ بالله من الجهل والتفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراتب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقي ويحذر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فإن الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث القمل والقمل يورث البوار ولقلت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه وهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيفكر في ذلك بنور العلم ويستعيد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء الضالين للقبائل على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد قدراً وحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الزبوية فكيف يستضيء بها من استدر بها وأقبل على عدوها وعشق بغضها ومقبتها وهي شهوات الدنيا فتسكن همه المرید أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أوضف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات» (٣) جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام «من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» (٤) فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الأدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا

والنعماء وهذا الحب مخرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لبعده واصطفاؤه إياه وهذا الحب يكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم «أحب إلى من الماء البارد» لأنه

(١) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه الحديث تقدم في الذي قبله (٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك إذا هممت أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبداً تقدم ولم أجده .

كلام عن وجدان روح  
تلتذ بحب الذات  
وهذا الحب روح  
والحب الذي يظهر عن  
مطالعة الصفات ويطمح  
من مطالع الإيمان  
قالب هذا الروح ولما  
صحت محبتهم هذه أخبر  
الله تعالى عنهم بقوله -  
أذلة على المؤمنين - لأن  
الحب يذل المحبوبة  
وللمحبيب محبوبة  
وينشد :  
لعين تغدى ألف عين  
وتتقى  
ويكرم ألف للحبيب  
الكرم  
وهذا الحب الخالص  
هو أصل الأحوال  
السنية وموجبها وهو  
في الأحوال كالتوبة  
في اللقائات فمن صحت

بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وفلوا هذا هو الفقه وأخرجوا لهذا العلم  
الذي هو فقه الدين عن سجلة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلدفع الشواغل عن القلوب  
ليتم فقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر : « أتم اليوم في زمان خيركم  
فيه السارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه للثبوت (١) » ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال  
مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة  
ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول  
الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك  
بخاصة نفسك (٢) » وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقف ما ليس  
لك به علم - وقوله عليه السلام « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث (٣) » وأراد به ظنا بغير  
دليل كما يستغنى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء  
الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه  
ولا تجعله متشابها على فأتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه  
وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه (٤) » وقد كان من دعاء النبي صلى الله  
عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم (٥) » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم  
وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتننا على عبده - وكان فضل  
الله عليك عظيما - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الذکر إن كنتم لا تعلمون - وقال تعالى  
- إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - وعلى الله قصد السبيل - وقال على كرم  
الله وجهه : الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب  
الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصدى من صدق  
غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التسكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العرائقوى  
وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مشواك والرزق  
رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك وإن كنت جازعا على ما أصيب بما في يديك فلا تجزع  
على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فأما الأمور أشباه والراء يسره درك ما لم يكن ليفوته  
ويسوء قوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تسكثن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه  
نفسك أسفا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلقت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد  
للوت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذن النظر الأول  
للمراقب نظره في الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه  
استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض له أمر أن أحدهما للدنيا  
والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا (٦) » وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ولكن

(١) حديث أتم اليوم في زمان خيركم فيه السارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه للثبوت  
لم أجده (٢) حديث فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً الحديث تقدم (٣) حديث إياكم  
والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطهرانى من حديث ابن عباس  
باسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث  
ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمى في مسند  
الفرزدوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»<sup>(١)</sup>. النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما مستقبل به القبلة»<sup>(٢)</sup> ولا يجلس متربها إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله جلست مرة متربها فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم أجلس بعد ذلك متربها وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمرأته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذن لا يخلو العبد إماماً أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فمراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود النعم في التوبة والندم وبالشكر عليها ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الضرب عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة - ومن تعد حدود الله فقد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من القرائن وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تتال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى - ولا تنس نصيحتك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاة وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها وساعة راهنة فينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتت الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمه له خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أوقاته فله آخر أوقاته وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أوقاته فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدرك الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو ولدة في غير محرم»<sup>(٣)</sup> وما روى عنه أيضاً في معناه «وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها بالمطعم والشرب»<sup>(٤)</sup>

توبته على الكمال  
تحقق بسائر اللقائات  
من الزهد والرضا  
والتوكل على ما شرعناه  
أولاً ومن صحت  
محبه هذه تحقق  
بسائر الأحوال من  
القضاء والبقاء والصحو  
والحو وغير ذلك  
والتوبة لهذا الحب  
أيضاً بمثابة الجمان  
لأنها مشتملة على الحب  
العام الذي هو لهذا  
الحب كالجسد ومن  
أخذ في طريق  
المحبين وهو طريق  
خاص من طريق  
المحبة يتكامل فيه  
ويجتمع له روح الحب  
الخاص مع قالب  
الحب العام الذي  
تشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما مستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه الحديث وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فان في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم  
والشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله  
مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس  
فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام  
الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات للسخرية للشهوة  
فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين اللفت والسكرانة  
ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين  
لشهوته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويتفكرون منها إلى صفات الخالق فتكون  
مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات  
العارفين وعلامات المحبين إذ الحب إذا رأى صنعة جيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه  
بالصانع وكل ما يتردد البعد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له  
أبواب المسكوت وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون  
على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويسبونونه ويذمون  
فاعله فيذمون الطبخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى  
وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا  
الدهر فان الله هو الدهر (١) » فهذه الرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك  
يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المهاج لمن أحكم الأصول .

( الرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولتذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها )

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهذه  
إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم  
قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر « أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني  
فقال أمتوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان كان رشداً فأمضه وإن كان غياً  
فاتته عنه » وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى  
- وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم  
عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة (٢) »  
وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر  
رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالهرة إذا جنة الليل ويقول لنفسه ماذا فعلت اليوم وعن  
ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريك  
يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضوان الله عليه قال لها  
عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لأحد  
أعز علي من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكامة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها « وحديث أبي  
طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل خائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض ففاته (٣) »

(١) حديث لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إني لأستغفر الله  
وأتوب إليه في اليوم مائة مرة تقدم غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته  
فجعل حديثه صدقة تقدم غير مرة .

النصوح وعند ذلك  
لا يتقلب في أطوار  
المقامات لأن القلب  
في أطوار المقامات  
والترقي من شيء منها  
إلى شيء طريق المحبين  
ومن أخذ في طريق  
المجاهدة من قوله  
تعالى - والذين جاهدوا  
فينا لنهديهم سبلنا -  
ومن قوله تعالى  
- ويهدي إليه من  
ينيب - أثبت كون  
الانابة سبباً للهداية  
في حق الحب وفي حق  
المحسوب صريح بالاجتناب  
غير معلل بالكسب  
فقال الله تعالى - يجتبي  
إليه من يشاء - فمن  
أخذ في طريق المحبوبين  
يطوى بساط أطوار  
للمقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب قليل له بأباً يوسف قد كان في بنيك وعلما نك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره . وقال الحسن : للؤمن قوام على نفسه بحاسبها الله وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن للؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لأعذر بهذا والله لأعود لهذا أبداً إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعه يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ينجي الله لتقين الله أو لعذبتك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قاله ليلق المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربتي والفاجر يعصى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحمه الله عبداً قاله لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من بهلطان غاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعاني أبنائها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعاني سلاسلها وأغلها قتل نفسي يا نفس أي شيء تريدين فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً قلت فأنت في الأمانة فاعلمي ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحمه الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحمه الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحمه الله امرأ نظر في مكياله رحمه الله امرأ نظر في ميزانه فما زال يقول حق أبكاني ، وحكي صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المضاج فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا خفيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

### ( بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل )

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوسية الحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لوفاتهم لكأن الحيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قليلة فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبداً لا يبادم هذه المسألة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاء وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه القرائض ورجحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملته نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على القرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعانيتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقبراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغب في شيء منها فينبغي أن تبقى غيبة النفس ومكرها فاتها خداعة ملبسة مكاراة فليطالبها أولاً بتصحیح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليستكمل بنفسه

صفوها وخالصها بأنم  
وصفها والمقامات  
لا تقصده ولا تجبسه  
وهو قيدها ويحبسها  
بترقيه منها واتزاعه  
صفوها وخالصها لأنه  
حيث أشرفت عليه  
أنوار الحب الخاص  
خلع ملابس صفات  
النفس ونفوسها  
والمقامات كلها مصفية  
للنوع والصفات  
النفسانية فالزهد يصفه  
عن الرغبة والتوكل  
يصفه عن قلة الاعتدال  
المتولد عن جهل  
النفس والرضا يصفه  
عن ضربان عرق  
المنازعة المنازعة لبقاء  
جمود النفس ما أشرق  
عليها شمس المحبة  
الخاصة فيبقى ظلمتها



من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنه قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الدين . أما بعضها فالقائمة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما قلنا عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي وأحد عشرون ألف يوم وخمسة أيام فصرخ وقال : يا ويلتي ألتى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائلًا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظ العاصي والمساكين يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

#### ( الرابطة الرابعة في معاينة النفس على تقصيرها )

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فانه إن أهملها سهل عليه مقارفة للعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على عنقه ثم ندم فوضع يده على النار حتى ييس . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال هيها تهيها ت رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى قطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريبي يقول أصابني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكافت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت وأعجباه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له علي حق فلا أجدي المسازعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعي هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهم فاكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بهرت وقال إنك للحاظلة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بقرعة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق  
بالحب الخاص لانت  
نفسه وذهب جودها  
فإذا ينزع الزهد منه  
من الرغبة ورغبة  
الحب أحرقت رغبته  
وماذا يصفى منه التوكل  
ومطالعة الوكيل حشو  
بصيرته وماذا يسكن  
فيه الرضا من عروق  
النازعة بمن لم تسلم  
كليتته . قال الروذباري  
مالم تخرج من كليتك  
لا تدخل في حد المحبة  
وقال أبو يزيد من  
قتلته محبته فديته  
رؤيته ومن قتلته عشقه  
فديته منادته ، أخبرنا  
بذلك أبو زرعة عن  
ابن خلف عن أبي  
عبد الرحمن قال سمعت  
أحمد بن علي بن جعفر

أبى بعد العصر قتلنا إنه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً أدر كنهه وهو يدخل القابر وهو يعتاب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تسكمين بما لا تعلين أما إن لله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أؤسلك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سواء لك أما تستحين كم توجحين وعن غيك لا تنهين قال وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن نعيم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها تبرد ققام سنة لم يتم فيها عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال «انطلق رجل ذات يوم فرزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً أجيفة بالليل بطلاة بالنهار فيبينا هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه فقال غلبتنى نفسى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدد الله فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم<sup>(١)</sup> . وقال حذيفة بن قبادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما على وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن السباك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة قوام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة ثمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فزول إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس ققاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعناك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا قتل لى أهلك وعيالك فأطعناك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك قتل لأرمقته اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم ثم إن المدوح حمل على الناس فأنكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا امرأتاً وهو ثابت يقاتل فوالله ما زال ذلك كذا به حتى رأيته صريعاً فعددت به وبدايته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالذرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الأخف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا . وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فتتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبراً بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسى لتدعوني إلى للبح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فرزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبى الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدرى من طلحة هذا .

يقول سمعت الحسين ابن علقمة يقول قال أبو يزيد ذلك فاذا التقلب في أطوار اللقائات لعوام الحبيين وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن همهم اللقائات وربما كانت اللقائات على مدارج طبقات السموات وهى مواطن من يتعثر في أذيال بقاياها . قال بعض الصكبار لآبراهيم الخواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسمى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك وضرك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلها فان غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له وتفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

### [ الرابطة الخامسة المجاهدة ]

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرأها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تنوأنى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقل الأوراد عليها ويلزمها فتوأن من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياناً تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومواخذة لها بما فيه نجاحها . فان قلت إن كانت تقسى لا تطاوعنى على المجاهدة والواظبة على الأوراد فماسبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين (١) ومن أرفع أسباب العلاج أن تطلب صحبتة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقنطد به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعتزقت فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهداه فعملت على ذلك أسبوعا إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهد الأولين فينبغي أن يعدل من للشاهدة إلى السماع فلا شيء أرفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد وقد انقضت عليهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فمأعظم ملكهم ومأشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدره ثم يأتيه اللوث ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى ومأهم بمرضى» (٢) قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا قلوبهم وجاهلوا قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويحافون أن لا ينجم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» (٣) ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادي مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنساء وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ولترمذى من حديث بلال عليكم قيام الليل فانه ذاب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك (٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى ومأهم بمرضى لم أجده أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على طي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس ولترمذى من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفحتها متفاته من  
دائرة الزهد يردها  
الزاهد إلى الدائرة  
بزهده وللتنوكل إذا  
تحركت نفسه يردها  
بتوكله والراضى يردها  
برضاه وهذه الحركة  
من النفس بقايا  
وجودية تهتقر إلى  
سياسة العلم وفي ذلك  
انتمس روح القرب  
من بعيد وهو أداء  
حق العبودية مبلغ  
العلم وبحسبه الاجتهاد  
والكسب ومن أخذ  
في طريق الخاصة  
عرف طريق التخلص  
من البقايا بالتقسط  
بأنوار فضل الحق  
ومن اكتفى ملابس  
نور القرب بروح دائمة  
المكوف بحجة عن

فيقولون إلهنا خوقهم شيئا يخافوه وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لورأتى عبادى لكانوا أشدّ اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهمى كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذى تطؤون به بأرجلكم إن كان أحدهم يعيش عمره كله ماطوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فسك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزتهم وسألوا الله أن يفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب ناكل الجسم فقال عمر له يا فتي ما الذى بلغ بك ما أرى فقال يأمر المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله إلا صدقتنى فقال يأمر المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأطعمت لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم كان داود الطائي يشرب القثيث ولا يأكل الخبز قليل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب القثيث قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة مانظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزيق من غدوة إلى العصر فالتفت يمينه ولا يسرة قليل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحبيت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به ، وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلى جالسا ألف ركعة فإذا صلى العصر احتجى ثم قال عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلامنك عجبت للخلقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخلقة كيف استدارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك في قبره فائذن لي أن أصلى في قبري . وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى أتمت عليه ثمان وتسعون سنة مارأى مضطجعا إلا في علة للموت . وقال الحرث بن سعد : حر قوم براهب قرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكموه في ذلك فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأحوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم وسوا حظهم الأكبر من ربهم فيكنى القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد النعالي قال جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يد رجله فعبّر عليه أبو بكر السكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد به قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطنى

الطوارق والصروف  
لا يزججه طلب ولا  
يوحشه سلب فالزهد  
والتوكل والرضا كائن  
فيه وهو غير كائن  
فيها على معنى أنه كيف  
تقلب كان زاهدا وان  
رغب لأنه بالحق لا  
بنفسه وإن رأى منه  
الالتفات إلى الأسباب  
فهو متوكل وإن وجد  
منه الكراهة فهو  
راض لأن كراهته  
لنفسه وقسه للحق  
وكراهته للحق أعيد  
إليه نفسه بدواعيها  
وصفاتها مطهرة  
موهوبة محسولة  
ملطوف بها صارعين  
الداء دواءه وصار  
الاعلال شفاءه وناب  
طلب الله له مناب كل

فأعاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قل دخلت على قنح للوصلي  
فرأته قد مد كفيه بيكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد  
خالطها صفرة فقلت ولم بالله يا قنح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلقتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما  
فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخافني عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع  
لئلا يكون ما صحت لي الدموع قل رأيت بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت  
له فماذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يا قنح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على  
تخلفني عن واجب حقك فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يا قنح  
ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد سعد حافظك أربعين سنة بصحبتك ما فيها خطيئة ، وقيل  
إن قوما أرادوا سفرا فخادوا عن الطريق فاتموا إلى راهب منفرد عن الناس فتأدوه فأشرف عليهم  
من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم  
ما أراد فقالوا ياراهب إنا سألوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمر  
لا يعود والطلاب حيث فجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال  
على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البعثة ثم أرشدهم إلى الطريق  
وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين  
فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا  
براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده  
على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر  
في حسابه وعقابه فتهار صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا  
فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت ياراهب لما الذي قطع  
الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل  
العاصي والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من  
ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن أفاقر ، وكان أويس القرني يقول هذه  
ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل  
كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لورقت نفسك  
قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتعم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان  
الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند المات يحمد القوم التقى . وقال عبد الله بن داود :  
كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن  
يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان  
يبيكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الريح بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون  
وأنت لا تنام ؟ فيقول يا ابتناء إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الريح ما يلقي الريح من البكاء  
والسهر نادته يا بنى لملك قتلت قتيلًا قال نعم يا أماء قالت فمن هو حق نطلب أهله فيعفو عنك فوالله  
لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول يا أماء هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت شربين  
الحريث قال سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب على فقال له  
أمي يا أخى أنا أذن لي حق أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يوم جوفك فقال لها  
ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فبكت أُمى وبكى معها

طالب من زهد وتوكل  
ورضا أو صار متلوه  
من الله ينوب عن كل  
مطلوب من زهد  
وتوكل ورضا . قالت  
رابعة : محب الله لا يسكن  
أنيته وحنيته حتى  
يسكن مع محبوبه .  
وقال أبو عبد الله  
القرشي حقيقة المحبة  
أن تهب لمن أحبت  
كلك ولا يبق لك منك  
شيء . وقال أبو الحسين  
الوراق : السرور بالله  
من شدة المحبة له والمحبة  
في القلب نار تحرق كل  
دنس . وقال يحيى بن  
معاذ صبر المحبين أشد  
من صبر الزاهدين  
واعجبا كيف يصبر  
الإنسان عن حبيبه .  
وقال بعضهم من ادعى

وبكى معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس تنفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتنى لم يدبر ثديها على . قال عمر وكانت أمي تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقلبتة عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالى أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى العشاء فعمدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فذاك ذلك في صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش وزل للساء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد ممنون في كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبي بكر الطويعي قال كان وردى في شببتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى ، وكان منصور بن العنبر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لاتسكت لعلك يا بنى أصبت نفسك لعلك قتلت قتيلا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبا ولا مثل النار نام هاربا وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فاذا جاء الليل قال من خاف أدجى وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . وروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم ائتملت عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعنا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقيامًا يتلون كتاب الله يراوون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأرحفن بك زحفا حتى يكون الكلال منك لامننى فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابى وكان يقول أئظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لئراحمهم عليه زحاما حتى يملوا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفه انه سلم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

حجة الله من غير تورع  
عن محارمه فهو كذاب  
ومن ادعى حجة الجنة  
من غير إتيان ملكه  
فهو كذاب ومن ادعى  
حب رسول الله صلى  
الله عليه وسلم من غير  
حب الفقراء فهو كذاب  
وكأنت رابعة تشد :  
تعصى الإله وأنت  
تظهر حبه

هذا لعمري في الفعال

بديع

لو كان حبك صادقا  
لأطعته

إن المحب لمن يحب  
مطيع

وإذا كان الحب

للأحوال كالتوبة

للمقامات فمن ادعى

حالا يعتبر حبه ومن

ادعى حجة تعتبر توبته

مالوقيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذا غدوت بدأت بمائشة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ - فن الله علينا ووفانا عذاب السموم - وتبكي وتدعو وتردد الآية ففقت حتى مللت وهى كاهى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كاهى تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من اللوت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال طلى بن أبى طالب كرم الله وجهه سببا للصالحين صفة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاء من الصوم عليهم غيرة الخاشعين . وقيل للحسن : ما بال التمجدين أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتى ولم تؤامرني وغيتنى ولا تعلمنى وخلقت ممي عدوا وجعلته مجرى ممي مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استمسك إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى إلهى فى الدنيا المهوم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأبى الراحة والفرح ، وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثالث صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدث به بعض البصريين فقال لا تنظر إلى صباحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب للمرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا بك ومن ههنا داع ومن ههنا قارى ومن ههنا متوضى ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوايت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبولون ومدبرون وقلوبهم تجول فى اللسكوت وتلوح بمحجوب النجوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالدياج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبدولون لمن أرادهم تواضعا ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالنسكف وإنما هو فضل الله يؤتیه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير فى بعض جبال بيت للقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية - يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا - إلى قوله - ويحذركم الله نفسه - قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت وأسفاه هذا لشقائى ، ثم انتظرت إفاقة فأفاق بعد ساعة فسمعتة وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراس الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال القصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نهض يده فقال مالى وللدنيا

فان التوبة قالب روح الحب وهذا الروح قيامه بهذا القلب والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح . وقال ممنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « للرب مع من أحب » فهم مع الله تعالى وقال أبو يعقوب السوسى لاصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فإذا خرج الحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة .

ومال الدنيا ولي عليك يادنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى محبيك فاذهبي وإياهم فاخدي ثم قال  
أين القرون للماضية وأهل الدهور السالفة في التراب ييلون وعلى الزمان يفنون فذايته يا عبد الله أنامند  
اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من ييادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه  
أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عني  
ساعة وقرأ - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر  
مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدوت منه فاذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول من أنا ما خاطري  
هب لي إساءتي من فضلك وجللي بسترى واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت  
له بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمني فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته  
ذنوبه إن لي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ومجاهدني فلم يجد عوتا على ليخرجني مما أنا فيه  
غيرك فالبك عني يا خدوع قد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي وأنا أعوذ بالله  
من شرك ثم أرجو أن يعيدني من سخطه ويفضل على برحمته قال فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله  
فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير في مسير لي إذ علمت إلى  
شجرة لأستريح تحتي فاذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لي يا هذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه  
فاتبته فسمعت وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لي في الموت فقلت وفيما بعد الموت  
فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت  
الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك واملا قاي من المحبة لك وأجرني من ذل التوبيخ غدا عندك فقد  
آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسعني أبجلى ولولا  
عفوك لم ينسب فيما عندك أملى ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا المعنى :

نحيل الجسم مكنث الفؤاد تراه بقعة أوبطن وادي  
ينوح على معاصه فاضحات يكدر ثقلها صفو الرقاد  
فان هاجت مخاوفه وزادت فدعوته أغثنى يا عمادي  
فأنت بما ألاقيه عليم كثير الصفح عن زلل العباد  
وقيل أيضا : الله من التلذذ بالغواني إذا أقبلن في حلال حسان  
منيب فر من أهل ومال يسبح إلى مكان من مكان  
ليحمل ذكره ويعيش فردا ويظفر في العبادة بالأمان  
تلذذ السلاوة أين ولي وذكر بالفؤاد وباللسان  
وعند الموت يأتيه بشير يبشر بالنجاة من الهوان  
فيسرك ما أراد وما تمنى من الراحة في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له  
قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا قليل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة قليل خمسون  
ألف سنة فقال كيف يجوز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعني أنك لو عشت عمر الدنيا  
واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك  
كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف  
الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فهمما تدرت نفسك عليك وامتنعت من اللواظبة على العبادة  
فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجح

سئل الجنيد عن  
المحبة قال : دخول  
صفات المحبوب على  
البدل من صفات  
المحب . قيل هذا على  
معنى قوله تعالى « فاذا  
أحبته كنت له سمعا  
وبصرا » وذلك أن  
المحبة إذا صفت وكلت  
لا تزال تجذب بوصفها  
إلى محبوبها ، فاذا  
انتهت إلى غاية جهدها  
وقفت والرابطة متصلة  
متأكدة وبكال وصف  
المحبة أزال للوانع من  
المحب وبكال وصف  
المحبة تجذب صفات  
المحبوب تعطف على  
المحب الخالص من  
موانع قاذحة في صدق  
الحب ونظرا إلى  
قصوره بعد استفاد



في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا عجزت عن هذا فلا تفعل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زميرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجملة النافقين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تتخرط في سلك الحمقى وتقع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر بخالفة العقلاء فان حدثت نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس رجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات قد دروي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قمت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت اللوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم قبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهتأ أم رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما بهيتنى وعزتك لو أنه رتقى عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك . ويروى عن عجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع الهابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بعيرك أن تجعلنى في أول زمرة السابقين وأن ترفعنى ليدبك في عليين في درجة القربين وأن تلجئنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحبى لو أتيناها إذا دخلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لورقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد من قال فبككت ثم قالت والله لو ددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم فى جرحه من جوارحى وأنى لى بالبكاء وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد دوائى لى بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت رأيت فى منامى كائى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لى قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أمة سوداء من أهل الأبيكة قال لها شعوانة قالت فقلت أختى والله قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيحة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك قالت فقبست إلى وقالت لى بأن لقدومك ولكن احفظى عني اثنتين ألزمنى الحزن قلبك وقدسى حجة الله على هوالك ولا يضرك قمت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فقامت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقامت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاي بحبى لى أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبحبى لى أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريّة فزلت فى بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لحادم لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فلما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول خلقت سريّة ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لخطبك بالتوئب على معاصيك فلتة بعد فلتة أثرها تظن أنك لا تبرى سوء فالحا وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصرى خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقل على وهو يقول

جهده فيعود الحب  
بفوائد اكتساب  
الصفات من المحبوب،  
فيقول عند ذلك :  
أنا من أهوى  
ومن أهوى أنا  
نحن روحان حللنا بدنا  
فإذا أبصرتنى أبصرته  
وإذا أبصرته أبصرتنا  
وهذا الذى عبرنا عنه  
حقيقة قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« تخلقوا بأخلاق الله »  
لأنه بزاهة النفس  
توكل الزكية يستعد  
للمحبة والمحبة موهبة  
غير معللة بالزكية  
ولكن سنة الله  
جارية أن يزكى نفوس  
أحبابه بحسن توفيقه  
وتأييده وإذا منح  
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - ويكي فلما قرب منى السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فزعة منى قلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لهولها فقالت لي ما الذي أبكاك قلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت فان كنت صادقاً فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذاك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجباً من قولها . وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيفة فخرجتنا فلما رأينا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعنا وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها قتلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي للنفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فأنفت منه نظرة فغرمغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه فياليت عفيفة إذا رفعت رأسها لم تعض وباليها إذا عصت لم تعد . وقال بعض الصالحين خرجت يوماً إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتسبت في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجى وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأيته عرفت الغضب في وجهى فقالت يا مولاي لا تعجل على إنك أجلسنى في موضع لم أرفه ذا كر الله تعالى خفت أن يحسف بذلك الموضع فعجبت لهولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما . وقال ابن العلاء السعدي كانت لى ابنة عمه طالبة باريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف فكانها أمت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نغسلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها قتلنا بباريرة كيف أصبحت قالت أصبحتنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب قتلنا لها كم لهذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا ثمهى والله في شىء غير ما نحن فيه . وكانت معاذة العدوية إذ جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وفتت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قواني قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا ينجب لديك أمل الآملين ولا يطل عندك شوق للمشتاقين إلهى إن كان دنائى جلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالنسب وسائل على فان عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى في حياتى إحسانه أن يسحقنى عند مماتى بفقرانه إلهى كيف أياأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجليل فى حياتى إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فان محبتى لك قد أجارتنى فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهى لو أردت إهانتى لما هديتني ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بماله هديتني وأدم لى مابه سترتني إلهى ما أظنك تردنى فى حاجة أفنت فيها عمرى إلهى لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عमित وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفوليهون عليها الأمر قال فشبهت

جذب روحه بمجاذب  
الحبة خلع عليه خلع  
الصفات والأخلاق  
ويكون ذلك عنده  
رتبة في الوصول فتارة  
ينبعث الشوق من  
باطنه إلى ما وراء ذلك  
لكون عطايا الله  
غير متناهية  
وتارة يقتلى بما منح  
فيكون ذلك وصوله  
الذى يسكن نيران  
شوقه وي باعث الشوق  
تستقر الصفات للهووية  
الحقيقة رتبة الوصول  
عند المحب ولولا باعث  
الشوق رجع القهقرى  
وظهرت صفات نفسه  
الحائلة بين المرء وقلبه  
ومن ظن من الوصول  
غير ما ذكرناه أو تخايل  
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفسي فرح فؤادي وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئا مذكورا  
ثم أقبلت على صلاتها . فعليك إن كنت من الرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء  
من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فانك إن تطع أكثر  
من في الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن  
أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة  
والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن  
حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان  
والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخرؤا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك  
إلا ما يجرى عليهم والصية إذا عمت طابت فأياك أن تتدلى بجبل غرورها وتتخذه بتزويرها وقل  
لها رأيت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد وتبثوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم  
بحقيقة الحال وقدوت أنت على أن تفارقهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الفرق فهل يختلج  
في نفسك أن للصية إذا عمت طابت أم تركين موافقتهم وتستجھلينهم في صنيعهم وتأخذين حذر  
مما دهاك فاذا كنت تركين موافقتهم خوفا من الفرق وعذاب الفرق لا يتمدى إلا ساعة فكيف  
لاتهريين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ومن أين تطيب الصية إذا عمت ولأهل  
النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم  
حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك  
وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لاتترك معاتبها وتوبيخها وتقريرها وتعريفها سوء نظرها لنفسها  
ففساها تزجر عن طغيانها .

#### ( للرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها )

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير  
وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها  
عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تنظر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والمذلل  
واللامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس اللطيفة للدعوة  
إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن  
بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولابوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظم  
نفسك فان امتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي منى وقال تعالى - وذكر فان الله كرى تنفع المؤمنين -  
وسيلك أن تقبل عليها فقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تعجز بفطنتها وهدايتها ويشد أنفها  
واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والدكاء والفطنة  
وأنت أشد الناس غباوة وحما أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على  
القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم  
تختطفين أوغدا فأراك ترين اللوت بعيدا ويراها الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن  
البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن اللوت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة  
وأنة لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل  
دون نهار ولا يأتي في الصبادون الشباب ولا في الشباب دون الصبايل كل نفس من الأناس يمكن أن يكون  
فيه اللوت فجاء فان لم يكن اللوت فجاء فيكون للرض فجاء ثم فضى إلى اللوت فمالك لاتستعدين للوت

متعرض للذهب  
النصارى في اللاهوت  
والناسوت. وإشارات  
الشيوخ في الاستغراق  
والقناء كلها عائدة إلى  
تحقيق مقام المحبة  
باستيلاء نور اليقين  
وخلاصة الذكر على  
القلب وتحقيق حق  
اليقين بزوال اعوجاج  
البقايا وأمنت اللوث  
الوجودى من بقاء  
صفات النفس وإذا  
صحت المحبة تربت  
عليها الأحوال وتبتمها.  
سئل الشبلى عن المحبة  
فقال كأس لها وهج  
إذا استقر في الحواس  
وسكن في النفوس  
تلاشت . وقيل للمحبة  
ظاهر وباطن ظاهرها  
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أمتدبرين قوله تعالى - اقرب للناس حسابه وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ويحك يا نفس إن كانت جراتك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تسكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفنتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربي نفسك إن أهلك البطر عن ألم عذابه فاحتسبي ساعة في الشمس أوفى بيت الحمام أوقربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاعتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغناؤه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنطين الحيل في دفعه ولا تسكينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا بما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كثر ويسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أفتحسين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلا ماسعى . ويحك يا نفس ما أعجب ثقافتك ودعائك بالباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للانسان إلا ماسعى - فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تسكالبين على طلبها تسكالب للدعوى للستة وكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض الغرور المستحق ما هذان علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان للتافقون في الدرك الأسفل من النار . ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت أنقذت وتخلصت وهيهات أحسين أنك تتركين سدى ألم تكن نطفة من منى بمعنى ثم كنت علقة غخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الوقي فان كان هذا من إضمارك فما أكره وأجهلك أمتافكرين أنه مما إذا خلقتك من نطفة خلقتك قدرك ثم السيل يسرك ثم أمتك فأفبرك أفنكذبنه في قوله ثم إذا شاء أنشرك فان لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرَكَ ولو أن يهوديا أخبرك في الله أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء للتوידين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه للترلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغلالم وأنسكالم وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ماهذه أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل وللوت لك بالمرصاد ولعله يخطفك من غير مهلة فبما إذا أمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أفنتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العمية يفلح ويقدر على قطع العمية بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرايت لو سافر رجل ليتفقه في العربية فأقام فيها سنين متعبلا بطلا لا يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تصحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطمع فيه بمدة قرية أو حسبانته أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعنادا على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يكون مغنونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال ينافيها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم : حزني كحسبك لا لذا أمد

ينهى إليه ولا لذا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبي الحواري دخلت على أبي سليمان

ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك فإن أوحى إليك بالامهال فما للناع من اللبادة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفنتظرين يوما يأتيك لا تصبر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالكاره ولا تكون الكاراه قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأس لابل تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول اللذة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا وهما لما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في الشباب بل من العناية رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب التديب والتضييب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبدأ الآباد ولا مطعم في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهواتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنا بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنًا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أبصر ثلاثة أيام ليتعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي . أما الكثرة الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واعتدراجه واستغناؤه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من السال أو كلة واحدة تسمعنها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغررك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أو قاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعصك فاغتسمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والتقى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تسكين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبدو حطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفنظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فرأيتك يسكى  
قلقت ما ميكك رحمتك  
الله قال ويحك يا أحمد  
إذا جن هذا الليل  
اقرشت أهل الحبة  
أقدامهم وجرت  
دموعهم على خدودهم  
وأشرف الجليل  
جل جلالة عليهم  
يقول « بمعنى من تلذذ  
بكلامى واستراح إلى  
مناجاتى وإنى مطلع  
عليهم فى خلواتهم أسمع  
أنينهم وأرى بكاءهم  
يا جبريل ناد فيهم  
ما هذا البكاء الذى  
أراه فيكم هل خبركم  
خبر أن حبيبا يعذب  
أحبابه بالنار كيف  
يحمل بى أن أعذب  
قوما إذا جن عليهم  
الليل تعلقوا إلى فبي

في الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبية والنار  
وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبرد الماء إلا بحسن التوحيد وخذق الطاعات وإنما كرم الله تعالى  
في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لافي أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم  
الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدته وحجر حتى تدفع  
بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبية بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه  
لنفسك إذ خلقه سبيلا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى  
نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعلها والله غني عن العالمين . ويحك يا نفس انزعي عن جهلك  
وقبسي آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما  
بدأكم تمودون وسنة الله تعالى لا تجددين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا  
وألست بها ففسر عليك مفارقتها وأنت مقيلة على مقاربتها وتؤكد في نفسك مودتها فاحسبي أنك  
غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنت مؤمنة بالموت الفارق بينك وبين عذابك  
أقربين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مليم يعلم أنه يستغرق ذلك  
قلبه ثم يضطر لاحالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الحق . أما تعلمين أن الدنيا دار للملك  
للكلوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله  
عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعامل ما شئت فانك تجزي  
به وعش ما شئت فانك ميت (١) » . ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس  
بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكبر من الحسرة عند الفارقة وإنما يزود من السم للمهلك وهو لا يدري  
أو ما تتظنين إلى الدين مضوا كيف بنوا وعلوهم ذهبوا وخالوا كيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم  
أما تربنهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤمنون مالا يدركون بيني وكل واحد  
قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حمق واشتكاس أعظم من  
هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قاطئا ، أما تستحيين يا نفس  
من مساعدة هؤلاء الحق على حماقتهم واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تعلمين  
بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيس عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء النكسين على الدنيا  
واقتردي من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء يا نفس ما أعجب  
أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجيبك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس  
أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض  
الناس إليك فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة  
لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر  
من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا  
فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكا  
من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف وبأبي  
إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين  
الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائهم وتزهاعا عن  
كثرة عنايتهم وتوقيا من سرعة فناهم أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدت كثيرها ومالك

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم في العلم وغيره .

حلفت إذا وردوا  
القيامة على أن أسفر لهم  
عن وجهي وأيهمهم  
رياض قدسي « وهذه  
أحوال قوم من المحبين  
أقيموا مقام الشوق  
والشوق من المحبة  
كأزهد من التوبة  
إذا استقرت التوبة  
ظهر الزهد وإذا  
استقرت المحبة ظهر  
الشوق . قال الواسطي  
في قوله تعالى « وعجلت  
إليك رب لترضى » قال  
شوقا واستهانة بمن  
وراءه - قال هم أولاء  
على أئري - من شوقه  
إلى مكاملة الله ورمى  
بالألواح لما فاته من  
وقته . قال أبو عثمان  
الشوق ثمرة المحبة فمن  
أحب الله اشتاق إلى

تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزيتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأفساد فما أجها لك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون في زمرة القريين من النبيين والصدقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكون في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياما قلائل في أحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يرضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك الأيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك . أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفرع الأكبرين يديك ، أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان للعلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أما تعلمين يا نفس أنهم يتحنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستنلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو يسع منهم بالدين بما جفا فيه لا يشتره لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أما تستجيبين تزيين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالظنم أفستجيبين من الخلق ولا تستجيبين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك أم أمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالردائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس أن للذنوب آتئين من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق للفرقة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بملك وفيه من الآفات ما لو نجوت من رأس أبراس لكان الربح في يديك وكيف تعجبين بملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجها لك وما أجرأك على نل العاصي ويحك كم تعقدين فتقضين ويحك كم تعهدين فتعدين ويحك يا نفس أتستغنين مع هذه الخطايا بعمارة دنيالك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جموا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنائهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أم لا إلهم نظرة أظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من الخلدن هيهات هيهات ساء ما توهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك البراق أن تبدور سدا برك من حدة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكيف من مستقبل يوما لا يستكملها وكم من مؤمل لند لا يلقه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك قرين تحسرم عند الموت ثم لاترجعين عن جهالتك فاحذري أيها النفس للسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حق يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله لآت - تقرية للمشتاقين معناه آتى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشاقون إليه وقال ذوالنون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القامات إذا بلغت الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجا لقائه والنظر إليه وعندى أن الشوق السكّن في الحين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكشف أهل وده بمطايا مجدونها

فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين وأعدى للسؤال جواباً وللجواب صواباً واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال والدار مقامة وفي دار حزن ونصب للدار نعيم وخلود اعملي قبل أن لاتعملي اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا قرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر بضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك لها اضطراراً ورفضك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً ولا تسكوني بمن يحجز عن شكر ما أوتى ويتنقى الزيادة في باقي وينسى الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يساربه وإن لم يسر فانتعطي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فان كانت المساواة تمنعك عن قبول للموعظة فاستعني عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل في المراقبة على الصيام فان لم تزل في قلة الخالطة والكلام فان لم تزل في صلة الأرحام واللطف باليتام فان لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقل عليه وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئي نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للعظم فاقطعي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه للصية التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدفعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة قد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك وبغيثك فان مصيبتك قد عظمت وبلبتك قد تفاقت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا مانجاً ولا منجاً إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهالك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الدليل وبغيث الطالب للتلف ويحب دعوة المضطر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنج فيك العظات ولم يكسر كاتميخ فالمطلوب منه كريم والسئول جواد والمستغاث به برءوف والرحمة واسعة والكرم فائض والقنوط شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلیم يا عظیم يا كريم أنا اللذنب للصبر أنا الجريء الذي لأقلع أنا للتأدي الذي لأستحي هذا مقام للتضرع للسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والمهالك الغريق فبجل إغاثني وفرجني وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومعفرتك وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام قد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك قال يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار اللوت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطى ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك

علما ويطلبونها ذوقاً  
فكذلك يكون شوقهم  
ليصير العلم ذوقاً وليس  
من ضرورة مقام الشوق  
استبطاء اللوت وربما  
الأصحاء من المحبين  
يتلذذون بالحياة لله  
تعالى كما قال الجليل  
لرسوله عليه الصلاة  
والسلام قل إن صلاتي  
ونسكي ومحياي ومماتي  
لله رب العالمين فمن  
كانت حياته لله منحة  
الكريم لذة النجاة  
والحبة فتمتلئ عينه  
من التقدير ثم يكشفه من  
النوح والعطاي في الدنيا  
ما يتحقق بمقام الشوق  
من غير الشوق إلى  
ما بعد اللوت وأنكر  
بعضهم مقام الشوق  
وقال إنما يكون الشوق



من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصيت أمرى وسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى  
لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحونى ثم عصوفى لأنزلهم منازل العاصين فبكى آدم  
عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله: إلهى أنا  
الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها  
خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا ومأوى واعبيدها إن كانت  
للقامع لرأسك تهيأ واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت  
فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك  
إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى  
وأعاني على ذلك شقوتى وغرنى سترك للرخى على فمعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك  
الآن من يستغنى أو يجهل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى واسوأته من الوقوف بين يديك غدا  
إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع الخفين أجوز أم مع الثقلين أخطو بلى كلما كبرت سنى كثرت  
ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فالى متى آتوب وإلى متى أعود أما أن لى أن أستجى من ربى  
فهذه طرق القوم فى مناجاة مولا هم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم  
من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون  
الله تعالى عنه راضيا والسلام . تم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى  
والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

### ﴿ كتاب التفكر ﴾

( وهو الكتاب التاسع من ربيع للنجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذى لم يقدر لانهاء عزته نحو ولا قطرا ولم يجعل لمرأى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأنعام  
إلى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين فى يدها كبرياته والهبة حيرى كلما اهتزت لنيل  
مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا وإذا همت بالانصراف آيسة توديت من سرادقات الجمال صبرا  
صبرا ثم قيل لها أجيئى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى  
له قدرا وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالى عليك  
تترى وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملى فى بحار القادر كيف فاضت على العالمين خيرا  
وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وإيمانا وكفرا وعرفانا  
ونكرا فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرأوا خاطرت بنفسك  
مجاوزه حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانتقصت على أعقابها  
اضطرابا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته غفرا صلاة تبقى لنا فى  
عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى مقام الدين بدرا  
ولطوائف المسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة (١) » وكثر الحديث فى كتاب

### ﴿ كتاب التفكر ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبي هريرة

لغائب ومضى يغيب  
الحبيب عن الحبيب  
حتى يشاق ولهداسل  
الأنطاكى عن الشوق  
فقال إنما يشاق إلى  
الغائب وما غبت عنه  
منذ وجدته وإنكار  
الشوق على الإطلاق  
لا أرى له وجهاً لأن  
رتب العطايا وللنح  
من أنصبة القرب إذا  
كانت غير متناهية  
كيف ينكر الشوق  
من الحب فهو غير غائب  
وغير مشتاق بالنسبة  
إلى ما وجد ولكن  
يكون مشتاقاً إلى ما لم  
يجد من أنصبة القرب  
فكيف يمنع حال  
الشوق والأمر هكذا.  
وجه آخر أن الإنسان  
لا بد له من أمور يردها

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة للمعارف والقهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقة وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم ثمرة تستفاد منه فان كان ثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير ثم حقيقة التفكير وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

### ( فضيلة التفكير )

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل قال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تسكلمون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فان بهنا للغرب أرضا بيضاء نورها بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم ؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال قول رسول صلى الله عليه وسلم زر غبا تردد حبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا أثنى في ليالي حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرينى أتعب لربى عز وجل فقام إلى القرية فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » قيل

بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الأصهبانى في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى في الأوسط والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تسكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله الحديث رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تهدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء -

حكم الحال لموضع  
بشرته وطبيعته  
وعدم وقوفه على حد  
العلم الذى يقتضيه حكم  
الحال ووجود هذه  
الأمور مشير لنار الشوق  
ولا نغنى بالشوق إلا  
مطالبة تنبعث من  
الباطن إلى الأولى  
والأعلى من أنصبة  
القرب وهذه اللطافة  
كاشفة في المحبين فالشوق  
إذن كائن لاوجه  
لأنكاره وقد قال قوم  
شوق للشاهدة واللقاء  
أشد من شوق البعد  
والغيوبة فيكون في  
حال الغيبة مشتاقا  
إلى اللقاء ويكون في  
حال اللقاء وللشاهدة  
مشتاقا إلى زوائد  
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فهن قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لأبراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يمثل بقول القائل :

إذا للرم كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل طي الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطق ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لغو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق - قال أمنع قلوبهم التفكير في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه <sup>(١)</sup> » ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالعت قلوب للتقنين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تفر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحده فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي وراه ما كنا متفكرا أين بلغت ؟ قال الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبيننا أبو شريح يمشي إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يبكي فبكي له يبكيك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقترب أجلي . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان التفكير في الدنيا حجاب عن الآخرة وعمقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب . وقال حاتم من العبارة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشريد عو إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو ما فإذا كان همه هو ما إلى جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يمودون بالله كرم على الفكر وبالفكر على الله كرم حتى استنطقوا قلوبهم فطقت بالحكمة . وقال إسحاق بن خافض كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جارية له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف وظن أنه لص فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحتك من السطح قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتسم بتسم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا لها من مجالس ما أجملها ومن شراب ما ألذ طوي لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة باسناد ضعيف .

وإفضاله وهذا هو الذي  
أراه وأختاره . وقال  
فارس : قلوب للتقنين  
منورة بنور الله فإذا  
تحركت اشتتت أضاء  
النور ما بين للشرق  
والغرب فيعرضهم الله  
على اللاتكة فيقول  
هؤلاء للتقنين إلى  
أشهدكم أني إليهم  
أشوق . وقال أبو يزيد :  
لو أن الله حجب أهل  
الجنة عن رؤيته  
لاستغاثوا من الجنة  
كما يستغيث أهل النار  
من النار . سئل ابن  
عطاء الله عن الشوق  
فقال هو احتراق الحشا  
وتلهب القلوب وتقطع  
الأكباد من البعد  
بعد القرب . سئل  
بعضهم هل الشوق

وقد الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

### ( بيان حقيقة الفكر وثمرته )

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان : أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدق من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين العرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار للمعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتدبرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فعبارة مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحدا كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع وللمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار يتطلق على إحضار للمعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينتقل عليه اسم التذكر لاسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التذكر تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تمنحى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصله فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة تاج للمعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك تاج آخر وهكذا يتمادى التاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق . هذا لمن يقدر على استئثار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فأنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدانهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالذى لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج القضى إلى النتائج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأنبيا صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم التفكير قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد فكأن من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراد التعبير عنه مع أنه لم يحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى

أعلى أم المحبة ؟ فقال  
المحبة لأن الشوق  
يتولد منها فلا مشتاق  
إلا من غلبه الحب فالحب  
أصل والشوق فرع  
وقال النصر اباضى :  
للخلق كلهم مقام  
الشوق لا مقام الاشتياق  
ومن دخل في حال  
الاشتياق هام فيه .  
حتى لا يرى له أثر ولا  
قرار . ومنها الأنس  
وقد سئل الجنيد عن  
الأنس فقال : ارتفاع  
الحشمة مع وجود  
المهيسة . وسئل  
ذو النون عن الأنس  
قال : هو انبساط  
المحب إلى المحبوب قيل  
معناه قول الخليل -  
أرني كيف تحيى للوتى -  
وقول موسى - أرني

بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فراجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة . وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذن هو للبدا والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فاذن التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذى ينقل من اللسار إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته ثم تغيرت أعمال الجوارح في طراح الدنيا والقبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب . وثانيها التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . والثالثة حصول المعرفة للطلوبة واستنارة القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضي بها الوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فاذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لانهاية لها والأحوال التي تصورها أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه في ذات الفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

## ( بيان مجارى الفكر )

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين وإلما غرضنا ما يتعلق بالدين فلتترك القسم الآخر ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيها هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسبابه الحسنى وإما أن يكون في أفعاله وملكوته وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما وينكشف

أنظر إليك وأنت

لرويم :

شغلت قلبي بما لديك فلا

ينفك طول الحياة

عن فكر

أنتنى منك بالوداد قد

أوحشتنى من جميع

ذا البشر

ذكرك لى مؤنس

يعارضى

يوعدنى عنك منك

بالظفر

وحينما كنت

يامدى همى

فأت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف

ابن الشخير كتب إلى

عمر بن عبد العزيز

ليكن أنسك بالله

واقطعك إليه فان

له عبادة استأنسوا

بالله وكانوا في وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثل وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقاءه يضاهاى حال العشاق فلننخذ العاشق المستتر مثالنا ، فنقول : العاشق المستغرق لهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا لذته ومقويا لمحبهته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوه حتى يتزده عنها أوفى الصفات التي تقر به منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فان تفكر في شئ خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فحجب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدا بالقسم الأول وهو تفكره في صفاته نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم العاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم للكاشفة ثم كل واحد بما هو مكروه عند الله أو محبوب يتقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروه التفكير في ثلاثة أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثانى التفكير في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارقه فيامضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقين به المرید سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصى] ينبغى أن يفطن الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أولا بسببها بالأس فتداركها بالترك والتندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله والإفوضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فبهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في معصية أنه يصنع به إلى الغيبة والكذب وقضول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهى عن النكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يصنع الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ومأكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم

أشد استئناسا من الناس في كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون . قال الواسطي : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها . وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا و معه التعظيم لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فانك لا تزايد به أنسا إلا ازدادت منه هية وتعظيما . قالت رابعة : كل مطيع مستأنس وأنشدت : ولقد جعلت في الفؤاد محدثي

يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهمه حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبدة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بطلعة القرآن والسنة فلم لأفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان التماسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لأفعله وكذلك يقول في سمعه إنني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فإلى أعطاه وقد أنعم الله تعالى به وأودعني لأشكره فما لي أ كفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إنني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقي الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الأيثار أحوج مني إلى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلماؤه وأولاده فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغب في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مغان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات الملهكة التي محلها القلب] فيعرفها بما ذكرناه في ربيع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتقدم من قلبه هذه الصفات فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فإن النفس أبداً تمتد بالحير من نفسها وتغلف فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض لنضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة للكرهية أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع المهلكات فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تبسح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كالورأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول إنما عملي يبدني وجارحى وبقدري وإرادتي وكل ذلك ليس مني ولا إلهي وإنما هو من خلق الله وفضله على فهو الذي خلقني وخلق جارحى وخلق قدرتي وإرادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسى ولا أقوم لنفسى بنفسى فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بزرعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقياً

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

وأبحث جسمي من  
أراد جلوسى  
فالجسم منى للجليس  
مؤانس  
وحبيب قلبي في القواد  
أنيسى

وقال مالك بن دينار:  
من لم يأنس بمحادثة  
الله عن عبادته المحلوقين  
قد قل عليه وعمى  
قلبه وضيع عمره .  
قل لبعضهم من معك  
في الدار قال الله تعالى  
معى ولا يستوحش من  
أنس بربه . وقال  
الحراز: الأنس بمحادثة  
الأرواح مع المحبوب  
في مجالس القرب .  
ووصف بعض العارفين  
صفة أهل المحبة  
الواصلين فقال: جدد  
لهم الود في كل طرفة

بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فإذا عرف أن الكبير مهلك وأن أصله الحمقاء فيتنفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال للتواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشهره تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات لللائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشبه عليه أغلب كان البهائم أشبه وعن اللائكة المقربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [ وأما النوع الرابع وهو للنجيات ] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعله والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتنفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي للقربة إلى الله تعالى فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشعرها إلا علوم وأن العلوم لا يشعرها إلا أفكار فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً وليتنفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لعقوبة الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا به في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتنفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في اللوت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقيز والقطمير ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشكالي فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليقين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية للموكلين بها وأنهم كما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تعيظاً وزفيراً وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملوكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أفق من قراءة القرآن بالتفكير فانه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات للذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق للعامة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتي جوامع الكلم <sup>(١)</sup> وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم .

بدوام الاتصال وآواهم  
في كنفه بمحائق  
السكون إليه حتى  
أنت قلوبهم وحت  
أرواحهم شوقاً وكان  
الحب والشوق منهم  
إشارة من الحق إليهم  
عن حقيقة التوحيد  
وهو الوجود بالله  
فذهبت مناهم واقطعت  
آمالهم عنده لما بان  
منه لهم ولو أن الحق  
تعالى أمر جميع الأنبياء  
يسألون لهم ما سألوه  
بعض ما أعد لهم من  
قديم وحدانيته ودوام  
أزليته وسابق علمه  
وكان نصيبهم معرفتهم  
به وفراغ همهم عليه  
واجتماع أهوائهم فيه  
فصار يحسد من  
عبيده العموم أن



العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزي به» (١) فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقهم ولحال ذلك بينهم وبين التلقت إلى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة والبتدى ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن الكساة. ولعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية للطلب بل للمشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحجوب كالعاشق المستغرق عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمهتوت العاقل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق. فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فحق يتعمم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين القناء في التوحيد فالقناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين. وأما النزاهة عن الصفات الهلكات فيجربى مجرى الخروج عن العدة في النكاح. وأما الاتصاف بالصفات للنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجرى تهينة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تربة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب، فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل الجبالسة وإن كنت كالبعيد السيوف لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة فدونك وإتاع البدن بالأعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا بكيفا فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للجالسة أقوام آخرون وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادة وتدينك صباحا ومساء فلا تنفل عن نفسك وعن صفاتك للبعدة من الله تعالى وأحوالك للقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مرید فينبغي أن يكون له جريدة يشبث فيها جملة الصفات للهلكات وجملة الصفات للنجيات وجملة للعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم، ويكفيه من الهلكات النظر في عشرة فانه إن سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشدة الطعام وشدة الوقاع وحب المال وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والاختلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له. فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويندع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أكل الرذائل عن نفسه. فيقبل على التسعة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها كالنوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المرید المشمر.

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة

رفع عن قلوبهم جميع  
الهموم. وأنشد في  
معناه:

كأنت لقلبي أهواء  
مفرقة

فاستجملت إذا رأتك  
النفس أهوائى

فصار يحسدني من  
كنت أحسده

وصرت مولى الورى  
مذمرت مولائى

تركت للناس دينام  
ودينهم

شغلا بك كرك ياديني  
ودنياي

وقد يكون من الأنس  
الأنس بطاعة الله

وذكره وتلاوة كلامه  
وسائر أبواب القربات

وهذا القدر من الأنس  
نعمة من الله تعالى

ومنحة منه ولكن

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائمهم للعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغية والتمية وللراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداينة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من العصية فينبغي أن يكون تقدمهم لها وتفكرهم فيها لافي معاص هم بمعزل عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من الهالكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يردده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلامه غيظه وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحية للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرذائل والأعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألقاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مغرور وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون لبقائه أشد فرحا واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتأثروا بتأثير النساء فيشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكة المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو إماما ملك وإماما ملك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوى في زم من الصحابة رضى الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون القتوى وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الانس إذا قالوا لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندست العلوم من بين الخلق وليلق لهم إن دين الاسلام مستغن عني فإنه قد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدى ولو مت لم تهدم أركان الاسلام فإن الدين مستغن عني وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي ، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرئاسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحب إلى الخلق الرئاسة والشيطان لا يفر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز لنشر العلم أقوام لانصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»<sup>(١)</sup> و «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»<sup>(٢)</sup> فلا ينبغي أن يفتقر العالم بهذه التلبسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يترى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم .

ليس هو حال الأنس الذي يكون له جبين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والدقائق ومحو الخواطر والهواجس وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لألح العظمة وانتشار الروح في ميادين القسوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهية وفي الهية اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس وهذا الذى وصفناه من أنس اللذات وهيبة اللذات يكون في مقام البقاء بعد العبور على

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال يثبت النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل »<sup>(١)</sup> وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذنبان ضاريان أرسلاني زريبة غنم بأكثر إفساد أفيها من حب الجاه والمال في دين للرء السليم »<sup>(٢)</sup> ولا يتقاع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والحرب من غلظتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن العالم في التفطن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم التي فأما أمثالا فينبغي أن يكون تفكركنا فيما يقوى إيماننا يوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطعا إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فثأ أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيئا هرب منه ومن رجاشيا طلبه وقد علمنا أن الحرب من النار بترك الشهات والحرام وترك المعاصي ونحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنافي الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذ امتنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا ففسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوقتنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا للنعم علينا فله مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتنعيم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانشكاك من جميع الالهكات والانصاف بجمع النجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معاولا مكذرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتغص عليه لغة الشهادة ولا طريق له في كمال التبعيم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات للذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة وللكرهية عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان اللقاه الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يخفى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الانسان في النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخفى على بصره لو أدام النظر ونظره المحتطف إليها يورث العمش ويفرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والذهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن للكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارج ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنسكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفة بل ضعفت طاقته عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يتعاضم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنسكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحق من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن السكين أن الجلالة

(١) حديث حب المال والجاه يثبت النفاق في القلب الحديث تقدم (٢) حديث ماذنبان جامعان أرسلاني في زريبة غنم الحديث تقدم .

ممر الفناء وما غير  
الأنس والهية الذين  
ينهبان بوجود الفناء  
لأن الهية والأنس  
قبل الفناء ظهرا من  
مطالعة الصفات من  
الجلال والجمال وذلك  
مقام التلويح وما ذكرناه  
بعد الفناء في مقام  
التكئين والبقاء من  
مطالعة اللذات ومن  
الأنس خضوع النفس  
للطمشة ومن الهية  
خشوعها والخضوع  
والخشوع يتقاربان  
ويقتربان بفرق لطيف  
يدرك بإعلاء الروح  
ومنها القرب قال الله  
تعالى لئيبه عليه الصلاة  
والسلام - واسجد  
واقرب - وقد ورد  
« أقرب ما يكون العبد

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الانسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالس على سريره وبين يديه غلمان يمشون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لحافك جناح ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أقص من أفككون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان لجهول ظلوم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لاتخبر عبادى بصفاتي فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصالح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر في أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعالى وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى قناذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أنا نطبق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الله نياتر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لاطمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس للضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليه فيكون للماء واسطة بغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهري بأنوار الذات ببدان تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى» .

( بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى )

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق الله وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشرة ولكننا نشير إلى جملته ليكون ذلك كالمثال لما عدها . فنقول للوجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكما من الموجودات التي لا تعلمها كما قال الله تعالى - ويخلق ما لا تعلمون . سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون - وقال - وننشئكم فيها ما لا تعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجمالها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن تفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدر كناه بحس البصر وإلى ما لا ندر كنهه بالبصر فكاللائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغص فانهل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومادنها وأنهارها وبحارها وحياتها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصورها وشمسها وأصنافها هذه هي الأجناس المشاهدة من اسموات والأرض وما بينهما وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم

من ربه في سجوده  
فالساجد إذا ذيق طعم  
السجود يقرب لأنه  
يسجد ويطوى  
بسجوده بساط الكون  
ما كان وما يكون  
ويسجد على طرف  
رداء العظمة فيقرب.  
قال بعضهم إنى لأجد  
الحضور فأقول يا الله  
أو يارب فأجد ذلك  
على أمتل من الجبال  
قيل ولم قال لأن النداء  
يكون من وراء حجاب  
وهل رأيت جليسا  
ينادى جليسه وإنما  
هي إشارات وملاحظات  
ومناغة وملاطقات  
وهذا الذي وصفه مقام  
عزيز متحقق فيه  
التقرب ولكنه مشعر  
بمحو ومؤذن بسر

إلى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جراد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات ، فمن آياته الانسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر وعشرة وأنت غافل عنه ، فإما من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قل الانسان ما كفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون - وقال تعالى - ألم يك نطفة من منى يعني ثم كان علقه غلق فسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال - إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة علقه والعلقة مضغعة واللضغة عظما فقال تعالى - ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه - الآية ، فذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضر بها الهواء فسدت وأنت كيف أخرجه ربّ الأبواب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الله والآنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف أقدم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسقاء بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاء مشرقة علقه حمراء ثم كيف جعلها مضغعة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار والحم ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فصور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والقم وسائر المنافذ ثم مده اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والثانة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام آخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لوقفت طبقة منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا تنقضي فيه الأعمار فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه مفتقرا للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وقدّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت  
نفسه في نور روحه  
لعلبة سكره وقوة محوه  
فاذا سحا وأفاق تتخلص  
الروح من النفس  
والنفس من الروح  
ويعود كل من العبد  
إلى محله ومقامه فيقول  
يا الله يارب بلسان  
النفس اللطيفة العائدة  
إلى مقام حاجتها وحل  
عبوديتها والروح  
تستقل بفتوحه وبكمال  
الحال عن الأقوال  
وهذا أتم وأقرب من  
الأول لأنه وفي حق  
القرب باستقلال الروح  
بالفتوح وأقام رسم  
العبودية بعبود حكم  
النفس إلى محل الافتقار  
وحظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا للفواصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كبرها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص التحف وأربعة عشر للحى الأعلى وإثنان للحى الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مراكبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريكات وزيادات وتقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العصص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلانطول بذلك عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان ما تناه عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل الفواصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيقة رقيقة ، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ومدبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظيرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات تخلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهي مختلفة للقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفائها لو نقصت واحدة من جعلتها لخلل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فلنفكر بحال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة ترقى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليها وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة ممعا وبصرا أو عملا أو قدرة أو علما أو روحا أو خلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلداً أو شعرا هل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة

بتوفر نصيب الروح  
بالقائمة رسم العبودية  
من النفس . وقال  
الجنيد إن الله تعالى  
يقرب من قلوب  
عباده على حسب  
ما يرى من قرب قلوب  
عباده منه فانظر ماذا  
يقرب من قلبك .  
وقال أبو يعقوب  
السوسى مادام العبد  
يكون بالقرب لم يكن  
قريبا حتى يغيب عن  
رؤية القرب بالقرب  
فاذا ذهب عن رؤية  
القرب بالقرب فذلك  
قرب وقد قال قائمهم:  
قد تحققتك في الس  
ر فناجك لسانى  
فاجتمعنا لمعان  
واقترقا ، لمعان

إنسان مصور على حائط تأتق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتعام فطنته وعظم في قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط وبالقدرة وبالعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القدرة كانت معدومة خلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها للتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها تجري لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سمعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلقها وتدفع الأقداء عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكتافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت قدره إلى صماخها ولتحمس يديب الهوام إليها وجعل فيها تحريقات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصد دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامحه وأغذيته وليستشوق بمنفذ للتخزين روح الهوام غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح انهم وأودعها للسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متساقطة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتتطبق على الفم فتسد منفذه ولتحمها بحروف الكلام وخلق الخنجره وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والللاسة وصلابة الجوهر وروخاوتها والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللبية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لتضج الغذاء والسكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال وللرارة والبنكية لخدمة السكبد فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها والرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها والسكبد تخدمها يجذب المائية عنها وللثانة تخدم السكبد بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروقي تخدم السكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض السكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستبطنوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبعا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التعم  
ظلم عن لحظ عياني  
فلقد صيرك الوجع  
مد من الأحشاء داني  
قال ذو النون ما ازداد  
أحد من الله قرابة إلا  
ازداد هيبته . وقال  
سهل أدنى مقام من  
مقامات القرب الحياء  
وقال النصراني  
باتباع السنة تال  
العسرة وبأداء  
القراض تال القرية  
وبالمواظبة على النوافل  
تال المحبة . ومنها  
الحياء والحياء على  
الوصف العام والوصف  
الخاص فأما الوصف  
العام فما أمر به رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
في قوله «استحيوا من  
الله حق الحياء قالوا

ضما غير تام كانت مغرفة له وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأتمل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأتمل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أحسن الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكمة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يرقم أحد مقامه في حرك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا عيس آله ومصنوعه ولا يلاقه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبل حتى تتكس وتتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التمام الذي ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين القرث والدم سائعا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقبين ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخرج خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتعدى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يوافق اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى الضغ والطحن فأثبت له الأسنان عند الحاجة لأقبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تهريك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكمل صنيعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفكر عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجل شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول بيطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجوع وتغضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجبها البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويمش في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه النزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شبر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحي بآرسول الله  
قال ليس ذلك ولكن  
من استجبا من الله  
حق الحياء فليحفظ  
الرأس وما وعى والبطن  
وما حوى وليذكر اللوت  
والبلى ومن أراد الآخرة  
ترك زينة الدنيا فمن  
فعل ذلك فقد استجبا  
من الله حق الحياء  
وهذا الحياء من  
القمامات وأما الحياء  
الخاص فمن الأحوال  
وهو ما نقل عن عثمان  
رضي الله عنه أنه قال إنى  
لأغتسل في البيت للظلم  
فأنطوى حياء من  
الله. أخبرنا أبو زرعة  
عن ابن خلف عن  
أبي عبد الرحمن قال  
سمعت أبا العباس  
البغدادي يقول  
سمعت أحمد السقطي



للبيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عظمها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق الفكر في تفكير في الأرض التي هي مقركم ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبيلا فجاءا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسي فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى يحجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى - والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون - وقال تعالى - هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أكرر في كتابه العزيز من ذكر الأرض لتفكير في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبئت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع للياه تحتها قعجرا العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح يفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلاف بذورها وأصولها فمعي كان في النواة نحلة مطوقة ببقايد الرطب ومعي كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وقش ظاهرها وباطنها اقترها ترايا متشابهة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير النافع العريضة فهذا النبات يغذي وهذا يقوى وهذا يحمي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البنغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت بيت البذر في الأرض وبعضه بفرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لاقضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر اللودعة تحت الجبال واللآلئ الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الآواني والآلات والتقود والجلي منها ثم انظر إلى ما أذن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها للملح ولا يحتاج إليه إلا لطبيب الطعام ولو خلعت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجورها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من الطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت  
محمد بن عبدون يقول  
سمعت أبا العباس  
المؤدب يقول قال لي  
سري : احفظ عني  
ما أقول لك إن الحياة  
والأنس يطوفان  
بالقلب فإذا وجداه  
الزهد والورع حطا  
والإرحلا والحياة  
إطراق الروح إجلالا  
لعظيم الجلال والأنس  
التذاذ الروح بكال  
الجمال فإذا اجتمعا  
فهو الغاية في النسي والنهاية  
في العطاء وأنشد  
شيخ الاسلام :  
أشتاقه فإذا بدا  
أطرق من إجلاله  
لاخيفة بل هية  
وصيانة لجماله  
الوث في إداره  
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطيباً لطعامك إذا أكلته فيهنأ عيشك ومامن جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خاق شئ منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلًا بل خلق الشكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيين ما خلقناها إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات : وانقسمها إلى ما يطير وإلى ما يمشي وانقسم ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشرة وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات ثم انقسمها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب والاتشاك معه في عظمة خالقها وقدره مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقرة والغنم والنعلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلقائها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجتها لم تقدر على ذلك ترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالحيط بين طرفيه ثم يتدلى ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلصق به ثم يندو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الحيط ثم كذلك يردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقده القمط ورتب الحيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التواء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادى إلى أخذه وأكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسفاً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى نفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله ومامن حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أقرى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم أو في شك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز بل القليل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلأ يشهد هو بشككه وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعة لقاظه الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للادبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تسخير فيه الأبواب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضاً لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنها لا تسبر كثرة الشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولدوداً تجد تعجبه وقال سبحانه الله ما أعجبه والاسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألقيها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وقوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقها وكان لهم في ظلمهم وإقامتهم وآنية لأشربهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والغارات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها إلا ليعمل محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والافتقار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإعجاباً بمعرفة الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله قال بعض الحكماء من تسكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج . وقال ذوالنون : الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك . وقال ابن عطاء . العلم الأكبر الهيبة والحياء فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه . وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال

معرفة فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدياته بمنه ورحمته . ومن آياته البحر العميقة للكتشفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع الكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض <sup>(١)</sup> » فانسب إصطبل إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر فان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سبعة أضعاف سعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فرمما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بهر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لا يحصى لها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفة تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عده من العبر وأصناف النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف لللاحين موارد الرياح ومهاجها ومواقيتها ولا يستصحب على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتطبيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويقفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتج إلى شربها أو الاستغفار عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنعماتها قائلة لكل ذي لب أماتراني وترى صورتي وتركبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدني أنظن أنني كوت نفسي أو خلقني أحد من جنس أو ما استحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا الذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغبوسة في دم الجف في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حداثتي وأجفاني وخبيتي وخدي وشفقي فترى التقويس يظهر نقيشاً خشيناً على التدرج ولا ترى داخل النطفة بشاشاً ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للأمم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم أم هذا النقاش بأعجب مما تشاهده فينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملاسة للنطفة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض تقدم ولم أجده .

استحيا من حسنة  
أكثر مما استحيا  
العاصون من سيئاتهم .  
وقال بعضهم : الغالب  
على قلوب المستحيين  
الاجلال والتعظيم دائماً  
عند نظر الله إليهم .  
ومنها الاتصال . قال  
النوري : الاتصال  
مكاشفات القلوب  
ومشاهدات الأسرار .  
وقال بعضهم الاتصال  
وصول السر إلى مقام  
الدهول وقال بعضهم  
الاتصال أن لا يشهد  
العبد غير خالقه  
ولا يتصل بغيره خاطر  
لغير صانعه . وقال .  
سهل بن عبد الله  
حركوا بالبلاء فتحرخوا  
ولو سكنوا اتصلوا .  
وقال يحيى بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لا تعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور  
وتش و قدر لا نظير له ولا يساويه تقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين  
الفاعلين من المباشرة والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لا تعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه  
أعجب من كل عجب فان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان  
جدير بأن تعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبائه  
فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائقه الخلق  
والأمر والامتنان والفضل والطف والتهر لاراد الحكمة ولا معقب لقضائه ومن آياته الهواء اللطيف  
المحبوس بين مقر السماء ومحب الأرض [ لا يدرك بحس اللسان عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى  
بالعين شخصه وجملة مثل البحر الواحد والطيور حلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها  
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج  
البحر فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هبابة فان شاء جعله نشرابين يدي رحمة كما قال سبحانه - وأرسلنا  
الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعملها وإن شاء جعله عذاباً  
على العصاة من خلقه كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستعترتزع الناس  
كأنهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالزق للنفوخ  
يتحامل عليه الرجل القوي لينغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه  
فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه  
الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل  
عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف  
كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوى تمتنع عن الهوى في البئر فالسفينة بمقرها تتشبث بأذيال  
الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والغوص في الماء فسبحان من علق الراكب الثقيل في الهواء اللطيف  
من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والبرق والرياح  
والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهمى عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة  
ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عينين - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى  
تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى - والسحاب للسخرين السماء والأرض - وحيث تعرض للبرق  
والبرق والسحاب والمطر فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنك  
فالهيمه تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك  
فأدركت ظاهرها فغمض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب  
أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه فتأمل السحاب الكثيف اللظلم كيف  
تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل  
للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلا أن يأذن الله في إرسال الماء وتطبيع القطرات كل قطرة بالقدر  
الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش للماء على الأرض ويرسله قطرات  
متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم  
لها لا تعدل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون  
والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة  
لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي : العمال أربعة

ثائب وزاهد ومشتاق

وواصل قائلنا

محجوب بتوبته

والزاهد محجوب بزهده

والمشتاق محجوب

بجأله والواصل لا يحجبه

عن الحق شيء . وقال

أبو سعيد القرشي :

الواصل الذي يصله الله

فلا يخشى عليه القطع

أبداً والتصل الذي

يحجبه يتصل وكلما دنا

القطع وكأن هذا

الذي ذكره حال

للريد والمراد لكون

أحدهما مباداً

بالكشف وكون

الآخر مردوداً إلى

الاجتهاد . وقال

أبو يزيد : الواصلون

في ثلاثة أحرف مهم

لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة القلانية التي في ناحية الجبل القلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت القلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالتطير للندوف من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار العاقد وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا لاعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سيبه وعلمته فيقول الجاهل الثرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له مامعنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقى الماء للصوب في أسفل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيغذى كل جزء من كل ورقة ويجرى إليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهروما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء القوا كه فان كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فان كان ذلك يجذب جاذباً الذي سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ما كوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك السكل وفاته عجائب السموات قد فاته السكل تحقيقاً فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالاضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فثامن سورة لا وتشتمل على تضيخها في مواضع وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى - والسماء ذات البروج - والسماء والطارق - والسماء ذات الجبك - والسماء وما بناها - وكقوله تعالى - والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها - وكقوله تعالى - فلا أقسم بالحنس الجوار الكنس - وقوله تعالى - والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - قد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأثنى على للتفكرين فيه فقال - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته (١)» أي تجاوزها من غير تفكير وذهم للعرضين عنها فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون - فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبالغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال - وجعلنا السماء سقفا محفوظا - وقال سبحانه - وبينا فوقكم سبعا شدادا - وقال - ثم أشد خلقا أم السماء بناها رفح محكمها فساها - فانظر إلى الملكوت لثرى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهائم

(١) حديث وبل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي قوله تعالى - ويتفكرون في خلق

السموات والأرض - تقدم .

الله وشغلهم في الله  
ورجوعهم إلى الله .  
وقال السيارى الوصول  
مقام جليل وذلك  
أن الله تعالى إذا أحب  
عبداً أن يوصله  
اختصر عليه الطريق  
وقرب إليه البعيد .  
وقال الجنيد الواصل  
هو الحاصل عند ربه  
وقال رويهم أهمل  
الوصول أوصل الله  
إليهم قلوبهم فهم  
محفوظو القوى  
ممنوعون من الخلق  
أبداً . وقال ذوالنون  
مارجع من رجع إلا  
من الطريق وما وصل  
إليه أحد فرجع عنه .  
واعلم أن الاتصال  
والواصله أشار إليه  
الشيخ وكل من

تشاركك في هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله - وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض - لابل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل ففكر في الملكوت ففسر لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمرين الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم الألائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما فينبك وبين هذه الفاعل العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفتك برك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه فقيا ذا أفكر وإلى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاريها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطونها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها عيل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف للواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت للعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إيلائه مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطلق في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي بجانبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر البناء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لاني كبر جسم ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها (١) ثم الكواكب

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين وللشاهدة مغيا في

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال « في نار الله الحامية لولا ما زعها من أمر الله لأهلك

شهوده عن وجوده  
وهكذا ضرب من  
تجلى الذات لخواص  
القربين وهذا اللطام  
رتبة في الوصول وفوق  
هذا حق اليقين  
ويكون من ذلك في  
الدنيا للخواص لمع وهو  
سريان نور للشاهدة  
في كلية السيد حتى  
يحظى به روحه وقلبه  
ونفسه حتى قلبه وهذا  
من أعلى رتب الوصول  
فإذا تحققت الحقائق علم  
العبد مع هذه الأحوال  
الشريفة أنه بعد في  
أول النزل فإين الوصول  
هيئات منازل طريق  
الوصول لا تقطع أبد  
الآباد في عمر الآخرة  
الأبدى فكيف في العمر  
القصر الدنيوى ومنها

التي تراها أصغرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة  
مثل الأرض وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها إذ للبعد صارت ترى صفاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى  
بعدها فقال - رفع سمكها فسواها - وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام<sup>(١)</sup>  
فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافاً فأنظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء  
التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً  
عن أن تدرك سرعتها لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طوع  
أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة فعدد الفلك  
في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر  
جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس فقال لا  
نعم فقال كيف تقول لانعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام<sup>(٢)</sup>» فأنظر  
إلى عظم شخصتها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتهما مع اتساع  
أكناها في حدقة العين مع صغرهما حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها ترى جميعها فهذه  
السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد  
ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفه فالحجب منك أنك تدخل بيت  
غنى فتراه مزوقاً بالصبح محوها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكروه وتصف حسنه طول عمرك  
وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب  
حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى  
تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أحسن أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر  
إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك  
وبيت ربك واشغلت بيطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ  
بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مائتا كلة بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية  
حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقون بالسقم بين يديك ويضمرون خبايا  
الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لا تقسمهم نقماً ولا ضراً ولا موتاً  
ولا حياة ولا نشوراً وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد  
اشتغلت بهذا القورور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر  
إلى جلال مالك لللكوت ولللك وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرت في  
قصر مشيد من قصور لللك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والفلان وأنواع النخائر

ما على الأرض وللطيراني في الكبير من حديث أبي أمانة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالليل  
كل يوم لولا ذلك ما أمت على شيء إلا أحرقت<sup>(١)</sup> حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذى  
من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى  
ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصر  
عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصر صماع من أبي ذر<sup>(٢)</sup> حديث أنه قال لجبريل  
هل زالت الشمس فقال لانعم فقال كيف تقول لانعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت  
الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجده أصلاً .

والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغداها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكير به بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغداها وبيتها إلى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن مكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نغدر على شرح ما فضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالاضافة إلى ما عرفته للملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهم جميع علوم للملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهاء وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال - وما أو تقيم من العلم إلا قليلا - فهذا بيان معاقدا للجل التي تجول فيها فكر للتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لاجالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيدك محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا ينتهي أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والوفاق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فننظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بسبب الأسباب فقد شق وارتنى فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن ينجبنا مزالة أقدام الجهال عنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

( تم الكتاب التاسع من ربيع للنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه )  
يتلوه كتاب ذكر اللوت وما بعده وبه كل جميع الدعوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما  
حالان شريهان قال الله  
تعالى - والله يقبض  
ويبسط - وقد تكلم  
فيهما الشيوخ وأشاروا  
بإشارات هي علامات  
القبض والبسط ولم  
أجد كشفا عن  
حقيقتيهما لأنهما كنفوا  
بالإشارة والإشارة  
تقع الأهل وأجيب  
أن أشيع الكلام فيهما  
لعله يتشوق إلى ذلك  
طالب ويحب بسط  
القول فيه والله أعلم .  
واعلم أن القبض  
والبسط لهما موسم  
معلوم ووقت محتم  
لا يكونان قبله ولا  
يكونان بعده ووقتهما  
وموسمهما في أوائل حال  
الحبة الخاصة لا في نهايتها



## (كتاب ذكر الموت وما بعده)

(وهو الكتاب العاشر من ربيع للنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى الصرغ الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، وانخذلوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا - فبجان من انقرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أأنصاف الخلق بما كتب عليهم من القضاء ، ثم جعل للموت مخلصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقائه وجعل القبر سجنا للأشقياء وحسبا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم للظاهرة ، وله الانتقام بالنقم للقاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فجدد بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جلسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة مواعده ، والجنة والنار مورداه ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطمع إلا إليه ، ولا ترجع إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وترقب إلا لله ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراهها في أصحاب القبور ، فان كل ما هو آت قريب والبعد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» (١) ولن يتيسر الاستعداد للشي إلا عند تجديد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأصغاء إلى اللذكريات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمهال الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحشا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فمات من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقرب للناس حسامهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

(الشرط الأول في مقدماته وتوابعه إلى نخبة الصور ، وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وعدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز واللقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نخبة الصور . الباب الثامن في ما عرف من أحوال الموتى بالكشفة في المنام .

(كتاب ذكر الموت وما بعده)

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة  
الخاصة فمن هو  
في مقام المحبة العامة  
الثابتة بحكم الإيمان  
لا يكون له قبض ولا  
بسط وإنما يكون له  
خوف ورجاء وقد يجد  
شبه حال القبض وشبه  
حال البسط ويظن  
ذلك قبضا وبسطا  
وليس هو ذلك وإنما  
هو ثم يعتريه فيظنه  
قبضا واهتزازا فحسنى  
ونشاط طبعي يظنه  
بسطا والمهم والنشاط  
يصدران من محل  
النفس ومن جوهرها  
لبقاء صفاتها ومادامت  
صفة الأمانة فيها بقية  
على النفس يكون منها  
الاهتزاز والنشاط والمهم  
وهج ساجور النفس

( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره )

اعلم أن للمهمك في الدنيا للكسب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه وقر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم - قل إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ أوعارف متته أما المهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بخدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما النائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والحشية فيقيم بتعام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه»<sup>(١)</sup> فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقاءه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواء وإلا التحق بالمهمك في الدنيا وأما المعارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقاءه الحبيب والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطنه محبي الموت ويحب بحبه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفزع من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فاذن النائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبا إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمشهى ، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل فان المهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجاني عن الدنيا إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفوته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

( بيان فضل ذكر الموت كيفما كان )

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات»<sup>(٢)</sup> معناه نقصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لوتعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها ممينا»<sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة»<sup>(٤)</sup> وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجاني عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت»<sup>(٥)</sup> وإنما قال هذا

( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه )

(١) حديث من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لوتعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها ممينا البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلًا بسند حسن .

والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم حجر الطبع فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحل وذال قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايمان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي يقبضك عمالك ويبسطك فيما له وقال النوري يقبضك بياك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته

لأن الدنيا سجن للمؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداناة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والإطلاق تخفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) « وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها ويكفرها به واجتنابه الكبار وإقامته انقراض . قال عطاء الخراساني « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر الازدات قالوا وما مكدر الازدات قال الموت (٢) » وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويذهب في الدنيا (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفى بالموت مفرقة (٤) » وقال عليه السلام « كفى بالموت واعظا (٥) » . « وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال : اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٦) » . « وذكروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فاحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكركم صاحبكم للموت فلو ما كننا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هـذا لك (٧) » وقال ابن عمر رضي الله عنهما « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة (٨) » وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الريح ابن خيثم ما غائب ينتظره للمؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسالوني إلى ربي سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دارته في فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعتني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاء الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر الازدات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلا وروياه في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقة الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الجبلي مرسلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكركم صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول قد كره بلاغا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكأله باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة  
فتارة مغلوبة وتارة  
غالبة والقبض والبسط  
باعتبار ذلك منها  
وصاحب القلب تحت  
حجاب نوراني لوجود  
قلبه كما أن صاحب  
النفس تحت حجاب  
ظلماني لوجود نفسه  
فاذا ارتقى من القلب  
وخرج من حجاب  
لاقيده الحال ولا  
يتصرف فيه فيخرج  
من تصرف القبض  
والبسط حينئذ فلا  
يقبض ولا يبسط مادام  
متخلصا من الوجود  
النوراني الذي هو القلب  
وهو تحققا بالقرب من  
غير حجاب النفس  
والقلب فاذا عاد إلى

من عرف اللوت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف رأيت فيا يرى النائم كأن قائل يقول  
في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر اللوت قلوب الخائفين فوالله ماتراهم إلا والهمين . وقال أشعث كنا  
ندخل على الحسن فانما هو النار وأمر الآخرة وذكر اللوت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها إن امرأة  
اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أ كثرى ذكر اللوت يرق قلبك ففعلت فرق  
قلبا فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر اللوت عنده يقطر جلده  
دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر اللوت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت  
إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من اللوت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن  
عبد العزيز لبعض العلماء عظمى فقال ألسنت أول خليفة موت قال زدني قال ليس من آباءك أحد إلى  
آدم إلا ذاق اللوت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حضر قبرا في داره  
فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذ ذكر الموت قلبي ساعة  
واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا اللوت قد نغص على أهل النعم نعيمهم  
فاطلبوا نعيمًا لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنيسة أ كثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش  
ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأم هرون :  
أ تحبين الموت ؟ قالت لا ، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته  
( بيان الطريق في تحقيق ذكر اللوت في القلب )

اعلم أن اللوت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكورهم له ومن يذكركه ليس  
يذكركه بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر اللوت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ  
المد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر اللوت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة  
أو يركب البحر فانه لا يفكر إلا فيه فاذا باشر ذكر اللوت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل  
فرحه وسروره بالدنيا ويتكسر قلبه وأنجح طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله  
فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محال التراب  
الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا لنساءهم وأيتما أولادهم وضعوا  
أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فلهما تذكر رجل رجلا وفضل في قلبه حاله  
وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء وتسيانه للموت وانخداعه  
بمواته الأسباب وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللغو وغفلته عما بين يديه من الموت  
الدريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق  
وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما  
لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يزد به حتى  
جاءه اللوت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة تلك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند  
ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كفعلهم وشكوك عاقبته كما قبته . وقال أبو الدرداء رضي الله  
عنه : إذا ذكرت الموتى فمد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ  
بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم فاديا وأوراحا إلى الله عز وجل تصنعونه  
في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأجاب وقطع الأسباب فلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع  
دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجد ذكر الموت في القلب حتى يجلب عليه بحيث يصير نصب  
عينه فعند ذلك يوشك أن يستمد له ويتجاني عن دار القرو والافالذ . كرى بظاهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من القناء  
والبقاء يسود إلى  
الوجود النوراني الذي  
هو القلب فيعود القبض  
والبسطة إليه عند ذلك  
ومهما تخلص إلى القناء  
والبقاء فلا قبض ولا بسطة  
قال فارس أول القبض  
ثم البسطة ثم لا قبض  
ولا بسطة لأن القبض  
والبسطة يقع في الوجود  
قائما مع القناء والبقاء  
فلا ثم إن القبض قد  
يكون عقوبة الإفراط  
في البسطة وذلك أن  
الوارد من الله تعالى  
يرد على القلب فيمتلئ  
القلب منه وحوافرها  
واستبشارا فتسترق  
النفس السمع عند  
ذلك وتأخذ نصيبها  
فاذا وصل أثر الوارد

قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال والله لو لاوت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لهرت بالدنيا أعفنا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .  
( الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته )

( فضيلة قصر الأمل )

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن مماتك لمقمتك فانك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا » (١) وروى علي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويمنع وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن الدين أبناء والدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولى ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل » (٢) وقالت أم النذر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون » (٣) وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة للشري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ولا لقيت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من اللوت ثم قال يا بنى آدم إن كنتم تقولون فعدوا أنفسكم من اللوتى والذي نفسي بيده - إن ما توعدون لآت وما أنتم بمجزيين - » (٤) وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم كان يخرج يهريق للماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه » (٥) وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ففرز عبودا

( الباب الثاني في طول الأمل )

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث كن في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث علي إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنخوة وكلاهما ضعيف (٣) حديث أم النذر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى قالوا وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تاكلون الحديث ابن الدنيا ومن طريقه البيهقى في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبرانى في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في الشعب بإسناد ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق للماء فيتمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بإسناد ضعيف .

إلى النفس طغت بطبعها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البمط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا قننى لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفاتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالمصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض وما دام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقي من قوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - فوارد الفرح ما دام موقوفا على الروح والقلب لا يكف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبعده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل <sup>(١)</sup> وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته للنايا وقع في الهرم <sup>(٢)</sup>» قال ابن مسعود هذا الهرم وهذه الختوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الختوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأمر به أخذه فان أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبدالله «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأه هذا تنهشه هذا وذلك الأمل يعني الخط الخارج <sup>(٣)</sup>» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويقيم معه اثنتان الحرص والأمل <sup>(٤)</sup>» وفي رواية وتشبّه مع اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل <sup>(٥)</sup>» وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثر بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع مني الأمل فوضع الشيخ للمسحاة واضطجع قلبت ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فساله عيسى عن ذلك فقال بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقممت إلى مسحاتي، وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكلكم يجب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء <sup>(٦)</sup>» «وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير للمات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل <sup>(٧)</sup>» الآثار : قال مطرف بن عبدالله لوعلت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن اللوت ولولا الغفلة ماتهنوا بعيش ولا فامت بينهم الأسواق. وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ماضى المسلمون في الطرق. وقال الثوري بلغني أن الانسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهناه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الراهم رمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسل (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبدالله بن الشخير وقال بحسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويقيم معه اثنتان الحرص والأمل وفي رواية ويشبّه مع اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلكم يجب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسل (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجه الله ولا أدري من حوشب.

ولا يستوجب صاحبه القبض سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالابواء إلى الله وإذا لم يلجئ بالابواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما آتى الممنوع منه فمن ذلك القبض في بعض الأحيان وهذا من لطف الله بنوب الموجهة للقبض وفي النفس من حركاتها وصفاتها ونباتات متعددة موجبة للقبض ثم الخشوف والرجاء لا يندمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهية لأنهما من ضرورة الايمان فلا يعدمان وأما القبض والبسط

عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سليمان القارسي رضى الله عنه ثلاث أعجبتني حتى ضحكتنى مؤمل الدنيا وللوت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه وهول الطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زلزلة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أى الأعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن بأبأسعيد ألا تغسل قميصك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن اللوت معقود بنو أصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيوف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا لأتيتي قد أتيت عظيما وكيف أوئل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مصرور فقال له أستاذه إيش هذا معك فقال لوزات دفعا إلى أخ لي وقال أحب أن تفرط عليا فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فقصو قلوبكم وتقادوا لعندكم فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطافات للنايا وكم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مقترا وإنما تفر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن أمركم بما لا أنهي عنه نفسي فتخسر صفقة وتظهر عيبك وتبدو . سكنت في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به النجوم لانكدرت ولو عنيتم به الجبال لندابت ولو عنيتم به الأرض لتشققتم أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صائرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما اللوت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا طويل واللوت من الإنسان قريب وللتقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادى بالرجل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمه خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميطة سمعت أبي يقول أيها المعتز بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها المعتز بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك بالصحة تغترون أم بطول العافية ترحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم قال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو بكر كريا التيمي بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى بوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عمالك ولقصرت من حرصك وحيلك وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسب فلا أنت إلى دينك عائد ولا في حسنتك زائد فاعمل

فينتعمان عند صاحب  
الإيمان لتقصان الحظ  
من القلب وعند صاحب  
الفناء والبقاء والقرب  
لتخلصه من القلب  
وقد يرد على الباطن  
قبض وبسط ولا  
يعرف سببهما ولا  
يخفى سبب القبض  
والبسط إلا على قليل  
الحظ من العلم الذي  
لم يحكم علم الحال ولا  
علم المقام . ومن أحكم  
علم الحال والمقام لا يخفى  
عليه سبب القبض  
والبسط وربما يشبهه  
عليه سبب القبض  
والبسط كما يشبهه عليه  
الحلم بالقبض والنشاط  
بالبسط . وإنما علم  
ذلك لمن استقام قلبه  
ومن عدم القبض  
والبسط وانتهى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والتندامة فبكى سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكرو ونكير فيقعدانك ويتهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاققة وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فاحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت اللوازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مقتضع ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب التقيين فإني أحنى به وله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولئن تركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فإني بينكم غخاب وشقى غدا أعبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجته التي عرضها السموات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بياق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقيون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديا وراثا إلى الله عز وجل قد قضى نجه وانقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممد قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نقى ولكنكم تسكن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأهسى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يميني حتى بلغت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القعقاع بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فإني ما أحببت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيتني عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعلك كفتانك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فابتعد قعد ناحية وهي تدفن فجئت فوجدت قعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب . واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشغوم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما خلفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا البكر خي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروفا وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى تنوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما حضر تكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى إنما الدنيا كنف ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماء بيوم خفته فسلبه آثاره وديناره وصير لقوم آخرين مصانعه وبغناه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إننا تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

فنفسه مطمئنة  
لا تنفخ من جوهرها  
فان توجب القبض ولا  
يتلاطم بحر طبعها من  
أهوية الهوى حتى  
يظهر منه البسطور بما  
صار لمثل هذا القبض  
والبسط في نفسه لا من  
نفسه فتكون نفسه  
للمطمئنة بطبع القلب  
فيجري القبض  
والبسط في نفسه  
للمطمئنة وما لقلبه قبض  
ولا بسط لأن القلب  
منحصن بشعاع نور  
الروح مستقر في دعة  
الغرب فلا قبض ولا  
بسط ( ومنها الفناء  
والبقاء ) قد قيل  
الفناء أن يفنى عن  
الخطوط فلا يكون له  
في شيء حظ بل يفنى



أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوهم العجبون بشبابهم أين للوك الذين بنوا المدن وحسنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب قد تضعع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الواحا الواحا ثم النجا النجا .

( بيان السبب في طول الأمل وعلاجه )

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلاقاتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والآنسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيحس نفسه أبدا بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كما كفا على هذا الفكر موقفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعده نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخا فإذا صار شيخا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه للنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف والسوف للسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما زاد بطول اللذة قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيات فما يفرغ منها إلا من أطرحها :

فما قضى أحد منها لباته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ﴿أحب من أحببت فانك مفارقة﴾ (١). وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر للسكين أن مشايخ بلده لوعدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا الآن تلوت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فاما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا العاقل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وريبع من ليل ونهار لعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا يدعو إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر زواله به ووقعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأموت نفسه فلم يألوه ولم يتصور أن يألوه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر وسيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطي به الجسد قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها  
شغلا عن فتي فيه  
وقد قال عامر بن  
عبد الله لأبالي  
امرأة رأيت أم حائطا  
ويكون محفوظا فيها  
فه عليه مصروفا  
عن جميع المخالفات  
والبقاء بعبه وهو  
أن يفنى عماله ويبقى  
بما لله تعالى . وقيل  
الباقى أن تصير  
الأشياء كلها له شيئا  
واحدا فيكون كل  
حركاته في موافقة  
الحق دون مخالفته  
فكان قائما عن  
المخالفات باقيا في  
المواقفات . وعندى  
أن هذا الذى ذكره  
هذا القائل هو

البالغة من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منقص فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير اللوت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم اللوت في وقت لم يحتسبوا أماناً كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبيئاً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاحتالة وكيف تنفقت عظامها وليتفكر أن الدود يبدأ بمحدثه النبي أولاً واليسرى ثم على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكرو نكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر اللوت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

#### ( بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره )

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى - يود أحدكم لو يعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوته من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم» (١) ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم ليلة فلا يستعد إلا لتأهله وأماله الغد فلا قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح» ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلى لا أبلغه ومنهم من يكون للوت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوط خطوة إلا ظننت أنني لا أتبعها أخرى (٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلاً ويلتفت يمينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك اللوت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوته من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأم لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنين طول الحياة وحب لئال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوط خطوة إلا ظننت أنني لا أتبعها أخرى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

مقام صحة التوبة  
النصوح وليس من  
الفناء والبقاء في شيء  
ومن الإشارة إلى الفناء  
ماروى عن عبد الله  
ابن عمر أنه يعلم عليه  
إنسان وهو في الطواف  
فلم يرد عليه فشكاه  
إلى بعض أصحابه فقالوا  
له كنا نراى الله في  
ذلك المكان . وقيل :  
الفناء هو الغيبة عن  
الأشياء كما كان فناء  
موسى حين تجلى ربه  
للجبل . وقال الخراز :  
الفناء هو التلاشي  
بالحق والبقاء هو  
الحضور مع الحق .  
وقال الجنيد : الفناء  
استعجام الكل عن  
أوصافك واشتغال  
الكل منك بكيته

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فإن الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فيستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى الساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولادة للنجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالاك يامسكين فإن السرحان بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت للسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه .

### ( بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير )

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فلا استعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فإنه أبدا يرى لنفسه متسما في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هراما مقيدا أو موتا مجهما أو أوالد جال فالرجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر <sup>(١)</sup> » وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ <sup>(٣)</sup> » أي أنه لا ينتظمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدجلا ومن أدجلا بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة <sup>(٤)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه <sup>(٥)</sup> » « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع ألتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة <sup>(٦)</sup> » وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد <sup>(٧)</sup> »

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ للصف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسل (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدجلا ومن أدجلا بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع ألتكم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين .

وقل إبراهيم بن  
شيبان علم الفناء  
والبقاء يدور على  
إخلاص الوجدانية  
وصحة العبودية وما  
كان غير هذا  
فهو من المغالط  
والزندقة . وسئل  
الحراز ما علامة  
الفاني ؟ قال علامة من  
ادعى الفناء ذهب  
حظه من الدنيا  
والآخرة إلا من الله  
تعالى . وقال أبو سعيد  
الحراز : أهل الفناء  
في الفناء صحتهم أن  
يصحبهم علم البقاء  
وأهل البقاء في البقاء  
صحتهم أن يصحبهم  
علم الفناء .

واعلم أن أقاويل  
الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ماضى منه (١) وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع (٢) » وقال جابر « كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيكم بشت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه (٣) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح قليل يارسل الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجاني عن دار الغرور والاناثة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٤) » وقال السدي « الذي خلق اللوت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملا - أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر - في الموت وقال سحيم مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال أرحنى بحاجتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك اللوت رحمك الله قال قممت عنه وقام إلى صلاته ومرداود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضى الله عنه التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للأخرة ، وقال النذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أجمعه ولا يراني . وكان الحسن يقول في موعظه للبادرة للبادرة فانما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تقر بون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية - إنما نعد لهم عذابا - يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا فليل له لو أمسكت أو رقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرسلت تقارب رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول لامرأته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحين بهم فانتبهوا وعلمو أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلكم ورحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وإن غائبا يجد به الجديدان الليل والنهار لحرق بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشیطان موكل به بمنية التوبة ليسوفها ويزين إليه للعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا اللوت أن يزل به فيا لها حسرة على ذى غفلة

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ماضى منه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن والترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ لا (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء الخالقات وبقاء اللواقف وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للذمومة وبقاء الأوصاف الحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء للطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء للطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون

أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به  
عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد لوت حسرة إنه مبيع الدعاء. ثم يبدء الخبر دائماً بمال المباشاء وقال  
بعض للتفسيرين في قوله تعالى - فتنم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قل بالتوب - واربتهم -  
قال شككم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغركم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن  
تصبروا وتشددوا فانما هي أيام قلائل وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجب  
ولا ياتممت فاقبلوا بصلح ما حضرتمكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله  
عارية والضيف مرتحل والغارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات  
فيه قال مرحبا بكم وأهلاً بكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم  
وصدقتم وانتهيتم فلا يمكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه  
الأذن فإن من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم قد رآه غادياً ورأى محمداً يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة  
ولكن رفع له علم فشمس إليه ألوحا ألوحا النجاء لعلامته تخرجون أئمة ورؤس الكعبة كأنكم والأمر  
معا رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة ولبس خاقا وورق الأرض واجتهد في العبادة  
وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك<sup>(١)</sup> . وقال عاصم الأحول  
قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغاك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخص إليك  
دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فيقطع عنك النهار في لاشيء فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئا  
قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم .

#### ( الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عند )

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بعجزه هال كان  
جديراً بأن يتنفس عليه عيشة ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه  
فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو في كل نفس بصدمه كقال بعض الحكماء كرب يبدو كالآندري  
متى يفشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن  
الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس  
خشبات لتكدرت عليه لدته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت  
بسكرات التزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات  
الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فاعلم يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدر كها وإما  
بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي شهد له فهو أن كل عضو  
لأرواح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فهما أصاب العضو جرح  
أو حريق سرى الأثر إلى الروح فيقدر ما يسرى إلى الروح يتألم وللؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر  
الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فما أعظم  
ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم تزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق  
جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي  
يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر  
الاحتراق لأن أجزاء النار تعموس في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث  
ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

#### ( الباب الثالث في سكرات الموت )

الحق سبحانه وتعالى  
على كون العبد وهو  
ينقسم إلى فناء ظاهر  
وفناء باطن فأما الفناء  
الظاهر فهو أن  
يتجلى الحق سبحانه  
وتعالى بطريق الأفصال  
ويسلب عن العبد  
اختياره وإرادته فلا  
يرى نفسه ولا غيره  
فعلاً إلا بالحق ثم  
يأخذ في المعاملة  
مع الله تعالى بحسبه  
حتى سمعت أن بعض  
من أئمة في هذا  
المقام من القائلين كان  
يقتى أياماً لا يتناول  
الطعام والشراب حتى  
يتجرد له فسل  
الحق فيه ويقبض  
الله تعالى له من

وباطنا لإوتصيه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فأنما تصيب للموضع الذي . منه الحديد . فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه للزروع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان التناول للبشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وانما انقطع صوت الليث وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربده حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتقلص الشفتان وتقلص اللسان إلى أصله وترفع الأثنيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فبردا ولا قديما ثم ساقا ثم فخذا وكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذاك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قبل توبة العبد مالم يرغر <sup>(١)</sup> » وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك للموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكرهه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هوّن على محمد سكرات الموت <sup>(٢)</sup> » والناس إنما لا يستغيثون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يامعشر الحوارين ادعوا الله تعالى أن يهوّن على هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفتني خوفا من الموت على الموت . وروى أن قرامن بنى إسرائيل مرّوا بقبرة فقال بعضهم لبعض لودعوتهم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه القبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوّنه عليّ <sup>(٣)</sup> » وعن الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمري فناء لأنه فني عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظيمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أباحمد بن عبد الله البصري

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد مالم يرغر الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر  
(٢) حديث كان يقول اللهم هوّن على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة ابن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي -

وقلت له هل يكون  
بقاء التخيلات في السر  
ووجود الوسواس من  
الشرك الخفي وكان  
عندي أن ذلك من  
الشرك الخفي فقال لي  
هذا يكون في مقام  
القناء ولم يذكر أنه  
هل هو من الشرك  
الخفي أم لا ثم ذكر  
حكاية مسلم بن يسار  
أنه كان في الصلاة  
فوقعت أسطوانة في  
الجامع فانزعج لهدتها  
أهل الموق فدخلوا  
للسجد فرأوه في  
الصلاة ولم يحس  
بالأسطوانة ووقعها  
فهذا هو الاستغراق  
والقناء باطنا ثم  
قد يتسع دعاؤه  
حتى لعله يكون

هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف<sup>(١)</sup>». «وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدة فقال إن أهون الموت بمنزلة  
حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف<sup>(٢)</sup>». «ودخل صلى الله عليه وسلم على  
مريض ثم قال إني أعلم مايلقي مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته<sup>(٣)</sup>» وكان على كرم الله وجهه يحض  
على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على  
فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن الليث يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره وقل شدا بن أوس الموت أقطع  
هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمنشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدر وروى أن  
الليث نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بهيش ولا تدوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقي  
على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة  
وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى الذر وعن  
بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من الرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجدته فقال  
«كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسي تخرج من ثقب إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت  
القبأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر<sup>(٤)</sup>» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال  
«لو أن شعرة من شعر الليث وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بأذن الله تعالى لأن في كل  
شعرة للموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات<sup>(٥)</sup>» وروى «لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال  
الدنيا كلها لتدابت<sup>(٦)</sup>» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت  
يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه  
السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسي  
كالصفور حين يقلى على القلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسي  
كشاة حية تسليخ يده القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء  
عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت<sup>(٧)</sup>»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر  
ثلثمائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث مثل عن الموت  
وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب  
مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني أعلم مايلقي مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته  
ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد  
ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت القبأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر  
أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذت أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت  
القبأة أخذت أسف (٥) حديث مكحول لو أن شعرة من شعر الليث وضعت على أهل السموات والأرض  
لما اتوا الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه لو أن ألم شعرة ، وزاد  
وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبوميسرة هو  
عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من الموت لو وضعت على  
جبال الدنيا كلها لتدابت لم أجده أصلاً ولعل البصيف لم يورده حديثاً فإنه قال وروى (٧) حديث  
إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم  
هون على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة .

وفاطمة رضى الله عنها تقول واكره لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أهلك بعد اليوم<sup>(١)</sup> وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديدا لجنب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقك إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن النهمكون في المعاصي وتوالى علينا سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزاع كاذكرناه . الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والحروف منه على القلب فلو رأى صورته التي قبض عليها روح العبد للذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن تربى صورتك التي قبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منان الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان تغطي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلى الصورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلتين منه غناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا أهاب للولك ولا يمنع مني الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه<sup>(٣)</sup> » وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضر بها برجله فقال تسلمي يا ذن الله فقالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودى وحشمي على سري وملكي إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت تقي إليه فيألبت ما كان من تلك المجموع كان فرقة ويألبت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفهاها للطيحون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال . وأما للطبع فانه يراه في أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربه فقال أنا ربه فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن تربى الصورة التي قبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب قد كرم من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ، ومنها مشاهدة الملوك الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له ملكاه

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجري عليه لمن قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون في كل فصل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الاذن في كليات أموره ليكون في الأشياء باقلا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله يباطنه في جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للاذن هو باق والباقي في مقام

(١) حديث إن فاطمة قالت واكره لكربك يا أبتاه الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ واكره أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكره (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رواه في الأربعين لأبي هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبي هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه .



الساكنين عمله فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا قرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا قرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخص بصر لليت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل للشاهدة فاتهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نعمة ملك اللوت بأحد البشريين إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره اللوت قال ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه»<sup>(٢)</sup> وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظرا في ساعة هي قيام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكي حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم نار ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله إذا رضى عن عبد قال يا ملك اللوت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه حسبي من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك اللوت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الریحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الریحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك يا سيدنا فيقول أماترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان معصوما»<sup>(٣)</sup> وقال الحسن لاراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت مات شهيداً قال نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو يوفوا الله وتمني بعضهم أن يبقى في الترع أبدا ولا يمت ثواب ولا عقاب . غفوف سوء الخاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما شهد بذلك إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللنساء من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أتمه ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيقولون اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا يحجبه الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق والقاني محبوب بالحق عن الخلق والقناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والقناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال وضار بالله لا بالأحوال وخارج من القلب فصار مع مقبله لأمع قلبه .

[الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية ] أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إجازة قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضوع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .  
( بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت )

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويشت شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيظ الخنوق واحمر لونه واربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به (١) » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله (٢) » وفي رواية حذيفة « فاتها تهدي ما قبلها من الخطايا (٣) » وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضي الله عنه : احضر واموتاكم وذكرهم فاتهم يرون مالاترون ولقنوم لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحية فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكته يقول لا إله إلا الله فيفر له بكلمة الاخلاص (٥) » وينبغي للملقن أن لا يلج في التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استئثاره التلقين وكراهيته للكلمة ويحتمل أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغوبا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء (٦) » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذي الحكيم في نواذر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فاتها تهدي ما قبلها تقدم (٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٦) حديث دخل واثلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ابن حبان المرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا .

الأصفهاني قال ثنا محمد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل في علم مالم يعلم قلة الاتضاع بما قد علم » فتشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم فطلبهم الله تعالى مالم

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف (١) وقال ثابت البناني كان شاباً به حدة وكان له أم تمطره كثيراً وتقول له يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتب عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً فقال يا أمه إن لي رباً كثيراً للمرور وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه. وقال جابر بن وداعة كان شاباً به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصي بشيء قال نعم خاتمي لتسليتيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رؤي في المنام فقال أخبروا أمي أن الكلمة قد تفتت وأن الله قد غفر لي. ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه. وقال أبو العنبر بن سليمان قال أبي لما حضرته الوفاة يامعتمر حدثني بالرخص لعل ألقى الله عز وجل وأنا أحسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكروا له بعد ما حسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه ( بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها )

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح باذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد حدثت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي محفأ أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فدعا بواباً ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بدمرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفع في منخره نفخة ففلاهم كبراً ثم سار وسارت معه الحيل وهو لا ينظر إلى الناس كبراً فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن قهره على لجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضى حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتهلك أبداً قبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته على فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روحه وهو ساجد. وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتى بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فو الذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيات اقطعت عنك المهلة فهل كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روحه. وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذته وابتقى قصراً وجعل عليه بايين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانهم ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد على سريره ورفع إحدى رجله على الأخرى وهم يأكلون (١) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أروا الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم.

يملوا من غرائب العلوم ودقيق الاشارات واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وترسخ قدمهم في العلم قال أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط وأول الفهم لقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وقال أبو بكر الواسطي الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر فعرفهم ما عرفهم وأراد منهم من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال يا نفس انعمي لسنين قد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك اللوت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه خلالة يتشبه بالمساكين قعرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه فوثب إليه العلمان وقالوا ماشأناك فقال ادعوا إلى مولانا كم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم قعرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أنني ملك اللوت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الدل والتخشع فقال قولوا له قولنا لنا وقولوا هل تأخذ به أحدا فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي فأنطق الله لك قال له لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين في ويرد التقى عن باهمم وكنت تنكح للتمتعات في وتجلس مجالس الملوك في وتتفنى في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير شغلتك خلقت وابن آدم من تراب فمنطلق يبر ومنطلق باثم ثم قبض ملك اللوت روحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك اللوت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم خرج إلى السماء وقالت لللائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأثبتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا تمتد له بها قالت لللائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك اللوت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك اللوت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنين وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن مامن يوم إلا وملك اللوت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك اللوت بعضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أنفقت له عمرا ولا انتقصت له أجلا وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بيننا جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس في منزله قد خلا يعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري فقال أما الذي أدخلني الدار فربها وأما أنا فوالدي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة للتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مرید قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك اللوت قال أنا هو قال فهل أنت مملى حتى أحدث عهدا قال هيئات انقطع مدتك وانقضت أنفاسك وتفتت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي قال إلى عملي الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته قال فاني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فإلى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وبالك قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء النقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خيشمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني قال فماذا تريد قال أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أناه ثانيا رأيك تديم النظر إلى واحد من جلسائي . قال نعم كنت أتعجب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك .

ما لم يرد من غيرهم  
وخاصوا بحر العلم  
بالفهم لطلب الزيادات  
فانكشف لهم من  
مدخور الحزائن  
والمحزون تحت كل  
حرف وآية من الفهم  
وعجائب النص  
فاستخرجوا الدرر  
والجواهر ونطقوا  
بالحكمة . وقد ورد  
في الخبر عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
فيما رواه سفيان بن  
عيينة عن ابن جريج  
عن عطاء عن أبي  
هريرة أنه قال إن من  
العلم كهينة المكنون  
لا يعلمها إلا العلماء بالله  
فاذا انطقوا به لا ينكره  
إلا أهل العرة بالله .  
أخبرنا أبو زرعة قال

( الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده )

( وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم )

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفعلوا قولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحيه ونبيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا، بل أرسل إليه لللائكة الكرام للوكلين بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك في أهله وأهله وسامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيأت بل أمثما كان به مأمورا واتباع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو اللقام المحمود والخوض للورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لانعبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحيب رب العالمين لعلنا نظن أننا مخلدون أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيأت بل تيقن أننا جميعا على النار واردون ثم لا نبجو منها إلا اللتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لئلا نال الظن منتظرين فما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فلينظر كل عبد إلى نفسه انه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وقفوا له من الحافزين ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أمهم على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى قال ابن مسعود رضي الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله إني لكم منه نذير مبين أنتم علوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى فاقربوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١) ». وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

أنا أبو بكر بن خلف  
قال ثنا أبو عبد الرحمن  
قال سمعت النضر بن أبي  
يقول سمعت ابن عائشة  
يقول سمعت القرشي  
يقول هي أسرار الله تعالى  
ييدها إلى أمنا وأولياها  
وسادات النبلاء من  
غير سماع ولا دراسة  
وهي من الأسرار التي  
لم يطلع عليها إلا  
الخواص . وقال  
أبو سعيد الخزاز  
للعارفين خزائن  
أودعها علوما غريبة  
وأبناء عجيبة يتكلمون  
فيها بلسان الأبدية  
ويخبرون عنها بعبارة  
الأزلية وهي من العلم  
المجهول بقوله بلسان  
الأبدية بعبارة الأزلية  
إشارة إلى أنهم بالله

( الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم )

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود وروناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العربي إمام روي عن مرة كرواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني (١) وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أحدودنا لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبى التي أوتيت إليها فأكرموا كريمهم يعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبداً خيراً بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سداً وهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصلابة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضي الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتى وفي يومى وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريتى وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأوماً برأسه أن نعم فتناولته يداً فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوماً برأسه أن نعم فليتنه وكان بين يديه ركة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلأطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثله فمد يده وقالها فتناولوه فقال ما تقولون؟ قالوا نقول نخشى أن نموت وتصابح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على طي والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يحيط برجليه حتى جالس على أسفل مراقبة من المنبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم هل خلدني قبلي فيمن بعث فأخذه فيكم ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لعلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمى للمصطفاه من بعدى قال أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسى وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فضلى بالناس واستغفر لأهل أحدودنا لهم وأوصى بالأنصار حديث الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار يختلف فيه عن محمد بن إسحق وهو مدلس وقد رواه بالنعنة (٣) حديث عائشة قبض في بيتى وفي يومى وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريتى وريقه عند الموت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر - آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً - فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيماً من بعضهم لبعض وإشارة منهم إلى أحوال يعذبونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والفرقة قليل أصل الجمع والفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللائكة وأولوا العلم - وقوله تعالى - آمنوا بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أنزل إلينا - والجمع أصل والفرقة

فرع فكل جمع  
بلا تفرقة زندقه  
وكل تفرقة بلا جمع  
تطيل . وقال الجنيدي  
القرب بالوجد جمع  
وغيته في البشرية  
تفرقة وقيل جمعهم في  
المعرفة وفرقهم في  
الأحوال والجمع اتصال  
لا يشاهد صاحبه إلا  
الحق فحق شاهد غيره  
فما جمع والتفرقة شهود  
لمن شاء بالمباينة  
وعباراتهم في ذلك  
كثيرة والمقصود أنهم  
أشاروا بالجمع إلى  
تجريد التوحيد  
وأشاروا بالتفرقة إلى  
الاكتساب فلي هذا  
لا جمع إلا بتفرقة  
ويقولون فلان في عين  
الجمع ينون استيلاء

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الحصاصه  
ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم  
ألا وإن فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن موعدكم الحوض حوضي أعرض مما بين بصرى الشام  
وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب السكوثر ماء أشد يابضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد  
من شرب منه لم يظمأ أبدا حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك من حرمة في الوقف غدا حرم الخير كله  
ألا فمن أحب أن يرد عليّ غدا فليكشف لسانه ويده إلا مما ينبغي فقال العباس يابني الله أوصي بقريش  
فقال إنما أوصي بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وقاجرهم لقاجرهم فاستوصوا  
آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فإذا بر الناس برهم أنتم  
وإذا فجر الناس عقوم قال الله تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا كما نوليكم بعضا (١)  
وروى ابن مسعود رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه سل يا أبا بكر  
فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتدلى فقال ليحك يابني الله ما عند الله فليت شعري  
عن منقلبتنا فقال إلى الله وإلى سدره للنهي ثم إلى جنة المأوى والفرودس الأعلى والكأس الأوفى  
والرفيق الأعلى والحظ والعيش الهنا فقال يابني الله من يلي غسلك؟ قال رجال من أهل بيتي الأدي فالأدي  
قال فقيم نكفك؟ فقال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي يابض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا  
وبكينا وبكي ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلتموني وكفتموني فضعوني  
على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي على الله عز وجل هو  
الذي يصلي عليكم وملائكته - ثم يأذن للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله  
ويصلي على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى  
الله عليهم أجمعين ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني  
بتركية ولا ضيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدي فالأدي ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان  
قال فمن يدخلك القبر؟ قال زمر من أهل بيتي الأدي فالأدي مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم  
قوموا فأدوا عني إلى من بعدى (٢) » وقال عبد الله بن زمة جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن  
بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلي بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في  
رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس قيام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا مع  
رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابني الله ذلك والمسلمون قالوا ثلاث  
مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق  
القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمهم بكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا  
معضوب الرأس يخط رجله حتى جلس على أسفل مرقاة من للنبر فذكر خطبته بطولها هو حديث  
مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي روى عن  
ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوي (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث في  
سؤالهم له من يلي غسلك وفيهم نكفك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد  
ابن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

قال فضلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضى الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله وخشيت أيضا ألا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويغيثون عليه ويتشاءمون به فاذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءؤه وعصمه الله من كل ما خوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) وقالت عائشة رضى الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحواسنهم مستبشرين وأخوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اخرجني عن هذا الملك يستأذن على » فخرج من في البيت غيرى ورأسه في حجرى » فجلس وتحت في جانب البيت فتأجى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأعدورأسه في حجرى وقال للنسوة ادخلن فقلت ماهذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا بأذن فان لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت وأمرنى أن لا أقضك حتى تأمرنى فإذا أمرتك فقلت اكفف عني حتى يأتي جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضى الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجئنا وكأنا ضربنا بصاخة مانحير إليه شيئا وما يتكلم أحدهم أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملائ أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فلم تعرفت حسه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تحمدك وهو أعلم باللهى تحمد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال أجدنى وجعا فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يملكك ما أعذك فقال يا جبريل إن ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريدك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يحىء وأذن للنساء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى منى رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام فكان الذى رأينا منها عجبا فأسألتها بعد ذلك فقالت أخبرنى وقال إني ميت اليوم فبكيت ثم قال إني دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يجعلك معى فضحكى وأدنت ابنيها منه فشبهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال للملك ما تأمرنا يا محمد قال ألحقني بربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجل ليس فيهم أبو بكر الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل فى أول ربيع الأول وقال مروا من يصل بالناس وقال أبى الله ذلك وللمؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا ليصل للناس ابن أبى قحافة يقول ذلك مغضبا وأما ما فى آخره من قول عائشة فى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنك صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه  
فاذا عاد إلى شيء من  
أعماله عاد إلى التفرقة  
فضحة الجمع بالتفرقة  
وصحة التفرقة بالجمع  
فهذا يرجع حاصله  
إلى أن الجمع من العلم  
بالله والتفرقة من العلم  
بأمر الله ولا بد منهما  
جميعا . قال للزن  
الجمع عين الفناء بالله  
والتفرقة البسودية  
متصل بعضها ببعض  
وقد غلط قوم وادعوا  
أنهم فى عين الجمع  
وأشاروا إلى صرف  
التوحيد وعطوا  
الاكتساب فتردقوا  
وإنما الجمع حكم الروح  
والتفرقة حكم القلب  
وما دام هذا التركيب  
باتيا فلا بد من الجمع



ولم ينهى عن الدخول على أحد إلا بأذن غيره ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا قالت قعقت إلى النبي ﷺ حتى أضمر رأسه بين ثديي وأمسكت بصدري وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من إنسان قط فجعلت أسأت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدة كنفه الحمار فعند ذلك ارتعنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهد أخى بعثه إلى أبي فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإيما صدم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل وجعل إذا غمى عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الحيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال «الصلوة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ماصلين جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة»<sup>(١)</sup> قالت عائشة رضى الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين<sup>(٢)</sup> قالت فاطمة رضى الله عنها ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوأعجمهم مستبشرين وأخلاء رسول الله ﷺ بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عنى ، هذا الملك يستأذن على الحديث بطوله في مجئى ملك الموت ثم ذهابه ثم مجئى جبريل ثم مجئى ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبرانى في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلعت حبيبي جبريل قال خلعتني في سماء الدنيا ولللائكة يعزونه فيك فلما كان بأسرع أن أتاه جبريل قعقد عند رأسه وذكر بشادة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فاته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد النعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني ورواه الطبرانى أيضا من حديث الحسين بن على أن جبريل جاءه وألقاه له عن ربه كيف تجددك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فأسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في مجئى ملك الموت أولا واستئذانه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال ابن جبريل فقال هو قريب منى الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث.

(٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

والنفرة . وقال  
الواسطي إذا نظرت  
إلى نفسك فرقت وإذا  
نظرت إلى ربك  
جمعت وإذا كنت  
قائما بغيرك فأنت قان  
بلا جمع ولا نفرة .  
وقيل جمعهم بذاته  
وفرقتهم في صفاته وقد  
يريدون بالجمع والتفرقة  
أنه إذا أثبت لنفسه  
كسبا ونظرا إلى  
أعماله فهو في التفرقة  
وإذا أثبت الأشياء  
بالحق فهو في الجمع  
ومجموع الاشارات  
ينبئ أن الكون يفرق  
والمكون يجمع فمن  
أفرد المكون جمع  
ومن نظر إلى الكون  
فرق فالتفرقة عبودية  
والجمع توحيد فإذا

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فماليت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم لللائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ولم يرجعه الله عز وجل وليتظمن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت وإنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم<sup>(١)</sup>» وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يميت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسفي هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يريح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدها بالتوفيق والساد وإن كان الناس لم يعرفوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رباً محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم -<sup>(٢)</sup> الآية فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد القمل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونسبي وأهلي طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ لللائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تسلموا إلا بعد البعد وخط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت الحديث، إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلاً وهو منكسر (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمهم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين أما اللوثة التي كتبت عليك قدمتها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيها .

أثبت طاعته نظراً إلى كسبه فرق وإذا أثبتنا بالله جمع وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن يقال رؤية الأفعال بفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع . مثل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال : أنفى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كلم فكان للكلم والكلم هو وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب وردة الجواب لولا إياه سمع ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بذلك

حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ف عظمت عن الصفة وجلت عن البكاء وخصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفقدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع فيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلقت من السكينة لم يبق أحد لما خلقت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (١) . وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجباً سمعه أهل الصلي كلها ذكر شيئاً ازدادوا فما سكن عجبهم إلا نسلم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليكم بأهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل عذابة فآله فارجوا وبه فتقوا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء قد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحداً ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته بأهل البيت اذكروا الله وأحمدوه على كل حال تكونوا من الخالصين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) واستوفى القمقام بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضى الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

القوة مع ولولا  
تلك القوة ما قدر  
على السمع ثم أُنشد  
القائل مثلاً :  
وبدا له من بعد  
ما اندمل الهوى  
برق تألق موهنا  
لمعانه

يبدو كحاشية الرداء  
ودونه  
صعب الثرى متنع  
أركان  
فبدا لينظر كيف لاح  
فلم يطق  
نظراً إليه ورده  
أشجان  
فالنار ما اشتملت عليه  
ضلوعه  
واللأ ما صمحت به  
أجفانه  
ومنها قولهم التجلى  
والاستتار . قال الجنيد

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجياً فكشف الثوب عن وجه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل عذابة فآله فارجوا وبه فتقوا ثم سمعوا آخر بعده إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله ليكون قد دخل عليهم رجل طويل شعر النكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بمضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك قال الله تعالى فأنبيوا ونظروهم إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا بيننا وشمالاً فلم يروا أحداً فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخونينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جداً ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضاً من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت فبآله فتقوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدررون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمعروف عن علي بن الحسين مرسل من غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر الخضر.

على كل حال وقد أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن السكتب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام التقيين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون واثقنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشفلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا اليوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه - إنك ميت وإنهم ميتون - فقال والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نخشب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لجلسه قالوا : والله ما ندري كيف تغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فأتوها ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال صلى الله عليه وسلم وجهه أردنا خلع قيصه فنودينا لا نخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه فغسلناه في قيصه كما تغسل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى تفرغ منه وإن معنا لحفيضا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا برقعوا رسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بني في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبه على قصبه (١) ففي وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

( وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه )

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بني في حياته ابنة على لبنة ولا وضع قصبه على قصبه أما وضع للفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بني في حياته فتقدم أيضا .

إعما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب (ومنها التجلي) ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه

لعمرك ما يغنى الثراء عن القنى إذا حشر جرت يوما وضاق بها الصدر  
فكشفت عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه  
تخيد - انظروا ثوبى هذين فاغسواهما وكفونى فيهما فان الحى إلى الجديد أخرج من البيت .  
وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليناسى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طيبا ينظر إليك؟  
قال قد نظر إلى طبيبي وقال إني فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه  
يعوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك « واعلم أن  
من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفروا الله في ذمته فيكفك في النار على وجهك، ولما نقل  
أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس  
له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك فقال أقول استخفت على خلقك خير خلقك ثم أرسل  
إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن  
الله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وإنما نقلت موازين من نقلت  
موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل  
وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع  
فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل  
أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا  
فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للؤمن راغباراها  
ولا يلقى يديه إلى التهلكة ولا يمتحن على الله غير الحق فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب  
إليك من الموت ولا بذلك منه وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذلك  
منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن السيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة  
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زدونا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء  
الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين ؟ قال قاع بين يدي العرش  
فيه رياض الله وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا  
الكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعم وفريقا  
للسعير فاجعلنى للنعم ولا تجعلنى للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت  
منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ماتكسب كل نفس قبل  
أن تخلقها فاجعل لها مما علمت فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء  
فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا تحرك شئ  
إلا بأذنك فاجعل حركاتى في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عملا  
يعمل به فاجعلنى من خير التسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا  
فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضقت به صدورهم فأشرح صدرى  
للإيمان وزينه فى قلبى . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأجبنى بعد الموت حياة  
طيبة وقربنى إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى تقته ورجاؤه غيبك فأنت تقى ورجائى ولا حول  
ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل .

لهم ولغيرهم فأما لهم  
فلا أنهم به يرجعون  
إلى مصالح النفوس وأما  
لغيرهم فلا أنه لولا مواضع  
الاستقرار لم ينتفع بهم  
لاستغراقهم فى جمع  
الجمع وبروزهم لله الواحد  
القهار . قال بعضهم  
علامة تجلى الحق  
للأسرار هو أن لا يشهد  
السر ما يتسلط عليه  
التعبير ويحويه الفهم  
فمن عبر أوفهم فهو  
صاحب استدلال لا ناظر  
اجلال . وقال بعضهم  
التسجلى رفع حجة  
البشرية لأن يتلون  
ذات الحق عز وجل  
والاستقرار أن تكون  
البشرية حائلة بينك  
وبين شهود الغيب .  
(ومنها التجريد والتفريد)

( وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه )

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذ امر بين الصفين قام بينهما فإذا رأى خلا قال استووا حتى إذا لم يرفهم خلا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلني أوأكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملح بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد عينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملح أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف قدمه قائما من كان يلي عمر فقد رأى مارأيت وأمانواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم قدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فضلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المنيرة بن شعبة فقال عمر رضي الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني بيد رجل مسلم قد كنت أنت وأبو بكر تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فعلت : أي إن شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجتكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأتى بنيذ فشرب منه شرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فصرفوا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشريا أمير المؤمنين يمشى من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تم في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لاعلى ولالى فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه انتهى لثوبك وأنتى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإفسل في بني عدى بن كعب فان لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدم إلى غيرهم وأد عنى هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل أمير المؤمنين فأتى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدوها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوتريه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال مالك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فأحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قلنا فوجئت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فوجئت داخلنا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء نفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فان أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر فأتى لم عزله من محجز ولا خيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمهم وأوصيه بالأنصار خير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خير أفا نهم رده الاسلام

الاشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيته عن كسبه ( ومنها الوجد والتسواجد والوجود ) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا وينسره عن هيئته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على قرائتهم وأوصيه بدمه الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بهدمهم وأن يقاتلهم من وراءهم ولا يكافهم إلا طاقهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر <sup>(١)</sup> » وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجلا قد أخذ بعنكي فالتفت فاذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن ليجمعنك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهب أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر <sup>(٢)</sup> » فاني كنت لأرجو أو لأظن أن يجمعك الله معهما .

( وفاة عثمان رضي الله عنه ) .

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهى خوخة في البيت فقال يا عثمان حصرك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلو فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين يدي وبين كتفي وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشحط عثمان في اللوت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذي نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال اتنوني بصاحبيكم الذين ألباكم على قال فجئ بهما كأنما هما حملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة يحمل دلوه مع دلاء المسلمين خير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأتتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن للمسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزبدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأتتم اليوم تمنعوني أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لي ورب السكبة أني شهيد <sup>(٣)</sup> . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليك الاسلام على موت عمر أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذي وقال حسن والنسائي .

ويتطلع إلى الله تعالى وهو فرحة يجدها الغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربني وجدى فأعندني عن رؤية الوجد من في الوجد موجود والوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

( وفاة علي كرم الله وجهه )

قال الأصمخ الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه أثناء ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع مشاغل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عيشى وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت فان للسوت لاقبكا  
ولا تجزع من اللوت إذا حلت بوادبكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله عنه فقال يا أخى لأى شيء تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبو الكو وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجعفر وهما عمك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمراء من وإن الدنيا قد تغيرت وتكررت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصابة الإناء ألا حسبي من عيش كالمري الويل ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى للوت إلى السعادة والحياة مع الظالمين إلا جرماء.

( الباب الخامس في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين )

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أتعبدوني فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويدكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والاعطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضريان وبكى حتى علا بكأؤه وقال يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعبد بملكك على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فأروا في جلده غصونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذا بنا بعيشنا فما لبثنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار . وروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر مني كما كان من قبلى خيرا مني ويا يزيد إذا وفى أجلي فول غسلى رجلا ليبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد إلى منديل في الحزاة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنقى وفى وأذن وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين فاذا أدرجتموني في جديدي ووضعتوني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل معاوية للوت قال ياليتني كنت رجلا من قريش بدى طوى وإني لم أَل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يولى ثوبا بيده ثم يضرب به للعسلة فقال عبد الملك ليتني كنت غسالا آكل من كسب يدي يوما يوم

( الباب الخامس في كلام جماعة من المختصرين )

( ومنها الغلبة ) الغلبة  
وجدتمتلاحق فالوجد  
كالبرق يبدو والغلبة  
كتلاحق السبرق  
وتواتره يغيب عن  
التمييز فالوجد ينطفيء  
سريعا والغلبة تبقى  
للأمرار حرز امنيعا .  
( ومنها السامرة ) وهي  
فرد الأرواح بحفى  
مناجاتها ولطيف  
مناقاتها في سر السر  
بلطيف إدراكها  
للقلب لفرد الروح بها  
قتلتها دون القلب  
( ومنها السكر والصحو )  
فالسكر استيلاء  
سلطان الحال والصحو  
العود إلى ترتيب الأفعال  
وتهذيب الأقوال  
قال محمد بن خفيف



ولم آل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضروا الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضروا الموت لم تتمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجددك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم - الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعتة يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين - ثم هدا فجعلت لأسمع له حركة ولا كلاما قلت لوصيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولاتأمن الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فتعالج يا أمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال ربى خير مذهب إليه والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذنى مارفعت يدي إلى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقبل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سفنا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحقت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقيها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسوني فأجلسوه فقال أنا الذي أمرتني فقصرته ونهيتني فصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقبل له في ذلك فقال إني لأرى خضرة مامم بالنس ولاجن ثم قبض رحمه الله . وحكى عن هرون الرشيد أنه اتقى أ كفافه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه وفرش للأمن رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه أرحم من قد زال ملكه وكان يعتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت وكان للتصبر يضطرب على نفسه عند موته فقبل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبنه من يأخذها بما فيها ليته كان بهرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون إنك لا تغفر لي ، عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها . نعم قال عسى .

( بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من أمة التابعين ومن بعدهم )

( من أهل التصوف رضى الله أجمعين )

لما حضرت معاذ رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أفك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر ولما اشتد به التزع وتزع لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخفتني خفتك فوعزت لك إنك تعلم أن قلبي يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقبل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب  
عند معارضات ذكر  
المحسوب وقال الواسطي  
مقامات الوجد أربعة  
الذهول ثم الحيرة ثم  
السكر ثم الصحو كمن  
سمع بالبحر ثم دنأته  
ثم دخل فيه ثم أخذته  
الأمواج فطلى هذا من  
بقي عليه أثر من  
سريان الحال فيه  
فعليه أثر من السكر  
ومن عاد كل شيء منه  
إلى مستقره فهو صاح  
فالسكر لأرباب القلوب  
والصحو للمكاشفين  
بحقائق الغيوب .  
( ومنها المحو والإببات )  
المحو بإزالة أوصاف  
النفوس والاثبات بما  
أدير عليهم من آثار  
الحب كؤوس أو المحو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب<sup>(١)</sup> فلما مات سلمان نظرت في جميع مارك فاذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناته فقال بل واطرباه غدا تلقى الأحبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال سئل هذا فليعمل العالمون - ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى قفيل له مايكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى قفيل له مايكيك فقال والله ما بكى لذنوب أعلم أتى أتيتته ولكن أخاف أتى أتيت شيئا حسبه هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى قفيل له مايكيك قال ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما هو قتي من ظمأ الله واجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعده سفره وأقله زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له مايكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحيني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له لقني ولا تلم علي ما لم أتكلم بكلام ثان . وقال عطاء بن يسار تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت فقال ما آمنك بعد وبكى بعضهم عند الموت قفيل له مايكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل - إنما يتقبل الله من المتقين - ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال إن امرأ هذا أوله الجدير أن يتقى آخره وإن امرأ هذا آخره الجدير أن يهدى أوله . وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النير وزهو يقرأ القرآن فحتم قفيل له في هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال روم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول :

حين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكراهم وقت المناجاة لاسر  
أدبرت كؤوس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كما غفأ ذى الشكر  
همومهم جولة بمسكر به أهل ود الله كالأنجم الزهر  
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو الملائسرى  
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم وما عرجوا من مس يؤس ولاضر

وقيل للجنيد إن أباسعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لدى النون عندهم ماتهتشي قال أن أعرفه قيل موته بلحظة وقيل لبعضهم وهو في التزع قل الله فقال إلى متى تقولون الله وأنما حترق بالله . وقال بعضهم كنت عند محمد الدينوري قدّم قفيل وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومدرجليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موته فقامت للمرأة فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت قد مت ووقعت ميتة . ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجرى فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم ترد هائم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواك بعين مودة حتى أراك  
أراك معذبى بفتور لحظ وبالحد المورد من حياك

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

هو رسوم الأعمال  
بنظر القناء إلى نفسه  
ومامنه والاثبات  
إثباتها بما أنشأ الحق  
له من الوجود به  
فهو بالحق لا بنفسه  
بإثبات الحق إياه  
مستأنفا بعد أن  
عماه عن أوصافه .  
قال ابن عطاء يمجو  
أوصافهم وثبت  
أسرارهم (ومنها علم  
اليقين وعين اليقين  
وحق اليقين) فلم  
اليقين ما كان  
من طريق النظر  
والاستدلال وعين اليقين  
ما كان من طريق  
الكشوف والنوال  
وحق اليقين ما كان  
بتحقيق الاتصال  
عن لوث الصلصال

## أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين الخ ٢٦٧

وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله فقال ما نسيت فاذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال عليّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما عليّ قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيتي وقد أمسك على لسانه قبض على يدي وأدخلها في لحيتي ثم مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا توصي بابنك وعيالك فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيرهم ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أو صنا فقال احفظوا ما مراد الحق فيكم احتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك قالت عليك أبكي فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي ماني      والذي بي أصابني من طبيبي  
فأخذت للروحة لأروحه فقال كيف يجد ربح الروحة من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول :  
القلب محترق والدمع مستبق      والكرب مجتمع والصبر مفترق  
كيف القرار على من لا قرار له      مما جناه الهوى وانشوق والقلق  
يارب إن يك شيء فيه لي فرج      فامتنن عليّ به مادام بي رفق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في اللوت فقالوا له قل لا إله إلا الله فأنشأ يقول :  
إن بيتنا أنت ما كنه      غير محتاج إلى السرج      وجهك المأمول حجتنا  
يوم يأتي الناس بالحجج      لا أتأخ الله لي فرجا      يوم أدعو منك بالفرج  
وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فاني كنت في وردي ثم ولي وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للكتاني لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لو لم يقرب أجلي ما أخبرتك به وقتت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه وحكى عن المعتز قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات اللوت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من التلكم؟ فقلت أنا فقال إن ملك اللوت عليه السلام يقول لي إني بكل سخي رفيق ثم طفيء ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلما فقال يا أبا محمد هذا أو ان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي فقال حذيفة وأعجباه لهذا الرجل الصالح علف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي . ودخل بعض المشايخ على عمشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي . وقيل لرويم عند اللوت قل لا إله إلا الله فقال لأحسن غيره ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له قل لا إله إلا الله فقال أليس ثم أمر . ودخل اللزني على الشافعي رحمه الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا ولا أخوان مفارقا ولسوء عملي ملاقيا ولكأس اللنية شاربيا وعلى الله تعالى واردا ولا أدري أروحي نصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزها ثم أنشأ يقول :

بورود رائد الوصال  
قال فارس : علم اليقين  
لا اضطراب فيه  
وعين اليقين هو  
العلم الذي أودعه  
الله الأسرار والعلم  
إذا انفرد عن نعمت  
اليقين كان علما  
بشبهة فإذا انضم  
إليه اليقين كان علما  
بلا شبهة وحق اليقين  
هو حقيقة ما أشار  
إليه علم اليقين وعين  
اليقين . وقال الجنيد  
حق اليقين ما يتحقق  
العبد بذلك وهو  
أن يشاهد الغيوب  
كما يشاهد للريثات  
مشاهدة عيان  
ويحكم على الغيب فيخبر  
عنه بالصدق كما أخبر  
الصديق حين قال لما

ولما قسا قلبي وضاعت مذاهي جعلت رجائي نحو عفوك سلما  
تعاظمي ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما  
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما  
ولولاك لم يغوى يا بليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدماء

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة قدمعت عيناه وقال يابني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فأن لي أو ان الجواب فيهه أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة فأنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدررون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسابهم واقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولله في غد أو بعد غد . وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر . وكان مكحول المشقى إذا رأى جنازة قال اغدوا فإننا نحون موعظة بلغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وقال أسيد بن حضير مشهده جنازة فحدثني نفسي بشيء سوى ماهو مفعول به وما هو صائر إليه ولمامات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الأعشى كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنا با كيا فهكذا كان خوفهم من الموت وآلان لا تنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولوعقوا بالبكاء على أنفسهم لا على الميت نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم إنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحاتمة وقد آمن . وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فأطاعت جنازة فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

تروعا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مديرات

كعروعة ثلة لمعار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التمسك والتنبه والاستعداد والشئ أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فان الحاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

(الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر)

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذا أبقيت لعمالك قال الله ورسوله » وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعسين وحق فالاسم والرسم للعموم وعلم اليقين للأولياء وعين اليقين لحواص الأولياء وحق اليقين للأنبيا عليهم الصلاة والسلام وحقيقة اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (ومنها الوقت) والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد وأغلب

واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال یرحمک الله یا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذهب وذو خطايا فمن منا غير مذهب وغير ذی خطايا . ويحكى أن رجلا من اللهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يمينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى الصلي فاصلى عليه أحد فحملتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من اللوضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لي في المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلّى عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في المأخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظري هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعة ثم يعود إلى المأخور ويشغل بالفسق ، والثاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم ، والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الحبيث يعنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فان تتج منها تتج من ذى عظمة وإلا فاني لإخالك ناجيا

( بيان حال القبر وأقويلهم عند القبور )

قال الضحاك قال رجل « يا رسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلوى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبق على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعدّ نفسه من أهل القبور (١) . » وقيل لعلى كرم الله وجهه ماشأ أنك جاورت القبرة قال إني أجدهم خير جيران إني أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ « ما رأيت منظرا إلا والقبر أقطع منه (٢) » وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكي وبكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لك قال هذا قبر أمي أمانة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على فأدركني ما يدرك الولد من الرقة (٣) »

(١) حديث الضحاك : قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلوى والبلوى الحديث تقدم (٢) حديث : ما رأيت منظرا إلا والقبر أقطع منه تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة (٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر أمانة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي الحديث وتقدم في آداب الصعبة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هاني ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

ما على العبد وقته  
فانه كالسيف يعضى  
الوقت بحكمه ويقطع  
وقد يراد بالوقت  
ما يهجم على العبد  
لا يكسبه فيتصرف  
فيه فيكون بحكمه  
يقال فلان بحكم  
الوقت يعنى مأخوذا  
عما منه بما للحق .  
(ومنها الغيبة والشهود)  
فالشهود هو الحضور  
وقتا بنت للراقبة  
ووقتا بوصف  
للشاهدة فسادام العبد  
موصوفا بالشهود  
والرعاية فهو حاضر  
فاذا قد حال  
للشاهدة والراقبة  
خرج من دائرة  
الحضور فهو غائب  
وقد يعنون بالغيبة

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فستل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١)» وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى القبرة فزول وصلى ركعتين فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأجبت أن أقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لي . وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم قهرى يوم أوضع في قبرى وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قت لم يفتابونى وكان جعفر ابن محمد يأتى القبور ليلا ويقول بأهل القبور ما لى إذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرتقت الليلة أنفكر فى القبر وسأكنه إنك لورأت الليث بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ولرأت بيتا تجول فيه الهوام ويمجى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح وبقاء الثوب قال ثم شق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول أيها القبور فى حفرته والتخلى فى القبر بوحدته للسنانس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عنانته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه للتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يا أماء ليتك كنت بى عقيما إن لابتك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه إن أجبت من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبت من قبرك منعها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهى فى بواطنك وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى القبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعايتم أعمالكم فواعملوا ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبرا فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت - يردد هذا ثم يرد على نفسه يا ربى قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تمنعج الأرض من رجل يمهّد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بينى وبينك شيء وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوأهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم اللثام واستحكّم فيهم البلى وأصاب الهوام مقيلا فى أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنتم بمن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يفرنك صموت أهلها فكم

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم ومصححه وتقدم فى آداب الصعبة .

الغيبه عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء (ومنها الدوق والشرب والرى) فالدوق إيمان والشرب علم والرى حال فالدوق الأرباب البواده والشرب لأرباب الطوالع والسواح والوامع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هى التى تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإما هى لوايح وطوالع وقيل الحال لا تستقر لأنها تحوّل فاذا استقرت تكون مقاما (ومنها المحاضرة والكاشفة والشاهدة) فالمحاضرة لأرباب التساوين والشاهدة

من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا القسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما قصدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يشعروا فاقبلوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني أشد من القبر التهايا وأضيحا

إذا جاءني يوم القيامة فأئد عني وسواق سوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغنول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ألسنها من منكم للغمور في ظلماتها

ومن الكرم منكم في قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لدى العيون فواحد لا يستبيز الفضل في درجاتها

لو جابوك لأخبروك بألسن نصف الحقائق بعد من حالاتها

أما للطبع فازل في روضة يفضى إلى ما شاء من دوحاتها

والجبرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها

وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عسمنت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا

فكيف أذوق لطعم الكرى وأنت يحنك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابنه بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها فأين للعظم والمختبر

وأين للدل بسلطانه وأين تزكى إذا ما افتخر

قال فتوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما نخب وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الترى فتمحو محاسن تلك الصور

فيادائي عن أناس مضوا أما لك فما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

أيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تأجلك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

لأرباب المتكئين

والسكاشفة بينهما إلى

أن تستقر فالمشاهدة

والمحاضرة لأهل العلم

والسكاشفة لأهل العين

والشاهدة لأهل الحق

أى حق اليقين (ومنها

الطوارق والبوادي

والبادع والواقع

والقادح والطوالع

واللوامع واللوائح)

وهذه كلها ألقاظ

متقاربة المعنى ويمكن

بسط القول فيها

ويكون حاصل ذلك

راجعا إلى معنى واحد

يكثر بالعبارة فلا فائدة

فيه والمقصود أن هذه

الأسماء كلها مبادئ

الحال ومقدماته وإذا

صح الحال امتنع

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غاتم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجواب محكم  
وما ينفع القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم  
وقال ابن السكك مرت على اللقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنات قبرى كأن أقاربي لم يعرفوني  
ذوو الميراث يقتسمون مالى وما يألون أن جحدوا ديوني  
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا في الله أسرع ما نسوني  
ووجد على قبر مكتوبا :

إن الجيب من الأجاب مختلس لا يمنع اللوت بواب ولا حرس  
فكيف تفرح بالدنيا ولتتها يامن يعد عليه اللفظ والنفس  
أصبحت باغافلا في النقص منغمسا وأنت دهرك في اللذات منغمس  
لا رحم للوت ذا جهل لغرته ولا الذى كان منه العلم يقتبس  
كم أخرس اللوت في قبر وقتت به عن الجواب لسانا مابه خرس  
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندرس  
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأجة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان  
فلا أن بكيت وفاض دمعى رأيت عيناى بينهم مكانى  
ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رمسه  
قأين ما يوصف من طبه وحذقه فى الماء مع جسسه  
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه  
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل  
فلتق الله ربه رجل أمكنه فى حياته العمل  
ما أنا وحدى قلت حيث ترى كل إلى مثله سينقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل اللوت والبصير هو الذى ينظر إلى  
قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحق بهم ويعلم أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يلحق  
بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من  
الدنيا بهذا فإيرها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فأنما حسرتهم على يوم  
من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له  
الثواب فأنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك  
الساعة وأهلك تقدر على أمثالهم ثم أنت مضى لها فوطن نفسك على التبحر على تضييعها عند  
خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيكتك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد دال بعض الصالحين  
رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أفولها  
يعنى الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنوننى فإن فلانا

هذه الأسماء كلها  
ومعانيها .

( ومنها التلويين  
والتسكين )

فالتلويين لأرباب  
القلوب لأنهم تحت  
حجب القلوب وللقلوب  
تخلص إلى الصفات  
والصفات تعدد بتعدد  
جهاها فظهر لأرباب  
القلوب بحسب تعدد  
الصفات تلويينات ولا  
تجاوز للقلوب وأربابها  
عن عالم الصفات وأما  
أرباب التسكين  
غفرجوا عن مشائم  
الأحوال وخرقوا  
حجب القلوب  
وباشرت أرواحهم  
سطوع نور الذات  
فارتفع التلويين لعدم



قد قام فصلي ركتين لأن أكون أقدر على أن أصلي بما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

( بيان أقاولهم عند موت الولد )

حق على من مات ولده أو قريب من أقربه أن ينزله في تقدمه عليه في اللوت منزلة ما لو كان في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق للتأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإنا ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لدواد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فليله ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنين قال أو اثنين» (٢) وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب به إلى الإجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في لحده فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر متعتني به مامتعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمت طاعتك وطاعتك اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي قد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذه فأكبى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فاقد مضينا وتر كناك ولو أقمنا ما تفعلناك . ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان يا عبد الله فقال أكرهما للآخر أترى أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلبأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادني الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فإمن مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

( بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به )

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار بقبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خافي (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في النكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم إذنه في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التغير في الذات إذ جعلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكين لأن جريان التلوين في النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القسمة في التمكين كشف حق الحقيقة وليس للغي بالتمكين أن لا يكون للعبس تغير فانه بشر وإنا المعنى به

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا (١) » وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ (٢) وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار (٣) كما أوردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قلت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها (٤) ولا ينبغي أن يتمسك بهذا يؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فانهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظامهم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها ، نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بدلة تردأعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنازة لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله (٥) » وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة (٦) » وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برآ (٧) » وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين (٨) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التلوي قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلويته في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس للمعنى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر وللتنويع صاحب حال غالب حاله عليه والنهي صاحب نفس

(١) حديث على كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له وأبو يعلى غير أن لا تقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جده عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يربا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخفش متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قرييما من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يومان للمقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قالت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور وإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسل وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برآ الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان برفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة بن أبي العزير عن محمد بن جعدة

« من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة » (٢) وقال كعب الأجار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من اللائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من اللائكة يوقرونه. والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجه الميت وأن يسلم ولا يمسخ القبر ولا يمسه ولا يقبله فإن ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر أئتمته مائة مرة أو أكثر يجيئ إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وبنصره. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفعه يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٣) وقال سليمان بن سحبر أئتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أفنفعهم سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصم في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا وقر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله للزني فتتلاق أخباركم فأت أجسامكم أم أرواحكم قال هيات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم فعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قات وكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن اللواتي يعملون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبر قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته قيل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب القابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غريبتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأسميت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهلي ولم آت للقابر فأدعوا كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت ما أتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل القابر قلت ما جاءكم بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عندنا نصرافك إلى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك. وقال بشار بن غالب النجاشي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور خمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتني به البيت فقيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في قبره إلا كالعريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن ججادة عن قتادة عن أنس ومحيي بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن مسمان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشيلي.

تممكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالنية والحضور بل تكون الواجبة مقرونة بأغاسنه مقبلة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع بركتهم آمين

[ الباب الثالث ]  
والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها  
حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزبي قال أخبرتنا كريمة الروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي

وأخيه أوصديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار<sup>(١)</sup>. وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام قفلة ما كان حاله حيث وضعت في قبرك قال أتاني آت بشهاب من نار فلو أن داعيا دعالي لرأيت أنه سيضربني بهومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي «شهدت أبا أمانة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ثم ليل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا ثم ليل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا رحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنت رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن إماماً فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجة ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى حواء<sup>(٢)</sup>» ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحدا قال: كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرني مبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن الجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحد فارجم إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد ابن أحمد اللوزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب والعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة فزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فسمعت ثم تفتت فإذا صاحب القبر يشتكي يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا تقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خير أقرهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمقصود من زيارة القبور للزأر الاعتبار بها والعزور الاتساع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزأر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإعما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف بيعت من قبره وأنه على القبر سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت في كثرة اتيانها للمقابر

الكشميني قال أنا أبو عبد الله محمد بن يوسف القريبي قال حدثنا أبو عبد الله محمد ابن اسمعيل بن ابراهيم البخاري قال حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال أخبرني محمد بن ابراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول على النبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

(١) حديث مالك في قبره إلا كالفرق الغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال شهدت أبا أمانة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف .

قالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإنى لآنى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجنان الهممة فيألفها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنسل مرارتها للأفقس وأشد تلقها للأبدان بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لورأتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الحدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وخرج الصديد من الفم وافتتح الفم وتأتا البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت ولا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تدعوه» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار تحسبهم ما هم فيه» (٣) وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أنثيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أنثيتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء لله في الأرض» (٤) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن العبد لم يوت فيئى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبيدى وتجاوزت عن عيسى في عيسى» (٥)

(الباب السابع في حقيقة اللوت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور)

(بيان حقيقة اللوت)

اعلم أن للناس في حقيقة اللوت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن اللوت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم باللوت ولا تألم بقاب ولا يتنعم بثواب مادام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم باللوت وإنما للثاب والمعقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تدعوه فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا في الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلطف هلكاكم وذكره لإفادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن العبد لم يوت فيئى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبراته الأدنين بخير لإقال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادى على ما علموا وغفرت له ما علم.

(الباب السابع في حقيقة اللوت وما يلقاه الميت في القبر)

كانت هجرته إلى دنيا  
يصيبها أو إلى امرأة  
يشكها فهجرت إلى  
ما هاجر إليه النية  
أول العمل وبجسبها  
يكون العمل وأهم  
ما لمريد في ابتداء  
أمره في طريق القوم  
أن يدخل طريق  
الصوفية ويتزيا  
بزيهم ويجالس طائفتهم  
لله تعالى فإن دخوله  
في طريقهم هجرة  
حاله ووقته. وقد ورد  
«للهاجر من هجر  
مانها الله عنه» وقد  
قال الله تعالى - ومن  
يخرج من بيته  
مهاجرا إلى الله ورسوله  
ثم يدركه اللوت فقد  
وقع أجره على الله -  
فالمريد ينبغي أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال قِطْط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطلش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباد الله وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطيل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة للمدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هى المستعملة لها وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الانسان العلوم وآلام النعموم ولذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والنعموم ولا بطل منها قبولها للآلام والذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام والذات وذلك لا يموت أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية . نعم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلماؤه وذوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الانسان وبين أن يسلب الانسان من هذه الأشياء فان اللؤلؤ هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحدى الحالتين ، وإنما معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شئ يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقتها بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت مسعاده إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثانى أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً - وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الراد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادى عن جعفر الخلى قال سمعت الجنييد يقول أكثر العوائق والحوائل والوانع من فساد الابتداء فالمرید فى أول سلوك هذا الطريق يحتاج

بمفارقة بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا مطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحرمة اعتياده على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريمة قد دونت فيها جميع فواحته وجنایاته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغور على حرمه ومنتم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا للأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والحجلة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر للغتر بالدنيا للمطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الحزى والافتقار وهتك السترا عظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند اللوت شاهداً وأولوا البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة اللوت إذ لا يعرف اللوت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربى (١) » فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه وإنما للأذون فيه ذكر حال الروح بعد اللوت وبدل على أن للوت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل كثير : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولما قتل صناديل قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فقل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فقل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفة بقاء والآية نص في أرواح الشهداء ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن للوت معناه تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند اللوت من غير تأخر وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اللوت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة للقيامة من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

إلى إحكام النية وإحكام  
النية تنزيهاً من  
دواعي الهوى وكل  
ما كان للنفس فيه حظ  
عاجل حتى يكون  
خروجه خالصاً لله تعالى .  
وكتب سالم بن عبد الله  
إلى عمر بن عبد العزيز  
اعلم يا عمر أن عون الله  
للعبد بقدر النية فمن  
تمت نيته تم عون الله له  
ومن قصرت عنه نيته  
قصر عنه عون الله  
بقدر ذلك . وكتب  
بعض الصالحين إلى  
أخيه أخلص النية في  
أعمالك يكفك قليل  
من العمل ومن لم يهتد  
إلى النية بنفسه يصحب  
من يعلمه حسن النية .  
قال سهل بن عبد الله  
التستري أول ما يؤمر به

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - ويسئلونك عن الروح - وقد تقدم (٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس للوت القيامة من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في اللوت بأسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالعداة والعشى الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

وعن أبي قيس قال كنا مع علقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة (١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فإن لم يمت قال يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا اللؤمن والموت إطلاق اللؤمن من السجن وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من تخاف عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا يذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم والذات وأكل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا وبالآخرة والبايع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقته وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا أعظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كأقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك يا جابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى أبشرك الله بالخير فقال إن الله عز وجل قد أحياك وأقامه بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيك فقال يارب ما عبدتك حق عبادتك أتعنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع (٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن اللؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثاله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب

للريد البتدى التبرى  
من الحركات المذمومة  
ثم النقل إلى الحركات  
المحمودة ثم التفرد  
لأمر الله تعالى ثم  
التوقف في الرشد ثم  
الثبات ثم البيان ثم  
القرب ثم النجاة ثم  
المصافاة ثم الموالاة  
ويكون الرضا والتسليم  
مراده والتفويض  
والتوكل حاله ثم بمن  
الله تعالى بعد هذه  
بالعفة فيكون مقامه  
عند الله مقام التبرئين  
من الحول والقوة  
وهذا مقام حملة العرش  
وليس بعده مقام  
هذا من كلام سهل  
جمع فيه ما في البداية  
والنهاية ومتى تمسك  
للريد بالصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا فان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك يا جابر الحديث وفيه إن الله أحيا أبك فأقامه بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت بأسناد فيه ضعف وللتزمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أبك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه قال يا عبدى تمن على أعطك قال يارب تحبني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون.



إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه<sup>(١)</sup>» ففرقك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع يحب أن يرجع إلى مكانه<sup>(٢)</sup>» وكذلك المؤمن بمجرد من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه<sup>(٣)</sup>» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مربنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فوارها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً وإنما الأرواح التي تعاقب وتتاب إلى يوم القيامة وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفونونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلّة تذهب حيث شامت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على النبي يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فآله الله في إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم<sup>(٤)</sup>» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور<sup>(٥)</sup>» ولله ذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً آخرى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال في حواصل طير بيض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنازي مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة بافظ مرّ عليه بجنّازة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده الصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فآله الله في إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن مالك من رواية مالك بن أدّى عن النعمان من قوله الله ورواه بكاه لأزدي في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكاه في ترجمة ابن اسمعيل السكوني رواية عن مالك بن أدّى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزدي لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدّى (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والمحاملي باسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس أن أعمالكم تعرض على أنفابكم وعشائركم من الأموات الحديث .

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الخلق فشكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكل إيمان للرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغراً» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بآدابهم - قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليأزم

صلى الله عليه وسلم يقول «إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره»<sup>(١)</sup>. وقال صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح اللوتى للروح التي تخرج إليهم كيف كان مآلهم وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا أتاهم الميت قالوا مفضل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم فيقولون إن الله وإنا إليهم راجعون سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد : إن الرجل ليشر بصلاح ولده في قبره وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن نفس اللؤم إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبل قالوا إن الله وإنا إليهم راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية»<sup>(٢)</sup>.

( بيان كلام القبر للبت )

وكلام اللوتى إما بلسان القتال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم اللوتى من لسان القتال في تفهيم الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم آتى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك في إذ كنت تمرى فذاذا فان كان مصلحا أجاب عنه نجيب القبر فيقول أ رأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إني إذا تحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصدر روحه إلى الله تعالى»<sup>(٣)</sup> والفتن الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسر الرواية . وقال عبيد بن عمير الليثي ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والافتراء فان كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نعمة أنا الذي من دخلي مطيعا خرج مسرورا ومن دخلي عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من اللوتى أيها للتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فيما مبرأ أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة أمارأت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في الملة فهلا استدركت ما فات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها للغر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا تهاده أحتجته إلى التزل الذي لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشي بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله ؟ فقالت أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأهل والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله

(١) حديث أبي سعيد الخدري إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن نفس اللؤم إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفع ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم آتى بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج التميمي بإسناد ضعيف.

الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصدق يهdy إلى البر» ولا بد للمريد من الخروج من الملك والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شيء للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية . قال زيد بن أسلم : خصلتان هما كمال أمرك تصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطلال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قل وتأتية ملائكة الرحمة ففرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعث الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيق وتقي وهولي ودودي لماذا أعددت لي (١) » .

( بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير )

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفُتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروء ما أعددت له من الكرامة فأتى وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مديري حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبى محمد ﷺ قال فيتهراته انهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى - يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريعا إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فيجزاك الله خيرا قال ثم يتنادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرايل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لهنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله ساء ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروء ما أعددت له من الشر إني وعدته - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مديري حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا دريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الرائحة قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عملك الحبيث والله إن كنت لسريعا في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يسمع وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه .

لا تهم لله بمصيبة وتسمى  
ولا تهم لله بمصيبة فإذا  
أحكم الزهد والتقوى  
انكشفت له النفس  
وخرجت من حجبها  
وعلم طريق حركتها  
وخفى شهوراتها  
ودسائسها وتلبساتها  
ومن تمسك بالصدق  
قد تمسك بالعروة  
الوثقى . قال ذوالنون  
الله تعالى في أرضه  
سيف ما وضع على شيء  
إلا قطع وهو الصدق  
وتقل في معنى الصدق  
أن عابدا من بني  
إسرائيل راودته  
ملكة عن نفسه ،  
فقال اجعلوا لي ماء في  
الحلاء أتتظف به ثم  
صعد على موضع في  
القصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شراً ثم يفيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن علي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أته اللاتكة بحرية فيها مسك وضائر الرياحن فتسل روحه كأنسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس اللطمة اخرجي راضية ومرضا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والرياحن وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أته اللاتكة بمسح فيه جمرة فتززع روحه انزعاضاً شديداً ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيئاً ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين (٢) » وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فارتكبت - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتفرس الغراس وتبني البنيان وتشقى الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحاً فارتكبت قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن في قبره في روضة خضراء وبرج له في قبره سبعون ذراعاً ويضئ حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فماذا أنزلت - فإن له معيشة ضنكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيماً هل تدرون ما التين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلجسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون » ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق للذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات فإن لها أصولاً معدودة ثم تنشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤدي إلى إنباء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانعصاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأما هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم . فإن قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكساً رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكامله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجة مختصراً (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضر أته اللاتكة بحرية فيها مسك وضائر الرياحن الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز باقظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء وبرج له في قبره سبعون ذراعاً الحديث ورواه ابن حبان

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدي قال فزمنه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا قهقيل لإبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه ومأبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لا تستصحب النفس وتنجب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلغ في الليث ولكنك لا تشاهد ذلك فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور للكونية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم المسكوت أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فإن كنت لا تؤمن بهذا فصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا يجوز هذا في الليث وكما أن لللك لا يشبه الآدميين والحیوانات فالحيات والعقارب التي تلغ في القبر ليست من جنس حيات العالم بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى [ للقام الثاني ] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حياة تلغ فيه وهو تألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد يزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حو اليه حياة والحياة موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنك في حقك غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللغ فلا فرق بين حياة تخيل أو تشاهد [ للقام الثالث ] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاها منها هو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فهو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكن العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لانه هذه الصفات للمهاككات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام للحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت العشق فإنه كان لهذا فطرات حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتنع عنه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الليث فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارنه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشدد عذابه ويمتنع ويقول ليه لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا تأذي بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتمتع به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبدا لا يباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يمتد به إذا لا يتبع نار القراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوه واشتطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبدا لا يباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلغ عنه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب ، فاذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ووجهه للفرس هو الذي يلغ فيه إذا أخذ منه فرسه فليستعد لهذه اللدغات فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق  
النفس لا لله بغير نية  
صالحة صار ذلك وبالاً  
عليه وقد ورد في الخبر  
«من تطيب لله تعالى  
جاء يوم القيامة وريحه  
أطيب من السك الأذفر  
ومن تطيب لغير الله  
عز وجل جاء يوم  
القيامة وريحه أنق  
من الحيفة» . وقيل  
كان أنس يقول طيبوا  
كفى بمسك فان ثابتا  
يصالحني ويقبل يدي  
وقد كانوا يحسنون  
اللباس للصلاة متقربين  
بذلك إلى الله بنيتهم  
فالمريد ينبغي أن يتفقد  
جميع أحواله وأعماله  
وأفواله ولا يباح  
نفسه أن تتحرك  
بحركة أو تتكلم  
بكلمة إلا الله تعالى

من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حيّ فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قدينا أن المعنى الذي هو للدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت إذ قد انسدت عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذن كل قبيص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشقّ عليه لو أخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا في الدنيا سلم وهو للعنى بقولهم نجا المخفون وإن كان مثقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو للعنى بقوله صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين» (١) ومامن شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حيرة عليك بعد الموت فان شئت فاستكثر وإن شئت فاستقل فان استكثر فلست بمستكثر إلا من الحيرة وإن استقلت فلست تخفف إلا عن ظهرك وأمتاكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدريّ ابنا له قد مات في المنام فقال له يا بني عظمي قال لا تخالف الله تعالى فيما يريد قال يا بني زدني قال يأتى لا يطيق قال قل قال لا تحمل بينك وبين الله قبيصا فالبس قميصا ثلاثين سنة . فان قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث . فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به وبألفه وذلك جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره ، هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز طي بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا والذي أوصيك به أن لا تنكر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطانا وحبسه ليقطع يده ويجمع أهله فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

( بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر )

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللاخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم فسخ له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له نعم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقال له نعم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقا قال لأدري كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا لنعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده أصلا .

وقدر أينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا أكل هذه اللقمة لله تعالى ولا ينفع القول إذا لم تكن النية في القلب لأن النية عمل القلب وأما اللسان ترجمان فما لم تشتمل عليها عسرة القلب لله لا تكون نية . ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال هات للدرى أراد الليل ليفرق شعره فقالت له امرأته أجيء بالمسدرى والمرأة فسكت ثم قال نعم فقال له من سمعته سكت وتوقفت عن المرأة ثم قلت نعم فقال إني

أنت تقول ذلك ثم يقال للأرض التثمي عليه فتلتم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك قعاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك قعاسوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يملأوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك أنك قناتا القبر منكروا ونكروا أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويحضان القبر بأنبياهما فتلتلاك وترترك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عتلى الآن ؟ قال نعم قال إذن أكيفيهما (٢) » وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مدركاً بالآلام والذات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل للدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا يتقسم في نفسه هو الدرك للأشياء ولو تأثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا يتقسم لكان الإنسان العقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت فإن ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسقط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لا تراه فتقيه ولا تسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فإن أتاه من قبل رأسه جاء قرأته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت الديدان والله لقد كان يسقطني للصدقة والدعاء لاسيلى لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعك فعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أمحبابك . وعن حذيفة قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجح منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففسادنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه قهقراً يا رسول الله رأينا منك شيئاً ثم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأبليت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك قعاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا أمر سلا ورجاله ثمات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً . قلت ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أريد أن أعقولنا فقال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بنيفه الحبر (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجح منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدي  
بنية فلما قالت والمرأة  
لم يكن لي في المرأة نية  
فتوقفت حتى هبأ الله  
تعالى لي نية فقلت  
نعم وكل مبتدئ  
لا يحكم أساس بدايته  
بمهاجرة الآلاف  
والأصدقاء والمعارف  
ويتعسك بالوحدة  
لا تستقر بدايته ، وقد  
قل من قلة الصدق  
كثرة الخطاء وأقع  
ماله لزوم الصمت وأن  
لا يطرئ معه كلام  
الناس فإن باطنه يتغير  
ويتأثر بالأقوال المختلفة  
وكل من لا يعلم كمال  
زهده في الدنيا ويمسكه  
بحقائق التقوى  
لا يرفقه أبداً فإن عدم

قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين (١) .

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام )

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلاً فانا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من المتقين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه وإذامات قد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملوكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصرها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملوكوت مالم تنفث تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة منقطة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظر وإلى الملوكوت وشاهدوا عجائبه والموتى في عالم الملوكوت فشاهدوهم وأخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعد بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه الشهادة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم وإنما الممكن من أمثاله مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعني بها الشهادة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٣) » وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التهمة والتكلمة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) وقلمنا يخاو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة آدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملوكوت والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقمة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة )

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجك فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابداء كالشمع تقبل كل نقش وربما استقر المبتدىء بمجرد النظر إلى الناس ويستقر بفضول النظر أيضاً وفضول الشيء فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ثم يبقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز فان علم الناس منه بذلك أضرب عليه من فعله ولا يستحق فضول



علاوة على علم العاملة ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك للتصود وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تراه في الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة بالروح وتارة بالكتاب للبين وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن لجميع ماجرى في العالم وما يسجى مكتوب فيه، ونقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثالا يقر به إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير في اللوح بظاهري ثبوت كليات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حروفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح متقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاء اللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلو وضع في مقابلة للآلة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تراه في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومتنقضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعت تارة في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وتثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورد الحواس عليه فلا تورد على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال الملكوت، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورد على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يتدبره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج للعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني المناسبة التي بين المتخيل والمعاني وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير وبكفك مثالا واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن يدي خاتما أختم به أنوار الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإعما يشكف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالختم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار الناس يعرف ما سيكون في المستقبل فإذا تراه في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنسكال والحازي والنضائح نموذجاته من ذلك وإماما كنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخره وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء - لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - ويقال - أفسح هذا أم أتم لا تبصرون أصاها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليهم الإشارة بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون -

المشي فان كل شيء من قول وفعل ونظر وسماح خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ثم يجر إلى تضيق الأصول. قال سفیان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول فكل من لا يمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم وحق تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيئا بعد شيء قال سهل بن عبد الله من لم يعبده الله اختيارا يعبد الخلق اضطرابا وينفتح على العبد أبواب الرخص

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء يتكلم له عقيب اللوت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذيرفع وما الذى ينكشف عنه النطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرياتنا بأعضائنا وممنا وبصرنا مع أننا لم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من يفت روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فلا جرم لما كان ذلك مكشوفه لعين اليقين كان في الدنيا كما يرسل لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة (٢) ولم يخلف دينارا ولا درهما (٣) ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال «لو كنت متخذنا نبيلا لاتخذت أبابكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن» (٤) فيبين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال لأمتة - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبك الله - فأتبعنا أمتة من أتبعه وما تبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة بقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلك سبيله الذى سلكه وبهدر ما سلك سبيله فقد أتبعته وبهدر ما أتبعته فقد صرت من أمتة وبهدر ما أتبعته على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها والتحق بالذين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى - فلو خرجت من مكن العرور وأنصفت نفسك يا رجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبغ إلى حين تمسى لانسى إلا فى الحظوظ العاجلة ولا تحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم طمع أن تكون غدا من أمتة وأتباعه ما بعد ظنك وما أبرد طمعك - أفجعل للسلين كالجحيم من مالكم كيف تحكمون - ولترجع إلى ما كنا فيه وبصده قد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال اللوتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت البشرات وليس ذلك إلا اللامات.

( بيان منامات تكشف عن أحوال اللوتى والأعمال النافعة في الآخرة )

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى فى المنام فقد رأى حقا فان الشيطان لا يتمثل بي» (٥) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فرأيت لا ينظر إلى قلعت يارسل الله ماشأتى فالتفت إلى وقال ألسنت القبل وأنت صائم قال والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضى الله عنه كنت ودا العمر فاشتهت أن أراه فى المنام فما رأيت إلا عند رأس الحول فرأيت يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيت رءوفا رجيا . وقال الحسن بن طي قال لى طي رضى الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لى الليلة فى منامى قلعت يارسل الله ما لقيت من أمتك قال ادع عليهم قلعت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فصر به ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعت يارسل الله استغفر لى فأعرض عنى قلعت يارسل الله إن

- (١) حديث إن روح القدس نفث فى روعى أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة أيضا (٣) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما تقدم أيضا (٤) حديث لو كنت متخذنا خليلا لاتخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم أيضا (٥) حديث من رأى فى المنام فقد رأى حقا فان الشيطان لا يتخيل بى متفق عليه من حديث أبى هريرة .

والانواع وبهالك مع الهالكين ولا ينبغي للبتدى أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا فان معرفته لهم سم قاتل . وقد ورد «الدنيا مغبوضة الله فمن تمسك بحبل منها قاده إلى النار» وما حبل من حبالها إلا كآبائها . والطالين لها والمحبين فمن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى ويحترز المبتدى عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار فانه يدخل عليه منهم أثر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن عبد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل على فقال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يرني إياه في المنام قال فرأيت يلهب ناراً فسألته عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعنت وليدة لي فرحاً به فأثاني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمان الله أبالك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فداخلني من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبتني عينى قممت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثويني أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال قم فقد بيض الله وجهه إليك قلت له من أنت بأبي أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهم جالسان عنده فسلمت وجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلاني بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول قضي لي ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً في لسانك هذا أوردني الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

( بيان منامات للشيخ رحمه الله عليهم أجمعين )

قال بعض المشايخ رأيت متعماً الدورقي في المنام فقامت بإسدي ما فعل الله بك فقال ديرني في الجنان فقيل لي يا متعم هل استحسنيت فيها شيئاً قلت لا بإسدي فقال لو استحسنيت منها شيئاً لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لي قبل بماذا قال ما خلطت جداً بهزل وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله البزار في النوم قلت ما فعل الله بك قال أوقفني بين يديه فقفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فاني استحييت أن أقر به فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي قلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقهاء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فزل ملكان أحدهما بيده طشت ويد الآخر إبريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل بيده ثم أمر حق غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

للتعبدن وأن أرباب  
الأحوال ارتقوا عن  
ذلك . وينبغي للفقير  
أن يقتصر على القرائن  
وصوم رمضان لحسب  
ولا ينبغي أن يدخل  
هذا الكلام معه رأساً  
فانا اخترنا ومارسنا  
الأموال كلها وجالسنا  
الفقراء والصالحين  
ورأينا أن الذين يقولون  
هذا القول ورون  
القرائن دون  
الزيادات والنوافل  
تحت القصور مع كونهم  
أصحاء في أحوالهم فعلى  
العبد التمسك بكل  
فريضة وفضيلة فبذلك  
يثبت قدمه في بدايته  
وبراعى يوم الجمعة  
خاصة ويجعله لله تعالى  
خالصاً لا يمزجه بشيء

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فانه ليس منهم فقامت يارسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت « للرمع من أحب » قال بلى قلت يارسول الله فأنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فانه منهم وقال الجنيد رأيت في المنام كأنى أتكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا قامت عمل خفي بيزان وفي قولي الملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤى مجمع في النوم قبيل له كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهدن في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فصمت منه فأشخص رجلا يقتلني . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر للؤمن ولا تنره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما فقلت في أي الدرجات أنت - فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية . وسئل زرارة بن أبي أوفى للناس أي الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور رأيت الأوزاعي في المنام فقامت يا أبا عمرو دلتني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة الحزوين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عينة رأيت أخي في المنام فقلت يا أخي ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال علي الطلحي رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجي نفسك قالت اخطني إلى سيدي وأمهرني قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتنا وقال إبراهيم بن اسحق الحربي رأيت زبدة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفرت لي بنيتي ولما مات سفيان الثوري روى في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الحواري رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأل وجهها نورا فقلت لها لماذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهي فمن ثم ضوء وجهي كما ترى وقال السكتاني رأيت الجنيد في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك المبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل ورؤيت زبدة في المنام فقلت لها ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أخلجها وحدي لا إله إلا الله ألقي بها ربي ورؤى بشر في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال رحمني ربي عز وجل وقال يابشر أما استحيت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف ورؤى أبو سلمان في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال رحمني وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر السكتاني رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له من أنت قال التقوى قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم النفث فاذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعمهدت أن لا أضحك إلا غلبة وقال أبو سعيد الخزاز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرج منها فهتف بي هاتف إن هذا لا يخاف من هذه وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحي رأيت إبليس في النوم يمشي عريانا فقلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخزاز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي

من أحوال نفسه  
ومآربها ويسكر إلى  
الجامع قبل طلوع  
الشمس بعد الغسل  
للجمعة وإن اغتسل  
قريبا من وقت الصلاة  
إذا أمكنه ذلك فحسن  
قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم « يا أبا  
هريرة اغتسل للجمعة  
ولو اشتريت الماء  
بعشائك وما من  
نبي إلا وقد أمره  
الله تعالى أن يغتسل  
للجمعة فان غسل  
الجمعة كفارة للذنوب  
ما بين الجمعةين » ويستغل  
بالصلاة والتضرع  
والدعاء والتلاوة وأنواع  
الأذكار من غير فتور  
إلى أن يصلي الجمعة  
ويجلس معتكفا في

صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فاجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدرى فقال شر هذا أكثر من خير. وعن ابن عينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لئلا هذا فيعمل العاملون قتلته أو صنى قال أقلل من معرفة الناس وزوى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري قتلته ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد  
قد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميد  
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلي بعد موته بثلاثة أيام قيل له ما فعل الله بك قال ناقني حتى أيسر فلما رأى بأسى تهمدني برحمته ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته في المنام قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على المحبين ورؤى الثوري في المنام قيل له ما فعل الله بك قال رحمني قليل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو بمن يبلغ على ربه في كل يوم مرتين ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال: حاسبونا فدفقوا ثم منوا فأعتقوا ورؤى مالك بن أنس قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنائز سبجان الحى الذى لا يموت ورؤى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة وكأن مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض ورؤى الجاحظ قيل له ما فعل الله بك فقال :

ولا تكتب بخطاك غير شئ يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يفرنك حديث الحديث ورؤى النصراباذى بكه بعد وفاته في النوم قيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعدا الاتصال انفصال قتل لا إذا الجلال لما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنالك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لارجعة لى عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى البيت بعضهم في المنام قيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب- قل لو أنتم على كل خزان رحمة ربي إذ ألامسكم خشية الاتفاق- وقال بعضهم رأيت في الليلة التى مات فيها داود الطائى نوراً وملائكة نزولاً وملائكة صعوداً فقلت أى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرقت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلاً الصعلوكى في المنام قتلته أيها الشيخ قال دع الشيخ قال تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تنعن عنا قتلته ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجوز وقال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسي المعلم في النوم فقال لي قل لأبي سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كست أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مات نال بلى فأت فاصنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال يخ يخ ذاك - من الدين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمه الله عليه بعد وفاته في المنام قتلته بأب عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى  
فرض العصر وبقية  
النهار يشغله التسبيح  
والاستغفار والصلاة  
على النبي صلى الله عليه  
وسلم فانه يرى بركة  
ذلك في جميع الأسبوع  
حتى يرى ثمرة ذلك  
يوم الجمعة وقد كان من  
الصادقين من يضبط  
أحواله وأقواله وأفعاله  
جميع الأسبوع لأنه يوم  
المزيد لكل صادق  
ويكون ما يجده يوم  
الجمعة معياراً يعتبر به  
سائر الأسبوع الذى  
مضى فانه إذا كان  
الأسبوع سليماً يكون  
يوم الجمعة فيه مزيد  
الأنوار والبركات وما يجد  
في يوم الجمعة من الظلمة  
وسامة النفس وقلة

قال أجلسنى على كرسى من ذهب وشر على الأول والرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القارى الدقيقى رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرنى فأتيته فقلت أوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ثم ولى وتركنى وقال أبو بكر بن أبى صريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرأها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعم ولا نعمل ونعملون ولا تعلمون والله لتسيحجة وتسبيحتان أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة فى المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت بإحدى المضلين وياراحم المذنبين وبما قيل عثرات الماثرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء للرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثورى فى الجنة يطير من غصاة إلى غصاة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله سمعت هذا فقال بالورع قلت فعا بال على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا كبرى الكوكب ورأى رجلا من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يا رسول الله عطى قال نعم من لم ينفق النقض فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمنى فى هذه الأيام أمر أمضى وألمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لأملك لنفسى نقما ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتى ولا أتقى إلا ما وقيتى اللهم فوقى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية فلما أصبحت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فليكن هذه الدعوات لا تنفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال اللوتى وعلى الأعمال القريبة إلى الله زلفى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي الوقت من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[ الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار ] وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساليبها وصفة النساء عن الذنوب وصفة اللزبان وصفة الحصاة ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الخوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والودان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

( صفة نفخة الصور )

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

( الشطر الثانى من وقت نفخة الصور )

لا تشراح قلما ضيع فى الأسبوع بقرق ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس للناس اما للرفع من الثياب أو ثياب للتقشفين ليرى بعين الزهد قصى لبس للرفع للناس هو وفى لبس الحشن رياء فلا يلبس إلا لله . بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية الله فلا غيره فألبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا بد للبتدى أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه في حفظ

وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد وإما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها إيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثرت الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهرير هاهنا ما تكتنفه من المصاعب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفأت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتناوله كان مصداقاً لبسائه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذيبه فقول له لن يعيدني كأبداني (١) » وإنما قور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة القدرة مثل هذا آدمي الصور العاقل التكلم التصرف لا شتد قور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى - وأولم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فاذا هو خصيم مبين - وقال تعالى أبحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نقطة من مني يعني ثم كان علقه غلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - في خلق آدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب بعته وإعاداته في كيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعه وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف قو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثله وأسهل منها وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولا فيما يقرع مع سكان القبور من شدة نفخ الصور فإنها صبيحة واحدة تفرج بها القبور عن رؤس الموتى فيثورون دفعة واحدة قوم قسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصمعة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من المغموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى - ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون - وقال تعالى - فاذا قر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير - وقال تعالى - ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صبيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتقى فإنها نفخة وصبيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أتم وصاحب الصور قد التهم القرن وحنى الجبهة

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصغى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فإنه يجد تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما ينبغي بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم الريد ذكر واحد ليجمع لهم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيد التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد فاذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر مصانعة وينزل من التلاوة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ <sup>(١)</sup> « قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرائيل عليه السلام واضع يده على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صعد من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرائيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرائيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة <sup>(٢)</sup> » فتفكر في الخلائق وذلم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كنتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفهين والأغنياء للتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحققرهم يوطئون بالأقدام مثل الثور وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رءوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أقبلت الشياطين للردة بعد تمردها وعدوها وأذعنت خاشعة من هيئة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحشرنهم حول جهنم جثيا - فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك .

#### ( صفة أرض المحشر وأهله )

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصاف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ولا ترى عليها ربوة تخفى الإنسان وراءها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليهم زمرا فسيحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالرافعة تتبعها الرادفة والرافعة هى النفخة الأولى والرادفة هى النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد <sup>(٣)</sup> »

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحتى الجبهة الحديث الترمذى من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة يختلف فيه (٢) حديث حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرائيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرائيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخارى ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان وإسنادهما جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد

إلى الله كره فانه أخف على النفس وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحشر الوسواس وحديث النفس فانه مضر وداء عضال فيطالب نفسه أن تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم



قال الراوى : والعفرة يياض ليس بالناصع والنفى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لآبناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا فى الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدند الأديم العكاظى أرض يضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسه وقمرها ونجومها فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدة فاته إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تآثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لمخود سراجها فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشتت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ولللائكة قيام على حافاتها وأرجائها فياهول صوت انشقاقها فى سمك وياهيبة ليوم تشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة الذابة تحالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالملهل وصارت الجبال كالعين واشتبك الناس كالقراش للبيوت وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان . قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأنا ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) » فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (٢) » فى طبع الآدمى إنكار كل مالم يأمن به ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور الشئ على غير رجل وللشئ بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تسكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل للشاهدة لكنت أشد إنكارا لها فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوبا ذليلا مدحورا متجريا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

#### ( صفة العرق )

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشیطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا القربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضجحر الشمس قد صهرت بهجرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلهم من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان قالت سودة راوية الحديث واسوأنا الحديث الثعلبي والبعوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأناه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأناه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أرباب للشاهدة . قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة فليتمسك للريد بهذه الأصول وليستعن بدوام الاقتدار إلى الله فبذلك ثبات قدمه . قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والاقتدار إلى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون اقتداره إلى الله فدوام الاقتدار إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الحجلة والحياء من الاقتضاح والاختراخ عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحرّ الأتقاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه<sup>(١)</sup>» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعوا يلجمهم ويبلغ آذانهم<sup>(٢)</sup>» كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح وفي حديث آخر «قيامًا شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب<sup>(٣)</sup>» وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ غنقه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه، وأشار بيده فألجمها فاه، ومنهم من يغطي العرق، وضرب بيده على رأسه هكذا<sup>(٤)</sup>» فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بمد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج العتب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكسر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمنا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

#### (صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شرربة ولا يجدون فيه رويح نسيم . قال كعب وقناة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم<sup>(٥)</sup>» وقال الحسن ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجاه في الصحيحين كما ذكره للصف (٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يعتمد الكذب لكن له تشبه عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمر مروا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمرو ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم وهذا الافتقار مع كل الأتقاس لا يشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تقب خيرا قطعا علنا ذلك وتحققناه . وقال سهل من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا ينيه وتركه ما ينيه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه الدار ثم رجع إلى

لأيا كلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لقمها فلما بلغ المجهود منهم ما لاطافة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي شغلني أمرى عن أمر غيرى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن العاصي في عمرك المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فانه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذى نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة للكتوبة يصلها في الدنيا» (١) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام يبق لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال ترج ربنا لا منتهى لسروره واستحق عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقبدره خمسون ألفا لكان ربك كثير أو تبك يسيرا .

( صفة يوم القيامة ودواهي وأساميه )

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه للديد زمانه القاهر سلطانه القريب وأوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والكواكب من هولاء قد انثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والبشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نمفت ، والأرض قد مديت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت في زلزالها ، وأخرجت الأرض أنهارها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانثقت السماء فهي يومئذ واهية ، وللك على أرجائها ، ويحمل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفرش للبثوث وتكون الجبال كالهن للنفوس ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجمام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عمت من سوء تودلو أن ينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت . يوم تنخرس فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة للكتوبة يصلها في الدنيا أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لميعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لميعة وهو حسن ولا يبي على من حديث أبي هريرة بأسانيد جيد يهون ذلك على المؤمن كتنلى الشمس للغروب إلى أن تحرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفقه بلفظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله . كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال مالى وهذا  
السؤال وهل هذه  
إلا كلمة لاتعني وهل  
هذا إلا لاستيلاء  
نفسى وقلة أدبها وآلى  
على نفسه أن يصوم  
سنة كفارة لهذه  
الكلمة أبا الصديق نالوا  
مانالوا وبقرة العزائم  
عزائم الرجال بلغوا  
ما بلغوا . أخبرنا  
أبو زرعة بإجازة قال  
أنا أبو بكر بن خلف  
قال أنا أبو عبد الرحمن  
قال سمعت منصورا  
يقول سمعت أبا عمرو  
الأنطاقي يقول سمعت  
الجنيدي يقول لو أقبل  
صادق على الله ألف سنة  
ثم أعرض عنه لحظة  
لكان ما فاتته من الله  
أكثر مما ناله وهذه

وتتطرق الجوارح يوم شيب ذكره سيد الرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال «شيتنى هو دواخواتها»<sup>(١)</sup> وهى الواقعة للرسالات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛ فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة كتابك أن تجمع القرآن وتجرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد الرسلين وإذا قنعت بحر كذا اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثرها من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب فحمت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونعمن الآن نجعل لك أساميا . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم السدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الناشئة ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم اللأب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم العيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم الصبر ويوم النفضة ويوم الصيحة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفرع ويوم الجزع ويوم للتنهى ويوم للأوى ويوم لليقات ويوم لليعاد ويوم للرصاد ويوم للقلق ويوم للرقق ويوم للافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر للراء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم نارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفهم للعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأعلى الجحيم وزفرت النار ويئس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان فيا أيها الإنسان ما غرك ربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت الستور واستترت عن الخلاق قهارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فلويل كل الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد الرسلين وينزل عليه الكتاب اللين ونخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقربت الساعة

الجملة محتاج البتدى  
أن يحكمها والنهى  
عالم بها عامل بحقائقها  
فالبتدى صادق  
والنهى صديق قال  
أبو سعيد القرشى  
الصادق الذى ظاهره  
مستقيم وباطنه يميل  
أحيانا إلى حظ النفس  
وعلامته أن يجد  
الحلاوة في بعض  
الطاعة ولا يجدها في  
بعض وإذا اشتغل  
بالذكر نور الروح  
وإذا اشتغل بحفظ  
النفس يهجب عن  
الأذكار والصديق  
الذى استقام ظاهره  
وباطنه يعبد الله تعالى  
يسلوا الأحوال  
لا يجيبه عن الله  
وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيتنى هو دواخواتها والواقعة والرسالات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وانشق القمر - إنهم يرونه بنيدا وزاه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تدبر معانيه ولا تنظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميهِ ولا نستعد للتخلص من دواهيهِ فتعوز بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

( صفة المسألة )

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجان فتسئل عن القليل والكثير والتغير والقطير فينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظامها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام <sup>(١)</sup> فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وترام على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين بما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويغرون لأذقائهم خوفا من أن يكونوا هم للأخوين فهذا حال للقرين فما ظنك بالمصاة المجرمين وعند ذلك يادرأقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لحالهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لليبكهم عما توجه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفاء محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الله والحضوع وهيئة الخوف وللهاية لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين - وقوله - فوريك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء - يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيالشدّة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجيتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوهم الله تعالى فيدعي نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغت فيقولون ما أأتانا من نذير ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالمعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل للملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملائكة الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرقت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد بأقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه للقصور بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل اتقني بالنار فيجىء لها جبريل ويقول يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تنيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوبهة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر يالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثا على الركب

(١) حديث إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

ولا نوم ولا شرب  
ولا طعام والصديق  
يريد نفسه لله وأقرب  
الأحوال إلى النبوة  
الصديقية . وقال  
أبو يزيد : آخر  
نهايات الصديقين أول  
درجة الأنبياء . واعلم  
أن أرباب النهايات  
استقامت بواطنهم  
وظواهرهم لله  
وأرواحهم خلصت  
عن ظلمات النفوس  
ووطئت بساط القرب  
ونفوسهم متقادة  
مطوعة سالحة مع  
القلوب محيية إلى كل  
ما تحب إليه القلوب  
أرواحهم متعلقة  
بالمقام الأعلى انطفاة  
فيهم نيران الهوى  
وتنمخ في بواطنهم

ولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جاثية - وسقط بعضهم على الوجوه منسكين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السمداء والأشقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبت فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة فقر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا ، قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا ، قال فوالذي نفسى بيده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجه وأسخر لك الخيل والابل وأذكرك رأس وتربح فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا ، فيقول فأنا أنساك كما نسيتي (١) » فتوهم نفسك بامسكين وقد أخذت الملائكة بعصديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب قعيا ذا أبلته ألم أمهل لك في العمر قعيا ذا أفنيته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيما ذا أفقته ألم أكرمك بالعلم فإذا عملت فيها علمت فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضى الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فاني لا أجزى على نفسى إلا شاهدا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنبط بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بدا لكن وسحقا فعنكن كنت أنا ضل (٢) » فنعوذ بالله من الافتضاح على ملائحة الخلق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم (٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة (٤) » فهذا الإنعازجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك ليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض فيكشفك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقادف وذاك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم وقدر

صريح العلم وانكشف  
لهم الآخرة كما قال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم في حق أبي  
بكر رضى الله عنه « من  
أراد أن ينظر إلى ميت  
يمشى على وجه الأرض  
فلينظر إلى أبي بكر »  
إشارة منه عليه  
الصلاة والسلام إلى  
ما كشف به من  
صريح العلم الذى  
لا يصل إليه عوام  
للمؤمنين إلا بعد الموت  
حيث يقال - فكشفنا  
عنك غطاءك فبصرك  
اليوم حديد - فأرباب  
التهابات ماتت أهولتهم  
وخلصت أرواحهم .  
قال يحيى بن معاذ وقد  
سئل عن وصف  
العارف فقال رجل

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بهما مسلم (٢) حديث أنس أتدرون من أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد القوس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوهم نفسك أنك في أيدي اللوكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن مني فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فكشف لك عن مساوئها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر ومحجز فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول ثم تفكر في عظم حياتك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذا يقول يا عبدي أما استحييت مني فبارزني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجليل أ كنت أهون عليك من سائر عبادي استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظري غيري ألم أنعم عليك فإذا غرك بي أظننت أنني لا أراك وأنت لا تلتقاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليتبأ أحدكم النار ولو بشق تمره فان لم يجد فبكلمة طيبة» (٢) وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا سيخبره الله عز وجل به كما نخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما علمت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيقا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيقا على أذنك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفماذا أنفق فاعظم بأمسكين بحياتك عند ذلك ويخطر بك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فخذ ذلك يعظم سرورك وفرحك وينبطك الأولون والآخرون وإما أن يقال له لا تسكنه خذوا هذا العبد السوء فقلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم يبق معك.

## ( صفة الليزان )

ثم لا تنفل عن الفكر في الليزان وتطير الكتب إلى الأيمان والشمال فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوي عليهم ويلقيهم في النار فتبتلهم النار وينادي عليهم شقاوة لاسعادة بعدها وقسم آخر لاسيئة لهم فينادى مناد ليقيم الحادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم سعادة لاشقاوة بعدها ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسنتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك لينبئهم فضله عند العفو وعده عند العقاب فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الليزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أقع في اليمين أو في الشمال ثم إلى لسان الليزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ إلا سيكلمه الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخاري من حديث عدي بن حاتم .

معهما بأن منهم وقال  
مرة عبد كان فيان  
فأرباب النهايات هم  
عند الله بحقيقته  
موقوفين بتوقيت الأجل  
جعلهم الله تعالى من  
جنوده في خلقه بهم  
يهدي وبهم يرشد  
وبهم يجذب أهل  
الارادة كلهم دواء  
ونظرهم دواء ظاهرهم  
محفوظ بالحكم وباطنهم  
معمور بالعلم . قال  
ذو النون علامة  
العارف ثلاثة لا يطنى  
نور معرفته نور ورعه  
ولا يستقد باطنا من  
العلم ينقض عليه ظاهرا  
من الحكم ولا يحمله  
كثرة نعم الله وكرامته  
على هتك أستار عظام  
الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنفس قد كرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فتقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسى بيده في ثلاثة مواطن فان أحدا لا يذكرك إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أينخف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط (١) » . وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى للملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابست بهت النار فيقول وكم بهت النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لحقيقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتا مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة (٢) »

#### (صفة الحسماء ورد للظالم)

قد عرفت هول لليزان وخطره وأن العين شاخصة إلى لسان الميزان - فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمة هائلة وما أدراك ما هي نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان - إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل اللوت توبة نصوحا ويستدرك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد للظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيّب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد للظالم أحاط به خصاؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلبيه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى وهذا يقول غلبتني فنششتني وهذا يقول يا بعتني فبعتني وأخفيت عني عيب سلعتك وهذا يقول كذبت في سعر

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابست بهت النار فيقول وكم بهت النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاهها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة على المؤمنين أعز على الكافرين وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون الشهوات تارة رقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذي يلطف بالشيء ويهدى له شيء لأنه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به وتارة يمنعون نفوسهم للشهوات تأسيا بالأنبياء واختبارهم الثقل من الشهوات الدنيوية قال



متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فما أطمعتني وهذا يقول وجدتي مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك وقد أنشبت الحصاء فيك مخالهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلة بغيسة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع صمك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - فعند ذلك ينخلع قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبور وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخركم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعين ردوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس - الآية فما أشد فرحك اليوم بمحضضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوقته بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من اللئس قلنا اللئس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال اللئس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصاؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلت أنه لا ينقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من للظالم في يوم يقتص فيه للجما من القراء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتحان قلت لا قال ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجما من القراء ثم يقول كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت ترابا فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتي فيقال تقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما فارقتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في البايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة ولذا كرة والدارسة وسائر أصناف للعامة .

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من اللئس ؟ قالوا اللئس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقديم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتحان قلت لا قال ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

عجي بن معاذ الدنيا  
عروس تطلبها ماشطتها  
والزاهد فيها يسخم  
وجهها وينف شعرها  
ويغرق ثوبها والعارف  
بالله مشغل بسيد  
ولا يلتفت إليها .  
واعلم أن للنهي مع  
كل حاله لا يستغنى أيضا  
عن سياسة النفس  
ومنع الشهوات وأخذ  
الحظ من زيادة الصيام  
والقيام وأنواع البر  
وقد غلط في هذا  
خلق وظن أن للنهي  
استغنى عن الزادات  
والتوافل ولا على قلبه  
من الاسترسال في  
تأول اللذات والشهوات  
وهذا خطأ لأن حيث  
إنه يحجب العارف  
عن معرفته ولكن

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليحیی يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهم سينجيته فما يزال عبد يحيى فيقول رب إن فلانا ظلمني بمظلة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ففرق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدي كل ذي حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطفة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غرا بهما قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار أن يدخل النار حتى أقتضه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة حتى أقتضه منه حتى اللطفة قلنا وكيف وإنما تأتي الله عز وجل عراة غرا بهما فقال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله خاصة بالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أبواب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القضاء وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأته يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي قال رجلان من أمتي جثا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يارب خذ لي مظلمتي من أخى فقال الله تعالى أعطاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يارب يتحمل عني من أوزاري قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة

يوقف عن مقام للزبد  
وقوم لما رأوا أن هذه  
الأشياء لا تؤثر فيهم  
قسوة ولا تورثهم حجة  
ركنوا إليها واسترسلوا  
فيها وقتعوا بأداء  
القراض واتسعوا في  
للأكل والشرب وهذا  
الانبساط منهم بقية  
من سكر الأحوال  
وتقيد بنور الحال  
وعدم التخلص  
بالكلية إلى نور الحق  
ومن تخلص من نور

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك المحقرات وهي الموبقات الحديث وفي آخره وإياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكته وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر الله العباد عراة غرا بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عيب الله ابن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غبرا لا مكان غبرا .

مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لؤلؤى نبي هذا؟ أولأى صدق هذا أولأى شهيد هذا؟ قال لمن أعطاني  
الثن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إني قد عفوت  
عنه قال الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله  
وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين <sup>(١)</sup> وهذا نصيبه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق  
الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتفكر الآن في نفسك إن خلبت صيغتك عن الظالم أو تلطف  
لك حتى عفائك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع  
عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار  
قلبك سرورا وفرحا وبيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم بتجرك بين الخلاق  
رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرتك ونضرة نسيم العيم ويرد الرضا يتلا لأمن جيبك وخلق الأولين  
والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك وللاشك يمشون بين يديك ومن  
خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد بسعادة لا يشقى  
بعدها أبدا أقرنى أن هذا للنصب ليس بأعظم من للكانة التي تالها في قلوب الخلق في الدنيا برائك  
ومداهتك وتصنعك وتزينك فان كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فتوصل إلى إدراك هذه  
الرتبة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به وإن تكن الأخرى  
والعباد بالله بأن خرج من صيغتك جريئة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة فتفتك لأجلها فقال  
عليك لعننى يا عبد السوء لا أقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تغضب  
لللائكة لغضب الله تعالى فيقولون وعلبك لعنتنا ولعنة الخلاق أجمعين وعند ذلك تنثال إليك الزبانية  
وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها النكرة فأخذوا بناصيتك  
يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزبك وأنت  
تتأدى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتتأدى لللائكة  
ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه وعجزه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد  
بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من  
الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا  
للمنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك اللأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق  
بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

( صفة الصراط )

ثم تفكر بعد هذه الأحوال في قول الله تعالى - يوم نحشر النقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين  
إلى جهنم وردا - وفي قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقهوههم إنهم مسئولون - قال الناس بعد هذه  
الأحوال يساقون إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن  
استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا  
وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أول قدم من الصراط وتهدى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع فهو أدرك  
إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شقيق النار ونظمتها  
(١) حديث أنس يينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأياه ضحك حتى بدت ثناياه فقال  
عمر ما أضحكك يا رسول الله بأبي وأمي قال رجلان من أمي جثيين يدي رب العالمين الحديث بطوله  
ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق  
يذهب عنه بقايا  
السكر ويوقف نفسه  
مقام العبيد كأحد  
عوالم المؤمنين يتقرب  
بالصلاة والصوم وأنواع  
البر حتى يماطه الأذى  
عن الطريق ولا  
يستكبر ولا يستكف  
أن يعسود في صور  
عوالم المؤمنين من  
إظهار الإرادة بكل  
بر وصلة فيتناول  
الشهوات وقها رقها

وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك ومثل ظهورك بالأوزار  
للناعة لك عن الشيء على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه  
إحدى رجلك فأحسست بحدته واضطرت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلق بين يديك يزولون  
ويتعشرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتسفل  
إلى جهة النار رءوسهم وتعالو أرجلهم فياله من منظر ما أنظعه ومرتهى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر  
إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلثفت يمينا وشمالا إلى الخلق  
وهم يتهاوتون في النار والرسول عليه السلام يقول «يارب سلم سلم» والزعقات بالويل والثبور قد  
ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلاق فكيف بك لو زلت قدمك  
ولم ينفعك ندمك فتأديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياقي باليتني  
اتخذت مع الرسول سيلا ياولتنا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا باليتني كنت ترابا باليتني كنت نسياما نسيا  
باليتني أمي لم تلدني ، وعند ذلك تختطفك النيران والعاذ بالله وينادي النادى اخسوا فيها ولا تسكهمون  
فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار  
بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت  
به مؤمنا وعنه غافلا وبلا استعداد له متهاونا فما أعظم خسارتك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا  
لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك الإهول الصراط  
وارتباع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فذاهيك به هولا وفزعاور عبا قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج من الرسل ولا يتكلم يومئذ  
إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلايب مثل شوك السعدان هل رأيتم  
شوك السعدان قالوا نعم يارسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمتها إلا الله تعالى  
تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بعمله ومنهم من يخرج دل ثم ينجو<sup>(١)</sup>» وقال أبو سعيد الخدري  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف  
تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق  
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من عشي مشيا ومنهم من  
يجبو جبا ومنهم من يزحف زحفا فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يتوتون ولا يحبون وأما ناس  
فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون نجما ثم يؤذن في الشفاعة<sup>(٢)</sup>» وذكر إلى آخر  
الحديث . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين  
لمقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث  
إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم  
نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من  
يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من  
ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخبو مرة فإذا أضاء  
قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس للمطهرة للزكاة  
للقادة للطوعة لأنها  
أسيرته وبعثها  
الشهوات وقتا لأن  
في ذلك صلاحها  
واعبر هذا سواء  
بحال الصبي فإنه إن  
جاوز حد الاعتدال  
من إعطاء المراد  
وقتا ومنعه وقتا  
اقتصاد طبعه لأن  
الجيل لا بد من قمعها  
بسياسة العلم ومادامت  
الجيل باقية لا بد من

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يخرج من الرسل ولا يتكلم يومئذ  
إلا الرسل حديث طويل (٢) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب  
وخطاطيف الحديث متفق عليه مع اختلاف ألفاظ .

ير كطرف العين ومنهم من ير كالبرق ومنهم من ير كالسحاب ومنهم من ير كانهض الكواكب ومنهم من ير كشدة الفرس ومنهم من ير كشدة الرجل حتى ير الذي أعطى نوره على إلهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيته فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتل (١) « وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن اللائكة يتجون للمؤمنين والؤمنات وإن جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتي وإنى لأقول يا رب سلم سلم فآل لون والزلات يومئذ كثير (٢) » فهذه أهوال الصراط وعظائم فطول فيه فكر فأنسأ الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كركة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السباع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته وأبعد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعنت بالله نموذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن فاذا رأى أنياب السبع ومولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فآني يفتي عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيد وأمره مخطر في نفسه فإن عجزت عن ذلك كله فكن بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومبتكرا بأدعيتهم فساك أن تال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

### ( صفة الشفاعة )

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى يفضله يقبل فيهم شفاعته الأنبياء والصديقين بل شفاعته العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعته في أهله وقرباته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبا ولايته في عباده فاعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ولا تستعصر معصية أصلا فإن الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فلعل ممت الله فيه ولا تستعقر أصلا طاعة فإن الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجرى وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النخعي عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة العلم وهذا باب غامض دخل في النهايات على المنتهى من ذلك ودخل ووقع الركون وانسد به باب الزيد فالمنتهى ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحظوظ في الأعمال لا بد له من أخذ وترك فارة يأتي بالأعمال كآحاد الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك فأتاه جبريل فسله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنزيبك في أمتك ولا نسوءك (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحل لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا ورايا مطهرا فأبى رجل من أمتي أدر كته الصلاة فليصل وأعطي الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غفر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع يدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة (٤) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه فأما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى فأقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاً كبرجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لغيرك أفتدعي أمتك من بقية (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر (٦) » وقال أبو هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه القراع وكانت تعجبه ففهم منها نهشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب مالا يطيعون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقما  
بالنفس وتارة يأخذ  
الحظوظ والشهوات رقما  
بالنفس وتارة يتركها  
افتقادا للنفس بحسن  
السياسة فيكون في  
ذلك كله مختارا فمن  
ساكن ترك الحظوظ  
بالكلية فهو زاهد  
تارك بالكلية ومن  
استرسل في أخذها  
فهو راغب بالكلية  
والنهي شمل الطرفين  
فانه على غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنزيبك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطي الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لسكني دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه فأما بين يدي ربي منتصبا الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بانكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بأدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر لللائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد صابك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسائه وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في اللهم اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فأطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبلي ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطوا اشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول آمين آمين يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذي نفسي بيده إن بين الصرايين من نصارى الجنة كباين مكة وحير أو كباين مكة وبصري (١) وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله في الكواكب هذا ربي وقوله لأهلهم بل فعله كبيرهم هذا وقوله إنني سقيم فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأحاديثه من العلماء والصالحين شفاعة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم قال للرجل قم يا فلان فاشفع في قوم الرجل فيشفع للقبيلة

(١) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه التذرع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر وروناه في جزء أبي عمر بن السكك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان للشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعداء يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا سواك قال سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط  
بين الأفرط والتفريط  
فمن ردت إليه  
الأقسام في النهاية  
فأخذها زاهدا في  
الزهد فهو تحت قهر  
الحال من ترك الاختيار  
وتارك الاختيار الواقف  
مع فعل الله تعالى مقيد  
بالحال وكما أن الزاهد  
مقيد بالترك تارك  
الاختيار فكذلك  
الزاهد في الزهد الآخذ  
من الدنيا ماسيق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيني شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني أشرقت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني ؟ قلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذي استسقيني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يؤسوا لواء الحمد يومئذ يدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا غفر (٣) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (٤) » وقال ابن عباس رضي الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم معهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجباً إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليماً ، وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا غفر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى قراء للمؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) »

(صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظم أبداً . قال أنس « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغناء فرفع رأسه متبسماً فقالوا له يا رسول الله لم ضحكك ؟ فقال آية آتت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعديته

(١) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمتي من يشفع للقبائل ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث وقال حسن واللباز من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيني شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب (٤) حديث فأكسي حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم معهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرؤيته فعل الله مقبداً  
بالأخذ وإذا استقرت  
النهاية لا يتقيد بالأخذ  
ولا بالترك بل يترك وقتاً  
واختياره من اختيار الله  
ويأخذ وقتاً واختياره  
من اختيار الله وهكذا  
صومه النافلة وصلاته  
النافلة يأتي بها وقتاً  
ويسمح للنفس وقتاً لأنه  
مختار صحيح في الاختيار  
في الحالين وهذا هو  
الصحيح ونهاية النهاية  
وكل حال يستقر



ربى عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آتيته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الأولو الجوف قلت ما هذا يا جبريل؟ قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضررب الملك يده فاذا طينه مسك أذفر (٢)» وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ماين لابقى حوضى مثل ماين للدينة وصنعاء أو مثل ماين للدينة وعمان (٣)» وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرايه أشدّ ياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من للسك يجرى على جنادل الأولو والمرجان (٤)» وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضى ماين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ ياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظما بعدها أبدا أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن هم يارسول الله؟ قال هم الشعث رهوسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون للتمعات ولافتح لهم أبواب السدد (٥)» فقال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت للتمعات فاطمة بنت عبد الملك وقتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمنى الله لأجرم لأدهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ وعن أبى ذر قال «قالت يارسول الله ما آتية الحوض؟ قال والذى نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكوابها في الليلة للظلمة للضحية من شرب منه لم يظما آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ماين عمان وأيلة ماؤه أشدّ ياضا من اللبن وأحلى من العسل (٦)» وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أنهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧)» فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومقترا وهو يظن أنه راج فان الراحي للخصاد من بث البندروقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الخصاد فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقال والله يارسول الله لم ضحكك فقال آية نزلت على آتفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الأولو الجوف الحديث الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ماين لابقى حوضى مثل ماين للدينة وصنعاء أو مثل ماين للدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب الحديث الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى في مسنده وهو أقرب إلى لفظ للصنف (٥) حديث ثوبان إن حوضى ماين عدن إلى عمان البلقاء الحديث الترمذى وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث أبى ذر قالت يارسول الله ما آتية الحوض قال والذى نفسى بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث سمرة إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أنهم أكثر واردة الحديث الترمذى وقال غريب قال وقدروى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ولم يذكر في سمرة وهو أصح

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل إننى عزمت أن لا آكل اللحم قال فإنى آكل اللحم وأجبه ولوسألت

فهذا مغتر ومتمنّ وليس من الراجين في شيء وهكذا رجاءاً كثر الخلق وهو غرور الحقى نعموذاً لله من العرور والغفلة فإن الاعتار بالله أعظم من الاعتار بالدنيا قال الله تعالى - فلا تعرنكم الحياة الدنيا ولا يعرنكم بالله العرور -

(القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالتها)

يا أيها الغافل عن نفسه للعرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا للشرقة على الاتضاء والزوال والدع التفرع فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحيراً - فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعاكست لئلا تنجاة منه وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا في دنياهم في كربها وأهوالها وقوا في انتظارهم حقيقة أنبأها وتشفيح شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجشت الأم على الركب حتى أشفق البراء من سوء القلب وخرج للنادي من الزبانية قائلاً : أين فلان ابن فلان للسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل للضيع عمره في سوء العمل فيأدرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظام التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينسكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم - فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة للسالك مبهمة للمهالك يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شراهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تهمهم والمهاوية تجمعهم أمانهم فيها الهلاك ومالم منها فكاك قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيرون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد فضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فأنا لا نعود نقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار المهوان فأخسثوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتهم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيامهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طامعهم نار وشراهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرايل القطران وضرب القامع وتقل السلاسل فهم يتجلبجون في مضائقها ويتحطمون في دركاتهما ويضطربون بين غواشيا تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والويل ومهما دعوا بالبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ماني بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحوءها ويتمعطن الأطراف شعورها بل جلودها وكلما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالمروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواداً من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكت أنسهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجذعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يحشون على النار بوجوههم ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات المهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

(القول في صفة جهنم)

رني أن يطعمني كل يوم لأطعمني وذلك يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عتاراً في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل وكان يترك الأكل اختاراً وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعاً وهذا إذا

جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله <sup>(١)</sup> » وقال علي كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أوجب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء للرائين <sup>(٢)</sup> » فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشعابها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شہوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا جبر أرسل في جهنم مندسبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها <sup>(٣)</sup> » ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالفریق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم متقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقلامهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بخلافها لا فتدى بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة يتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه <sup>(٤)</sup> » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان شد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيئات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضوها طائمين هربا منها في وعاء هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا <sup>(٥)</sup> » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة <sup>(٦)</sup> » وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها في قسین

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ثم إن انتهى بحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق فكل

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا مجملة وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة الحديث وفيه هذا جبر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من يتعل بنعلين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد وللبراز من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليه حتى أحسبه قال نضحت بالماء ففضى عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما يجدونه في الصيف من حرها وأشد ما يجدونه في الشتاء من زمهريرها (١) « وقال أنس بن مالك يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في المسجدة مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لما نوا وقد قال بعض العلماء في قوله - تلفح وجوههم النار - إنها لفحهم لفحة واحدة فما أبت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في متن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يفرقون فيه وهو الغساق ، قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ « لو أن دلوامن غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢) » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه اللوت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتقا . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى - ثم إنكم أيها الضالون الكاذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون عابه من الحميم فشاربون شرب الهيم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فأنهم لا يكون منها فمالتون منها البطون ثم إن لهم عليها الشوبان من حميم ثم إن مرجهم إلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية - وقال تعالى - إن الدنيا أنكالا وجهيا وطعاما ذا غصة وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبة لكم ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثة عليكم (٤) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يبغي من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كما كانوا يحيزون القصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون ولم تلك تأنيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وادعاء الكافرين إلا في ضلال قال فيقولون ادعوا مالكم فيدعون فيقولون يا مالك ليقتض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ما كنون (٥) » قال الأعمش أنبت أن

ما كان يعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلو إما أنه كان ليقتنى به وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك فان كان ليقتنى به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله

(١) حديث اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلوامن غساق ألقى في الدنيا لأنن أهل الأرض الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إلا إسنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذي من رواية سمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله.

بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخشوا فيها ولا تكلمون قال فعند ذلك يتسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال «يقرب إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروقه رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه - فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١)» فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة معومها وعظم أشخاصها وقظاظه منظرها وقد سلطت على أهلها وأغرقت بهم فهي لا تفر عن النش واللذغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا يحسبن الذين يخولون بما آتاهم الله من فضله الآية - (٢)» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللمعة فيجد حوتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبعال للوكفة يلسعن اللمعة فيجد حوتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم يمتل له (٣)» ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولبغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه (٥)» وقال عليه السلام «إن الكافر ليجر لسانه في سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس (٦)» ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غير لها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا . ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إلقيهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى مجهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧)» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرسل على أهل النار البكاء فيسكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة رستم من حديث جابر نحوه (٣) حديث إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللمعة الحديث أحمد من رواية ابن أبي ليعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد الحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الحارث عن ابن عمر وقال غريب وأبو الحارث لا يعرف (٧) حديث يؤتى مجهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء بل كان يحذ بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجيلة . قال الله تعالى خطابا له - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استعدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنبي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

والشقيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (١) «  
 قل محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يحجبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا  
 بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول  
 الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العليّ  
 الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحا - فيجيبهم الله تعالى - أولم تكونوا أقسمتم  
 من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا لنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - أولم  
 نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا عذابا للظالمين من نصير - ثم يقولون - ربنا غلبت  
 علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون - فيجيبهم الله تعالى - اخسئوا فيها  
 ولا تكلمون - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه :  
 قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة  
 ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم  
 «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا  
 موت ويا أهل النار خلود بلاموت (٢) » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليقى  
 كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي فقيل له لم تبكي؟ فقال أخشى  
 أن يطرحنى في النار ولا يالى فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غموها وأحزانها وحسها  
 وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت  
 لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشئ من دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك  
 إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدره منفضة فيقولون في أنفسهم  
 واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعبصان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت  
 قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان في الجنة هؤلاء  
 وقد فاتهم ما فاتهم وبلاوا بما بلاوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولا نعيم الجنة ولم يشاهدوا نعيم الجنة  
 لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ «يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى  
 الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا  
 أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الأولون والآخرون يمثلون فيقولون يا ربنا  
 لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرتينا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول الله  
 تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون  
 الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني وتركتهم للناس  
 ولم تتركوا لى فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتمكم من الثواب المقيم (٣) » قال أحمد بن حنبل إن أحدا  
 يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه  
 صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود إلهى لا صبر لى على حر شمسك فكيف صبرى

عن ذلك ثم في ذلك  
 سر غريب وذلك أن  
 رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم برابطة  
 جنسية النفس كان  
 يدعو الخلق إلى الحق  
 ولولا رابطة الجنسية  
 ما وصلوا إليه ولا  
 انصفوا به وبين نفسه  
 الطاهرة ونفوس  
 الأتباع رابطة التأليف  
 كما بين روحه وأرواحهم  
 رابطة التأليف ورباطة  
 التأليف أن النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من  
 رواية يزيد الرقائشي عن أنس والرقائشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش  
 أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث  
 يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها الحديث رواه  
 في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك .

على حر نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الأحوال واعلم أن الله تعالى خالق النار بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقل ؟ فان قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجى وما الذى سبق به القضاء في حقك فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلقه فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك الموائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة اللطخ على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقر كل من الدارين والله أعلم -

( القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها )

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغموها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى فاستراح الخوف من قبلك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستراح الرجاء بطول الفكر في النعيم للقيم للعود لأهل الجنان وسقى نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مخنوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالجر والعسل مخفوفة بالفلسان والولدان مزينة بالخور العين من الحيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان يحشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تحير فيه الأبصار مكملات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلا غنجات عطرآت آمنت من الحرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين يضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ للكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرفت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربه يتعاهدون فهم فيها اشتبهت أنفسهم خالدين لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب للنون آمنون فهم فيها يتمتعون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهار أراضيتها من فضة وحسابؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحب فيها من ماء النسر ين على كشبان الكافور ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسيل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقه وحرته لم يصنعه آدمى فيقصر في تسوية صنعه وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

( القول في صفة الجنة )

ألفت آثافاً كما أن  
الأرواح ألفت أولاً  
ولكل روح مع  
نفسه تأليف خاص  
والسكون والتأليف  
والامتزاج واقع بين  
الأرواح والنفس  
وكان رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يديم  
العمل لتصفية نفسه  
ونفوس الأتباع فما  
احتاج إليه نفسه من  
ذلك ناله وما فضل من  
ذلك وصل إلى نفوس

وملاحة أحداقه في أعجابه لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع عن نزل بنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها وبيتها يعيش دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثن كان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتغصص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور تمتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم ببناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ويتألون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تموتوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون -<sup>(١)</sup> ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء الله تعالى بيان واقراً من قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن واقراً سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولاً عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ولئن خاف مقام ربه جنتان - قال «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن<sup>(٢)</sup>» ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتقى زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم<sup>(٣)</sup>» وعن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرها لا يحفظه ثم قال - وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عيران تجريان فعمدوا إلى إحداها كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت مافي بطونهم من أذى وأبأس ثم عمدوا إلى الأخرى فطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تغير أشعارهم بعدها أبداً ولا تشعث رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطبقون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا فتقول أنت رأيته فيقول أنا رأيته وهو بأثرى فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل الأولو فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الامة وهكذا تنتهي مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادات والتوافل ولا يسترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج إلى صحة الجلوقة للتغير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق حتى تكون

- (١) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أتقى زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .



مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لآلم أن يذهب بصره ثم يطأطئ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة - ثم اتكأ فقال - الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد يحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تنقطعون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لافتح لأحد قبلك<sup>(١)</sup>» ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوت وظاهرها كذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لايسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمر الله بالمسابقة وللنافسة فيها قال تعالى - سابقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنص بسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخلافها فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما يتراءون الكوكب الغائر في الأفق من الشرق إلى المغرب لئن اضمحل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين<sup>(٢)</sup>» وقال أيضا «إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنعم<sup>(٣)</sup>» وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أحدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك بأبينا أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله لمن هذه الغرف قال لمن أشقى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطبق ذلك قال أمي تطبق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أورد عليه فقد أشقى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام<sup>(٤)</sup>» يعني اليهود والنصارى والمجوس . «ومثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال : قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زهر أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويعطى للؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع<sup>(٥)</sup>».

جلوته في حماية خلوته  
ومن يترأى له أنه  
أوقاته كلها خلوة وأنه  
لا يحجبه شيء وأن  
أوقاته بالله ولله ولا يرى  
نقصا لأن الله ما فطنه  
لحقيقة الزيد فهو  
صحيح في حاله غير أنه  
تحت قصور لأنه مانيه  
لسياسة الجلبة وما عرفه  
سر تملك الاختيار  
وما وقف من البيان  
على البيضاء النقية وقد  
نقلت عن الشايع كلمات

(١) حديث آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كاتراءون الكوكب الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كما يرون النجم الطالع رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يا رسول الله بأبينا أنت وأما قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث سئل عن قوله تعالى - ومساكن طيبة في جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجر في كتاب النصيحة

## ( صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها )

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها القناعة بالدنيا عوضاً عنها فقد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك» (١). «وسئل النبي ﷺ عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص» (٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا» (٣) «أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك» (٤) «ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها» (٥) وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها انقرءوا إن شئتم - وظل ممدود -» (٦) وقال أبو أمامة: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومساثلهم أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكاً فقال قد قال الله تعالى - في سدر مخضود - ينخذ الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تنفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر» (٧) وقال جرير بن عبد الله: «زلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للعلام انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأنتبه أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لأدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها والأولى أن يفكر إلى الله تعالى في أي كلمة يسمعها حتى يسمعها الله من ذلك الصواب . قل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت للفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوهم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرف ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتصل ورواه البرار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأله النبي ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أن أعرابي قال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صغره فقال يا جبريل لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين التخل والشجر قال أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها النمر .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله تعالى : **يُدْخِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر <sup>(١)</sup> » . وقال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم م تضحكون من جاهل سألت عالماً ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين <sup>(٢)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصفقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغيطون آنيهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم للمسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ( وفي رواية ) على كل زوجة سبعون حلة <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - **يُدْخِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ** - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تقي ما بين للشرق والغرب <sup>(٤)</sup> » وقال ﷺ « الحيلة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لإبراهيم الآخرون <sup>(٥)</sup> » ورواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيلة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : **وفرش مرفوعة** قال ما بين القراشين كما بين السماء والأرض <sup>(٦)</sup> »

( صفة طعام أهل الجنة )

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن من الفواكه والطيور والسمان واللبن والسلاوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - **كلوا رزقوا منها من ثمرة رزقا كانوا هذا الذي رزقوا من قبل وأتوا به متشابها** - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة : من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم تنسج نسج الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - **يُدْخِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ** - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تقي ما بين للشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد (٥) حديث : الحيلة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - **وفرش مرفوعة** - قال ما بين القراشين كما بين السماء والأرض الترمذي بلفظ : ارتفاعها لكما بين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

لا يبق تميز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يعني أن حظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ اللريد يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط ؟ فقال قهراء المهاجرين ، قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال زيادة كبد الحوت ، قال فما غداؤهم على أثرها ؟ قال ينحرحهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها . قال فما شربهم عليه ؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا . فقال صدقت (١) » وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقر لى بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع ، فقال اليهودى فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضم (٢) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا (٣) » وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة طيرا أمثال البخاتى . قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبابكر (٤) » وقال عبدالله بن عمر فى قوله تعالى - يطاف عليهم بصحاف - قال يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب كل صحيفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يعزج لأصحاب اليمين ويشربه القربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم لوأن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذرورح إلا وجد ريح طيبها .

#### (صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولوأن امرأة من نساء أهل الجنة طاعت إلى الأرض لأضاءت وملأت ما بينهما رائحة ولنصفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥) » يعنى الحمار وقال

(١) حديث ثوبان جاء جبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال قهراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم أأنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك النساءى فى الكبرى بإسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشبهه فيخرب بين يديك مشويا البزار بإسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيرا أمثال البخاتى الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وإنى أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبى بكر وقال حسن (٥) حديث غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس .

التميز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه . قيل ل محمد ابن الفضل حاجة العارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصة التى كملت بها المحاسن كلها ألاوهى الاستقامة وكل من كان أنتم معرفة كان آتم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التمسك والعباد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محبوب بها

أبو سعيد الخدرى «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لنضى مما بين الشرق والغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك» (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى اليبسخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن يا رسول الله فقلت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء للقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نطفن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - (٢) وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة - قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والخامة واللى والولد . وقال الأوزاعي - في شغلها كمن - قال شغلهم اقضاض الأبقار . وقال رجل يا رسول الله «أياض أهل الجنة ؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» (٣) وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر ومائة ألف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا» (٤) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له» (٥) وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الأحوال وفي  
التوسط محفوظ  
بالأحوال فقد يحجب  
عن الأعمال وفي الانتهاء  
لا تحجب الأعمال عن  
الأحوال ولا الأحوال  
عن الأعمال وذلك هو  
الفضل العظيم . سئل  
الجنيد عن النهاية فقال  
هي الرجوع إلى البداية  
وقد فسر بعضهم قول  
الجنيد فقال معناه أنه  
كان في ابتداء أمره في  
جهل ثم وصل إلى

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرفعة ثقي من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسل دون ذكر أبي سعيد والترمذى من حديث ابن مسعود إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى يابض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٢) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء للقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط لم أجده هكذا بتمامه والترمذى من حديث علي إن في الجنة لمجتمع الحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمعن في كل سبعة أيام يقلن بأصوات الحديث (٣) حديث قال رجل يا رسول الله أياض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم الترمذى وصححه وابن جبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قليل أو يطبق ذلك قال يعطى قوة مائة (٤) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر ومائة ألف ثيب يعانق كل واحد منهن مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقته لهن وإسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث (٥) حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعصه قبل هذا بمحدثين .

« إن الحور في الجنة يتغنين نحن الحور الحسن خبثنا لأزواج كرام <sup>(١)</sup> » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يحبرون - قال السماع في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه <sup>(٢)</sup> » .  
( بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار )

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية هبة سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه <sup>(٣)</sup> » « وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فأنها تعجني ؟ قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من باقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الابل تعجني فهل في الجنة من ابل ؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما شئت نفسك ولدت عيناك <sup>(٤)</sup> » وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كإبشهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة <sup>(٥)</sup> » وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا <sup>(٦)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع <sup>(٧)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للعرفة ثم رد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - . وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون للنتهى

(١) حديث أنس إن الحور في الجنة يتغنين فيقن نحن الحور الحسن خبثنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للنسكدي قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه الطبراني باسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد ألاهل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال هل في الجنة خيل فأنها تعجني الحديث الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودى يختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ للصف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى للدينى عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له بحجة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كإبشهي ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث لأبي رزين يلد ويلم مثل لدا تكلم في الدنيا ويتلذذون بكم غير أن لا توالد (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لا تعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا بهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله يض جماد دون قوله على خلق آدم إلى آخره

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كابين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها تكلف البعير المقتب وإذا طيرها كالبيحت وإذا فيها جارية تقلت يا جارية لمن أنت ؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)» وقال كعب : خبى الله تعالى آدم عليه السلام يده وكتب التوراة يده وغرس الجنة يده ثم قال لها تسكمني فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلناها تفصيلا ، وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرءوس وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كل جرد مرد قد أذنوا العذاب واطمأننت بهم الدار وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وتمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإبلًا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإعماها وجشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر العدو على الرواح والرواح على العدو وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدله في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يعدي عليهم سبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله ولا يحدطم آخره كما يحدطم أوله وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب ، وقل مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالعادة والعشى . وقال سعيد بن السيب : ليس أحدم من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العينا إذا مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا ماهر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس في أعجبا لمن يختار الذلة في طاب ما بيني وبينك العز في طاب ما بيني وبينك .

( صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى )

قال الله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعاً من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لا تعرفه إلا من حديث رشدين سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجمل البعير المقتب وإذا طيرها كالبيحت الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هريرة العبدى عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الراد للأخوذ في طريق  
المحبوبين تجذب  
روحه إلى الحضرة  
الالهية وتستبج  
القلب والقلب يستبج  
النفوس والنفوس تستبج  
القلب فيكون بكنيته  
قائما بالله ساجدا  
بين يدي الله تعالى  
كما قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« سجد لك سوادى  
وخياي » وقال الله تعالى  
- والله يسجد من في

الكبرى التى ينسب فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة وقد شرفنا له الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صهيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ؟ ألم يتقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخبرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقدرى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسب وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه العبد من الجنة بشئ سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البهيمة للسرحة فى الرعى .

( نَحْمُ الْكِتَابَ بِبَابِ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ التَّفَاوُلِ بِذَلِكَ )

« قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله ﷺ فى التفاؤل ونرجو أن نحتم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى - إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدها به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ونستغفره من كل تصريح وتبريى ببقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتابنا ببطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (٢) حديث صهيب فى قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره المصنف .

( باب فى سعة الرحمة )

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل متفق عليه من حديث أنس فى أثناء حديث : ويعبى الفأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة : وخيرها الفأل قالوا وما الفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم .

السماوات والأرض  
طوعا وكرها وظلالهم  
بالغدو والآصال -  
والظلال القواب تسجد  
يسجدوا لأرواح وعند  
ذلك تسرى روح المحبة  
فى جميع أجزائهم  
وأباضهم فيتلذذون  
ويتنعمون بذكر  
الله تعالى وتلاوة  
كلامه محبة وودا  
فيحبهم الله تعالى



فإن السكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والحوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسع وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وزوى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بأخراجهم من النار في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبدته المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

ويحبهم إلى خلقه  
نعمة منه عليهم فضلا  
على ما أخبرنا شيخنا  
ضياء الدين أبو النجيب  
السهروردي رحمه الله  
قال أنا أبو طالب  
الزيني قال أخبرتنا  
كريمة المزوزية  
قالت أنا أبو الهيثم  
الكشميهني قال أنا  
عبد الله القزويني قال  
أنا أبو عبد الله البخاري

(١) حديث إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا قداؤك من النار ولأبي داود أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جدهان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبراني من حديث أنس باسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم الحديث أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذا أنتم معنا في النار الحديث في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح (٨) حديث الله أرحم بعبدته المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته بطنها فأرضعته .

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك فارون فلم تقمته وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغنته وغفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد وبأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلامه حتى يقتحمهما ويتلصقا الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد خذرت من وبال العصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلتكأ حسن ظني بك كان يشعري أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة رحمى (١) » ويروى أن أغزانيا ميمع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفاعرة من النار فأنتدكم منها - فقال الأعرابي والله ما أنتدكم منها وهو يريد أن يوقصكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير ققيه وقال الصنابحي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكت فقال مهلا لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحبط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار (٢) » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ « إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتتكر من هذا شيئا أظلمت لك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تنظم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال قطاشت السجلات وتقلت البطاقة فلا يتقل مع اسم الله شيء (٣) » وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجر أعظما -

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمى ربي في سبعينيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البخى قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب .

قال حديثي إسحق قال  
حديثا عبد للصمد  
قال حدثنا عبد الرحمن  
ابن عبد الله بن دينار  
عن أبيه عن أبي  
سالم عن أبي هريرة  
رضي الله عنه قال  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « إن الله

قال فيقول الله تعالى شفعت للملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حملا فيلقبهم في نهر في أقواء الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما يخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون ممالي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوا ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فمأرايتهم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا <sup>(١)</sup> رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقت بها عكاشة <sup>(٢)</sup> وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتسبت عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم وإني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام للزبد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ أمتي هذا قال أكل لك العدد من الأعراب <sup>(٣)</sup> وقال أبوذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت يا جبريل

تعالى إذا أحب عبدا  
نادى جبريل إن الله  
تعالى قد أحب فلانا  
فأجبه فيجبه جبريل  
ثم ينادى جبريل  
في السماء إن الله قد  
أحب فلانا فأجبه  
فيجبه أهل السماء  
ويوضع له القبول في

(١) حديث إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبي مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر الصنف من حديث أبي سعيد <sup>(٢)</sup> حديث ابن عباس عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبقت بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فلا استزدته فقال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعية وحي عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف .

الأرض وبالله العون  
والعصمة والتوفيق ،  
تم بحمد الله للعبد  
للبدى كتاب عوارف .  
للعارف للإمام  
السهروردي والمجدد  
رب العالمين وصلى الله  
على سيدنا محمد وعلى  
آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهذه .

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي إنني أكلت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١  
وأكلت تبليض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى .

## فهرس

١١٥	الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك	٢	( كتاب التوبة )
١١٦	الطرف السادس في إصلاح الأطعمة	٣	الركن الأول في نفس التوبة الخ
١١٧	الطرف السابع في إصلاح المصلعين	٤	بيان حقيقة التوبة وحدها
١١٨	الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	٥	بيان أن وجوب التوبة وفضلها
١٢٠	بيان السبب الصارف لخلق عن الشكر	٧	بيان أن وجوب التوبة على الفور
١٢٤	الركن الثالث من كتاب الصبر	٩	بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة
١٣١	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد	١٢	بيان أن التوبة إذا استجبت شرائطها فهي مقبولة لا عالة
١٣٢	بيان فضل النعمة على البلاء	١٥	الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب
١٣٢	بيان الأفضل من الصبر والشكر	٢٢	بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات الصبر
١٣٨	( كتاب الخوف والرجاء )	٢٢	بيان كيفية توزيع الدرجات والدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
١٣٩	ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء الخ	٣٢	بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب
١٤١	بيان حقيقة الرجاء	٣٤	الركن الثالث في تمام التوبة الخ
١٤١	بيان فضيلة الرجاء والترقيب فيه	٤٣	بيان أقسام العباد في دوام التوبة
١٤٢	بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب	٤٦	بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب الخ
١٥٢	الشرط الثاني من الكتاب في الخوف	٤٩	الركن الرابع في دواء التوبة الخ
١٥٤	بيان حقيقة الخوف	٥٩	( كتاب الصبر والشكر )
١٥٤	بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف	٦٠	الشرط الأول في الصبر
١٥٥	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه	٦١	بيان فضيلة الصبر
١٥٧	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه	٦١	بيان حقيقة الصبر ومعناه
١٦١	بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما	٦٥	بيان كون الصبر نصف الإيمان
١٦٤	بيان الذي به يستجلب حال الخوف	٦٦	بيان الأسامي التي تتجدد للصبر الخ
١٧٠	بيان معنى سوء الخاتمة	٦٦	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
١٧٧	بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف	٦٧	بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
١٨٠	بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف	٧٣	بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
١٨٥	( كتاب الفقر والزهد )	٧٨	الشرط الثاني من الكتاب في الشكر
١٨٦	الشرط الأول من الكتاب في الفقر	٧٨	الركن الأول في نفس الشكر
١٨٩	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأسبابه	٧٩	بيان فضيلة الشكر
١٩٥	بيان فضيلة الفقر مطلقاً	٧٩	بيان حد الشكر وحقيقته
١٩٥	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراسخين والقانين والصادقين	٨٣	بيان طريق كشف النطاء عن الشكر في حق الله تعالى
١٩٦	بيان فضيلة الفقر على النفي	٨٧	بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
٢٠١	بيان آداب الفقير في فقره	٩٦	الركن الثاني من أركان الشكر الخ
٢٠٢	بيان آداب الفقير في قبول العطاء الخ	٩٦	بيان حقيقة النعمة وأقسامها
٢٠٥	بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه	١٠٦	بيان وجه التعمود في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر
٢٠٩	بيان مقدار النفي المحرم للسؤال	١٠٧	الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
		١٠٨	الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات
		١٠٩	الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة
		١١٣	الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي تحصل فيها الأطعمة الخ

صفحة	صفحة
٣٤٤	٢١٠ بيان أحوال السائلين
٣٤٥	٢١١ الشطر الثاني من الكتاب في الزهد
٣٤٩	بيان حقيقة الزهد
٣٥٠	٢١٤ بيان فضيلة الزهد
٣٥١	٢٢٠ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
٣٥٣	٢٢٤ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
٣٥٥	٢٣٦ بيان علامات الزهد
٣٥٧	٢٣٨ ( كتاب التوحيد والتوكل )
٣٦٢	بيان فضيلة التوكل
٣٦٤	٢٤٠ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب
٣٦٧	٢٥٣ الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل الخ
٣٦٩	٢٥٧ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل
٣٧٠	٢٥٨ بيان أعمال التوكلين
٣٧٢	٢٦٥ بيان توكل العبد
٣٧٤	٢٦٨ بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأهواء بضرب مثال
٣٧٥	٢٧٤ بيان آداب للتوكلين إذا سرق متاعهم
٣٨١	٢٧٩ بيان أن ترك التداوى قد يحمي في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ
٣٨٤	٢٨٣ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال
٣٨٥	٢٨٥ بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكتابه
٣٨٨	٢٨٦ ( كتاب المحبة والشرق والأنس والرضا )
٣٩١	بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى
٣٩٢	٢٨٨ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
٣٩٣	٢٩٣ بيان أن الاستحقاق للمحبة هو الله وحده
٣٩٥	٢٩٩ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى الخ
٤٠٣	٣٠٣ بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا
٤٠٩	٣٠٧ بيان الأسباب القوية لمحبة الله تعالى
٤١٠	٣١١ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
٤١٢	٣١٢ بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
٤١٣	٣١٤ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
٤٢٠	٣١٨ بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها
٤٢٣	٣٢٠ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
٤٣٣	٣٢٩ بيان معنى الأنس بالله تعالى
٤٣٤	٣٣١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي يشبه غلبة الأنس
٤٣٦	٣٣٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
٤٣٧	٣٣٤ بيان فضيلة الرضا
	٣٣٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
	٣٤١ بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

صفحة	نحة
٤٨٦	فصلة قصر الأمل
بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر	٤٤ بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
وبقية القول في عذاب القبر	٤٤ بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
٤٨٨ الباب الثامن في معرفة أحوال الموتي بالكاشفة في المنام	٤٤ بيان للمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٩٠ بيان منامات تكشف عن أحوال الموتي والأعمال	٤٤ الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب
النافعة في الآخرة	من الأحوال عنده
٤٩١ بيان منامات المتأخرين رحمة الله عليهم أجمعين	٤٥ بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٩٤ الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال البيت	٤٥ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يرب
من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة	لسان الحال عنها
أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأحوال والأخطار	٤٥ الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وفيه بيان نفخة الصور الح . صفة نفخة الصور	والخلفاء الراشدين من بعده
٤٩٦ صفة أرض المحشر وأهله	وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٩٧ صفة الرق	٤٦ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
٤٩٨ صفة طول يوم القيامة	٤٦ وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٤٩٩ صفة يوم القيامة ودوامه وأساميه	٤٦ وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٥٠١ صفة المساواة	٤٦ وفاة علي كرم الله وجهه
٥٠٣ صفة الميزان	الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلق
٥٠٤ صفة الخصماء ورد الظالم	والأمرء والصالحين
٥٠٧ صفة الصراط	٤٦ بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من
٥٠٩ صفة الشفاعة	الصحاب والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف
٥١٢ صفة الخوض	رضي الله عنهم أجمعين
٥١٤ القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها	٤٦ الباب السادس في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر
٥١٩ القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها	وحكم زيارة القبور
٥٢٢ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها	٤٦٠ بيان حال القبر وأقوالهم عند القبور
٥٢٣ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم	٤٧١ بيان أقوالهم عند موت الولد
وأرائكهم وخيامهم	بيان زيارة القبور والدعاء للميت الخ
صفة طعام أهل الجنة	٤٧١ الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه
٥٣٤ صفة الحور العين والولدان	الميت في القبر إلى نفخة الصور
٥٢٦ بيان جبل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردة	بيان حقيقة الموت
بها الأخبار	٤٨١ بيان كلام القبر للميت وكلام الموتي لما بلسان المقال
٥٢٧ صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .	أو بلسان الحال
نظم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل	٤٨٢ بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير
التفاضل بذلك	
٥٢٨ باب في سعة رحمة الله تعالى	

## فهرس

### بقية عوارف للمعارف للسهروردي الذي بالمهامش

صفحة	صفحة
٢٥٢ الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتخصيص وتميزها	٢ الباب التاسع والأربعون في استقبال التهار والأدب فيه والعمل
٢٨١ الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والتأني والفرق بينهما	٣٧ الباب الخمسون في ذكر العمل في جميع التهار وتوزيع الأوقات
٢٩٨ الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز	٧٨ الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ
٣٣٥ الباب الستون في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب	١١٧ الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة
٣٨٣ الباب الحادي والستون في ذكر الأحوال وشرحها	١٣٨ الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والشر
٤٤٩ الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية	١٦٥ الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصعبة والأخوة في الله تعالى
٤٧٥ الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها	١٨٠ الباب الخامس والخمسون في آداب الصعبة والأخوة
	١٩٧ الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب [ إحياء علوم الدين ] لحجة الإسلام الإمام الغزالي ، ومعه كتاب [ المغني عن تحمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ] لحافظ الإسلام زين الدين العراقي .

وبهامشه ثلاثة كتب :

- الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر العيدروس باعلوى .
- الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الغزالي .
- الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .











